
قطاع الثقافة
إحسان عبد القدوس
لا شيء يهم
Bibliotheca Alexandrina
0201928
إحسان عبد القدوس

إحسان عبد القدوس

لا شيء يهم



إننــا لا نــســير فى الحــيـاة
ولكننــا نحملهــا ونســير بهــا

إحســان

١

وقفت سناء على رصيف مدرسة «الأمريكان كولدج» بشارع رمسيس.. مرتدية زى المدرسة. ذا اللون البني. وفى يدها حقيبة.. وفى عينيها تردد، ينقلب أحيانا إلى نظرة خوف. وتتلفت لفتات سريعة، وضفيرتها القصيرة تتلفت معها فوق ظهرها.. ثم تعود تنظر إلى باب المدرسة ترقب.

والساعة الرابعة إلا خمس دقائق.

بعد خمس دقائق سيدق جرس المدرسة، وتخرج الطالبات.

وعادت سناء تتلفت حولها، وضفيرتها تتلفت معها.. ثم أخذت تنظر إلى صف السيارات الطويل الواقف فى انتظار الطالبات، وتحقق فى وجه كل سائق تلتقطه عيناها.. ثم نظرت إلى ثوبها المدرسى، وأخذت تساوى فيه بيديها، وتفك أزرار سترتها وتعود وتضمها.. إن الثوب يبدو قديما «كرمشا»، وشارة المدرسة المرسومة على صدره تبدو كالحة.

وشدت سناء ظهرها كأنها تتأهب للحظة الحاسمة.. ثم رفعت حقيبتها وركزتها فوق جانب خصرها، وأنامتها فوق ذراعها.. ثم عادت تنظر إلى باب المدرسة.

ودق الجرس.

ورفعت سناء رأسها فى حركة مباغتة.. ولمعت عيناها بنشاط دافق، وطافت فوق شفتيها ابتسامة خافتة ما لبثت أن ابتلعتها، وعادت مسحة الخوف والتردد تكسو وجهها.

وفتح باب المدرسة.

وخرجت الطالبات مسرعات متزاحمات كقطيع من الغزلان، وأصواتهن تختلط بضحكاتهن كأنهن خارجات إلى حفلة زفاف.

وبسرعة اندست سناء بين الطالبات.. وسارت بينهن في خطى بطيئة، ورأسها منكس، وجفونها مرخية فوق عينيها، وحمرة خفيفة تكسو وجنتيها.

ونظرت إليها إحدى الطالبات كأنها تحاول أن تتعرف عليها.. ثم انصرفت عنها كأنها لا تعرفها، ولا تريد أن تعرفها.

وبقية الطالبات ينظرن إليها نظرات سريعة، ثم يسرعن بعيدا عنها، وهن يتهامسن.

وسناء لا تزال تخطو خطواتها البطيئة، ولا تحاول أن تتلفت إلى الطالبات من حولها.

وفى هذه اللحظة عبر الشارع من الرصيف المقابل، شاب طويل القامة.. ساقاه طويلتان، وخطواته واسعة.. ووجهه وسيم مبتسم.. رغم أمارات الخطورة التى تبدو عليه.. وشعره يفرقه على جانب من رأسه، وتتدلى منه خصلة على جبينه. يحاول أن يزيحها بيده فى كل خطوة، فتعود وتسقط فى الخطوة التالية.. وهو مرتد بدلة كاملة زرقاء، وصديرى من القطيفة الحمراء ذا أزرار صفراء، ورباط عنق عريضا، وحذاؤه أسود يلمع كأنه قضى يومه كله فى تلميعه.

واجتاز الشارع.

ووقف على بعد بضعة أمتار من باب المدرسة.. وكل عينيه مركزتان فوق سناء.. وهى تقترب منه فى خطواتها البطيئة.. وعندما وصلت إليه رفعت عينيها، وابتسمت ابتسامة خفيفة.. ثم أسرعت فى خطواتها.

ولحق بها.. سار بجانبها.

وقالت سناء فى صوت مبحوح وهى لا تنظر إليه :

– ما تمشيش جنبى يا محمد.. الدنيا كلها شايفانا.

وتلفت محمد من حوله لفتة سريعة كأنه انتبه إلى أن هناك دنيا.. ثم قال وهو يطل عليها من فوق ساقيه الطويلتين :

– ماحدش حايعرف.. حيفتكرونى أخوكى ولا ابن عمك.. بس

انتى ماتجريش كدة.. امشى على مهلك.. امشى طبيعى.
قالت سناء وقد اشتد ارتباكها :
– لأ يا محمد.. امشى قدامى علشان خاطرى.. وحياتى عندك.
ودون أن يرد عليها، فتح محمد خطاه وسبقها.. ورفعت سناء رأسها وركزت عينيها فوق ظهره، وتبعته.. واضطرت أن تسرع فى خطاها لتلحق بخطواته الواسعة.. ثم فجأة عادت تتلفت حواليها، كأنها تذكرت شيئا.. والتردد والخوف يملآن عينيها.
وانحرف محمد فى شارع «مصر والسودان».
وتبعته سناء.
ثم اتجه إلى سيارة أجرة واقفة عند أول الشارع، وفتح بابها، والتفت خلفه يبحث عن سناء، ويبتسم لها ابتسامة صغيرة كأنه يشجعها.
وقفزت سناء إلى داخل السيارة، وهى تلهث.. وصدرها يتهدج.. ودخل وراءها محمد، وهو يصيح فى السائق وفى صوته رنة مرحة أشبه برنين صوت طفل :
– المطرية يا أسطى.
وانطلقت السيارة بهما.
ورفعت سناء حقيبتها ووضعتها بجانب وجهها ناحية نافذة السيارة، تحاول أن تخفى نفسها.. وقالت وهى لا تزال تلهث :
– أنا خايفة يا محمد.. خايفة.
وقال محمد وهو يبتسم فى ثقة :
– طول ما احنا مع بعض، عمرنا ما نخاف.. أنا عمرى ماخفت إلا عليكى.. وإنتى عمرك ما خفتى إلا علىّ.. كنا خايفين يفرقوا بيننا.. ودلوقت مش حانخاف لأن ماحدش حايقدر يفرق بيننا.
وقالت سناء وهى ترفع إليه عينيها الواسعتين، ملؤهما خوف وتوسل :
– بلاش يا محمد.. خلينى أرجع البيت أحسن.. قبل ما يبتدوا يدوروا علىّ.
ومد محمد يده والتقط يدها وضغط عليها قائلا :

– خلاص يا سناء.. ما بقاش لك بيت إلا بيتنا احنا الاتنين. وما حدش حايدور عليكي إلا أنا.

وابتسمت سناء ابتسامة مسكينة.. وطبقة من الدموع تكسو عينيها.. وضغطت على يد محمد كأنها تحتمي بها.. تحتمي بها من الخوف، ومن التردد، ومن ناس يطاردونها، ومن المستقبل المجهول.

وأدارت رأسها عنه، وأخذت تنظر إلى الطريق من خلف الحقيبة التي ترفعها بجانب وجهها.

ومحمد ينظر إلى الطريق من النافذة الأخرى.

وكلاهما صامت.

كلاهما يجرى وراء خفقات قلبه نحو المجهول.

وفجأة ألقت سناء نفسها فوق مقعد السيارة، وأخفت وجهها فوق ساقي محمد، وجذبت حقيبتها معها ووضعتها فوق رأسها.

وقال محمد في فزع :

– ايه.. مالك ؟

وقالت سناء وهي تكاد تبكي :

– اتهيأ لي إني شفت حسين ابن خالتي.

وأطل محمد من نافذة السيارة، ثم عاد بعينيه إليها، وقال وهو يبتسم ويمسح على ضفيرتها بيده :

– يا ستي ماتبقيش مجنونة.. حتى لو كان حسين ماشي في الشارع، مش حايلحق يشوفك.. و..!

وقاطعته سناء ورأسها لا يزال مختبئا في ساقيه :

– أنا خايفة.. خايفة.. يا ترى ماما حاتعمل ايه.. وبابا.

وقال محمد وهو لا يزال يداعب ضفيرتها بأصابعه، كأنه يسبح عليها تسبيحة الحب :

– أنا اتفقت مع توفيق يضرب لهم تليفون الساعة ستة، ويطمنهم عليكي، من غير ما يقول احنا فين.

ولصقت سناء شفتيها في ساق محمد تقبلها، ثم تنهدت قائلة :

– ربنا يستر.

وقال محمد :
– ربنا مع كل اثنين بيحبوا بعض.. ويهربوا مع بعض.
وسكتت سناء كأنها نامت فوق ساقيه.. سكتت طويلا.. ومحمد يسبح بضفيرتها، وينظر إليها حينا.. ويطل من نافذة السيارة حينا.. ويكتسى وجهه حينا بأمارات الإحساس بالخطورة.
خطورة الخطوة التى يقدم عليها.. ثم يبدو كأنه تعب من هذا الإحساس، فيريح وجهه، وينظر إلى سناء ويبتسم ابتسامة كبيرة.
ورفعت سناء رأسها من فوق ساقيه، وقالت كأنها تحلم.
– احنا فين دلوقت ؟
وقال محمد وهو يبتسم :
– احنا فى شارع المطرية.
واعتدلت سناء فى جلستها، ونظرت حولها من نافذتى السيارة.. على اليمين سور قصر القبة.. وعلى اليسار حقول البرسيم والقمح، ومداخن المصانع.
وأخذت تساوى ثوبها، وتساوى من خصلات شعرها، ثم التفتت إليه وقالت وابتسامة خجولة تضىء خديها باللون الأحمر.
– أنا ما قدرتش أجيب هدوم خالص.. كل اللى قدرت آخده الخاتم السولتير بتاعى، والأسورة الفيروز اللى بتحبها، والمصحف.
ومد ذراعه وجذبها إلى صدره، وقال وهو يسند رأسها على كتفه ويضحك ضحكة خافتة :
– تعرفى أنا من يوم ماحبيتك وأنا نفسى فى إيه ؟
وقالت سناء فى خفر :
– فى إيه ؟
قال :
– نفسى أشوفك وإنتى لابسة البيجامة بتاعتى.. دى جاكتة البيجامة لوحدها تغطيكى من فوقك لتحتك.
وضحك محمد وهو يضمها بعينيه.. وضحكته حلوة رائعة ينطلق فيها هذا الرنين العجيب الذى يتميز به.. رنين صوت الأطفال.

ومالت سناء عليه وقبلته فوق خده قبلة سريعة، ثم أراحت رأسها فوق كتفه وتنهدت تنهيدة عميقة.

وطال بينهما الصمت، كأن كلا منهما يسير بخياله فى طريق مفروش بالورد.

ورأسها على كتفه.

وهو جالس ينظر أمامه.. ظهره مشدود، رأسه مرفوع، كأنه جالس على عرش.. كل خلجة من وجهه الوسيم تنطق بالأرستقراطية.. أرستقراطية مغالى فيها.. وابتسامته الحلوة مرسومة فوق شفتيه فى دقة وحساب، لا تتسع ولا تضيق. وخصلة شعر ملقاة فوق جبينه.

وفجأة مال إلى الأمام فى حركة رشيقة، ونقر على كتف السائق بأصابعه الطويلة الرفيعة التى تنطق برقة إحساسه.. وقال :

– عندك يا أسطى.

ووقفت السيارة.

ونظرت إليه سناء نظرة جزع، كأنها تسأله : إلى أين؟

وابتسم لها محمد كأنه يطمئنها ويدعوها إلى الثقة به.. ثم نزل من السيارة ومد يده ليعاونها على النزول.. وخطفت حقيبتها وقفزت واقفة بجانبه.

ونظر محمد إلى عداد السيارة.

واختلست سناء نظرة سريعة إلى الرقم الذى سجله العداد..

مد يده فى جيب بنطلونه، وأخرج ورقة من ذات

ناولها للسائق، وقال فى لهجة متعالية وصوته

صوت الأطفال :

باقى لك.

وجه سناء، ولكنها نفضت عبوسها بسرعة قبل أن يراه محمد، وعادت تضع ابتسامتها الخجولة فوق شفتيها، وترخى جفنيها فوق عينيها.

وصاح السائق :

- متشكرين يا سعادة البيه.

ثم انطلق بسيارته.

والتفت محمد ناحية الحقول.. واقفا منتصبا بقامته الطويلة. والهواء يطير خصلة شعره من فوق جبينه.. ثم مد ذراعه وأحاط به خصر سناء، وأشار بيده الأخرى إلى بيت صغير من طابق واحد، ملقى فى إهمال بين الحقول، وقال وابتسامة كبيرة تملأ وجهه :

- بيتنا.

وأضاءت عينا سناء بشعاع من الفرحة.. فرحة كبيرة انطلق على وجهها كله.. وقالت وهى تتنهد :

- ربنا يخلى بيتنا.

وجذبها محمد إليه، وضمها إلى صدره، وقال وصوته يتدفق بدقات قلبه :

- ربنا يخلينا لبعض.

ثم أحنى قامته الطويلة ليصل بشفتيه إلى شفتيها.. وأغمضت سناء عينيها فى انتظار شفتيه.

وسقطت حقيبتها من يدها.

وقبلتهما لا تنتهى.

ورفع محمد قامته، فتعلقت سناء بعنقه وارتفعت معه.. لاصقة بصدره.. شفتاها لاصقتان بشفتيه.. وقدماها فى الهواء.. وحقيبتها ملقاة على الأرض.

ونزع محمد شفتيه من بين شفتيها كأنه يوقظها من النوم، ثم وضع قدميها على الأرض برفق.. ووقف ينظر إليها برهة وعيناه كلهما حب.. ثم ضحك ضحكة مرحة.. وجذبها من يدها.. وهم أن ينزل بها إلى الحقل.. فصرخت سناء :

- شنطتى.

وتركها محمد لتلتقط حقيبتها من على الأرض، ثم جذبها إلى الحقل.. وأخذ يجرى بها.. وهى تجرى خلفه.. وضفيرتها تجرى خلفها.. وضحكاتهما تزغرد من حولهما.. و أعواد البرسيم والفول الأخضر ترقص لهما.

وصاحت سناء وهى تضحك :

- كفاية يا محمد.. خلاص.. مش قادرة.. قلبى حايقف.

وصاح محمد وهو يجرى بساقيه الطويلتين :

- كفاية عليكى قلبى.

ووصلا إلى البيت.

ودفعت سناء الباب.. كأنها تعلم أن الباب يوصد دائما بلا مفتاح.. ودخلت إلى صالة أرضها من بلاط معظمه مكسر، وفى وسطها مائدة حولها مقعدان من الخيزران، وفى جانب منها مقعد من القش ذو مسندين.. وفى الجانب الآخر دولاب قديم له واجهة زجاجية تحطم جزء منها فغطيت بقطعة من ورق الكرتون انتزعت من صندوق قديم.

ثم مائدة عالية رفيعة عليها تمثال من الخزف الملون للاله بوذا، يبتسم ابتسامة غامضة.

وألقت سناء نفسها على مقعد القش وهى تلهث، وتضع يدها على قلبها.

ودخل محمد خلفها وقفز جالسا فوق المائدة، وساقاه الطويلتان تكادان تصلان بقدميه إلى الأرض.. وهو يلهث أيضا.. وابتسامته بين شفتيه.

وهدأ لهاثهما.

ونظر كل منهما إلى الآخر، ثم انطلقا يضحكان.. ضحكات مرحة عالية، كأنهما يتسلقانها ليصلا إلى السماء.

واستراحت سناء فى مقعدها وهى تضحك.. ثم بلا تعمد منها، رفعت قدمها، ومدت يدها إلى حذائها لتخلعه.

وفجأة كف محمد عن الضحك.

ونظر إليها فى غضب.

غضب طفل مدلل.

ولمحت سناء نظراته، فأنزلت قدمها على الأرض بسرعة دون أن تخلع الحذاء.. وقطعت ضحكتها.. واعتدلت فى جلستها.. وعادت نظرة التردد والخوف تملأ عينيها، وتنظر بها إلى محمد، كأنها

مترددة فيـه ، خائفـة منـه.

وزايل محـمد غضـبه بسرعة، وأخـذ ينظر إلى سناء فى حنان.. وقوى الحنان فى عينيه حتى أصبح رغبة.. رغبة عنيفة.

والتقطت سناء حـقيبتـها ووضعتهـا فوق صدرها كأنهـا تحمى نفسها منه.. ومن الرغبة التى تملأ عينيه.

وقفز محمد واقفا، وقال وصوته ينطلق برنة الطفولة :

- دلوقت نبتدى الحفلة.

وقالت سناء فى سذاجة :

- حفلة إيه يا محمد ؟

وقال محمد وهو يتجه ناحية الدولاب :

- حفلتنا.

ثم فـتح الدولاب وأخرج منه زجـاجة ويسكى وكـأسين. وعـاد بهما وسناء تنظر إليه كأنها تتأهب للدفاع عن نفسها.

وملأ محمد الكأسين، واحتفظ بكأس فى يده، وتقدم بالآخر إليها.

وانكمشت سناء فى مقعدها، وقالت وصوتها يرتعش :

- لأ يا محمد.. إنت عارف إنى ما باشربش.

وقال محـمـد وهو يجلس على احدى ركبتيـه فوق البلاط ليكون وجهه قريبا من وجهها :

- النهاردة لازم تشربى.. احـنا بنحتفل بحبنا.. بانتـصار حبنا.. انتصارنا على أهلك وأهلى.. وعلى الناس كلها.

ورفعت إليه سناء عينيها الملونتين وقالت كأنها تسأل ربها:

- مافيش طريقة تانية نحتفل بيها ؟

وقال محمد وهو يضع الكأس فى يدها :

- عشان خاطرى.. وحياتى.

وأمسكت سناء الكأس بيـد مرتعشة.. ورفع محمد كأسـه وقال وهو ينظر فى عينيها :

- فى صحة حبنا.. حب على طول.. حب يملأ السما والأرض.

ورفعت سناء كـأسها.. وقـبل أن تصل به إلى شفـتيهـا.. صاح محمد :

- استنى.

ثم أخذ منها الكأس، وقام واقفا، ووضع كأسها على المائدة، ثم اتجه إلى النافذة وفتحها، ثم اعتلاها وقفز منها إلى الحقل المجاور.

وسناء تنظر خلفه وتبتسم فى حنان، كأنها ترقب طفلها الكبير وهو يلهو.. وظلت فى مكانها، متشبثة بمقعدها، وحقيبتها فوق صدرها، كأنها تخشى إن تحركت أن يعود طفلها فيتوه عنها.

وغاب محمد خمس دقائق.

وعاد.

عاد قافزا من النافذة، وفى يده حزمة كبيرة من أعواد البرسيم وأعواد الفول الأخضر.. وضعها فوق المائدة.. ثم أخرج من الدولاب دورقا زجاجيا فارغا، وأخذ يضع فيه أعواد البرسيم كأنه ينسق أعواد الورد.

وقامت سناء من مقعدها لتساعده.. ساوت معه أعواد البرسيم.. ثم بدأت تنزع قرون الفول الأخضر من فوق أعوادها وتجمعها فى طبق.

وقال محمد وهو ينظر إلى أعواد البرسيم المنتصبة فوق المائدة، فى اعجاب وحنان :

- إن شاء الله عمرنا كله يفضل أخضر على طول، زى البرسيم.

واقتربت سناء منه والتصقت به، وأخذت تنظر إلى أعواد البرسيم فى فرحة :

وعاد محمد يقول :

- البرسيم ده أطيب زرع.. لونه حلو وشكله حلو.. وأخضر.. علشان كدة الحمير كلهم طيبين وسعداء وراضيين.. علشان بياكلوا البرسيم.

ثم نظر إلى سناء وبين شفتيه ابتسامة كأنها ابتسامة فيلسوف صغير.. ثم ضحك ضحكة خافتة وقال بصوت مرح يضج بهذا الرنين العجيب :

- دلوقت نبتدى الحفلة من تانى.

وناول سناء كأسها.. ورفع كأسه إلى شفتيه وارتشف نصفه.

وترددت سناء قليلا، ثم رفعت كأسها ورشفت رشفة صغيرة، ثم أبعدت الكأس عن شفتيها، وسعلت وهى تخبط على صدرها، قائلة :

– إيه ده يا محمد.

وقال محمد :

– كمان شفطة.. اعملى حسابك حاتشربى الكاس كله.. ده كاس حبنا.. ماتخليش منه ولا نقطة.

ورفع كأسه وأتى على بقيته.

وعادت سناء ترشف من كأسها رشفة صغيرة، وتسعل وتقشعر، كأنها لا تحتمل.

وأفرغ محمد لنفسه كأسا آخر.. وشربه.. وسناء لا تزال ترشف هذه الرشفات الصغيرة من كأسها الأول.

وصاح محمد :

– ألا روس.

وقالت سناء فى سذاجة :

– يعنى إيه.

وقال محمد وهو يرفع يدها بالكأس إلى شفتيها :

– يعنى مرة واحدة.. سر عظمة الروس إنهم بيشربوا الكأس مرة واحدة !

وشربت سناء الكأس كله.

وعادت تسعل.

وأخذ محمد الكأس من يدها ووضعه على المائدة.. ثم أخذها بين ذراعيه، فكفت عن السعال.

وأطل فى عينيها.. وكله حب.. ثم مال بشفتيه ليصل إلى شفتيها.. وأغمضت سناء عينيها.

وهمس محمد فى صوت مبحوح :

– ماتقفليش عنيكى.. نفسى أبوسك نوبة وأنا شايف عنيكى.

وفتحت سناء عينيها.

والتقت شفاههما.

وهو يطل فى عينيها.. وهى تطل فى عينيه.. عيناه فيهما حب مرح لا يبالى.. وعيناها فيهما حب يفكر، ويتردد، ويخاف.

ولكن قبلتهما كانت أقوى منهما.. لم يحتملا أن يرى أحدهما الآخر وهما يتبادلان قبلتهما.. فنزلت جفونهما فوق عيونهما.. كأنهما يطفئان النور.. كأنهما يغيبان عن الوعى.

وطالت قبلتهما.

وهى لا تريد أن تفيق.

لا تريد أن تبعد عن شفتيه.. إنها تحس بينهما كأنها فى أمان.. تحس أنه لها.. تحس أنها لن تفقده أبدا.

ولكنه رفع شفتيه عن شفتيها.. ثم نظر إليها فى حنان.. حنان كبير.. وجذبها من يدها فى رفق، نحو الغرفة التى تطل على الصالة.

غرفة النوم.

ووقفت سناء على باب الغرفة وهى ترفض الدخول، وقالت فى حياء :

- لأ يا محمد.

وقال محمد فى دهشة صادقة :

- لأ إيه ؟

قالت :

- احنا لسة.

قال والدهشة تكبر فى عينيه :

- لسة إيه.

وقالت سناء وهى تخفى عنه عينيها :

- لسة ما اتجوزناش.

وفتح محمد عينيه كأنه تنبه إلى شىء كان قد نسيه، ثم فكر قليلا، وقال فى تردد كأنه لا يصدق ما يقوله :

- نتجوز بكرة.. علشان توفيق وحلمى يكونوا معانا.

وقالت سناء وهى تحاول أن تخفى حدتها وراء ابتسامة خجلة :

- احنا ما اتفقناش على كدة.

قال فى بساطة :

– طيب عايزانى أعمل ايه دلوقتي.

قالت :

– ابعت الحاج مدبولى يروح يجيب المأذون.

وفكر قليلا كأنه يواجه مشكلة خطيرة، ثم قال كأنه اكتشف الحل :

– لأ.. لو المأذون جه هنا حايعرف احنا ساكنين فين.. وحايعرف اسمك واسم بابا ويروح يقول له.. أحسن طريقة إننا نروح احنا للمأذون.

وجذبها من يدها.. وجرها وراءه وهو يخطو خطواته الواسعة.. وخرجا من البيت.. وانطلق يجرى بها فى الحقول. وهى تجرى خلفه.. وضفيرتها تجرى خلفهما.

وقبل أن يخرجا من الحقول إلى الشارع العمومى، توقف محمد عن الجرى.. ووقفت معه سناء، وأخذت ترقبه وهو ينحنى ليجمع بعض أعواد البرسيم.. ثم اعتدل وأخذ يرتب البرسيم فى حزمة كأنه صحبة ورد، ثم ناولها الحزمة وهو يقول من خلال ابتسامة كبيرة :

– لازم تشيلى حاجة خضرة واحنا واقفين قدام المأذون.

وأخذت سناء أعواد البرسيم منه دون اعتراض، وأمالتها على ذراعها كما تفعل العروس عندما تحمل زهور الزفاف.

وعاد محمد يقول فى لهجة الفيلسوف :

– الناس غلطانين.. لازم العروسة تلبس يوم ما تتجوز فستان أخضر، وتشيل زرع أخضر.. اللون الأبيض مالوش معنى.. اللون الأبيض يدل على الفراغ.. على انسحاب الحياة.. إنما اللون الأخضر معناه الحياة.. معناه الخصب.. معناه الخير.. تعرفى إن الناس زمان كانوا بيحطوا تحت رجلين العروسة ساعة كتب الكتاب زرع أخضر.. الناس زمان كانوا عاقلين.. كانوا بيفهموا.

وقالت سناء وهى تبتسم ابتسامة حلوة :

– لك حق يا محمد.. أنا طول عمرى أحب اللون الأخضر.. واتفائل بيه.

وانحنى محمد مرة ثانية وقطع عودا قصيرا من أعواد البرسيم، رشقه في عروة سترته.. ثم اعتدل.. وقدم ذراعه لسناء، فلفت حوله ذراعها.. وخرجا إلى الشارع العمومي.

وبمجرد أن خرجا إلى الشارع، شد محمد قامته، ورفع رأسه، وعلت وجهه الوسيم ملامح الارستقراطية المغالى فيها.. وسار في خطوات معتدلة طويلة.. وسناء تسير بجانبه في خطوات سريعة لتلحق بخطواته، وذراعها معلق في ذراعه، وأعواد البرسيم فوق ذراعها الآخر.. وعيناها مرخيتان في خفر، ولمسة حمراء فوق خديها، وابتسامة خفيفة تطوف بشفتيها.

وكان المشوار طويلا استغرق أكثر من عشر دقائق، ورغم ذلك لم يغير من مشيته، ولم يتعب من رأسه المرفوع، ولم تنزل عن وجهه سمة الارستقراطية المغالى فيها.. وهي أيضا لم تتعب.. ولم تحرك ذراعها الذي يحمل أعواد البرسيم.. وكلاهما صامت، كأن كل منهما يخشى أن يوقظ الآخر من نومه.

ووصلا إلى بلدة المطرية.

وانحرف محمد إلى دكان دراجات عند مدخل البلدة، ووقف على بابه يسأل صاحبه بصوته الذي يرن برنين الطفولة، وبلهجة متعالية :

– من فضلك.. مأذون البلد ساكن فين ؟

ورفع صاحب الدكان رأسه من فوق دراجة يصلحها، ونظر إليهما في دهشة، وقال وهو يضحك :

– أهلا وسهلا.. أي خدمة ؟

ثم ركز عينيه فوق سناء وأعواد البرسيم التي تحملها فوق ذراعها.

وعاد محمد يقول كأنه لا يصبر :

– مأذون البلد ساكن فين من فضلك ؟

وقال الرجل وهو يضحك :

– عاوزين تتجوزوا.. ولا...

وقال محمد وصوته يزداد حدة :

- من فضلك.. تسمح تجاوبني ؟

وقال الرجل :

- حضـرتك بتسأل على الشـيخ عبدالبارى.. مش كـدة.. شوف يا سيـدى.. تسيب أول حـارة على ايدك اليمـين.. وتانى حارة.. و.. ولا أقولك...

والتفت الرجل إلى صبيه قائلا :

- واد يا عزوز.. خد البيه وصله لغاية بيت الشيخ عبدالبارى.

ثم التفت إلى محمد، وعاد ينظر إلى سناء، قائلا :

- جوازة خضرة باذن الله.. حاتتجوزوا الليلة.. ولا...

وقال محمد فى تأفف :

- لأ.. احنا بس عايزين نتفق معاه علشان فيه كتب كتاب بكرة.

وقال الرجل ضاحكا :

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

ولم يرد محمد، وجذب معـه سناء، وسارا وراء الصبى الصغير، فى حـوارى البلدة.. والعيـون تتطلع إليـهمـا.. وفريق من الأطفـال يتجمع خلفهما.. ورجل جالس على المقهى يسأل :

- دول مين دول يا رفاعى.

ويجيب ثلاثة من الأطفال فى نفس واحد :

- دول عـايزين الشيخ عبدالبارى.

ويرتفع صوت محشرج قائلا :

- والله سـيدنا الشـيخ حـايستـرزق.. دول واخـدين له معـاهم برسيم.

ويجيب صوت مقهقه :

- رزق المشايخ على المجانين.

ومحمد وسناء يسيران كأن لا شىء يحدث حولهما.. لا يسمعان شيئا.. لا شىء يهمهما.

ووصلا إلى بيت الشيخ عبدالبارى.

بيت كالح من طابقـين، فى حارة ضيقـة مظلمة، على بابه يافطة متآكلة مكتوب عليها «الشيخ عبدالبارى عبد ربه ـ مأذون شرعى».

وقف الصبى عزوز وصرخ بأعلى صوته :

- يا عم الشيخ عبدالبارى.. يا عم الشيخ عبدالبارى.

ومضت فترة طويلة ولم يظهر الشيخ عبدالبارى.

وعاد الصبى عزوز يصرخ وهو يرفع رأسه ويميل به إلى الوراء كأنه ينادى الشيخ من السماء.

- يا عم الشيخ عبدالبارى.

وأطلت امرأة سمينة سمراء. وجهها مستدير كالرغيف المحروق.. وارتكزت على حافة الشباك فى هدوء، كأن صراخ عزوز لم يزعجها.. وأخذت تنقل بصرها بين محمد وسناء فى نظرات باردة جامدة ثم التفتت إلى الصبى عزوز وقالت فى تكاسل :

- عاوز ايه يا واد يا عزوز ؟

وقال عزوز :

- فيه جماعة عايزين سيدنا الشيخ.

وعادت المرأة تنظر إلى محمد وسناء بلا حماس، ثم رفعت أحد حاجبيها ومصمصت شفتيها كأنها تتحسر على عقول الناس، وقالت فى برود :

- دخلهم المندرة يا واد.. دول إيه دول ؟

وقال عزوز :

- يظهر عايزين يتجوزوا.

وانسحبت المرأة من الشباك دون أن تعلق بكلمة، ومحمد واقف يدق الأرض بقدمه فى ضيق وملل، ورأسه الجميل مرفوع، وخصلة شعره مدلاة فوق جبينه.. وسناء واقفة.. وجنتاها محتقنتان.. وعيناها الملونتان مضطربتان.. وحزمة البرسيم راقدة بين ذراعيها.. وضفيرتها فوق ظهرها.

وقال الصبى عزوز :

[illegible] بذراع سناء ودخل بها إلى حوش البيت.. والأطفال كلهم وراءهما.. ثم انحرفا إلى حجرة على اليمين.. طلاؤها الجيرى متساقط.. وفى صدرها كنبة استانبولى قديمة يكسوها

التراب.. ومائدة خشبية صغيرة متداعية.. وكرسى مثبت فوق قاعدته لوح من الخشب.

وجلست سناء على الكنبة وهى تحاول أن تبتسم.. وجلس محمد بجانبها وهو يدير رأسه فى تأفف.

والأطفال كلهم متجمعون عند باب الغرفة، ينظرون فى بلاهة وصمت إلى محمد وسناء.. عيون كثيرة كالمصابيح الصغيرة تصب ضوءها عليهما.

ونظر محمد إلى الأطفال فى غيظ وتحد.. ثم عاد وشد قامته ورفع رأسه وابتسم ابتسامة حلوة، كأنه يمثل دورا أمام جمهور من الأطفال.

ومضت فترة طويلة.

وبدأت سناء تحس بأن محمد على وشك أن يثور.. إنه يدق الأرض بقدمه.. وينقر بأصابعه على ركبته.. وابتسامته المرسومة على شفتيه تذوب.. فقالت فى صوت هامس كأنها تسكب فى عروقه الأمل :

– أنا لسة خايفة يا محمد.

وقال محمد فى حماس فاتر :

– ما تخافيش.

قالت وهى تمسك بيده :

– بلاش.. بلاش أحسن.

ونظر إليها محمد.. وكبرت ابتسامته، وعادت عيناه تلمعان بنشاطهما.. وقال وهو يضغط على يدها.

– بلاش حبنا.. بلاش عمرنا.. مش معقول.. مستحيل.. أوعى تقولى بلاش مرة تانية.. بلاش، يعنى نموت.. واحنا مش حانموت.. احنا حانعيش.. حانعيش مع حبنا.

واندمج محمد فى حماسه حتى نسى الأطفال المتجمعين عند الباب.. ومال برأسه نحو سناء.. واستطرد قائلا.. أكثر حماسا :

– بكرة أهلك وأهلى، ييجوا يباركوا لنا.. الدنيا كلها حاتبارك لنا..

مش حاتبارك لنا على جوازنا.. إنما على حبنا.. وبابا حاييجى لغاية عندنا ومامتك حاتزغرد لنا.

وMال برأسه أكثر نحو سناء ووضع خده الأسمر فوق خدها الأبيض المشرب بحمرة الانفعال.

وفجأة ارتفع تهليل الأطفال وضحكاتهم وهم يرون خد محمد على خد سناء.. وأفاق الاثنان.. وابتعدا عن بعض.. وعلى شفتى كل منهما ابتسامة خجولة مرتبكة.

وارتفع من بين تهليل الأطفال صوت سعال أجش، وصيحة ضخمة :

- يا ساتر.

ثم دخل الشيخ عبدالبارى مرتديا جبة وقفطان كالحين، وعمامة تميل على مؤخرة رأسه حتى تكاد تسقط على قفاه، وحول عنقه شال مهلهل من الكشمير وتحت إبطه دوسيه بلا لون.. وصاح فى صوت مخنوق وهو يمد يده إلى محمد مصافحا :

- أهلا وسهلا.. شرفتمونا.

وقال محمد وهو يسحب يده من يد الشيخ بسرعة :

- احنا عايزين نتجوز.

وتجاهل الشيخ عبدالبارى كلمة محمد، وقال :

- اتفضل سيادتك.. أهلا وسهلا.

وعاد محمد إلى مكانه.. وجلس الشيخ عبدالبارى على المقعد ووضع الدوسيه الذى يحمله فوق المائدة العتيقة.. ثم سقطت عينه على حزمة البرسيم بين ذراعى سناء، ووقفت نظراته فى عينيه

اد يقول:

ة خضرة باذن الله.

وقال الشيخ عبدالبارى وهو يتنهد كأنه يستعين بالصبر :

- النهوة زمانها جاية.

وقال محمد وفى صوته رنين عناد طفل :

- إحنا مش عايزين قهوة. عايزين نتجوز.

ونظر إليه الشيخ عبدالبارى فى تعجب.. وقال :

- صبرك بالله يا سيدى البيه.. و..

وقاطعه محمد قائلا :

- آسف.. احنا مستعجلين.

وتنهد الشيخ عبدالبارى مرة ثانية، قائلا :

- والعقد امتى باذن الله.. وفين ؟

وقال محمد وهو ينقر بأصابعه فوق ركبته :

- هنا.. دلوقت.

وسكت الشيخ عبدالبارى كأنه فوجىء، ثم نظر إلى سناء نظرة طويلة فاحصة وقال :

- والهانم تبقى العروسه باذن الله ؟

وقال محمد :

- أيوة.

وسناء تنظر إلى محمد كأنها تتوسل إليه أن يهدأ.. ثم تنقل عينيها إلى الشيخ عبدالبارى كأنها ترجوه أن يحتمل تعجل حبيبها.

وفتح الشيخ عبدالبارى الدوسيه الذى يحمله فى صمت، وقال فى صوته المخنوق :

- بسم الله الرحمن الرحيم.. وبالله نستعين.. اسم السيادة إيه.

وقال محمد بسرعة :

- محمد وجدى.

ومال الشيخ على ورقة بيضاء حتى كاد يمسحها برموش عينيه، وأخذ يكتب الاسم.

واستطرد محمد قائلا وصوته كصراخ الأطفال :

- المهر خمسة آلاف جنيه.

وألقى الشيخ عبدالبارى القلم من يده مرة واحدة، ورفع رأسه إلى محمد.. ورموشه ترتعش فوق حوافى عينيه المتآكلتين.. ونظر إليه كأنه ينظر إلى مجنون.. ثم سعل سعاله الخشن كأنه يمهل

نفسه قبل أن يتخذ قراره.. ثم مال إلى الوراء، وأخرج منديلاً قذرا بصق فيه.. وقال وهو يمسح شفتيه :

- حضرتك معاك تحقيق شخصية ؟

وارتفعت نظرة دهشة فى عينى محمد.. كأنه فوجىء.. وفتح فمه ليتكلم، ولكنه لم يقل شيئا.. ونظر إلى سناء كأنه يستغيث بها.

واعتدلت سناء فى جلستها وقالت فى لهجة حازمة :

- أنا معايا.

ووضعت حزمة البرسيم فى رفق على الكنبة، ومدت يدها فى جيب سترتها.. سترة الكلية الأمريكية للبنات.. وأخرجت بطاقة تحقيق شخصية موضوعة فى غلاف من البلاستيك الشفاف.. وناولتها للشيخ عبدالبارى.

وأخرج الشيخ البطاقة من غلافها وهو ينظر إلى سناء فى دهشة، وفتحها.. وقربها من عينيه وأخذ يقرأ فيها بصوت مسموع :

- سناء رفعت.

ثم سعل فى صوت خافت، وعاد يقرأ :

- ممثلة.

وقفز رأس الشيخ عبدالبارى إلى الوراء، حتى كادت العمامة تقع من فوقه.. ونظر إلى سناء بفم مفتوح، ثم قال وصوته يشهق :

- حضرتك ممثلة.. ده أنا كنت فاكرك تلميذة.

واحتقنت وجنتا سناء، وقالت وهى تجذب ضفيرتها من وراء ظهرها وتضعها فوق كتفها :

- لا.. أنا بس لابسة كدة.

وارتفع تهليل الأطفال وصراخهم، وعيونهم تنصب داخل الغرفة.. واستدار لهم الشيخ عبدالبارى، وقال صارخا :

- يا ولاد اسكتوا.. أسكتكم الله أبد الدهر.

ثم عاد يلتفت إلى محمد قائلا :

- وسيادتك ممثل برضه ؟

وقالت سناء بسرعة :

- لأ.. مهندس.

ونظر إليها محمد فى غضب، ثم التفت إلى الشيخ قائلا :
- لأ.. ممثل.
وتنهد الشيخ قائلا :
- لا حول ولا قوة إلا بالله، الحقيقة أنا مش فاهم حاجة.. والعقد الشرعى مسئولية خطيرة.. فإذا لم أفهم.. و..
وقفز محمد واقفا قبل أن يتم الشيخ كلامة.. وقال وهو يشد سناء من يدها :
- مش ضرورى.. السلام عليكم. حانفوت عليك مرة تانية.
ثم خطا بقدميه الطويلتين خارج الغرفة، وهو يشد سناء وراءه، وخاض فى زحام الأطفال.. والشيخ عبدالبارى يهرول وراءهما صائحا :
- صبرك يا أستاذ.. نتفاهم.. ربما وجدنا مخرجا أو فتوى.. يا استاذ.. صبرك يا أستاذ.
وسناء تلتفت وراءها تنظر إلى الشيخ المعمم كأنها تستغيث به.
وحزمة البرسيم ملقاة على الكنبة العتيقة التى يكسوها التراب.
وخرج محمد من بيت الشيخ ووراءه سناء.. والأطفال يحيطون بهما.. ووقف الشيخ عبدالبارى يودعهما بعينيه المتآكلتين، وهو يتمتم :
- ده باين عليه مجنون.
ومحمد يوسع فى خطاه، وخصلة شعره ثائرة فوق جبينه، وشفتاه مزمومتان.. وسناء تجرى بجانبه وضفيرتها تنتفض فوق ظهرها.
وصاح الرجل الجالس على المقهى :
- أنتم لحقتم.. دى جوازة بالعجل أوى.
وارتفع الصوت الآخر :
- دول سابوا البرسيم للشيخ عبدالبارى.. مش قلت لكم.. كانوا واخدين له برسيم.. هع...
وصاح صاحب دكان الدراجات فى صبيه :
- ايه اللى حصل يا واد يا عزوز.

وصاح عزوز بصوت رفيع كالصفارة :

- دول ممثلين.

وقال صاحب الدكان فى صوت خافت ويداه تعملان فى احدى العجلات، كأنه يلقى لنفسه بحكمة :

- وماله.. ما الممثلين بيتجوزوا برضه.

●●●

وخرج محمد وسناء من البلدة، وخف من حولهما زحام الأطفال شيئا فشيئا.. ثم وصلا إلى الشارع الذى يشق الحقول.. وهدأت خطوات محمد.. وهدأت خصلة الشعر فوق جبينه.. وعلت شفتيه ابتسامة لاهية.. حلوة. لا مبالية.. ابتسامة لا تعنى شيئا، كأنها خرجت من فراغ جميل.. وشاط بقدمه حجرا صغيرا وجده فى طريقه.. ثم ضحك كأنه يضحك للحجر ويلاعبه.. ثم بدأ يصفر بشفتيه.. وسكت عن الصفير وبدأ يغنى.. لم يكن يغنى لحنا معروفا.. كان غناء أقرب إلى غناء الأوبرا.. ولكنه لم يكن أوبرا.. ولا شىء.. ورغم ذلك فهو لحن متسق سليم.. وصوته يرتفع إلى آخره.. ثم ينخفض إلى قراره.. ووجهه يضج بالبشر، كأن فى داخله دنيا من الألحان لا تنتهى.. دنياه وحده.

وسناء تسير بجانبه عابسة.. عيناها الملونتان حزينتان، تكاد الدموع تطفر منهما.. وقوامها الصغير يرتعش تحت زى كلية البنات الأمريكية وتتنهد تنهيدة خافتة، كأنها تخاف أن يلحظ محمد تنهيدتها.. وحلم كبير يتراقص أمام عينيها.. كلما تقدمت. ابتعد.. حلم لا تستطيع أن تمسك به.. لقد كادت تمسك به.. ولكنه قفز من بين يديها فى اللحظة الأخيرة.. وعاد يتراقص أمامها.. كالصبى العفريت.. كلما تقدمت، ابتعد.

منذ متى وهذا الحلم يتراقص أمامها؟

منذ كانت طفلة.

ربما من قبل أن تعى أحلامها.

ولكنها فتحت عينيها وهذا الحلم أمامها. كان كل ما تعيش من أجله أن يكون لها بيت.. وأن يكون لها رجل تحبه.

ولم يكن لها بيت أبدا.. كان البيت الذى نشأت فيه بيت زوجة أبيها.. ولم يكن لها أبدا رجل.. أبوها لم يكن لها.. كان لزوجته.. لم تكن تملك شيئا.. حتى ثيابها كانت ثيابا قديمة ألقتها عليها زوجة أبيها.

وتعذبت.

تعذبت طويلا.

وارتفعت صور عذابها تملأ خيالها.. البيت الفقير فى حارة أزبك بالسيدة زينب.. واللحاف المهلهل الذى تفرشه على البلاط وتنام عليه.. لقد كانت تحب هذا اللحاف.. كان القطعة الوحيدة من الأرض التى تستطيع أن تستريح فوقها.. كان بيتها.

وارتفعت فى عينيها نظرة حزينة وهى ترى فى خيالها صورة أبيها.. ضعيفا.. مريضا.. يتعثر فى سعاله.. كان فراشا فى شركة.. وكان يعود من عمله كل يوم وتحت إبطه اربعة أرغفة وحزمة فجل.. إنها لا تذكر يوما زاد فيه عدد الأرغفة أو نقص.. ولا تذكر مرة غابت فيها حزمة الفجل إلا لتحل محلها حزمة جرجير.. والزوجة واقفة فى استقبال أبيها ولسانها يتلمظ بين شفتيها، ولا تكاد تراه حتى ينطلق لسانها من بين شفتيها كالسوط الطويل وتنهال به على وجهه.. وهو صامت.. لا يرد عليها إلا بسعاله.. وتتعب المرأة من لسانها.. فتستدير إلى سناء وتضربها.. لا لشىء إلا أمعانا فى اذلال أبيها.. وأبوها صامت لا يستطيع أن يتقدم لانقاذها.. وهى تحتمل.. ولم يكن يعينها على الاحتمال إلا عنادها.. عناد كبير.. ولم تكن تشعر بأنها تعاند زوجة أبيها.. ولكنها كانت تشعر بأنها فى حاجة إلى هذا العناد لتحتمل.. وكانت فى حاجة إلى شىء آخر.. إلى العمل.. كانت تعمل كثيرا.. منذ فتحت عينيها وهى تعمل.. كانت تحمل البيت كله بين يديها.. تكنس، وتمسح، وتغسل، وتطبخ.. ولم تكن تتعب، ولا تشكو.. كانت تحب العمل.. كانت تشعر بأن العمل هو الشىء الوحيد الذى يضمن لها أن تبقى فى البيت.. هو الشىء الوحيد الذى يجعل زوجة أبيها فى حاجة إليها.. ولم تكن تحب هذا البيت.. ولكنها لم تكن تستطيع أن تجد بيتا غيره.

وتنزوى آخر النهار فوق لحافها.. وتحلم.. تحلم أحلاما كبيرة.. بيت كبير. ورجل تحبه.. وثوب جميل.. وسرير تنام عليه، ويرتفع بها عن الأرض.. وكانت ترسم لنفسها صورا مختلفة.. أحيانا زوجة لشاب ناجح، وأحيانا مدرسة في مدرسة أطفال، وأحيانا ممرضة.. وأحلامها ليست مجرد أحلام فى الهواء.. إنها متصلة دائما بذكائها.. وذكاؤها يتحرك دائما بحثا عن بداية الطريق نحو الحلم الكبير.. واكتشفت أن الطريق يبدأ بالذهاب إلى المدرسة.. وكان من الصعب عليها أن تذهب إلى المدرسة.. أن أحدا لا يفكر لها.. وهى لا تستطيع أن تناقش أحلامها مع أحد.. حتى مع أبيها، أن أباها يخاف أن يضبط وهو يحادثها حديثا طويلا.. يخاف من زوجته.. وهى تعذره فى خوفه.. فلا تحاول أن تطالب بحقها فيه.. وتكتفى منه بالكلمات القليلة التى يتبادلنها من بعيد.. إلا فى مناسبات قليلة تغيب فيها الزوجة.. واستطاعت فى احدى هذه المناسبات أن تقنعه بأن يدخلها المدرسة.. وثارت عاطفة الأب واسترد من خلال هذه العاطفة كل رجولته، وأخذها من يدها وأدخلها المدرسة.. بل استطاع أن يذلل عقبة كبيرة وقفت بينها وبين المدرسة.. فقد كانت فى ذلك الوقت فتاة كبيرة.. فى العاشرة من عمرها.. ولم تتعلم بعد.

وثارت الزوجة.. واحتملت سناء مع أبيها هذه الثورة.. وعوضت زوجة أبيها بمزيد من العمل.. كانت تكنس وتمسح قبل أن تذهب إلى المدرسة.. وتطبخ وتغسل بعد أن تعود من المدرسة.

إلى أن سكن بجوارهم الأستاذ راشد راضى الممثل بفرقة «الانشراح».. كان ممثلا متواضعا.. وكان إنسانا طيبا. يضحك دائما. ويهز كتفيه بين الحين والحين فى حركة لا إرادية.. كأنه ينفض عنهما كل ما يقع فوقهما من مسئوليات الحياة.. ولم يكن متبرما من نصيبه الضئيل من الفن.. بل كان يعتقد أنه ممثل كبير.. وأن الفن فى حاجة إليه قدر حاجته إلى أبطال المسرحيات. إن البطل لا يستطيع أن يظهر وحده فى المسرحية.

وكان الأستاذ رشيد متزوجا، وله ابنتان فى عمر سناء.. فأصبحت سناء تتردد على البيت.. وتستريح فيه.. تستريح من

بيتها فى بيت مرح تملؤه الطيبة والحب.

وتعـود الأستـاذ رشـيـد وهو فى البـيت أن يمثل مـشـاهد من المسـرحيانت التى يعـرفها، ويحـفظها عن ظهـر قلب.. مسرحـيات جورج أبيض ويوسف وهبى القديمة.. وكان يشرك معه فى التمثيل ابنتيـه لا ليعلمهمـا التمثيـل.. ولكن لمجرد اللهو.. وأصـبحت سناء تشتـرك معـهما فى التـمثيل.. وكـانت تعلم أنها تلهـو.. مجـرد لهو برىء.. ولكنهـا حتى فى لهـوها كانت تسـتعـمل كل ذكائهـا.. وكل انفعالها، وأحـست بانفعال كبير وهى تردد الكلمـات التى يلقنها لها الأستـاذ رشيـد.. أنهـا تحس بهذه الكلمـات فى أعمـاقهـا.. فى كل أعصابها.. إنها تحس بأنـها ملكة عندما تردد كلمات الملكة.. وتحس بأنها جان دارك عندما تردد كلمات جان دارك.

وقال لها الأستاذ رشيـد، إنها تصلح ممثلة.. وضحكت.. لم يكن قد خطر على بالها ابدا أن تصبح مـمثلة.. ولا تريد أن تكون ممثلة.. ولكنها تحب أن تلهو بالتـمثيل.. واستمرت تلهـو.. وأصبحت تذهب مع ابنتى الأسـتاذ رشـيد لتـشاهد مـسرحـيات فـرقة الانشـراح.. وأحيانا إلى السـينما عندما يستطيع الأسـتاذ أن يحصل على بعض التذاكر المجانية.. وتعود لتجـد زوجة أبيها فى انتظارها لتضربها.. ولا تفاجأ بالضرب.. إنها تحسب حسابه، وتستعد له، وتعود عنادها عليه.

ولكنها كبـرت الآن.. أصبحت فى الرابعة عشرة.. وزوجـة أبيها تبدو أمامهـا أضعف مما كانت.. وهى تشعر بأنها أقـوى مما كانت. إن زوجة أبيـها لا تستطيع الآن أن تضربـها بالشبشب.. إنهـا فقط تضربها بالقلم.

وكلما كبرت سناء.. رسمت صورا جـديدة لأحلامها.. وأصبحت تقدر مـا تملكه ثمنا لهذه الأحـلام.. إنها تملك جـمالها.. هذا الشـعر الفـاتح.. والعـينين الملونتـين.. والبـشرة البـيـضـاء المشـدودة.. والشفـتين المكتنزتـين.. والقوام الصغـير المـتسق.. ولكن الجـمال وحـده لا يسـاوى شيـئـا.. إن الخطاب بدأوا يتـرددون على البـيت يخطبون جمالها، ولكنها ترفضـهم.. ترفضـهم بذكائها.. ذكاؤها يدلها

على أن كل هؤلاء لن يحققوا لها أحلامها.. وذكاؤها فى انتظار فرصة أخرى.. ربما لن تسنح لها هذه الفرصة إلا بعد أن تنال شهادة الإعدادية.

وقاومت زوجة أبيها وهى تلح فى تزويجها. وأعطتها المقاومة قوة جديدة.. أصبحت أقوى من فى البيت.. هى التى تعمل.. هى القوة.. هى الشباب.. هى الذكاء.. هى الجمال.. ورغم ذلك فهى لا تطالب بشىء.. إن كل ما فى هذا البيت لا يساوى شيئا تطالب به.. ولا يحقق شيئا من أحلامها.. إنها لا تزال تنام على اللحاف المهلهل.. وذكاؤها يبرق يحاول أن يكتشف لها الطريق.

ومات والدها قبل أن تنال الشهادة الإعدادية.

وفى يوم موته.. ومن خلال دموعها الصادقة.. كانت تفكر فى مصيرها.. إن لوالدها معاشا قدره أربعة جنيهات من حقها أن تشارك فيه زوجة أبيها.. ولكن.. ماذا تصنع بأربعة جنيهات؟.. ثم إن زوجة أبيها ستحاول على الأغلب أن تنتقل لتقيم مع أخيها.. حتى لو لم تنتقل.. فهى لا تستطيع أن تقيم معها.

وخرج النعش الفقير.. وخرجت وراءه سناء دون أن تودع زوجة أبيها.. وليس فى يدها شىء.. وذهبت إلى بيت الأستاذ رشيد.. ورأسها مشحون بذكائها.. وأعصابها مشحونة بارادتها.. وعيناها تبرقان بقوتها.. وقالت له فى كلمات محددة قاطعة.. أريد أن أشتغل بالتمثيل.. وأريد أن أقيم معكم. وسأدفع لك من الأجر الذى أحصل عليه.

ونظر إليهما الأستاذ رشيد، وعيناه ملؤهما الطيبة والحنان.. وقال وهو يربت على كتفها.. اتفقنا على أن تقيمى معنا.. ولنترك أمر التمثيل الآن.

وأصرت سناء على أن تعمل فى التمثيل.. وكان الأستاذ رشيد يعلم أن من السهل أن تعمل سناء فى التمثيل.. يكفى أنها جميلة.. ولن يتردد أى صاحب فرقة فى وضعها على خشبة المسرح، حتى ولو لم تمثل.. ولكنه كان يشفق عليها.. إنه يشفق على ابنتيه أيضا من التمثيل.. إنه يعدهما للزواج لا للفن.

ولكن سناء مصممة.. وهو يحس فى تصميمها بأن كل ما تريده هو ألا تعيش عالة عليه.. إنها تعمل فى البيت.. تطبخ، وتكنس، وتمسح، ولكن هذا لا يكفيها.. إنها تريد أن تدفع ثمن اقامتها معه.. ثمن احساسها بشخصيتها المستقلة.

وصحبها الأستاذ رشيد إلى مدير فرقة الانشراح. الأستاذ فرحات.

وفى نفس اليوم أمر الأستاذ فرحات بتعيين سناء ممثلة فى الفرقة، بمرتب ثمانية جنيهات فى الشهر.

وعينا الأستاذ فرحات تلمعان.

وسناء تستطيع بذكائها وغريزتها أن تفهم هذه اللمعة.

وقد أحاطتها العيون اللامعة منذ التحقت بالفرقة المسرحية، أكثر مما أحاطتها أضواء المسرح.. استطاعت دائما أن تصد العيون اللامعة.. بلا غضب.. وبلا جفاء.. ولم تكن تصدها لأنها تؤمن بشرف البنت.. أو لأن لها تقاليد خاصة.. ولكن لأنها تعرف تماما ما تريد.. وتعرف تماما ماذا تعطى نظير ما تريد.. ولأن إرادتها حاسمة.. وذكاءها دائما معها.. وهذه الفرقة المسرحية بكل ما فيها، وكل من فيها، لا تستطيع أن تحقق لها ما تريد.. فلماذا تعطى.. إنها لا تعطى أكثر مما يساوى ثمانية جنيهات.. مرتبها.. وما تعطيه هو مجرد الظهور على خشبة المسرح كفتاة جميلة.. والتمثيل.. وهى تتقدم فى التمثيل.. الأستاذ رشيد يؤكد لها أنها تتقدم، وأنها ستصبح يوما ممثلة عظيمة.. ولكن مدير الفرقة لا يعطيها إلا الأدوار الصغيرة التى يعرض بها جمالها أكثر مما يعرض فنها.. وهى تعلم الطريق لتحصل على دور كبير.. أن تجيب نداء العيون اللامعة.. ولكنها لا تريد.. إنها تفضل أن تصبر أكثر.

وصبرت.

إلى أن قابلت محمد.

شىء جديد حدث فى حياتها.

الحب.

●●●

وارتفع فى أذنها صوت محمد وهو يسير بجانبها فى الطريق الذى يشق الحقول، ويغنى لحنا أقرب إلى ألحان الأوبرا ويشوح بيديه فى الهواء كما يفعل رجال الأوبرا على خشبة المسرح.. دون أن ينظر إليها.. وربما دون أن يحس بها..لا يحس بكل ما حدث.. ولا شئ يشغل باله.. لا شيء يهمه.. إلا هذا اللحن المتسق الذى يغنيه بكل صوته.

ورفعت رأسها إليه تتسلق بعينيها قامته الطويلة.. ونظرت إليه فى حنان كأنها تنظر إلى طفلها وهو يلهو.. ثم عادت وألقت برأسها على صدرها.. وتاهت فى خواطرها.

إنها لا تدرى كيف أحبته.. ولكنها وجدت نفسها تحبه.. فجأة.. وفى وقت لم تكن تنتظر فيه الحب.

التقت به فى حفلة عامة بأحد النوادى، ذهبت إليها لتؤدى دورا صغيرا من أدوار الكومبارس فى المسرحية التى كانت تُمَثَّل.. ورأته من بعيد.. على خشبة المسرح.. وتعلقت عيناها به.. كان فيه شيء يختلف عن بقية الممثلين.. كان يبدو من بعيد جميلا.. رقيقا.. يتحرك كأنه يطير فى الهواء.. وعندما اقتربت منه وجدته أجمل.. وأرق.. ولم تر فى عينيه هذه اللمعة العنيفة التى تراها فى عيون الرجال.. لقد نظر إليها بعينين ضاحكتين بريئتين.. إن عينيه تضحكان لكل شيء.. لها.. ولزملائها.. خيل إليها أنه يعيش أعلى من الأرض.. فوق الناس.. فوق الحقيقة.

وضحكت عندما تحادثا.. ضحكت كثيرا.. كل شيء فيها يضحك.. عيناها.. قلبها.. أنفاسها تضحك.. إن حديثها يرفعها إليه.. إلى دنياه الضاحكة.. يرفعها فوق مشاكلها.. فوق إرادتها.. فوق ذكائها.

وظلت بجانبه.. لم يدعها إلى أن تبقى بجانبه.. لم يدعها إلى شيء.. ولكنها وجدت نفسها بجانبه.. حتى عندما ذهب إلى البار وبدأ يشرب.. وقفت بجانبه.. ولم تكن تشرب.. ولا تحب أن

تشرب.. ولم يدعها لأن تشرب.. بل تركها بجانبه.. يتحدث إليها.. ويضحكان.

وخرجا معا.. وسارا ليوصلها إلى بيتها.. واختار أن يسير بها فى طريق يشق الأحياء القديمة.. باب الخلق.. وبوابة المتولى.. وشارع الخليج.. إنه يحب أن يمشى.. يمشى طويلا.. ويحب أن يمشى فى الأحياء القديمة.

وفجأة وقف بها، وقال وصوته يمرح مرح الطفل البرىء :

- اسمعى.. إنت دلوقت سايحة أمريكية.. وأنا ترجمان.. وبافرجك على القاهرة القديمة.. والسايحة تحب الترجمان.. ويقعوا فى إشكال.. وبعدين يودعوا بعض.. لأنها لازم ترجع لجوزها ولأولادها فى أمريكا.

إنه يؤلف قصة، ويريد أن يمثلها معها.

وبسرعة وجدته قد تقمص شخصية الترجمان.

وتجاوبت معه.. تقمصت شخصية السائحة.

ولم يكن يضحك.. كان فعلا يعيش فى شخصية الترجمان، ووجدت نفسها تعيش فعلا فى شخصية السائحة، وقضيا ساعات طويلة.. وهما يجوبان الشوارع القديمة بهاتين الشخصيتين.

ومن يومها عرفت أنه لا يعيش إلا فى القصص.. قصص يمثلها على المسرح.. وقصص يؤلفها ويمثلها فى الشارع أو فى البيت.. وكل قصصه حلوة.. نظيفة.. تهز قلبها.. فإذا خرج من عالم القصص.. تاه.. لم يعد يعرف نفسه.. أصبح كالطفل الذى ترك فى عالم مهجور.. فيضطر أن يشرب.. أن يسكر.. حتى يحتمل الحياة بعيدا عن خياله.

وأحبت كل ذلك.

نسيت كل شىء.. وأحبت.. أحبته وأحبت أن تعيش معه فى قصصه.. وكانت تنتهى من عملها فى فرقة الانشراح.. وتجرى إلى مسرح فرقة النهضة لتلقاه.. فإذا لم تجده بحثت عنه فى كل مكان حتى تجده.. وتعيش معه فى قصة.

وعرفت كل أصدقائه.. عرفت الكثير عنه.. عرفت أنه من عائلة محترمة..وإنه كان طالبا في كلية الهندسة، وترك الكلية قبل الامتحان النهائي بشهور قليلة ليتفرغ للفن، ولم تعرف كل هذا منه. وأنه لا يتكلم عن نفسه.. إنما جمعت كل هذه المعلومات من أصدقائه.. ومن كلمات متناثرة التقطتها خلال أحاديثه.

الشيء الوحيد الذي لم تعرفه هو دخله.. كم يكسب.. وكيف يدفع ثمن أيامه.. إنها لم تسمعه أبدا يشكو.. ولم تره أبدا فرحا بنقود معه.. إن النقود دائما شيء بعيد عن تفكيره، عن مشاغله.. وكان يضع كل نقوده فى جيب سترته الخارجى كأنها كمية من القصاصات المهملة.. ويخرجها كلها مرة واحدة إذا أراد أن يدفع شيئا.. أحيانا كانت ترى معه عشرة جنيهات أو أكثر.. يصرفها كلها بلا حساب.. بلا داع.. بلا شيء يريده.. وأحيانا لا تجد فى جيبه أكثر من عشرة قروش، ولا يبدو عليه أنه يشكو.. أو أن شيئا ينقصه.. إنه نفس الرجل السعيد دائما.. لا يجوع ما دام يعرف أنه ليس معه ثمن طعامه.. ولا يحتاج إلى شيء مادام يعرف أنه ليس معه ثمن ما يريده.. وأحيانا كثيرة كانت تدعوه إلى شيء يأكلانه أو يشربانه، عندما تحس بأن ليس معه نقود.. فلا يحس بأنها تدعوه.. لا يشكرها.. ولا يرفض دعوتها.. كل هذه الماديات بعيدة عنه.. بعيدة.. بعيدة.. إنه يعيش فى السحاب.. وأهل السحاب لا يتعاملون بالنقود.. ومع الأيام أصبحت نقوده ونقودها شيئا واحدا.. إنه يأتى بأضعاف مرتبها.. ولكنها لا تستطيع أبدا أن تعرف كم يصل إليه فى الشهر.. ومن أين.. هل من الفرقة التى يعمل بها.. أو من عائلته.. لا تدرى.. وتخاف أن تسأله.. إن مثل هذه الأحاديث لا تدور بينهما.

ومرت أيام كثيرة.. أسابيع.. قبل أن يقبلها لأول مرة.

وقبلها فى قصة من القصص التى يعيشان فيها.. إنه لم يحاول تقبيلها قبل ذلك.. إنه لم يحاول شيئا أبدا.. كان دائما أكثر من رجل.. ملاك.. ورغم ذلك فلمسات الملاك كانت تثير فيها إحساسها بجسدها.. كانت لمساته غير المتعمدة تنزعها من خيالها وتحرك

الجسد المليء بالحب.. وكانت تعلم أنها ستعطيه ما يريد.. لو أراد.. ستعطيه لأنها تريد.. لأنها تحب.. حبا أقوى من ذكائها وأقوى من إرادتها.. ولكنه لا يحاول.. لعله لا يريد.. لعله لا يحب.. لعلها بالنسبة له مجرد وهم يعيش في خياله. ليست إنسانة.. وليست جسدا.. وتدور هذه الظنون برأسها فتحتار.. هل تفيقه من خياله.. هل تنزله من سمائه.. هل تصرخ فيه بأنوثتها.. وهل تستطيع.. وإذا استطاعت... هل يكون نفس الرجل الذى أحبته، بعد أن ينزل إلى الأرض.

إلى أن كانت هذه القصة التى تبادلا فيها أول قبلة.

وتفتح إحساسها كله وهو يضع شفتيه على شفتيها.. إنها تخاف أن تكون قبلة تمثيل.. ولكن.. لا.. هذه الشفاه الساخنة.. وهذه الأنفاس المبهورة.. وضربات قلبه.. لا يمكن.. إنها تعرف قبلات التمثيل.. وهذه ليست قبلة تمثيل.. إنه يقبلها بكل كيانه.. بكل أعصابه.. إنه يعيش فى خياله بجسده أيضا.. لا بروحه وحدها.

وهامت فى قبلته.

ولا تريد أن تكف عن القبلات.

وكان يبدو دائما أقل حاجة إلى قبلاتها، منها إلى قبلاته.. ولكنها كانت تستطيع دائما أن تستدرجه إلى قصة مليئة بالقبلات.. وقد أجادت فن ابتكار القصص.. كما يجيده.. وأصبح الحوار الذى يدور بينهما حوارا طبيعيا متجاوبا.. كأنه حوار واقعى سواء كانا يعيشان فى قصة تاريخية، أو فى قصة عصرية.. حوار لا يتغير.. ولا يخرج عن العالم الذى يعيشانه.. ثم ينتهيان من القصة، وهما يضحكان، والسعادة تملأ أعطافهما.. ويفترقان ليلتقيا فى قصة جديدة.

وازدادت حبا.

أحبت حياة لم تخطر على بالها.. حياة واسعة بلا حدود، وبلا أرض، وبلا أرقام، وبلا تاريخ، وبلا مستقبل.. حياة تصنعها خيالات متجددة.. تصنعها كما تريد.. ماذا تريد؟.. تريد أن تكون ملكة.. يكفى أن تنزع ملاءة السرير وتضعها على كتفها، وتتركها

تجرجر وراءها.. ثم تضع على رأسها عمامة تصنعها من بشكير الوجه، وتلصق بها وردة.. وتصبح ملكة.. ويأتى ملكها بين يديها.

وبلغ من حبها أن تركت بيت الأستاذ رشيد، وأقامت مع إحدى زميلاتها الممثلات فى غرفة واحدة ببنسيون فى شارع رمسيس.. وليالى كثيرة كانت تلتقى بمحمد بعد انتهاء التمثيل ويسيران سويا حتى بيته فى المطرية.. يسيران هذا المشوار الطويل فى ساعة، فى ساعتين.. إنهما لا يحسان بأنهما يمشيان.. إنهما فى قصة.

وكانت تنام فى بيته.

ولم تسأل نفسها كيف تنام فى بيته.. كيف تنام فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها فى بيت شاب فى السابعة والعشرين.. كل هذا لم يخطر على بالها.. إن كل شىء يتطور طبيعيا.. الخيال يسير بهما.. إلى أين.. لا تدرى.!

وكان الفرق بينها وبينه، أنها تصعد معه إلى السماء ثم تعود وتنزل إلى الأرض.. أما هو فلم يكن ينزل أبدا إلى الأرض.. كان دائما هناك.. فوق.. فى السماء.

وفى الفترات التى كانت تنزل فيها إلى الأرض كان يصدمها هذا السؤال : إلى أين ؟

ولم تكن تجد الجواب.

كانت تهرب من السؤال والجواب.

وكانت تقاوم دائما احساسا عنيفا احساسها بحلمها القديم.. أن يكون لها بيت.. وأن يكون للبيت رجل تحبه.. أن تتزوج.

هل تتزوج محمد؟

حرام.

إنه لا يفكر فى الزواج.. ولا يخطر على باله.. ربما لا يعرفه.. الزواج شىء ليس من دنياه.

ورغم ذلك فهى لا تستطيع أن تكف عن التفكير فى الزواج.. لا لأنها تنام ليالى كثيرة فى بيت محمد.. لا.. هذا سبب سخيف للزواج.. ثم إن محمد لا يريد منها أكثر مما تعطيه.. وهى لا تعطيه

إلا ما تريد.. ولن يكون الزواج سببا كافيا لتعطيه أكثر، أو لتعطيه أقل.

والحلم لا يكف عنها.. حلمها القديم..

ومنذ أسبوع واحد فقط كانت جالسة مع محمد فى بيته بالمطرية.. سارحة.. ساهمة.. تطلق عينيها عبر النافذة إلى حقل البرسيم البعيد.. ومحمد بجانبها يقرأ فى كتاب.. وقالت كأنها تحادث نفسها :

– أنا ساعات بيتهيأ لى إنى عروسة.. وعاملين لى فرح كبير..عوالم.. وزغاريد.. ومزيكة بالبوليس.. ولابسة فستان أبيض.. وطرحة بيضا.. و..

وسكتت.. ابتلعت بقية حلمها.. وسارت وراءه فى داخلها.

ولم تعرف إذا كان محمد قد سمعها وهى تقول هذا الكلام، أو لم يسمعها.. إنه لم يرفع عينيه عن الكتاب.. ومضت فترة طويلة.. وفجأة ألقى الكتاب من بين يديه.. والتفت إليها قائلا.. وابتسامة كبيرة بين شفتيه.. والسعاد تقفز فوق خديه.. ولمعة مرحة فى عينيه :

– اسمعى.. إنتى بنت شريف باشا عز الدين.. ولسة تلميذة فى مدرسة الأمريكان كولدج.. وبتحبينى.. وأنا باحبك.. باحبك قوى.. وبابا مش عايز يجوزنا.. لأنى ابن فلاح.. وما بنقدرش نقاوم.. بنهرب مع بعض.. وبنتجوز.

وأضاء وجه سناء بالسعادة.

وقامت وارتدت ثيابها بسرعة، ووقفت على الباب قبل أن تخرج، وهى متقمصة شخصية ابنة الباشا.. ووقف محمد يودعها قائلا :

– خلاص.. زى ما اتفقنا.

– بس يا محمد.

وقاطعها وهو يمسك بيدها ويضغط عليها :

– مافيش طريقة غير دى يا سناء.. إحنا ما بنعملش حاجة غلط..

ده حقنا.. حق حبنا.. إذا كان بابا ما بيعترفش بالحب.. ربنا بيعترف بيه.. ربنا هو اللى خلانا نحب بعض.. وربنا عايز كل اتنين يحبوا بعض.. يتجوزوا.

وقالت سناء فى خفر :

- طيب سيبنى أفكر يا محمد.

قال :

- فكرى بقلبك يا سناء.. ما تفكريش بعقلك.. عقلك يمكن يتأثر بأبوكى.. إنما قلبك ما فيهش إلا الحب.. ومش ممكن يتأثر إلا بالحب.

ومالت عليه وقبلته قبلة سريعة، وقالت وهى تخرج مسرعة:

- أنا من يوم ما عرفتك.. وأنا ماليش إلا قلب.

وصاح وراءها :

- استنى لما أوصلك.

وقالت وهى تجرى :

- لأ.. أحسن حد يشوفنا.. يمكن يكون بابا مسلط حد ورايا.

وعادت إلى غرفتها فى البنسيون.

وهى تعيش فى القصة الجديدة.

لم تقابل محمد خلال هذا الأسبوع.. ولكنها كانت تحادثه فى التليفون كل يوم.. مرات كثيرة.. كلما استطاعت أن تجده فى مكان به تليفون.. كما تفعل البنات.. وكان يلح فى لقائها.. كما يفعل الأولاد.. فتعتذر.. مش قادرة يا محمد.. مش عارفة أخرج لوحدى أبدا.. ماما حاتجننى.

واستطاعت خلال هذا الأسبوع أن تعد الملابس التى ترتديها طالبات كلية البنات الأمريكية.

إلى أن حددا اليوم الذى ستهرب فيه معه.

وكانت واثقة أن القصة ستستمر إلى نهايتها.. إلى أن تتزوج محمد.. تتزوجه فعلا وأمام المأذون.

وقد وصلت إلى نهايتها فعلا.
وقفا أمام المأذون.
ولكنها لم تتزوج.

●●●

ووصل محمد وسناء إلى البيت.. وهو لا يزال يغني.. وكف عن غناء الأوبرا.. وبدأ يغني أغنية سيد درويش.. على أد الليل ما يطول.. ثم بدأ يصب لنفسه كأسا من الويسكي.. وحمل كأسه ووقف به أمام تمثال الإله بوذا الموضوع فوق المائدة المرتفعة، وابتسم ابتسامة غامضة كابتسامة بوذا.. ثم استدار وعاد يكمل أغنية «على أد الليل ما يطول».. لا شيء حدث بالنسبة له.. كل ما حدث أن القصة انتهت.. ولا يهمه كيف انتهت.. لا شيء يهمه.. كل ما عليه الآن، هو أن يبحث عن قصة جديدة يعيشها.

وجرت سناء المقعد القش ووضعته بجوار النافذة وجلست، ورأسها مائل فوق يدها.. وهي مغتاظة من محمد.. لأول مرة تحس بالغيظ منه.. ربما كانت مغتاظة من سعادته.. لا شيء يمكن أن يعكر هذه السعادة.. لا شيء يمكن أن يأخذه جدا.. سوى خياله.

ولكن غيظها بدأ يخف مع نسمات المساء التي تهب على وجهها.. بدأ حبها يغلب خيبتها في حلمها.. ربما كان هذا أفضل.. محمد لم يكن يعني الزواج.. إنه كان سيتزوجها فعلا.. فهو ليس مجنونا.. إنه يعي ما يفعله.. حتى ما يفعله بقوة اندفاع خياله.. ولكن.. لو كان قد تزوجها فهو لم يكن يعني الزواج.. لم يكن يعنيه كحياة.. كإرادة تصنع بيتا وأولادا وحياة مستقرة.. إنما كان يعنيه فقط كنهاية لقصة جميلة يعيش فيها.. وكان سينتهي بالنسبة له بمجرد انتهاء القصة.. إنها خديعة أن تقبل الزواج به على هذا الوضع.. إنه نوع من استغلال خياله وبراءته.. وهي لا تريد أن تستغله.. إنها تحبه.

ونظرت إليه في حب.. وأحست احساسا كاملا بأنه طفل كبير..

طفلها.. ابنها.. ربما كان بعض حبها له حب أم.. أم تساير ابنها فى لعبه.. وتخاف عليه.. وتحميه.. تحميه من نفسه.. ومن خياله.

وعادت وأدارت رأسها تنظر عبر النافذة.

وحددت بصرها فى الفضاء، ثم صاحت فى فرح :

– صادق بيه جه.

وقفزت من فوق المقعد، وانطلقت من الباب تجرى بين الحقول، نحو رجل أنيق.. وجهه أبيض مشرب بالحمرة.. هادىء العينين.. هادىء الخطوات.. يبدو فى الخمسين من عمره.

ووضعت كلتا يديها فى يديه وهى تصيح فى فرح :

– كنت متأكدة إنك جاى.

ونظر إليها وحنان هادىء فى عينيه، وابتسامة رائقة كالبلور بين شفتيه.. وسحب يديه من يديها، ثم رفع كفه وحاول أن يمسح بها على شعرها، ولكنه عاد وخفضها.

وقال فى صوت هادئ :

– جيت اطمن عليكى.. وعلى محمد.

وقالت وهى تحنى رأسها :

– ما اتجوزناش.

ونظر إليها صادق بيه طويلا.. ثم وضع أصابعه تحت ذقنها، ورفع رأسها إليه، وقال وهو ينظر إليها بعينيه الهادئين :

– ماتزعليش.. حاتتجوزى.



التقط صادق بيه يد سناء في يده وسار بها نحو البيت.. وقبل أن يدخل شد قامته، ووضع نظرات غاضبة ثائرة فى عينيه، وضغط على عروق عنقه، فازداد وجهه الأبيض احتقانا، ثم دفع الباب بيده دفعه قوية، ووقف ينظر إلى محمد كأنه ينهش وجهه بعينيه.

وابتسم محمد ابتسامة كبيرة، وتقدم مادا يده وفى يده الأخرى كأس الويسكى وهو يصيح بصوته الذى يضج بمرح الأطفال :

– أهلا.. صادق بيه.

ورفض صادق بيه أن يمد يده إليه، وصاح فى صوت يمزقه الغضب :

– وكمان لك عين تسلم عليّ.. يا مجرم.

وبسرعة التقط محمد دوره فى التمثيلية، وأرخى عينيه ولف يديه حول كأس الويسكى يخفيه فى ارتباك، وقال فى تلعثم :

– والله يا أفندم.. ده.

وقاطعه صادق بيه صارخا :

– اخرس.. الله يفضحك زى ما فضحتنى.. عملتها.. عملتها يا مجرم.

وقالت سناء وهى تمثل دور الابنة التى ضبطها أبوها فى بيت حبيبها :

– أبدا يا بابا.. ما عملش حاجة.

وصرخ صادق بيه :

– اخرسى انتى كمان.. لسة بتدافعى عنه.. بعد ما غرر بيكى..

بعد ما فضحك.. بعد ما مرمطك ومرمطني.

ثم التفت إلى محمد واستطرد في صراخه :

– تعرفي أنا لازم أعمل فيك ايه.. لازم أقتلك.. أغسل شرفي بدمك.. أدبحك بسكينة.. سكينة باردة.. و..:

وارتعش صادق بيه، ومال إلى الوراء ويده على قلبه كأنه أصيب بأزمة قلبية.. وصرخت سناء :

– بابا.

وألقى محمد كأس الويسكي من يده وخطا نحو صادق بيه في لهفة، وأحاطه بذراعيه، وتعاون هو وسناء على اجلاسه على المقعد القش ذي المسندين.. وسناء تصيح في صوت مبهور :

– بابا.. سامحني يا بابا.. خلاص.. حاسمع كلامك.

وصاح محمد وهو يحاول أن يخلع حذاء صادق بيه :

– هاتي كباية مية قوام يا سناء.

وقفزت سناء، وعادت بكوب ماء.. وصادق بيه لا يزال جالسا مغمض العينين، ورأسه مائل إلى الوراء.

وأخذ محمد كوب الماء من يد سناء والتقط بأصابعه بعض قطرات منه، وأخذ يرشها على وجه صادق بيه.

وعدل صادق بيه عنقه، وفتح عينيه نصف فتحة، ونظر إلى رباط عنقه الأنيق، وعندما اطمأن إلى أن قطرات الماء لم تقع عليه، عاد وأغمض عينيه ومال برأسه إلى الوراء، وصدره يتهدج، وسناء تصيح :

– بابا.. ياحبيبي يا بابا.

ومحمد يقول في صوت مبهور :

– أنا آسف يا عمي.. اللي إنت عايزة حا اعمله.

ورفع صادق بيه رأسه في بطء وهو يتأوه، وقال كأنه يلفظ أنفاسه :

– أنا خلاص يئست.. سلمت.. مادام وصلتم للدرجة دي، يبقى جوازكم أرحم.

ثم التفت إلى سناء، وأخذ يمسح بيده على شعرها، وقال في حنان :

- أنا كنت عايزك تتجوزى ابن أخويا.. إنمـا القسمة كدة.. طالعة زى مامتك الله يرحمها.. عنيدة.. ومجنونة.

ورفع رأسه إلى محمد قائلا :

- روح هات المأذون يا ابنى.

وقال محمد فى فرح :

- صحيح يا عمى.

وقال صادق بيه فى استسلام :

- صحيح يا محمد.

وقفز محمد ووقف فى النافذة يصيح :

- يا حاج مدبولى.. يا حاج مدبولى.

وقاطعه صادق بيه قائلا :

- خليه ياخد العربية.. علشان ما يتأخرش.

●●●

كان صـادق بيه عـرفة مـوظفا كبـيرا فى الحكومـة. وصل إلى درجة مدير عام.. ثم طلب احالته إلى المعاش وهو فى الخمسين من عـمـره.. وكـان من هواة الأدب.. يكتـب المسـرحـيـات.. ولم تكن مسرحيات ناجحة.. لم تنجح له مسرحية واحدة.. ولكنه كان دائما يستطيع أن يقنع مديرى الفرق باخراج مسرحياته.. بل إنه نال أكثر من جـائزة من جـوائز الدولة فى الأدب.. وأصـبح عـضـوا فى كل الهيئات الأدبية، ورئيسا لكثير من اللجان الفنية.. وكان يعرف كيف يصل إلى كل هذا.. يعرف من يدعو إلى ولائمة الكثيـرة التى يقيمها فى بيته.. ويعرف كـيف يبدو دائما فى مظهر محتـرم فخم، يحوطه الوقار، والهـدوء الجمـيل.. وربما اعـتقـد المشرفـون على الفن فى الدولة، أن الفن فى حاجة إلى مظهر محتـرم وقور، فاختاروه ليمثل هذا المظهر، رغم أنهم يـعلمون أن مستـواه الفنى، لا يؤهله لشىء.. وربما كـان هو نفسه يحس بأن هذا المظهـر المحتـرم الوقور، هو الشىء الوحيـد الذى يمكن أن يعوضـه عن ضعف مسـتواه الفنى.. وقد ساعدته ظروفـه الخاصة على أن يبقى دائما محتـرما.. فهو لم يكن فى حاجة إلى التكسب من الفن.. كان يعطى مـسرحياته للفرق

التمثيلية مجانا.. وأحيانا يساهم بماله فى نفقات اخراجها.. وكان كثيرا ما يدفع للممثلين والممثلات مكافآت تشجيعية لاشتراكهم فى تمثيل مسرحياته.. ويرسل الهدايا الثمينة إلى الممثلين والممثلات الكبار.. وبقى لذلك محترما دائما.. وعين فى الهيئات الأدبية لأنه محترم، ونال جوائز الدولة لأنه محترم، وأخرجت الفرق الحكومية مسرحياته لأنه محترم.. ولأنه محترم، أصبح اسمه فى الوسط الفنى «صادق بيه».. لم يحمل أبدا لقب أستاذ.. إنما دائما «بيه».. بالهاء.

وقد عاش صادق بيه طوال عمره فى الوسط الفنى.. وكانت له فيه مغامرات نسائية كثيرة، كان يحرص دائما على اخفائها والتستر عليها.. لا خوفا من زوجته، فإن أحدا لم ير زوجته ولا أولاده أبدا.. حتى خلال الولائم الكثيرة التى كان يقيمها فى بيته لأهل الفن، لم يلتق أحد من المدعوين بزوجته وأولاده.. كانت عائلته بعيدة دائما عن الوسط الفنى.. وربما لم يكن يهمه أن تعرف زوجته بعلاقاته الغرامية أو لا تعرف، ولكنه كان يحرص على اخفاء هذه العلاقات حرصه على احترامه ووقاره، وسمعته الطيبة.

وكان صادق بيه يسعى دائما لأن يربط نفسه بالأجيال الجديدة من الفنانين.. كان يوطد صداقته بالشبان والشابات منهم، ويبدو بينهم كأنه صديق كبير.. يعيش حياتهم.. وأفكارهم.. ويدفعهم إلى الأمام، ويدافع عنهم.. وكانوا يحبونه.. ولكن واحدا منهم لم يستطع أبدا أن يصل إلى أعماقه.. وفى أعماقه تشبث شديد بالحياة.. وتشبثه بالحياة يدفعه إلى الجرى وراء الأجيال الجديدة، إنه لا يريد أن يفوته شيء.. لا يريد أن يشعر بأنه انتقل إلى الجيل الذى انتهى.. يريد أن يبقى دائما مع الجيل الذى يتقدم.. وكان يحس رغم ذلك أنه شاخ.. وأن اناقته، ونشاطه، وأفكاره المتطورة، لم تعد تكفى لاخفاء شيخوخته.. وكان فى أعماقه كثير من الحسد الخفى لهؤلاء الشبان والشابات الذين يصادقهم.. كان يحس بالحسد عندما يرى شابا منهم فى ذراعه فتاة صغيرة.. إنه لم يعد له نصيب فى البنات الصغيرات وكان يحس بالحسد عندما يرى شاباً منهم

يرتدى القميص والبنطلون، ويفتح صدره لتبدو من تحته عضلاته.. إنه لا يستطيع أن يفتح صدره حتي لا يبدو من تحته لحمه الأبيض المترهل.. وكان يحس بالحسد عندما يراهم يرقصون.. إنه لا يستطيع أن يرقص.. كل قيمته أنه إنسان محترم.

ورغم ذلك فقد استمرت مغامرات صادق بيه النسائية، التى يحرص على إخفائها.. مغامرات مع نساء صغيرات.. يدفعه إليها تشبثه بالحياة، أكثر مما تدفعه إليها طاقته على الحياة.. ولم يكن طريقه إلى النساء الصغيرات هو الغزل الصريح.. بالعكس.. كان يكفى أن يظل محترما.. وكان مظهر احترامه يضفى عليه شخصية الرجل الصعب المنال.. فتبدأ البنت فى التقرب إليه كأنها يائسة من الحصول عليه.. مترددة.. محترسة.. حريصة على ألا تخدش هذا الاحترام.. وكأنها لو نالته فستنال شيئا عزيزا.. وكان صادق بيه يجيد التلاعب باليأس والأمل فى صدر البنت، حتى ينالها.. أو يتركها تناله.. دون أن يربط نفسه بها.. أو يعرض نفسه للفضيحة.

وتعرف صادق بيه إلى محمد.

واستراح إليه.. أصبح أقرب شخصيات الوسط الفنى إليه.. ولم يكن فى محمد شىء يثير حسد صادق بيه أو يتعب شيخوخته، أو يكلفه المغالاه فى مظهر احترامه.. إن محمدا يعيش فى خيال، ويرفع صادق بيه معه إلى هذا الخيال.. ليس فى حياة محمد واقع يدفع صادق بيه إلى أن يقارن بينه وبين واقعه.. إن محمدا يمثل دائما.. يمثل على خشبة المسرح، وفى الحياة.. وصادق بيه يتفرج عليه على خشبة المسرح، وفى الحياة.. ويعجب به على خشبة المسرح، وفى الحياة.. ومحمد لا يريد شيئا.. ولا يهمه شئ.. لا يهمه إذا كان صادق بيه محترما أو غير محترم، إنه بالنسبة له واحد من المتفرجين.. فأحس صادق بيه أنه يستطيع معه أن يريح نفسه من حرصه على مظاهر الاحترام.. ومحمد ليس معركة، حتى هذه المعركة الخفية المستمرة بين الشباب والشيوخ، تهدأ فى حياة محمد.. فمحمد لا يباهى بشبابه، ولا يحس به، ولا يفرضه على أحد.. إنه ليس شابا، ولا شيخا.. إنه خيال.. إنه فن مجرد.. إنه

سلام.. سلام دائم.. وصادق بيه فى حاجة إلى هذا السلام.. ليرتاح.

إلى أن ارتبط محمد بسناء.. أو لم يرتبط بها.. ولكنها لصقت نفسها به.. وبدأت سناء تثير ما فى أعماق صادق بيه.. كانت تتحرك أمام عينيه فيحس بأنها تعيش فى صدره.. يحس بهذه الرغبة العنيفة فى مقاومة شيخوخته.. فى اللحاق بالحياة.. بالشباب.. بالجمال.. وبدأ يحسد محمد.. بدأ يرى فى محمد شبابه.. وجماله.. ورشاقته.. لم يعد محمد بالنسبة إليه مجرد خيال.. ليس مجرد ممثل يتفرج عليه.. إنه إنسان.. رجل.. رجل يتميز عنه بالشباب.. رجل تحبه سناء.. ويحسده.

وبدأ صادق بيه يقاوم أعماقه.. إنه يكره ما فى أعماقة.. إن ما فيها يتعبه.. يقلقه.. يعكر هدوء نفسه.. وهو يريد أن يحتفظ بجانب من حياته هادئا.. رائقا.. ليس فيه هذا الحسد، ليس فيه الجهد العنيف الخفى الذى يبذله تشبثا بالشباب.. وقد كان محمد يمثل هذا الجانب الهادئ.. كان محمد راحته.. وهدوءه.

واستمر يقاوم.. لا من أجل صداقته لمحمد.. فهو يعلم أن محمدا لا يهمه شىء.. لا يهمه لو بقيت سناء له أو أخذها غيره.. ولكن صادق بيه كان يقاوم من أجل نفسه.. من أجل هدوء نفسه.. وكان يشعر بأنه فى حاجة إلى جهد أكثر فى المقاومة، كلما عرف سناء أكثر.. إنها شىء آخر غير بقية الممثلات.. شخصيتها العارمة.. ذكاؤها.. حيويتها الدافقة.. إن ما فيها من حيوية يكفى عشر بنات.. ويكفى لا نتزاعه من شيخوخته.. أنها تحرك كل شىء فيه.. تحرك ذكاءه.. وتحرك عواطفه.. وتحرك ذكرياته.. وتحرك آماله.. تفعل كل ذلك بلا تعمد.. بلا قصد.

وقاوم أكثر.. ومقاومته تجعله يغالى فى مظهر احترامه لنفسه.. وتجعله يغالى فى عواطف الصداقة والأبوة التى يحيط بها محمد وسناء.. وفى نفسه احساس خبيث بأن هذا المظهر المحترم، وهذا العطف، ربما يبهر سناء، ويغريها بأن تخطو نحوه الخطوة الأولى.

وسناء تحس بغريزتها وذكائها بما فى أعماقه.. ولا تفوتها هذه

النظرة اللامعة التى تطوف بعينيه بين الحين والحين.. وهذه اللمسة العابرة التى يمر بها أحيانا على شعرها أو على ذراعها.. ولكنها لا تهتم.. ما دام لا يزال محتفظا بمظهر احترامه لنفسه، واحترامه لها.. وما دام ما يبديه هو هذا الشعور بالصداقة والعطف.. بالعكس.. إنها تميل إليه كصديق كبير.. وصداقته لمحمد ومعرفته الدقيقة بشخصيته وأطواره، تجعلها تميل إليه أكثر.. وتشركه فى أسرار حبها.. كانت تروى له القصص التى يمثلانها على مسرح الحياة.. وكانت تكشف له عن خوفها من ألا يكون حب محمد لها أكثر من قصة يتخيلها.. ثم روت له تفاصيل القصة الأخيرة التى يعيشانها.. قصة الزواج.

وكان صادق بيه يستمع إليها ويتظاهر بمباركة حبها.. وتظاهر أكثر بالحماس لزواجها من محمد.. حتى لو تم هذا الزواج كنهاية لقصة يمثلانها.. وكان فى تظاهره يحاول أن يكبت عواطفه.. يحاول أن يبقى نظيفا.

●●●

وعندما ذهب صادق بيه إلى بيت محمد كان يظن أنهما قد تزوجا.. انتهيا من التمثيلية.. وعندما قالت له سناء، إن التمثيلية لم تنته.. أو انتهت إلى لا شىء.. قرر أن يشترك فيها بنفسه.. ارضاء لسناء.. وقام بتمثيل دور الأب.. أب سناء.

وتم كل شىء.

جاء الشيخ عبدالبارى المأذون، وعقد العقد.. وصاح محمد كما صاح فى المرة الأولى، عندما ذهب هو وسناء إلى بيت الشيخ عبدالبارى :

- المهر خمسة آلاف جنيه.

ورد صادق بيه فى هدوء ووقار :

- أنا مش عايز منك فلوس يا ابنى.. أنا مابديش بنتى بفلوس.. مش عايز منك إلا خمسة وعشرين قرش.

وقال محمد فى احترام كبير :

- أمرك يا عمى.

وانتهى العقد.. ووقع صادق بيه وكيلا عن سناء.. ووقع محمد.. ووقع الحاج مدبولى، وابنه عوضين اللذان يزرعان الأرض المجاورة، كشاهدين.

والجميع يحسون كأنه شيئا ناقصا فى هذا الزواج.. شىء غير حقيقى يطوف بهم.. ويحتارون فيه.

وأكثرهم دهشة هو صادق بيه نفسه.. إنه لا يصدق كل ما حدث.. لا يصدق أن هناك على الأرض أناسا كمحمد.. وقد عاش طوال عمره يتخيل القصص ويكتبها.. ولكنه لم يكن يعرف أن الخيال يمكن أن يكون واقعا.. أو الواقع يمكن أن يكون خيالا.. لو أن محمد وسناء قد تزوجا على خشبة المسرح لكان هذا طبيعيا. ولكنهما ليسا على خشبة المسرح.. والشيخ عبدالبارى المأذون ليس ممثلا.. وهذه الورقة التى وقعها الجميع، ورقة رسمية.

إن محمد وسناء تزوجا فعلا.

ليس تمثيلا.

ولا خيالا.

وانصرف المأذون بعد أن دفع له صادق بيه أتعابه.. وجلس يتناول كأسا مع محمد، ثم قام لينصرف.

وقال محمد :

– رايح فين ؟

وقال صادق بيه :

– حافوت على الفرقة شوية.

وقال محمد فى بساطة :

– حاجى معاك.

وقال صادق بيه وهو يحاول أن يبدو طبيعيا :

– لأ يا محمد.. الليلة لازم تفضل مع عروستك.

ونظر محمد إليه كأنه دهش.. لماذا يبقى مع عروسه.. ولماذا لا يذهب مع صادق بيه.. لقد تزوج سناء.. إنه يعلم أنه تزوجها.. ويعلم أن هذه القصة الطويلة الجميلة التى اشترك فى تأليفها وتمثيلها قد انتهت بزواجه من سناء فعلا.. ولكن لماذا يمنعه الزواج

من الذهاب مع صادق بيه؟.. ما الفرق بين الحياة قبل الزواج والحياة بعد الزواج؟.. إنه لم يتغير فيه شىء.. ولا يمكن أن يتغير فيه شئ لمجرد أنه وقع ورقة قدمها له الشيخ عبدالبارى.. وسناء أيضا لم تتغير.. فلماذا يتغير ما بينهما.. ولماذا تتغير الحياة.. ولماذا يطلب منه صادق بيه أن يبقى فى البيت هذه الليلة.. ولماذا لم يطلب منه أن يبقى فى الليلة السابقة، وهو يعلم أن سناء كانت تستطيع أن تبقى معه؟!

وظل محمد فاغرا فاه دهشة.

ونظر صادق بيه إلى سناء، وفى عينيه أمل حزين.. ثم خرج.. وحرص على أن يغلق باب البيت وراءه، كأنه يغلق باب قلبه حتى لا يسمع أحد صوت دقاته.

وهز محمد كتفيه كأنه ينفض عنهما دهشته، ثم التقط كأسه وأخذ ينظر إلى تمثال الإله بوذا، كأنه يحادثه بعينيه، ويسأله عن سر الحياة.. ثم استدار وقفز جالسا على حافة النافذة، وساقاه الطويلتان مدلاتان خارجها.. خارج البيت.. ونظراته منطلقة إلى آخر حقل البرسيم الممتد أمامه.. وبين شفتيه ابتسامة لا مبالية.

ووقفت سناء تنظر إليه وهو مدير ظهره لها، وعيناها حزينتان.. ليست فيهما فرحة العروس.. فيهما حيرة وندم.. تحس احساسا عميقا بأنها أخطأت بزواجها من محمد.. تحس بأن الزواج قد أبعد بينهما.. تحس بأنها كانت تملكه منذ نصف ساعة، قبل الزواج، أكثر مما تملكه الآن.. ثم احست بنوع من الشفقة.. الشفقة على محمد من هذا الزواج.

وتنهدت سناء.. واغتصبت ابتسامة وضعتها على شفتيها.. وهمت بأن تقترب من محمد.. ولكنها عدلت.. كأنها خافت منه.. واتجهت إلى غرفة النوم.. ووقفت على بابها، وقالت فى صوت رشيق :

– محمد.

والتفت إليها وعلى شفتيه نفس الابتسامة اللامبالية.. فاستطردت فى صوت أكثر رقة تهدجه خفقات قلبها :

- مبروك.

ونظر إليها محمد وعيناه تضحكان.. نفس الضحكات اللامبالية..ثم القى إليها قبلة فى الهواء.

ووضعت قبلة على يدها طيرتها إليه.. ثم دخلت حجرة النوم.

ولم يلحق بها محمد.

ظل جالسا على حافة النافذة ونظراته منطلقة فى حقل البرسم.. وعقله سارح وراء القصة التى انتهت بزواجه.. لقد تزوج لأن سناء تريد الزواج.. كان يعرف أنها تريد الزواج حتى لو لم تطلبه..فأراد أن يعطيها شيئا.. مجرد شىء.. كالخاتم الفضى الذى أعجبها يوما فاشتراه لها.. وكقرطاس البسكوت المحشو بالجيلاتى، الذى يشتريه لها كل مساء وهما فى طريقهما إلى البيت.. ثم إن القصة التى خطرت له لتكون قصة زواجهما. أعجبته، فاندمج فيها ولكن.. هل معنى ذلك أن شيئا قد حدث فى حياته.. هل معنى هذا أن عليه أن يصبح شخصا آخر.. لا يظن.. ولا يظن أن سناء كانت تعنى أن يتغير شئ فى حياتهما.. إن سناء ليست كبقية البنات.. إنها فنانة.. إنها رقيقة كالخيال.. طيبة كأعواد البرسيم.. جميلة كالوردة.

وفجأة تذكر أمه.

ولا يدرى لماذا تذكر أمه وهو يفكر فى سناء؟

لقد كانت أمه صنفا آخر من النساء غير صنف سناء.. كانت امرأة كبيرة.. كبيرة الحجم.. كبيرة القلب.. كبيرة العقل.. كبيرة فى سيطرتها على كل شىء.. جميلة.. جمال الشىء الكبير.. وكان يحبها.. يحبها جدا.. ويشعر بجانبها دائما أنه صغير.. ويستسلم لها استسلام الصغير.. كانت هى التى تفعل له كل شىء.. تجلس بجانبه وهو يأكل.. امضغ كويس يا محمد.. أمسك الشوكة كويس يا محمد.. ماتنقطش على هدومك يا محمد.. وكانت تجلس بجانبه وهو يذاكر.. ذاكر يا محمد.. قول تاني يا محمد.. حسن خطك يا محمد.. قوم نام باه يا محمد.. محمد.. محمد.. كان اسمه دائما على لسانها.. إنه يصحو من النوم على صوت اسمه يتردد على لسانها.. وينام على صوت اسمه يتردد على لسانها.. لم تكن أمه

تردد اسم أخته الكبيرة فاطمة، كما تردد اسمه.. يخيل إليه أن أمه كانت تتنفس اسمه.

وكان يحس دائما برغبته في الابتعاد عن أمه.. لا يدرى لماذا؟ ولكن منذ صغره وهو يحاول أن يبتعد عنها.. رغم أنه يحبها.. رغم أنه كان يعيش بها.. وقد كان فى السادسة من عمره، عندما اختبأ مرة فى بدروم البيت.. لم يختبىء.. أو لم يتعمد الاختباء.. ولكن أمه ابتعدت عنه برهة، فنزل إلى البدروم.. وجلس فى حجرة صغيرة مظلمة كانت تستعمل كمخزن للمهملات.. وجلس طويلا.. ربما ساعتين.. ثلاث ساعات.. وكان سعيدا.. لم يكن يفعل شيئا.. ولكنه كان سعيدا.. ثم خرج من البدروم.. فإذا به يجد البيت كله مقلوبا.. وأمه تبكى.. حتى أبوه الذى كان دائما هادئا، وجده ثائرا.. ولم يفهم سبب كل ذلك.. لقد قالوا له إن السبب أنه اختبأ فى البدروم.. ولكنه لم يكن مختبئا.. لقد كان هناك بلا اختباء.. ولم يفعل شيئا.. فلماذا كل هذه الضجة.. ولماذا تبكى أمه؟

ولم يستطع من يومها أن يختبىء فى البدروم.. كان كلما نزل إليه لحقته أمه.. وهو يريد أن يجد مكانا يذهب إليه.. مكانا له وحده.. والأيام تمر وهو يحس بأنه يريد أن ينطلق خارج البيت.. إنه يذهب إلى المدرسة.. وعندما يعود من المدرسة تسمح له أمه بأن يبقى فى حديقة البيت ليلعب مع صديقيه توفيق وحلمى.. ولكن هذا لا يكفى.. إنه يريد أن ينطلق أكثر.. وأكثر.. يريد أن يصل إلى الأفق.

وأحيانا كان يلجأ إلى أبيه.. وكان أبوه يقيم وحده فى الدور الأول من الفيللا التى تملكها العائلة فى شارع الأجهورى بالعباسية.. ولا يدرى لماذا كان يقيم وحده.. أمه مع الأولاد فى الدور العلوى.. وأبوه وحده فى الدور الأول.. ولم يحاول أن يسأل نفسه كثيرا.. كان يرى كل الآباء يقيمون مع الأمهات فى دور واحد، ما عدا أباه وأمه.. ورغم ذلك لم يسأل نفسه شيئا.

وكان أبوه إنسانا رقيقا، من ذوى الأملاك.. هادئا دائما.. مبتسما.. وكان له أصدقاء كثيرون من المطربين والعازفين، يجتمعون عنده أحيانا ويعزفون ويغنون.. ولم تكن امه تشارك فى

هذه الحفلات الصغيرة.. ولم تكن تبدو أمام أصدقاء أبيه.. وكان وجهها يتجهم عندما يصل صوت الغناء والعزف إلى الدور العلوى، وتنظر إلى محمد وفاطمة فى جزع كأنها تخشى أن تنتقل إليهما العدوى.. ثم تصحبهما إلى فراشهما ليناما، وتغلق الباب جيدا حتى لا تتسرب إليهما الألحان.. وينام محمد وكل اذنيه فى الدور السفلى.

وقد حاول محمد فى صغره أن يفهم من أبيه سر هذه الألحان.. وحاول أن يجد عنده دنيا أوسع من الدنيا التى يجدها عند أمه.. ولكن.. كان لقاؤه مع أبيه فى مواعيد منظمة.. فهو يلتقى معه فى الصباح عندما يذهب إلى المدرسة ليقول له صباح الخير.. ويلتقى معه ساعة الغداء عندما يصعد الأب إلى الدور العلوى ليتناول غداءه معهم.. ثم لا يراه بعد ذلك إلا فى صباح اليوم التالى.. ليقول له صباح الخير.. وقد حاول محمد.. بلا تعمد.. أن يأخذ من أبيه أكثر من ذلك.. كان يتسلل من حنان أمه الذى يحيط به، وينزل إلى الدور الأول.. ويستقبله أبوه فى فرحة.. ولكنه لا يلبث أن يقول له من خلال فرحته.. اطلع فوق يا محمد زمان ماما بتدور عليك.. وكان محمد فى طفولته يدهش.. لماذا لا يبحث عنه أبوه كما تبحث عنه أمه.. لماذا لا يبقى مع أبيه كما يبقى مع أمه؟ ولكن دهشته لم تكن تبقى طويلا.

وقد مات أبوه وهو فى الثامنة من عمره.

وحزن.

ولكنه لم يطق حزنه.. لقد بكى لأن الجميع من حوله كانوا يبكون.. ولكنه لم يبك طويلا.. إنه لا يحب البكاء.. ولا يحب الحزن.. وذهب يومها إلى الخادمة العجوز التى كانت تعمل عندهم، وقال لها فى بساطة :

– احكيلى حكاية يا أم نبوية.

وشخطت فيه أم نبوية قائلة :

– عيب عليك يا ابنى.. وده وقت حكايات.. ده أبوك لسة ماوصلش تربته.. أقعد عيط لك شوية.

ولم يفهم محمد لماذا يجب أن يجلس ويبكي؟

لقد مات أبوه.

وهو حزين.

ولكن لماذا لا تحكي له أم نبوية حكاية؟!

ونزل إلى البدروم، وجلس في مخزن المهملات، وأخذ يتخيل الحكايات التي كانت ترويها له أم نبوية.. وجلس طويلا.. لم يخرج من البدروم إلا عندما انتهت أمه من حزنها ومن زحمة العزاء، وأرسلت أم نبوية تبحث عنه.

وعاش بعد ذلك في ظل أمه.

وفي الحادية عشرة من عمره قررت أمه أن تخصص حجرة من البيت لأخته فاطمة فأصبحت حجرته له وحده.. وفرح.. إنه يستطيع أن يبقى وحده.. وأن يقرأ.. وكان في هذه الأثناء قد بدأ يقرأ روايات الجيب.. أرسين لوبين، وباردليان.. ويعيش فيما يقرؤه.. يعيش بكيانه كله.. كان خياله الذي تثيره القراءة يسري في كل قطعة من جسده.. كان يضحك فعلا، إذا كان في القصة التي يقرؤها، ضحك.. وكان يبكي إذا كان فيها بكاء.. كان وجهه يمثل وهو يقرأ.. ثم أصبح يمثل ما يقرأه فعلا.. يقف في وسط حجرته ويمثل دور باردليان ويلقي نفس كلماته التي يحفظها بمجرد قراءتها.

ثم بدأ يتخيل حوادث وشخصيات لم يقرأها، ويمثلها.. ثم أصبح يقلد شخصيات التقى بها.. يقلد أم نبوية وهي تسير محنية الظهر تبربش بعينيها المريضتين.. ويقلد عم فرج بائع الجيلاتي وهو يعرج في مشيته ويغني لبضاعته.. وكان يقضي ساعات طويلة في التمثيل والتقليد وهو وحده.. في حجرته.. سعيدا بوحدته.

ولاحظت أمه طول انعكافه في حجرته.. وبدأت تقلقه في راحته.. وهو لا يدري لماذا تقلقه.. ولا يدري ما هو الخطأ فيما يفعله؟ واسمه على لسان أمه يطارده.. فينزل إلى الحديقة.. أو إلى بيت صديقه حلمي.. أو بيت توفيق.. ويمثل أمامهما.. ثم بدأ يشركهما في التمثيل.

وفي يوم خرج مع حلمي وتوفيق من المدرسة، وصادفوا

استعراضا عسكريا خارجا من ثكنات الجيش فى العباسية تتقدمه الفرقة الموسيقية.. ووقف الثلاثة يتفرجون.. ولكن محمد أحس بموسيقى الجيش تجذبه من أذنيه.. فسار وراءها.. وتركه زميلاه يسير وحده.. وظل سائراً وراء الفرقة الموسيقية.. والأنغام تشد أذنيه.. وتشد قلبه.. وتشد ساقيه.. لا يستطيع أن يقف.. لا يستطيع أن يبتعد.. وسار طويلا.. وصل إلى ميدان العتبة.. وإلى ميدان عابدين.. ووقف الاستعراض هناك.. وسكتت الموسيقى.. وتلفت حوله يبحث أين هو.. ثم عاد من نفس الطريق الذى أتى منه.. سائرا على قدميه.. والموسيقى لا تزال تملأ أذنيه وصدره.. الموسيقى تنبعث من كل مكان.. من تحت عجلات الترام.. ومن أصوات الباعة.. ومن أبواق السيارات.. إن كل صوت يتحول، داخله إلى موسيقى.. إلى سيمفونية رائعة.

واستقبلته أمه صارخة.

حتى صراخ أمه يتحول إلى موسيقى.. نغم فى السيمفونية المتسقة الجميلة التى تملأ صدره.. سيمفونية الحياة.. وهو ينظر إليها وعلى شفتيه ابتسامته الجميلة الرائعة كخياله.. لا شىء يهم يا أماه.. هناك جمال كثير.. الحياة كلها جمال.

ومن يومها بدأ يكتشف عالمه الخاص.

عالم داخل نفسه.

عالم كله موسيقى.. وخيال.. وقصص.. وجمال.. وأصبح يعيش فى هذا العالم.. وابتسامته فوق شفتيه.. ابتسامة صادقة تحمل كل قلبه.. يبتسم لكل شىء.. لا شىء كريه فى الحياة.. لا شىء يزعج.. وأصبح وهو فى الخامسة عشرة يخرج إلى الشوارع لا يفعل شيئا.. فقط يقبل بعينيه كل ما في الشارع.. ويعود، والجزع فى عينى أمه.. لا تجزعى يا أماه.. وتصرخ أمه.. لا تصرخى يا أماه.. أو اصرخى مادمت تريدين الصراخ.. فلا شىء يهم.

ويئست أمه.. ولكنها وجدت نفسها تحبه أكثر.. وأخته تحبه أكثر.. وصديقاه حلمى وتوفيق يحبانه أكثر.. كل من يعرفه يحبه.. يحبه أكثر.. إنه خيال جميل يطوف بهم.. إنه ضحكة حلوة يحتاجون

إليها. إنه شيء ليس فيه ما يخافونه، وليس فيها ما يقاومونه.. ليس فيه صورة من معركة الحياة التى يعيشونها.. بالعكس.. إنه يريح ذكاءهم.. ويريح أعصابهم المشدودة.. ويريح أطماعهم.

واشترك محمد فى فرقة التمثيل بالمدرسة.. ونجح.. نجح بين طلبة كل المدارس.. ولكنه لم يكن يهمه أن يقدر هذا النجاح.. لم يكن يشعر بالتصفيق الذى يناله كشيء يملكه ويستطيع أن يباهى به أو يستغله.. التصفيق ليس سوى موسيقى أخرى جميلة.. لا تثير أطماعه.. ولا تحدد طريقه.. إن طريقه هو داخل عالمه الخاص.. وهو يمثل لأن فى عالمه الخاص تمثيلا.

ثم بدأ يمثل مع فرق الهواة.. وبدأ يظهر فى حفلات النوادى.. ولم يكتف بالتمثيل.. كان يؤلف مقطوعات زجلية ويلحنها، ويلقيها.. ويزداد نجاحا.. والناس تبتسم من حوله.. كل الناس تبتسم.. وهو سعيد.. ويزداد سعادة لأنه يعيش فى عالمه الخاص.. ولأنه يستطيع أن يسعد الناس الذين يريهم هذا العالم الخاص.

وكان فى خلال ذلك، ينجح فى امتحانات المدرسة.. ينجح لأنه يحب أن يقرأ دروسه.. ولأنه يفهم ما يقرأه.. ويحفظه.. ويذهب إلى الامتحان كأنه ذاهب إلي حفلة تمثيل.. لم يكن يخاف الامتحان.. لم يكن يفكر فى النجاح أو السقوط.. ولم يكن يحسب حساب مستقبله.. ولكنه يذهب إلى الامتحان وهو يمثل دور الطالب فى الامتحان.. وينجح لأنه نجح فى دوره.

والتحق بكلية الهندسة بعد أن نال الشهادة التوجيهية، لا لشيء إلا لأن صديقيه حلمى وتوفيق التحقا بها.. وهو لا يحب أن يفترق عنهما.. لقد عاش معهما طوال حياته.. منذ كان طفلا وهو يذهب معهما إلى نفس المدرسة.. ويلعب معهما فى الشارع.. ويعيش أمامهما.. لم يكن يعيش معهما.. ولكن فقط، أمامهما.. فهو لا يشترك فى مشاكلهما.. إنه يعرف هذه المشاكل.. يعرف أن حلمى أحب بثينة.. ويعرف أن توفيق تشاجر مع والده.. ولكن كل هذه المشاكل ليست بالنسبة له سوى قصص.. قصص يسمعها ويعيش فيها فترة روايتها ثم تنتهى.. ويبقى حلمى وتوفيق فى مكانهما من عالمه

الخاص.. لا يتغيران.. ولا يستطيع أن يستغنى عنهما.. ويحرص على أن يجتمع بهما كل يوم.. ربما لفترة قصيرة.. ولكنه يشعر بأن الحياة فيها دائما حلمى وتوفيق.

ووصل فى كلية الهندسة إلى السنة النهائية.. وفجأة انقطع عن الدراسة.. لم يعد يذهب.. وقرر بينه وبين نفسه أنه لا يريد أن يكون مهندسا.. ليس فى حاجة إلى أن يكون مهندسا.. المهندس إنسان يعيش فى معركة.. معركة مع زملائه.. ومعركة مع الناس.. وخوف وحقد.. وكراهية.. ومسئولية.. وليس فى عالمه شىء من هذا كله.. فلماذا يصبح مهندسا.. حتى لو استطاع أن يكون مهندسا ليس المهم ما تستطيعه، إنما المهم هو ما تريده.. وهو لا يريد شيئا خارج عالمه الخاص.

واجتمع به صديقاه حلمى وتوفيق ليقنعاه بالعدول عن قراره.. وابتسم ابتسامته الحلوة، وقال بصوته الطفل وهو يشير إلى حلمى:

- إنت لازم تبقى مهندس.

ثم أشار إلى توفيق :

- وإنت لازم تبقى مهندس.

ثم أشار إلى نفسه قائلا :

- وأنا مش عايز أبقى مهندس.

ثم تركهما وذهب.

ولم يحاول أحدهما أن يلحق به.. لقد عاشا معه العمر كله.. وعرفا أن هذا هو محمد.. لا يريد من أحد أن يقنعه برأى.. ولا يحاول أن يقنع أحدا برأيه.

ولم يقل محمد لأمه إنه قرر أن يترك الجامعة قبل أن ينال البكالوريوس بشهور.. لم يتعمد أن يخفى الخبر عنها.. ولكنه كان قد عودها ألا يقول لها شيئا أكثر من حبه لها.. وكانت قد تعودت أن تتركه فى عالمه.. بل إنها تركته يسكن فى الدور الأول الذى كان يسكنه والده.. وهى تزداد حبا له، وفرحة به، وكلما كبر ازداد طفولة فى قلبها.. بكل ما فى الطفولة من براءة، وحلاوة، ومرح.

وماتت أمه فى نفس العام.

وحزن.

مرت لحظات أظلم فيها عالمه الخاص. وسكتت الموسيقى.. وجف الخيال.. وذاب الجمال.

ولكن كلنا سنموت.

الموت حقيقة.

وستصعد أمى إلى السماء ملتفة بوشاح أبيض.. وشعرها الطويل ملقى خلف ظهرها.. ووجهها يشع نورا.. والملائكة ينشدون.. والله يبتسم وهو يستقبل وديعته.

وتفتح خياله.. وبدأت ابتسامته تعود إلى شفتيه. قبسا من ابتسامة الله.. ووقف أمام المرآة يرتدى أزهى حلله.. والتقط وردة حمراء كبيرة رشقها فى عروة سترته.. وخرج أمام المعزين كلهم وابتسامته الكبيرة فوق شفتيه.. وتهامسوا وهم ينظرون إليه.. إنه مجنون.. ولم يكن مجنونا.. لقد كان يدرى ما يفعله بالضبط.. وكان يعلم أن ما يفعله مخالف لتقاليد الناس.. ولكنه مقتنع به.. إن الليلة فرح أمه.. فرحها وهى تعود إلى الله.. وهى تريده أن يفرح معها.. ويفرح لها.

وذهب وأقام حفلة بينه وبين نفسه.. ضحك وغنى.. وكثير من الموسيقى.. كثير من السعادة.

ثم عاد فى آخر الليل.

والبيت صامت.

وصعد إلى الدور العلوى كأنه ذاهب ليبحث عن أمه.. وفوجىء عندما رأى المقاعد والأرائك مغطاة كلها بالسواد.. لا تؤاخذيهم يا أمى، إنهم لا يعلمون إنها ليلة زفافك إلى الله.

وفى بساطة أخذ يرفع الأغطية السوداء واحدا بعد الآخر.. وهو يبتسم كأنه يعتذر لأمه.. ودخلت أخته، ووقفت أمامه حائرة مترددة.. والتفت إليها.. إنها هى الأخرى ترتدى ثوبا أسود.

وقال لها وهو لا يزال يبتسم :

– إنتى مصممة تلبسى أسود.

وقالت فاطمة ورموشها ترتعش.. تخاف عليه من أن تصدمه :

– بس عشان الناس يا محمد.

وقال محمد وهو يبتسم :

– ماما حاتزعل منك.

ثم نزل مسرعا وأخذ بعض ثيابه وسافر إلى الاسكندرية.

ولم يعد إلا بعد شهر.. عاد ليقيم فى الدور الأول.. وأخته التى كانت قد تزوجت من الأستاذ عبدالعظيم عبدالله المحامى، تقيم فى الدور العلوى.

ولم يحاول أن يناقش أخته وزوجها، فى توزيع ثروة العائلة وإدارتها.. إنه لم يحاول أن يناقش أحدا فى نصيبه بعد أن مات أبوه.. لقد ترك كل شىء لوالدته.. وكان يأخذ ما تعطيه.. وكانت تعطيه ما يريد.. وكان يعلم أن أباه ترك عمارة كبيرة فى حى الظاهر، وبيتين فى حارة نصير بالعباسية الغربية.. ولكنه لم يحاول أبدا أن يدير هذا الارث أو يسأل أين تذهب أمواله؟

وجاءت إليه أخته وزوجها وقالا له كلاما كثيرا، لم يهتم به.. ولم يحاول أن يسمعه.. وقالا له أخيرا أن نصيبه سيكون خمسة عشر جنيها فى الشهر.

وقال فى فرح الأطفال :

– عال.. نعمة !

وأعطوه أوراقا يوقع عليها، فوقعها وفرحته لا تزال تضج فوق وجنتيه.. وهو ليس من الغفلة بحيث يعتقد أن كل نصيبه هو هذا المبلغ الشهرى.. ولكنه ليس على استعداد لأن يحاسب أخته وزوجها.. ولا أن يدخل معهما فى معركة حول حقه وحقها.. ولا أن يدير هذا الارث بنفسه ويحاسب السكان، ويدفع أجر البواب.. إنه يترك كل هذا لأخته وزوجها.. يترك لهما كل المتاعب ما داما يريدان حملها، نظير جزء من نصيبه.. إنها حسبة منطقية.. ربما كان هو الفائز فيها.. ربما كان ما يمكن أن يبذله من وقته، وأعصابه، أغلى بكثير مما أخذته أخته وزوجها من نصيبه فى الميراث.

وانطلق أكثر بعد أن ماتت أمه.. بدأ يشترك فى فرق التمثيلية الكبيرة.

لم يسع إليها.. ولكن سعت إليه.. كان قد أصبح له اسم من كثرة ما ظهر فى فرق الهواة، وحفلات النوادى.. وكان يتردد كثيرا على هذه الفرق، ويعيش الليل مع أفرادها.. وأحب الحياة معهم.. وأحبوا أن يكون بينهم.. وعندما عرض عليه مدير فرقة النهضة أن يشترك فى فرقته.. فرح.. كاد يطير فرحا.. لم يفرح لأنه أصبح ممثلا محترفا.. إنه لم يشعر أبدا بإحساس المحترف.. ولكنه فرح لأنه أصبح يستطيع التمثيل كل ليلة.

ولم يحاول أن يتفق مع مدير الفرقة على أجره.. وتردد مدير الفرقة فى أن يفاتحه فى موضوع الأجر، فقد كانت لمحمد فى الوسط الفنى صورة الشاب الارستقراطى الغنى، وكان يقال عنه إنه غنى فعلا، وأنه ورث عن أبيه مائة فدان.. ربما لأن شكله.. قامته الأنيقة، ووجهه الوسيم.. ثم تعففه.. ورقته.. كل ذلك قدره الوسط الفنى بمائة فدان.. وانتهى التردد بمدير الفرقة إلى السكوت.

وظل محمد يعمل فى الفرقة بلا أجر.. لا لأنه ليس فى حاجة إلى الأجر، ولكن لأن الأجر يزج به فى معركة الحياة.. معركة مع مدير الفرقة، ومعركة بينه وبين زملائه.. وهو لا يريد أن تكون فى حياته معركة.

وكان يعلم أن مدير الفرقة يكسب من ورائه.. وأنه أصبح دعامة من دعامات الفرقة.. أنه ليس غافلا ولا مجنونا.. ورغم ذلك ظل لا يطالب بأجره.. حتى لا يصيبه رذاذ المعركة.. معركة الحياة.

إلى أن كان يوم.. ومر صدفة على دكان بائع عاديات فرأى فى نافذته تمثالا للإله بوذا.. ووقف طويلا أمام بوذا.. وخيل إليه أن بوذا ينظر إليه.. ثم خيل إليه أنه يحادثه.. وأخذ يحادثه فعلا.. يحدثه فى سره.. وابتسامته تتجاوب مع ابتسامة بوذا.

ونزع نفسه بصعوبة من أمام التمثال.. وابتعد عنه خطوات.. ولكنه شعر أن الإله بوذا يشده من قفاه ليعود إليه.. وعاد.. عاد يقف أمام التمثال.. يبتسم له.. وعيناه تحادث عينيه.. ثم مرة واحدة دخل إلى الدكان، وسأل عن ثمن التمثال. وقال له التاجر.. عشرة جنيهات.. ووضع يده فى جيبه.. ليس فى جيبه سوى ثلاثين

قرشـا.. وبسرعة خرج من الدكـان.. وجرى.. أخذ يجرى فـعلا فى الشـارع.. إلى أن وصل إلى مـسرح فـرقـة النهضـة واندفع نحـو المدير، وقال له وهو يلهث.. وابتسامته ترتعش بين شفتيه :

– إنت عايزنى أمثل الليلة ؟

وأجاب مدير الفرقة فى دهشة :

– طبعا.

وقال محمد فى صوت آمر، كطفل مدلل :

– هات عشرة جنيه.

وبسرعة أخرج مدير الفرقة حافظته وهو يقول :

– بس كدة يا محمد.. اللى إنت عايزه.

وخطف محـمد العشـرة جنيهات، وعـاد يجرى.. ومدير الفـرقة ينظر وراءه كأنه ينظر إلى مجنون.

واشترى محمد التمثال.

ومن يومها لم يفترق عنه.. ولـم يكف عن تبادل هذه الابتسامات الغامضة بينه وبين الاله بوذا، كأن بينهما سرا كبيرا.

ومن يومهـا تعود أن يطلب من مـدير الفرقة نقـودا كلما احـتاج إليها.. ولم يكن مدير الفرقة يرد أبدا طلبه، ربما لأن محمدا لم يكن يطلب أبدا شيئـا كثيرا.. دائما يطلب أقل مما يـستحق من أجر.. أقل مما يكسب من ورائه مدير الفرقة.

ولم يكن مـا يطلبه مـحمـد مبلغا مـنتظما.. ربمـا أخذ فى شـهر خمـسة جنيـهات.. وربما عـشرة.. وربما ثلاثـين.. وربما لا شىء.. وهو يأخذ دون أن يوقع ايصالات.. إن مدير الفرقة نفسه يخشى أن يطلب منه توقـيع ايصال، حتى لا يـخدش خيـاله.. ولم يكن مـحـمد يأخذ وهو يشعـر بأنه يأخذ حقا.. حتى لو كان يعـرف أن ما يأخذه حق له.. إنما كان يأخذ كما كان يأخذ من أبيه ومن أمه.. وكان يحب مدير الفـرقة كـما كان يـحب أباه.. لا لأن مدير الفرقـة رجل طيب، ولكن لأن محمد يحب كل الناس.

وعاش مـحمـد فى الوسط الفنى فوق المعركة.. فـوق المنافسة.. فوق الأطمـاع.. لم يكن يهمه أن يقـوم بدور البطل أو دور الخادم..

ولم يكن يهمه أن يستغرق دوره على المسرح ثلاث دقائق أو يستغرق ثلاثة فصول.. فأى دور يقوم به يعيش فيه طوال يومه وليله.. يعيش فيه على خشبة المسرح وبعيدا عن خشبة المسرح.. ولكن نجاحه لم يرحمه من منافسه زملائه.. بدأوا يحاولون الاستيلاء على الأدوار التى كان يجب أن يقوم بها.. وبدأوا يدسون له حتى يرفع اسمه من إعلانات الفرقة.. وبدأوا يتعمدون ابعاده عن مندوبى الصحف.. وهو لا يشعر غالبا بكل ذلك.. وإذا شعر به، لا يهتم.. فهو لا يريد شيئا.. لا يريد أن تكتب عنه الصحف، ولا أن يبدو اسمه فى الإعلانات، ولا أن يقوم بأدوار معينة كل ما يريده هو أن يمثل.. وكانت له دائما شخصية مسرحية قوية تجذب إليه أنظار الجمهور فى أصغر دور يقوم به.. كان إذا وقف على المسرح بين عشرة ممثلين، تركزت كل العيون عليه وحده.. دون أن يتعمد.. فقط لأن له هذه الجاذبية الفنية الكبيرة.

واشتدت من حوله المنافسة.. وهو يهرب منها.. يهرب إلى خياله.. إلى القصص التى يؤلفها ويمثلها فى حياته.. إنه ليس ابدا «محمد» الذى توجه إليه دسائس منافسيه.. إنه دائما شخص آخر.. شخص يتغير كل يوم بتغير القصص التى يتخيلها ويمثلها.. ولمعت فوقه أسماء أقل منه فنا، فلم يهتم.. واغتنى الكثيرون من الفن، فلم يهتم.. لا شىء أبدا يهم.

واطمأن إليه منافسوه بعد أن عرفوه.. اعتبروه هاويا، لا يعيش معهم فى دنيا المحترفين.. بكل ما فى دنياهم من دسائس، وحقد، وجشع، ونفاق.

وفى يوم.

ذهب محمد يصحبه بعض اصدقائه إلى انشاص، وفى الطريق مر بهذا البيت الصغير القديم المهمل بين الحقول فى المطرية.. ووقف أمامه كما وقف أمام تمثال بوذا.. لم يستطيع أن يتحرك من أمامه إلا بعد أن استأجره.. ستة جنيهات فى الشهر.. ولم يكن يريد هذا البيت لسبب خاص.. ابدا.. إنه فقط تعلق به.. وكان يذهب إليه وحده، أو مع بعض أصدقائه. ويسهر فيه.. ويجرى بين الحقول

ويعود إليه.. إنه يحس بانطلاق أكثـر فى هذا البيت.. ولكنه ظل يحرص على أن يعود دائـما إلى بيت العائلـة فى العباسـية.. إنه يعـود إليه فى الظهر ليتناول غداءه، ويبدل ثيابه.. ولا يهم أن يعود إليه فى المساء.

ولم يخطر على بال محمد أبدا أن يستـأجر هذا البيت ليلتقى فيه مع البنات.. لم تكن فى حياته بنات.

وقد كان مـحمد حلمـا جميلا لكل بنات الوسط الفنى.. شـبابه.. جمـاله.. قامتـه.. رقته.. نظافـته. ولكن واحدة منـهن لم تستطع أن تمسك به.. لأنهن لم يعرفن من أين يمسكن به.

كان يبدو دائمـا لطيفا.. وكانت ابتـسامته تتسـع لكل أحلامهن.. ولكنه فى اللحظة الأخيرة كان يختفى.. كالخيال.. لم تستطع واحدة منهن أن تأخذه كـرجل.. كانت قبلاته دائمـا بريئة ساذجة كـقبلات الأطفال.. وكانت أحـاديثه دائما نظيفة طاهرة ليس فيـها هذا المعنى الذى يقصده كل رجل.. وكانت نظراته دائما مـرحة، ليس فيها حدة الاشتهاء، ولا شهقة التمنى.

إنه طفل.

طفل كبير.

وتهامس بنات الوسط الفنى بأن مـحـمدا ناقص الرجولة.. ليست له القدرة على النسـاء.. وربما سمع مـحـمد بهذه الهمـسات.. وربما فهم ما تقصده فردوس شوقى زميلته فى الفرقة، وهى ترفع عينيها إليه كلما رأته، وتردد وهى تتنهد فى حسرة :

- يا خسارتك يا محمد.

ربما فهم كل ذلك.. ولكنه لم يهتم.. إنه لم يشعر أبدا بحاجته إلى امرأة حتى يسأل نـفسه إن كان قادرا عليها، أو حـتى يجرب قدرته عليـها.. وهو يحب أن يرى النسـاء.. إنهن أشيـاء جميلـة.. كالورد.. كالنجوم.. كشجر التفاح.. كـفوانيس الشارع.. كحبات الترمس فوق عربات الباعة.. ولكنه لم يحـاول أن يربط نفسه بواحدة منهن.. لأن الإنسان لا يربط نفسه بنوع واحد مـن الجمال.. الإنسان يعيش بين الجمال، لا فيه.. كلما تلفت حـوله رأى جمالا.. ولكنه لو أدخل عينيه فلن يرى إلا الظلام.

إلى أن التقى بسناء.
وعرفت سناء كيف تمسك به.
امسكت به من خياله.
ولم يهتم محمد بأن تكون سناء بالذات هى التى تمسك به.. أيه واحدة فى ذكاء سناء وفى شخصيتها كان تستطيع أن تمسك به، لو عرفت الطريق إلى خياله.
وأحس محمد فى سناء بكل أنواع الجمال الذى ينطلق من خياله.. جمال الملكة.. وجمال بنت الشارع، وجمال الحزن، وجمال الفرح،وجمال الهدوء.. وجمال الصخب.. وجمال اللاشىء.. اللااهتمام.. وأحس بكيانها.. أحس بجسدها.. بأنفاسها.. بدقات قلبها.. صحيح أنه كان يرفع كل ذلك إلى مستوى خياله.. ولكن جسده كان مربوطا بخياله.. فأحس بجسدها عندما عاش معه فى هذا الخيال.. أحس بشفتيها بين شفتيه.. أحس بأنفاسها تطوف بعنقه.. أحس بصدرها يلتصق بصدره.. وشعرها يرف فوق وجهه.
وكانت أول فتاة فى حياته.
أول جسد.
ولم يسأل نفسه إن كان يحبها أو لا يحبها.. لم يخطر على باله هذا السؤال.. ولكنه كان لا يهرب منها.. كان دائما يهرب من كل الناس.. بنات ورجالا.. كان خياله أسرع من أن يستقر عند واحد أكثر من ساعات.. ثم ينطلق إلى ناس آخرين.. ومجالات أخرى.. كان لا يطيق أن يرتبط بأحد.. حتى صديقيه توفيق وحلمى، لم يكن مرتبطا بهما، ولكنهما كانا فى حياته.. فقط سناء يستطيع أن يستقر معها.. يستطيع أن يبقى معها طالما بقيت معه.. ربما لأن سناء كانت تحاول أن تكون مثله.. تحاول أن تكون أناسا كثيرين يعيشون فى خياله.. وتختلف فى كل ساعة عن الأخرى باختلاف كل قصة يتخيلها.
وتزوج سناء.
فى قصة.

●●●

وقفز محمد من فوق حافة النافذة، ووقف في وسط الحجرة يعد لنفسه كأسا آخر، ويبادل الإله بوذا ابتسامته الغامضة.

وخرجت سناء من حجرة النوم.. حافية القدمين شعرها منسدل على كتفيها في استسلام بعد أن فكت ضفيرتها.. مرتدية جاكتة بيجامة محمد.. جاكتة من قماش خفيف.. زرقاء مخططة بخطوط عريضة من اللون الفضي.. تنسدل على جسدها حتى ركبتيها.. وتترك ساقيها عاريتين.. ساقان ملفوفتان في لون اللبن المخلوط بشراب الفراولة.. وتنسدل أكمامها الطويلة حتى تغطي كفيها.. وتكشف عن صدرها وأعلى نهديها، وقد مالت فتحتها على جانب.. فبدأ نهداها كخدين يضحكان وعلى كل خد غمازة.

وهمست في صوت مبحوح :

– محمد.. أنا خايفة.. مش حاتيجي تنام بأه.

وابتسم محمد ابتسامة كبيرة، وهو ينظر إليها بكل عينيه المرحتين.. وبقيت نظرته في عينيه برهة طويلة.. ثم رفع كأسه، ورشف منه رشفة وأنزلها من فوق شفتيه، وهو لا يزال ينظر إليها بكل عينيه، وابتسامته تقبل كل قطعة منها.

ثم قال كأنه يسألها عن شيء يحيره :

– احنا اتجوزنا.

وقالت سناء وهي تبتسم ابتسامة مترددة كأنها تعتذر له عن زواجهما :

– أيوة.. مش كنت عايز تتجوزني يا محمد.

وقال كأنه يخاطب نفسه :

– يعني عملنا زي كل الناس ما بيعملوا.. يعني أنا دلوقت.. اسمي جوز.. بعل.. وإنتي اسمك الجماعة.. مرات البعل.

ونظرت إليه سناء، وقد فتحت كل عينيها كأنها تنتظر منه مفاجأة جديدة.. إنها تعرف حالته عندما يهب عليه خياله.

وفجأة نفخ محمد صدره.. وشد قامته.. ورفع أصابعه وأخذ يبرم بها شنبا وهميا فوق شفتيه.. وضخم صوته.. وقال في لهجة أولاد البلد :

– بأه اسمعى.. بأه أنا راجل حمش.. وطول عمرى حمش.. أجدع مرة ألفها بطرف صباعى.. تبصى كدة ولا كدة.. تلعبى بديلك.. أقطع رقبتك.. مافيش عندى إلا الدبح.. فاهمة.

إنه يمثل دورا جديدا.. دور ابن البلد. كل ما أثاره الزواج فى خياله هو هذا الدور.

ونظرت إليه سناء فى يأس.. وتعب.. ولكنها قاومت يأسها.. وتعبها.. وحاولت أن تندمج فى دور بنت البلد.. وقالت فى طراوة بنات البلد :

– فاهمة يا معلم.

وألقى محمد الكأس من يده وهو يدق به سطح المائدة كما يفعل أولاد البلد، وأمسك سناء من ذراعها بقوة، وقال وهو يصيح فى صوته المضخم :

– تعالى.

وقالت سناء وهى لا تزال تحاول أن تندمج فى دورها، فتتدلل وتمانع كما تفعل بنات البلد :

– على فين يا معلم.

وقال محمد وهو يجذبها وراءه :

– على فين.. مش عارفة على فين.. أمك ماقلتلش لك على فين.. ايه يا خويا كهن النسوان ده.. علىّ أنا الكلام ده يا بت.. خشى قدامى باقولك.

وأنفاس سناء تضيق.

أعصابها تتوتر.

إنها لا تستطيع أن تندمج فى دورها.. ليس هذا هو الدور الذى تمنته ليلة زفافها. إنها فى حاجة إلى حنانه.. إلى رقته.

والقى بها محمد فوق الفراش.

ثم جلس بجانبها وأخذ يتحسس جسدها، وهو يقول فى صوته المضخم :

– ياما شاء الله.. لا والله يابت.. حلوة ومليانة.. إيه الحاجات دى كلها.. ده ملبن يا بت.. ملبن بسكر.. دوقينى أمال.

وهوى على شفتيها يقبلها.. وصوت قبلته يطرقع.
وعقلها لا يستطيع أن يرتفع إلى خياله. لا تستطيع أن تندمج.. لا تستطيع أن تمثل.. هذه الليلة دون كل الليالى، لا تستطيع أن تمثل.. وهى تريد أن تبقى شفتاه بين شفتيها، لعله يهدأ.. لعله ينسى دوره.. لعله يندمج فى شىء آخر.
ولكنه لا يبقى شفتيه بين شفتيها.
ويطرقع بقبلاته.
ثم مد يده تحت جاكتة البيجاما يتحسس صدرها، وهو يهمس فى صوته المضخم :
– يا حلاوة الرمان يا أولاد.
وضغطت سناء على أعصابها.. تحاول أن تمثل.. فانطلقت بعيدا عنه وهى تنتزع يده من فوق صدرها، وتهمس :
– ايه ده يا معلم.. مش كدة.
وقال محمد فى صوت المعلم :
– طيب اقلعى باه.. اقلعى بالذوق.. وخلى الليلة تنتهى على خير.
إنها لا تستطيع.. لا تستطيع.. لا تستطيع أن تمثل.. وهذا الكلام يجرحها.
وقام محمد من جانبها وبدأ يخلع ثيابه.
وهى تنظر إليه فى يأس مخلوط بالشفقة.. بالخوف.. ولا تدرى ماذا تفعل؟ إنها تحس كأن طفلها يلعب على حافة هاوية، وتخاف أن تصرخ فيه حتى لا يهزه صراخها فيقع.
وعاد إليها وهو فى ثيابه الداخلية.. ولا تزال فى عينيه نظرة أولاد البلد ولا تزال فى صوته رنة أولاد البلد.
وقال وهو يرقد بجانبها :
– يعنى ما قلعتيش.. بعدين معاكى باه.. يظهر حانتعب الليلة.. ولا إيه.
وأغرورقت عيناها بالدموع.
إنها لم تعد تستطيع.

ونظر محمد فى عينيها، وقال وهو لا يزال مستمرا فى تمثيل خياله:

- الله.. الله.. إحنا أولنا عياط ولا إيه.. لأ.. باه اسمعى.. تعيطى أنده لك أمك.

ومال عليها، قائلا كأنه يغالى فى اتقان دوره :

- هيه مش الست والدتك فهمتك على الحاجات دى.. ولا إيه.

وأجهشت سناء بالبكاء.

كل عصب فيها يبكى.

وتعلقت برقبة محمد وهى تردد من بين دموعها :

- محمد.. محمد.. محمد.

كأنها تهزه.. كأنها تحاول أن تفيقه من خياله.

وهدأ محمد وهى ملتصقة بصدره.

أفاق من دور ابن البلد.. أفاقته سخونة دموعها.

وأخذ يربت على ظهرها فى حنان كبير.. وشفتاه ملتصقتان بجبينها.. وفى نفسه احساس حائر.. لماذا تبكى سناء؟ ربما لأنه فشل فى تمثيل دوره.. دور المعلم ابن البلد.. ربما فشل فى اختيار الدور.. ربما لم تكن سناء مستعدة لتمثيل دورها.

إنها المرة الأولى التى يفشل فيها خياله فى اجتذاب سناء.

لا يدرى لماذا؟

وقام من جانبها فى هدوء، وقالت فى جزع وهى تمسك بيده، وتتشبث بها :

- رايح فين يا محمد.

وقال وهو يبتسم لها ابتسامته الكبيرة الحلوة :

- رايح أجيب كاس الويسكى.

وعاد إليها.

●●●

وفتحت سناء عينيها فى الصباح، ومدت يدها تتحسس محمد بجانبها.

إنه ليس بجانبها.

وقامت من الفراش مذعورة.

وخرجت إلى الصالة.

إنه ليس فى البيت.

ووقفت على باب البيت وهى مرتدية جاكتة بيجامة محمد، تصرخ :

- يا حاج مدبولى.. يا حاج مدبولى.

ورد عليها الحاج مدبولى من وسط الغيط صائحا :

- صباح الخير يا ست.. صباحية مباركة.

وصاحت سناء فى لهفة :

- ماشفتش الأستاذ.

ورد الحاج مدبلولى باعلى صوته :

- لا والله يا ست.. ماشفتوش.

وقفت سناء مستندة بظهرها على باب البيت، وعيناها تائهتان في حقل البرسيم، وعقلها سارح وراء محمد..

إن محمدا لم يتغير.

إنه دائما يختفي كلما أغمضت عينيها عنه.. يختفي بلا تعمد.. إنه فقط يسير.. ولا يرى في سيره شيئا مهما يقتضي أن يوقظها من النوم إذا كانت نائمة، أو يقتضي استئذانها إذا كانت صاحية.. إنه فقط يسير، وعليها أن تلحق به إذا أرادت.. وكانت دائما تلحق به.. دائما تبحث عنه.. إن نصف حياتها تقضيه بحثا عن محمد، والنصف الآخر تقضيه بجانبه.

وهو لم يتغير.

ولكن لماذا تنتظر منه أن يتغير.. لقد أحبته دون أن يعدها بأن يتغير.. وتزوجته دون أن يعدها بأن يتغير.. وربما لو تغير لما أحبته ولا كانت تزوجته.. ورغم ذلك.. فهي تحس بأن شيئا يجب أن يتغير.. إنها تحس هذا الصباح، وبعد أن تزوجت محمد، بأن الدنيا كلها قد تغيرت.. حبها أصبح له طعم جديد، ومعنى جديد، وحياتها أصبح لها أمل جديد وصورة جديدة.. لا تدرى لماذا.. ولكن هذا هو ما حدث لها، فلماذا لا يحدث لمحمد؟!

وعلت شفتيها ابتسامة حزينة.

وهزت رأسها، كأنها تحاول أن تطرد شيئا عالقا بها.. ثم تعمدت أن تضع على شفتيها ابتسامة كبيرة.. تعمدت أن تقنع نفسها بأنها

مـرحة.. وأن كل مـا حولهـا مرح.. ثم دخـلت البيت واغلقت البـاب وراءها، وأخذت تدندن بأغنية «اتمـخطرى يا حلوة يا زينة» وتسير فى خطوات العروس، وهى تضـحك على نفسـها.. ودخلت الـحمام.. ثم عـقصت شـعرها خـلف رأسهـا.. لم تصنع منه الضـفيـرة التى صنعـتهـا أمس.. وارتدت ثوبها.. وفـتحت الدولاب ذا لوح الزجـاج المكسور.. ووجـدت فيه قطعـة من الجبن الأبيض.. ولكنهـا لم تجد خبزا.. فأخذت تأكل من الجبن بأصـابعها، وتأكل معها بعض قرون الفول الأخضر التى تبقت من الليل.

ثم فتحت حقيبة المـدرسة التى كانت تحملها بالأمس، وأخرجت منها حقيـبة يد صـغيرة، حملتـها.. والتفتت فرأت أمامـها تمثال الإله بوذا.. فـأخرجت له لسـانها كـأنهـا تغيظه وتتـحداه.. ثم ضـحكت ضحكة صـامتـة.. واستـدارت.. وخرجت من البيت، وتـركت الباب وراءها دون أن تغلقه بالمفتاح.

ووقفت أمام البيت تصيح بأعلى صوتها :

– الساعة تطلع لها كام يا حاج مدبولى.

ورفع الحـاج مدبولى رأسـه إلى قـرص الشمس، ثم صـاح من بعيد وهو واقف بين أعواد البرسيم :

– تطلع عشرة وشوية.

ورفعت سناء يدها تحييه فى صمت، ثم سارت فى الحقل إلى أن وصلت إلى الشارع العمومى.. ووقفت تنتظر الأتوبيس وهى تحاول أن تكتشف بخـيالها المكان الذى ذهب إليـه محمـد.. ربما ذهب إلى بيت عائلته فى العـباسية.. ربما ذهب إلى صديقـه حلمى أو صديقه توفيق.. ربمـا ذهب ليفطر فى السـيدة زينب عند بائع الـفطير.. إنه يحب الفطيـر.. ربـمـا يسـيـر فى الشـوارع بلا هدف، وفى رأسـه مجموعة من قصصه.

وركبت الأتوبيس، وخـيالها كله مع محمـد.. وهى ترسم صورة لقائها به. وتعد كلامها معه.. وتعد أيضا ابتسامتها التى ستلقاه بها. إنها واثقة أنها ستجده.

ونزلت من الأتوبيس فى ميدان المحطة، ورفعت رأسها إلى الساعة الكبيرة.. الساعة الحادية عشرة والنصف.

وسارت على مهل متجهة إلى شارع محمد فريد.

ووقفت فى الطريق عند بائع عصير، وشربت كوبا من عصير المانجو.

ووصلت إلى مسرح فرقة النهضة.

إن موعد البروفة فى الساعة الثانية عشرة، ولابد أن محمد سيشترك فيها، إنه يحرص دائما على الاشتراك فى جميع البروفات.

ودخلت فى الحارة الصغيرة المؤدية إلى باب الممثلين وحياها اثنان من الزملاء فى حرارة وهلل بقية المجتمعين على خشبة المسرح عندما رأوها.. إنهم يعتبرونها زميلة لهم، رغم أنها ممثلة فى فرقة الانشراح.

وحيت الزملاء وابتسامة كبيرة بين شفتيها، وعيناها تدوران بحثا عن محمد.

إنه ليس بينهم.

ربما يجيء بعد قليل.

وجلست على مقعد بجانب الممثلة فردوس شوقى.. والبروفة تجرى أمامها، والمخرج يصرخ :

- مش كدة يا أستاذ.. اتحرك اعمل معروف.. ماتنساش إنك باشا.. اقطاعى.. جشع.. مجرم.. تانى من فضلك.. من الأول.

وصوت المخرج يرن فى أذنيها كالضجيج.. دون أن تلتقط كلماته.. والممثلون والممثلات الذين يقومون بالبروفة، يتحركون أمامها كأنهم مارة فى الطريق.. لا تعى حركاتهم ولا المعانى التى يعبرون عنها.

إنها لا تزال تفكر فى قصة زواجها من محمد.

وخطر لها أن تنبيء فردوس بالخبر.. أن تقول لها أنها تزوجت محمد.. ولكنها خافت.. لا تدرى لماذا؟ خيل إليها أن زواجها شئ أشبه بالخطيئة لا يصح أن يعلن.. إن فردوس تعلم أنها تحب محمد،

وإنها الفتاة الوحيدة التى استطاعت أن تربطه بها.. كل الزملاء يعلمون، بل إنهم يسمونها «سناء بتاعة محمد».. وقد كانوا يرحبون بهذا الحب، ويضحكون له.. أما الزواج.. فهو شىء آخر.. لا تدرى لماذا.. لماذا يكون للزواج كل هذه الرهبة.. رهبة ليست فى الحب.. ولماذا تشعر بالزواج كأنه شىء كبير.. أكبر من الحب؟!.. لقد أحبت محمد ببساطة.. وعاشت معه سنتين ببساطة.. لم يكن فى حبهما ما تخافه أو ما تحسب حسابه.. ولكن، الزواج.. يارب.. يخيل إليها أن الزواج ليس ملكها وحدها.. ليس تصرفا من تصرفاتها الخاصة.. إنه ملك الناس كلهم، وهو تصرف يشترك فيه كل الناس.. وهى تشعر بالخوف من الناس، وتحسب حساب الناس.. ويخيل إليها أن كل الناس سيعتبرون زواجها من محمد، كأنه عملية سطو.. سطت على سذاجته.. وعلى براءته.. وعلى خياله.. ويلومونها.. ويقبلون شفاههم اشمئزازا منها.

ولم تنبىء فردوس بالخبر.

صمتت وهى تضغط على أعصابها المشدودة، وتضغط بأسنانها على شفتها السفلى، كأنها تخشى أن ينطلق السر من فوق لسانها رغما عنها.

وتلفتت إلى الكواليس تبحث عن محمد.

إنه لم يظهر بعد.

وحاولت أن تركز اهتمامها فى البروفة التى تجرى أمامها.. وأحست بشىء ينغزها فى صدرها.. أحست بنوع من الحسد البرىء لزملائها الذين يقومون بالبروفة.. وبدأت تلوم نفسها.. لقد أهملت الفن.. منذ أن عرفت محمد أهملت فنها.. وأصبحت حياتها كلها حبا.. منذ سنتين وهى لا تتقدم فى التمثيل ولا تحاول أن تتقدم فيه.. كانت تكتفى بالظهور على المسرح كفتاة جميلة تقف بين بقية الممثلات وتقول كلمة أو كلمتين.. حتى الأستاذ راشد كف عن تأكيده لها بأنها تصلح لتكون ممثلة عظيمة.. ومن يدرى.. ربما لو لم تقابل محمد وتحبه لاستطاعت أن تكون فعلا ممثلة عظيمة.

وتنهدت فى حسرة.

والتفتت إلى فردوس تسألها :

- الساعة كام يا فردوس.

ونظرت فردوس فى ساعة يدها، وقالت وهى تبتسم ابتسامة صغيرة كأنها تعين بها سناء على الانتظار !

- الساعة واحدة ونص.. أمال فين محمد ؟

وأجابت سناء فى زهق :

- ما عرفش.

وقامت فجأة من على مقعدها، وخرجت من خلال كواليس المسرح دون أن تحيى أحدا.. تسير وهى تدق الأرض بقدميها كأنها تصفع الدنيا بحذائها.. لقد تزوجت لتستريح من هذه الحياة.. لتستريح من الانتظار الطويل، والبحث المستمر عن محمد.. تستريح من القلق عليه.. والخوف من أن تفقده.. تزوجت لتستقر.. لتهدأ.. هذه هى الحقيقة، حتى لو حاولت اخفاءها عن محمد وعن نفسها.. ولكن حالها لم يتغير بعد الزواج.. حالها لا يمكن أن يكون حال عروس فى صباح زفافها.

وخرجت إلى الشارع، وشفتاها متكورتان كأنهما انتفختا بثورتها.

ومرت من أمام المقهى المجاور للمسرح.. وفجأة.. وقفت.. ونظرت طويلا إلى داخل المقهى.

إن محمد هنا.

وبسرعة استراح وجهها.. وانفرجت شفتاها.. كأنها صفحت عن الدنيا.

ودخلت المقهى.

ورآها محمد من بعيد.. فرفع يده إليها وهلل وفى صوته رنين صوت الأطفال، وفى عينيه فرحة كبيرة، وفوق شفتيه ابتسامته الحلوة الخالصة.

- سناء.

واتسعت ابتسامـتها لتضم ابتسامته.. ووصلت إليـه.. ومد إليها كلتـا يديه وهو جالس فى مـقعـده.. ووضعت يديهـا فى يديه،وهى تلقى بنفسـها على المقـعد المجاور كـأنها عادت من مـشوار طويل متعب.. وعـيناها فى عينيه المرحتـين.. وقربت مقعدها من مـقعده.. قربتـه جدا.. كتـفها ملتـصق بكتفه.. ويداها فى يـديه.. وعيناها فى عـينيـه.. ولا تريـد أن تتكلم.. ليس هناك كـلام يقـال.. يكفى أنهـا بجانبه.

وقال محمد والفرحة ترقص على شفتيه :

– اتغديتى ؟

وهزت سنـاء رأسـهـا بالنـفى دون أن تتكلم، وهـى تذوب فى ابتسامته.

وقال محمد :

– إحنا لازم نتغـدى غدا ملوكى.. غدا كـبير.. نروح نتـغدى فى شبرد.. ولا فى مينا هاوس.. استنى لما أشوف معايا كام.

وسحب يده من يدها، ووضـعها فى جـيبه، وأخـرجها ببضـعة أوراق نقدية صغـيرة، أخذ يعدها.. ثم قال وفـرحته لا تزال ترقص على شفتيه :

– معايا خمسين قرش.. وانتى معاكى كام ؟

وفـتحت سناء حـقيـبتـهـا وهى تضحك فى مـرح وأخذت تعـد نقودها، ثم صاحت كأنها تزغرد :

– معايا اثنين وعشرين قرش.

وقال محمد :

– كويسين.. نروح نتغدى فـى «الأنيون».. ولا أقول لك، نشترى لحـمـة وبطاطس، ومكرونة سـبـاجـتى، وبيـرة.. ونروح نطبخ فى البيت.. ونشرب بيرة.

وقالت سناء فى فرح :

– فكرة.

وبدأ أفراد فـرقة النهضة يفـدون على المقهى بعد أن انتـهوا من

البروفة، وكل منهم يبتسم لمحمد وسناء، في فرحة.. يبتسمون للحب.. وسناء ترد ابتساماتهم ورأسها مرفوع كأنها تتباهى عليهم بمحمد.

ودخل الأستاذ عليش ملقن الفرقة.. قزم أحدب، يخطو فتتحرك ذراعاه الطويلتان مع ساقيه، ويبدو كأنه يسير على يديه وقدميه.

واقترب من محمد، وهمس في أذنه بصوت سمعته سناء :

– معاكش حاجة يا أستاذ.. أصلى معذور شوية.

ونظر إليه محمد بعينيه المرحتين وقال كأنه يضحك :

– إنت دايما معذور كدة يا عليش.

ثم وضع يده في جيبه وأخرج الخمسين قرشا كلها وناولها له.

وانطلقت صرخة من سناء رغما عنها :

– محمد.

والتفت إليها محمد والدهشة تملأ عينيه، لا يدرى لماذا صرخت؟

وذاب الأستاذ عليش بين موائد المقهى.

وسناء تنظر خلفه في هلع، وعلى شفتيها صرخة أخرى لا تنطلق.. صرخة نجدة.. يا بوليس.. ثم ابتلعت صرختها وصدرها يتهدج، كأن الصرخة لا تزال تتردد فيه ثم قالت في صوت كالأنين وهي لا تنظر إلى محمد :

– إنت اديته الخمسين قرش كلها !

وقال محمد في براءة :

– أيوة.. ليه ؟

وأجابت وهي تزفر أنفاسها وتحاول أن تضغط على أعصابها حتى لا تصرخ مرة أخرى :

– ولا حاجة.. بس.. أصل.. ماكانش معاك غيرهم.

ونظر إليها محمد والدهشة لا تزال في عينيه.. ماذا حدث إن كان قد أعطى عليش كل ما معه.. إنه دائما يعطيه.. ويعطى غيره.. وهو لا يدرى كم يعطى؟ ولكنه يعطى بقدر احساسه إنه يجب أن يعطى.. أحيانا يعطى كل ما معه .. وأحيانا يعطى نصف ما معه.. وأحيانا

لا يعطى شيئا حتى لو كان معه.. إن هذه التصرفات تصدر عنه تلقائيا.. لا يفكر فيها، ولا يحسب حسابها.. وسناء تعلم عنه هذا.. فلماذا تدهش اليوم.. ماذا جرى لها.. أو ماذا جرى له؟

وسكت محمد.

وسكتت بجانبه سناء.

سكتا طويلا.

ثم قال محمد كأنه اكتشف سر ما يحدث بينه وبين سناء :

– افتكرت.

ثم سكت.

وقالت سناء وهى تتنهد حزنا على الخمسين قرشا.

– افتكرت إيه؟

وقال محمد من خلال ابتسامته الكبيرة :

– افتكرت إننا اتجوزنا.

ثم استطرد كأنه اكتشف شيئا آخر :

– لازم نقول للناس إننا اتجوزنا.

وقام من على مقعده دون أن ينتظر جوابها، وشدها وراءه من يدها، وسار بها إلى حيث يجلس فريق كبير من ممثلى وممثلات فرقة النهضة، ووقف أمامهم مشدود القامة، منفوخ الصدر، وقال فى لهجة تمثيلية :

– أيها القوم اسمعوا وعوا.

وارتفعت الضحكات من حول محمد.

وأكمل محمد خطابه التمثيلى :

– نعلنكم أنه قد تم بعون الله زواج الأستاذ الكبير محمد وجدى ابن السلطان عبدالرحمن وجدى، وولى عهد مملكة الفن والأدب، على ربة الصون والعفاف الجوهرة المكنونة الآنسة سناء رفعت كريمة الباشمهندار عبدالعزيز رفعت، وذلك فى تمام الساعة السادسة من مساء أمس.. وعلى الحاضر منكم أن يبلغ الغائب.

وخفتت الضحكات من حول محمد.

ذابت في ابتسامات لا معنى لها.

وأخذ الجميع ينقلون عيونهم بين محمد وسناء وكأنهم لا يصدقون الخبر.. وقالت فردوس شوقي وهي تنظر إلى سناء بعينين ثاقبتين :

– الكلام ده صحيح ؟

وأجاب محمد بسرعة :

– طبعا صحيح.. مش مصدقين.. اتفضلوا.

وأخرج من جيب سترته الداخلي ورقة الزواج، ونشرها أمامهم وهو يقول بصوته الذي ترن فيه ضحكات طفل :

– وصادق بيه ماضي.. والحاج مدبولي كمان.

ولم ينظر أحد إلى ورقة الزواج.. اتجهت عيونهم جميعا إلى سناء.. عيون فيها دهشة.. وفيها سخرية.. وفيها تهكم.. عيون تجرح.. وسناء واقفة بجانب محمد لا تستطيع أن تواجه هذه العيون.. على شفتيها ابتسامة باهتة.. وصدرها يغلي.. إنها تريد أن تفر.. تفر من كل هذه العيون.. وتفر من محمد أيضا.. لماذا لا يستطيع محمد أن يأخذ شيئا جدا.. لماذا أعلن زواجهما بهذه الطريقة.. كأن زواجهما نكته.. لماذا أعلنه أصلا.. لماذا لم يحتفظ به سرا حتى يعلن نفسه بنفسه؟ إن محمد قاس أيضا.. سذاجته قاسية.. هذه اللامبالاه أقسى عليها من كل ما صادفته في حياتها.

وارتفعت من حولهما أصوات جوفاء.. مبروك.. مبروك.. مبروك يا عروسة.. مبروك يا عريس.. وتسقط التهاني في اذن سناء كأنها قطع من الطوب.. وتشعر كما لم تشعر من قبل بالوحدة، والبرد. تشعر لأول مرة أنها يتيمة.. ليس لها أحد يفرح لها.

وصفق محمد بيديه ينادي الجرسون، وهو يصيح كالطفل المرح:

– شربات يا جرسون.

وصاح الأستاذ أحمد علوي الممثل :

– ده واجب علينا يا عريس.

وصاحت الممثلة وجدان رمزى :

- إحنا لازم نزفكم.

ثم قامت وخطفت الصينية النحاسية من يد الجرسون وأخذت تدق عليها دقات الزفاف.. وقام الجميع وأحاطوا بمحمد وسناء وهم ينشدون بأعلى أصواتهم.. «مبروك عليكى.. عريسك الخفة».

ووضع محمد ذراعه فى ذراع سناء وسار بها بين موائد المقهى، والجميع ينشدون وراءهم، ووجدان تدق على صينية الجرسون.

وسناء منقادة لمحمد ولهم.. وسحب سوداء تتجمع أمام عينيها.. واقتربت منها فردوس شوقى وهمست فى صوت محشرج :

- والله شاطرة يا بت.. مين كان يصدق !

وأحست سناء كأن خنجرا أغمد فى صدرها.. وكتمت صرخة ألم.. ألم عنيف.. إنها تريد أن تخرج من هنا.. تريد أن تفر قبل أن يصيبها مزيد من الجراح.. خذنى يا محمد.. خذنى بعيدا.. إلى بيتنا.. أريد أن أرتاح.

وانتهت الزفة من الطواف بالمقهى.. وتفرق الممثلون والممثلات وهم يضحكون ضحكات صارخة فيها شماتة، كأنهم انتهوا من قتل عدوهم.

ووقف محمد على باب المقهى، وبين شفتيه ابتسامته الحلوة، وخصلة شعره مدلاة على جبينه، وفى عينيه نظراته المرحة البريئة، وبجانبه سناء تحاول أن تضمد جرحها، وأن تهدأ.. أن تجمع أعصابها، وأفكارها، ونبضات قلبها.

والتفت إليها محمد، وقال فى بساطة :

- أنا ماشى بأه.

وقالت سناء فى فزع :

- رايح فين ؟

وقال محمد بنفس البساطة :

- حاروح أنام فى العباسية.. ونتقابل بالليل.

ودون أن ينتظر جـوابها، أزاح خـصلة شعـره من فوق جبـينه، وابتسم لهـا كأنه يقبلهـا بابتسامـته.. ثم مشى.. وسـناء تنظر إليه وعلى شفتيها فزع صامت.

وفى هذه اللحظة دخـل صادق بيـه، ووقف بجـانب سناء يتـبع عـينيهـا وهما ينظران خلف مـحـمد، ثم قـال فى حنان وهو يلمس ذراعها برقة كأنه يفيقها من فزعها :

- اتغديتى يا سناء ؟

وقالت سناء وهى لا تنظر إليه ولا تزال سارحة خلف محمد:

- لأ.

وقال صادق بيه في صوت أكثر من رقة :

- أنا عازمك على الغدا.

والتفتت إليه وفى عينيها بريق الدموع، وصرخت فى حدة :

- لأ.. مش عايزة أتغدى.. مش عايزة حاجة.. مش عايزة حاجة.

وخرجت تجرى من المقهى، ودموعها تجرى معها.



سار محمد على قدميه حتى العباسية، ولم يكن يهمه أن يسير كل هذا المشوار الطويل.. إنه يحب المشي.. وأكثر أيامه يعود إلى بيته في العباسية ماشيا.. وأحيانا يمشي حتى بيت المطرية.. لا يحس بتعب المشي لأنه يمشي في خياله.. إن في خياله دائما قصة يمشي فيها، وتنسيه أنه يمشي على الأرض.. ولكنه وجد اليوم صعوبة في المشي في خياله.. إنه يشعر بأن هناك حدثا جديدا في حياته.. يشعر بأن سناء بدأت تتغير.. ويشعر بأنه قد يطالب بان يتغير هو الآخر.. وهذا التغير يزعجه.. يجعله يشعر بشيء ثقيل يقع على كتفيه.

وقاوم كثيرا ليطرد هذا التفكير من رأسه.. لا شيء حدث.. لا شيء تغير.. ولن يتغير فيه شيء.

واستطاع أن يشعل خياله مرة أخرى.. ونظر إلى عربات الترام في شارع الجيش، وتخيل أنها بيوت تسير على عجل.. وأن الناس الجالسين فيها جالسون في شرفات البيوت.. وبدأ يتخيل أن البيوت كلها تتحرك فعلا.. وأنه يعيش في عالم تتحرك فيه البيوت.. وأنه يذهب إلى المسرح في بيته.. ثم استدرجه هذا الخيال إلى عالم المريخ، وبدأ يتصور نفسه يعيش في المريخ. وخصلة شعره مدلاة فوق جبينه دون أن يشعر بها.. والناس تمر به فلا يراهم كما هم، بل يراهم كأنهم من أهل المريخ.

ووصل إلى بيته في العباسية وهو غارق في خياله.

ولم يصعد إلى الدور العلوي ليبلغ أخته وزوجها بخبر زواجه.. إن زواجه غائب عن ذهنه الآن.

ودخل شقته فى الدور الأول، وذهب إلى المطبخ وصنع لنفسه سندويتشا بالجبن.. إن أخته تحرص دائما على أن تحتفظ له فى مطبخه ببعض الجبن والزيتون والمأكولات الخفيفة وأخذ يأكل فى الساندويتش وهو يخلع ثيابه.

ونام.

واستيقظ فى الساعة السادسة والنصف. إنه دائما يستيقظ فى هذا الموعد دون حاجة لأن يوقظه أحد.

وحلق ذقنه واستحم تحت الدش.. ثم ارتدى ثيابه. وخرج من البيت وخصلة شعره مدلاة فوق جبينه.

وسار فى شارع العباسية إلى مقهى عرابى.. وقد كان مقهى عرابى دائما جزءا من حى العباسية، يجلس فيه سكان الحى المحترمون، يدخنون الشيشة ويلعبون الطاولة والدومينو.. وكان هذا المقهى جزءا من خيال محمد منذ كان صبيا.. كان ينظر إليه كمكان تحوطه الرهبة والغموض، ويتصور رواده كأنهم جميعا، ناس كبار.. كبار فى الحجم.. وكبار فى العقل.. وكبار فى المركز الاجتماعى.. وكان يمر بالمقهى فيشد قامته ويتخذ هيئة الوقار، كأنه أحد زبائنه.. ولكنه لم يكن يجرؤ على أن يجلس فيه.. الرهبة كانت تمنعه.. إلى أن تخرج صديقاه حلمى وتوفيق فى كلية الهندسة.. وأصبح كل منهما مهندسا محترما.. فقرر الثلاثة أن يلتقوا كل يوم فى هذا المقهى.. وفرح محمد بهذا القرار.. وأصبح يذهب إلى المقهى وهو متخذ مظهر الاحترام والوقار، ويغالى فى هذا المظهر فيطلب شيشة، ويدخنها فى هدوء مفتعل.. ولكنه ظل دائما لا يستطيع أن يذهب إلى المقهى وحده.. إنه وحده يحس برهبة المقهى، نفس الإحساس الذى كان يحس به وهو صغير.. ولا يذهب إلى هناك إلا بصحبة صديقيه حلمى وتوفيق.. ويتعمد أن يذهب متأخرا حتى يضمن أن يذهب أحدهما قبله، فلا يجلس وحده.

وكان لقاء محمد بصديقيه كل يوم، هو إحدى العلامات الثابتة القليلة فى حياته.. فهو يلقاهم كل يوم منذ وعى الحياة.. إنهما قطعة

من وجوده.. كبيت العباسية الذى يذهب إليه كل يوم.. وكأخته.. ورغم ذلك فحياته بعيدة عنهما كل البعد، لا تجمعهم الثلاثة هواية واحدة، ولا أخلاق واحدة، ولا طبيعة واحدة.. لا يجمعهم سوى هذا الحب المستقر الهادىء الذى تكون عبر السنين.. سنة بعد سنة.

ووصل محمد إلى مقهى عرابى.

ووجد حلمى جالسا على مائدة خارج المقهى فوق الرصيف، وتبادلا التحية دون أن يتصافحا، وبين شفتى كل منهما ابتسامة كبيرة يقبل بها الآخر فى حب صادق.

وقال محمد وهو يجلس متخذا هيئة الوقار :

– بقالك كتير ؟

وقال حلمى فى صوته القوى النبرات كأن كل حرف يلمس شفتيه، يكتسب قوة جديدة :

– لسه يدوبك جاى.. إزى الأخبار ؟

وقال محمد وهو يتابع بعينيه عربة ترام :

– عال.. كله كويس.

وعاد حلمى يسأل وهو ينظر إلى محمد فى حنان كبير.

– وإزى سناء ؟

وقال محمد بلا مبالاه :

– اتجوزت.

وانطلقت الدهشة من عينى حلمى، وقال بصوته القوى الجاد :

– وإزى ده.. اتجوزت مين ؟

وقال محمد فى بساطة :

– اتجوزتنى.

وضحك حلمى ضحكة كبيرة دوت كأن الدنيا كلها تضحك معه، وقال وهو يميل برأسه ناحية محمد :

– خضيتنى يا شيخ.. صحيح اتجوزتم ؟!

وقال محمد وهو يبتسم لضحكة حلمى :

– صحيح.. اتجوزنا.

وقال حلمى فى حماس :
- مبروك.. الف مبروك.. تعالى أما أبوسك.
وجذب رأس محمد إليه وقبله من كلتا وجنتيه.. ثم قال :
- ده اللى كان لازم تعمله.
وقال محمد فى دهشة :
- ليه ؟
وقال حلمى فى تعجب :
- ليه إيه ؟
وقال محمد كأنه يحاول أن يفهم مشكلة حيرته طويلا :
- لية كان لازم نتجوز.
وقال حلمى :
- إنت مش بتحبها ؟
وتراجع محمد فى مقعده، وصمت قليلا، ثم قال كأنه يخاطب نفسه :
- لازم.. لازم أكون باحبها.
وقال حلمى كأنه يطمئنه :
- وأنا متأكد إنها بتحبك.. يبقى خلاص.. مادام بتحبوا بعض، يبقى لازم تتجوزوا.
ونظر إليه محمد كأنه لم يقتنع، ثم سكت.
وعاد حلمى يسأل والفرحة لا تزال بين شفتيه:
- وعملتوا إيه.. حاتسكنوا فين؟. وسناء حاتفضل تشتغل ولا حاتبطل شغل ؟
وقبل أن يجيب محمد، وصل توفيق إلى المقهى، واندفع نحوهما وأنفه الكبير يتقدم وجهه الأسمر، وشاربه الصغير يبتسم مع ابتسامة شفتيه.. وقال لاهثا وهو يجر مقعدا ويجلس بجانب حلمى، ويخاطبه دون أن ينظر إلى محمد :
- خبر مهم.. الشركة بتاعتنا اتأممت.
وقال حلمى وفى عينيه نظرات جادة :

- إمتى ؟
وقال توفيق وحماسه يسيل على شفتيه.. حماس لزج :
- النهاردة.. وشالوا عبدالغنى بيه.
وقال حلمى فى دهشة :
- ليه.. ده مهندس كويس.. كلنا عارفين إنه مهندس كويس.
وقال توفيق وهو يشوح بيده فى امتعاض :
- يا شيخ.. يغور.. وتغور قنزحته ده كان كاتم نفسنا، ونفس الشركة.
وقال حلمى وفى عينيه لوم كبير :
- حرام عليك يا توفيق.. ده إنت كنت لسة بتمدح فيه أول إمبارح.
وقال توفيق محتجا وشاربه الصغير يرتفع حتى يلتصق بأنفه :
- أنا كنت بامدح فيه ؟! أنا عمرى ما مدحت فيه !
وعاد حلمى يقول وبين شفتيه ابتسامة ساخرة :
- وقلت لى إنه صرف لك علاوتين فى سنة واحدة.
وقال توفيق وهو ينقر المائدة بأطراف أصابعه :
- طبعا يصرف لى علاوتين.. وأنا أستحق أكتر من كده.. أنا بقالى تلات سنين فى الشركة وباشتغل فيها أكتر من اللى بقالهم عشرين سنة.. ده أنا شايل الشركة على اكتافى.
وجاء الجرسون.. وطلب محمد شاى، وطلب كل من حلمى وتوفيق، قهوة.
وعاد توفيق يقول وحماسه يسيل من بين شفتيه :
- تعرف عينوا مين عضو منتدب.. المهندس محمود فكرى.. تعرفه ؟
وقال حلمى فى قرف :
- لأ.
وقال توفيق :
- ده اللى واخد بنت عبدالعزيز بيه جوهر اللى كانوا ساكنين

فى العباسية.. أخت فهمى جوهر اللى كان معانا فى ثانوى.
وقال حلمى وهو ينظر إلى توفيق ساخرا :
- ظابط ؟
وقال توفيق :
- لأ.. مدنى.. إنما اللى سمعته عنه، إنه راجل حازم.. والشركة فيها بلاوى متلتلة ومحتاجة لراجل حازم.
ومحمد ينظر إليهما كأنه يستمع إلى حوار فى إحدى المسرحيات ليس من حقه أن يشترك فيه.
وقال حلمى وهو لا يزال ينظر إلى توفيق نفس النظرة الساخرة:
- والبلاوى دى ما كنتش بتقول عليها قبل التأميم ليه ؟
وقال توفيق وبقع حمراء ترتفع إلى صدغيه، فيبدوان فى لون النحاس الأزرق :
- أنا كنت لاقى حد أقول له ولا قلتش ؟
ثم اعتدل فى جلسته وقال بلهجة فيها خطورة مفتعلة :
- إنما دلوقت لازم أكشف كل البلاوى.. ده واجب.. واجب وطنى.. الثورة بتعمل للبلد حاجات كتير، ولازم كل واحد فينا يتعاون.
وظل حلمى ينظر إليه ساخرا.
وسكت توفيق برهة، وعاد يقول فى صوت خافت كأنه يحادث نفسه :
- مين كان يصدق ؟
وقال حلمى فى برود :
- مين كان يصدق إيه ؟
وقال توفيق وعيناه واسعتان من العجب :
- مين كان يصدق إن زميلنا فهمى جوهر حاييجى يوم ويبقى أخو مرات العضو المنتدب بتاعنا.
وسكت حلمى مكتفيا بابتسامته الساخرة :
وعاد توفيق يقول :

- الحقيقة إحنا ما بنسألش عن فهمي أبدا.. ده أنا ماشفتوش بقالي سنتين.

وظل حلمي ومحمد ساكتين.

وعاد الجرسون يحمل ثلاث «كنكات» قهوة.. ووضع فنجالا أمام كل منهم وصب له فيه القهوة.

ومد محمد يده ليلتقط فنجاله.

ونظر توفيق إلى الجرسون، ثم نظر إلى محمد وقال في حدة :

- إنت مش طلبت شاي ؟

وقال محمد :

- أيوة.. بس لازم القهوة أحسن.

وصرخ توفيق في وجه الجرسون صرخة كبيرة :

- ازاي البيه يطلب شاي وتجيب له قهوة.. إنتم إيه.. بهايم.. حاتشربوا الزباين على كيفكم.. انده لي صاحب القهوة.

ووقف الجرسون صامتا.

وعاد توفيق يصرخ :

- باقولك انده لي صاحب القهوة.

وقال محمد وفي عينيه استغاثة :

- يا سيدي أنا راضي بالقهوة.. حد شريكي.. مادام جات لي قهوة، يبقى لازم القهوة أحسن لي.

وقال توفيق وهو لا يزال محتدا :

- بلاش كلام فاضي.. مادام طلبت شاي يبقى لازم يجيلك شاي.

ثم التفت إلى الجرسون وعاد يصرخ :

- باقول لك روح انده صاحب القهوة، ولا أقوم آخدك قلمين.

ونظر محمد إلى حلمي مستغيثا.

وابتسم حلمي كأنه معجب بمحمد وفلسفته، ولمس كتف توفيق قائلا :

- سيبك من الحكاية دي.. حاقولك خبر حايفرحك !والتفت إليه

توفيق بكل جسمه، ونسي الجرسون في لحظة، وقال في لهفة :
- إيه.
وقال حلمي وهو يبتسم :
- محمد اتجوز.
ونظر توفيق إلى محمد والدهشة تملأ وجهه، وقال في صوت مبهور :
- مش معقول و...
وقاطعه محمد في عصبية :
- مش معقول ليه ؟
وقال توفيق وهو يضحك :
- ده إنت آخر واحد فينا كان ممكن تتجوز.. واتجوزت مين يا ترى ؟
وأجاب حلمي في بساطة :
- سناء طبعا.
والتمعت الدهشة على وجه توفيق، ونظر إلى محمد كأنه ينظر إلى مجنون.. نظر إليه طويلا.. ثم قال وهو يقلب شفتيه :
- والنبي إنت عبيط.
وقال محمد وصوته يضج برنين صوت طفل عنيد :
- عبيط ليه.. تسمح تقول لي ؟
وقال توفيق كأنه لم يسمع كلامه :
- بذمتك.. اتجوزتها ليه ؟
وفكر محمد برهة كأنه يبحث عن سبب وجيه لزواجه.. ثم قال :
- اتجوزتها، لأني اتجوزتها !
وقال حلمي كأنه يتقدم لنجدة محمد :
- علشان بيحبها يا أخي.
وقال توفيق وقد ارتفع صوته بحماسة اللزج كأنه يدافع عن حياة صديقه :
- حد يتجوز ممثلة يا حلمي يا أخويا.. وإفرض إنه بيحبها..

ما كانت قاعدة معاه.. وبتبات معاه.. يبقى لزوم الجواز إيه.
وقال حلمى وهو ينظر فى عينى توفيق نظرات جادة، كأنه ينبهه إلى أنه ليس من حقه أن يقول هذا الكلام.
– إسمع.. إنت ما عندكش مبادىء.. ولازم تعرف إن الممثلات مش أقل من بنات العائلات.. وإذا كان فيه ممثلات خسرانين، فيه كمان بنات عائلات كبيرة، خسرانين.. وسناء مش خسرانة.. إنت عارف كويس إنها مش خسرانة.. ومحمد بيحبها.. وهى بتحبه.. يبقى كان لازم يتجوزها.
وقال محمد وهو ينظر إلى توفيق كأنه يقدم له حجة أخرى لزواجه :
– هو إنت اللى اتجوزت سناء !
ورد توفيق مبتسما :
– لأ.
وعاد محمد يقول :
– مين اللى اتجوزها ؟
وقال توفيق :
– إنت.
وقال محمد كأنه وصل إلى النتيجة :
– يبقى خلاص.
وقال توفيق وهو يبتسم كأنه يدلل طفلا :
– خلاص.. الف مبروك.. تعالى أما أبوسك !
وقام من على مقعده وقبل محمد.. واستقبل محمد قبلته بفرحة صادقة.. وقال كأنه رجل كبير :
– عقبالك.. بس يوم ما حاتتجوز مش حابوسك بوستين بس، حابوسك الف بوسة.
ثم رشف الرشفة الأخيرة من فنجان القهوة، والتفت إلى حلمى يسأله :
– الساعة كام ؟

وقال حلمى وهو ينظر فى ساعته :
- تمانية وربع.
وقال محمد وهو يقفز من على مقعده :
- ياه.. السلام عليكم.
وخطا بساقيه الطويلتين، واتجه إلى محطة الترام، قبل أن يسمع رد تحيته من صديقيه.
ومال توفيق على حلمى قائلا :
- حاتعمل إيه الليلة ؟
وقال حلمى ونظراته تائهة فى عرض الشارع :
- ولا حاجة.. حاروح.
وقال توفيق :
- ماتيجى نروح سينما ولا نقعد فى حتة.. متهيالى إنى مش حاعرف أنام الليلة.. موضوع الشركة شاغلنى قوى.
وقال حلمى :
- انشغل لوحدك.. أنا حاروح.
وقال توفيق :
- لازم عندك حاجة الليلة.
وقال حلمى وهو يهم بالقيام :
- أبدا.. ما إنت عارف.
ثم قام وصافح توفيق قائلا :
- أشوفك بكرة.
ونزل من فوق الرصيف، واتجه إلى محطة الأتوبيس.

●●●

ترك حلمى الأتوبيس عند أول شارع سليمان باشا.. وسار فى خطوات بطيئة.. وحاجباه الكثيفان الأسودان معقدان فوق عينيه الواسعتين العميقتين.. وشفتاه الرفيعتان مزمومتان كأنه يحاول أن يخفيهما تحت أسنانه.. وأفكاره تشغله عن كل ما يمر به.
ثم إنحرف إلى حى معروف.. ووقف أمام دكان جزار.

وصاح صاحب الدكان بمجرد أن رآه.
ـ أهلا حلمي بيه.. يا مسا النور.. أؤمر.
وقال حلمي :
– مساء الخير يا معلم.. اقطع لي حتتين كستليتة، لغاية ما أوصل للحاج عوضين أشترى الخضار.
وترك دكان الجزار واتجه إلى بائع الخضر.. واستقبله الحاج عوضين بنفس الترحيب وقال :
– عندى شوية بامية كويسين يا سى حلمى.. أوزن لك ؟
وقال حلمى :
– لأ.. بلاش بامية، دى عايزة دوشة.. أوزن لى نص كيلو بطاطس.. وشوية سلطة.
وحمل حلمي قرطاس البطاطس والسلطة، ثم مر على دكان الجزار، وحمل ورقة اللحم الذى أعده له المعلم، دون أن يفتح الورقة ليطمئن إلى ما فيها ثم مر على الفرن واشترى رغيف عيش شامي.. وسار إلى شارع النمر، ودخل في العمارة رقم «٧»، وصعد بالمصعد إلى الدور العاشر والأخير.. ثم صعد سلما بجوار المصعد لا يتجاوز اثنتى عشرة درجة وأخرج من جيبه سلسلة مفاتيحه وفتح بابا على اليمين يؤدى إلى شقته، وعلى يساره باب يؤدى إلى السطوح.
الشقة مكونة من حجرة واحدة.. وصالة كبيرة.. ومطبخ وحمام.. والصالة فيها أشياء كثيرة.. فيها أريكة عريضة حديثة الطراز.. وراديو.. وبيك أب.. ومكتبة صغيرة.. ومائدة رسم. وأسطوانات ملقاة فوقها.. وكتب ملقاة في كل مكان.. وأدوات ميكانيكية وكهربائية صغيرة كثيرة ملقاة في صندوق خشبي مفتوح.
ودخل حلمي إلى المطبخ، وفتح الثلاجة ووضع فيها مشترواته، ثم خرج إلى الصالة وفتح النافذة، والباب الذى يؤدى إلى شرفة كبيرة ليس فيها إلا مقعدان قديمان من القش.. ثم خلع قميصه،

وألقاه فوق الأريكة.. وبقى بالفانلة فوق البنطلون.. ثم جلس على الأرض، وجذب إليه جهاز البيك أب، وفتح قاعدته.. ثم التقط مفكا من صندوق الأدوات الميكانيكية، وأخذ يصلح فى الجهاز.

وحاجباه الكثيفان لا يزالان معقدين فوق عينيه الواسعتين.. وشفتاه مزمومتان، ويحاول أن يحصر كل ذهنه فى اصلاح البيك أب.. وتتعبه المحاولة فيرفع رأسه، ويدور بعينيه حوله كأنه يبحث عن شىء فقده.. ثم يعود ويحرك «المفك» فى مسامير البيك أب يحاول أن يحصر ذهنه فيه.

وفجأة تنبه على صوت مفتاح يدور فى ثقب الباب.

وملأت الدهشة عينيه، ومرت برهة سريعة تساءل فيها : من يكون؟

سليمان البواب.. مش معقول.. إن سليمان لم يتعود أن يفتح الباب بالمفتاح الذى يحمله، مادام يعرف أنه موجود فى الشقة.. وهو يعرف أنه فى الشقة.

هل تكون تحية.. إن تحية لا تزال تحتفظ بمفتاح الشقة.. ولكن.. مستحيل.. إن تحية تزوجت.. تزوجت منذ أسبوعين.. و..

وفتح الباب.

ورآها.

تحية.

مرتدية الثوب الأسود الذى يحبه.. وحول عنقها «ايشارب» أخضر.. وفى يدها حقيبة بيضاء مطرزة بالخرز اللامع.. وشعرها مهوش فى أناقة فوق رأسها.. ونظراتها الساخنة تطل من عينيها فى تراخ كالنار الهادئة.. تصهر وجنتيها.. وابتسامتها تطل من شفتيها كأنها شىء يكاد يقع منها دون أن تدرى.. وقوامها الملفوف كشجرة الموز.. ونهداها.

ونظر إليها حلمى بعينين مبهورتين كأنه يراها لأول مرة.. ثم افاق من البهرة، وقفز واقفا على قدميه، ودقات قلبه تضج فى صدره.. ووضع يديه حول خصره كأنه يسند قامته من الوقوع، وفى عينيه غضب مهزوز، وقال فى حدة وصوته القوى يرتجف كالهدير :

- جاية ليه.. إيه اللى جابك !

وقالت تحية وهى تغلق الباب وتسند ظهرها عليه :

- استنى لما آخد نفسى يا حلمى.

وصرخ حلمى ووجهه يزداد تجهما :

- أنا عايز أعرف إنتى جاية ليه دلوقت.

وقالت تحية وهى تنظر إليه فى عتاب :

- جاية أطمئن عليك.

وقال حلمى متهكما :

- افتكرتى إنى انتحرت.. مش كدة.. اطمئنى. لسة ما انتحرتش.. فيه حاجة تانية ؟!

وقالت تحية وهى تلقى ذراعيها بجانبها فى يأس :

- دى طريقة تستقبلنى بيها يا حلمى.. و...

وقاطعها حلمى فى تهكم مر :

- صحيح.. أنا غلطان.. كان لازم أستقبلك كويس.. نسيت إنك عروسة.

ووضع على شفتيه ابتسامة أكثر تهكما، واستطرد :

- مبروك يا عروسة.. أمال فين العريس.. ماجاش معاكى ليه ؟

وقالت تحية وهى تتنهد كأنها تستعين بالصبر :

- العريس هو اللى بعتنى ليك.

ونظر إليها حلمى فى دهشة، وقال :

- بتقولى إيه ؟

وقالت تحية وطبقة من الدموع تغطى عينيها :

- هو اللى باعتنى لك.. لأنى مش طايقاه.. مش قادرة أستحمله.. مابحبوش.. أنا باتعذب يا حلمى.. ما تتصورش باتعذب أد إيه.

ونظر حلمى فى عينيها كأنه يحاول أن يصدقها.. ثم عادت ابتسامة التهكم المر إلى شفتيه.. وقال ساخرا، ونبرات صوته القوى ترن بين جدران الحجرة :

- على كل حال دى مش أول مرة تتجوزى واحد ما بتحبهش.

وقالت تحية في استسلام مسكين :

– أنا ماكنتش باحب جوزى الأول، إنما ماكنتش باحب واحد تانى، لكن الدور ده اتجوزت واحد مابحبوش وأنا باحب واحد تانى.

ووضعت حقيبة يدها فوق مائدة الرسم، واقتربت منه في خطوات زاحفة كأنها تقترب من محراب حبها.

وابتعد حلمي إلى الوراء كانه يخشى أن تلمسه.

وقالت تحية في توسل :

– إنت عارف إنى باحبك يا حلمى.

وقال حلمي وهو يدير عنها عينيه :

– لو كنتى بتحبينى، ماكنتيش اتجوزتى واحد تانى.

وقالت تحية :

– غصب عنى.

قال في حدة :

– لأ.. مش غصب عنك.. إنتى مش صغيرة.. إنتى عندك خمسة وعشرين سنة.. وكنت تقدرى تقولى لأ.. لكن طمعتى.. مارضتيش تتجوزينى علشان ماهيتى خمسة وثلاثين جنيه.. واتجوزت واحد عنده ميتين جنيه.

وقالت تحية وهى تخطو نحوه خطوة أخرى :

– إذا كنت طمعت، فأنا طمعت علشان خاطر بنتى.

وقال حلمي وصوته ثائر :

– ماتجيبيش سيرة بنتك.. بنتك ما يصحش تعرف إنك هنا.

وسكتت تحية كأن حلمى صفعها.. وتقلص وجهها كأنها تئن من طعنة سكين.. وخطت خطوتين بعيدا عنه كأنها تهم بالخروج.. ثم استدارت له فجأة، وفي عينيها تحد، وقالت في هدوء ثائر :

– إنت سافل.

وقال حلمى وقلبه يتعلق بها كأنه يحاول أن يشدها إليه حتى لا تخرج ووجهه يعانى محاولة الضغط على أعصابه حتى لا ينهار أمامها :

- متشكر.

وأحنى رأسه حتى لا ترى عينيه، وترى فيهما حبه.

ولم تخرج.. وقفت فترة تعبث ببعض الأسطوانات.. ثم استدارت له وقالت في صوت أكثر رقة :

- أنا عايزة أعرف.. إنت ليه تقلب كل حاجة بنكد.. صحيح إنى اتجوزت.. لكن إنت عارف إنى باحبك.. وأنا عارفة إنك بتحبنى.. وجيتلك.. زى ما كنت دايما باجيلك.. يبقى...

وقاطعها حلمى وهو ينظر فى عينيها :

- فيه فرق كبير.. الأول كنت بتجيلى وإنت واحدة بتحب.. النهاردة إنتى جاية لى وإنت واحدة بتخون جوزها.

وفتحت عينيها على آخرها كأنها دهشة لجرأته، وصرخت :

- إنت سافل.. وكل اللى بتفكر فيه سفالة.. أظن فاكر إنى جاية هنا علشان أخون جوزى.. ده بعدك.

ونظر إليها فى تردد كأنه لا يصدقها.

وعادت تقول بعد فترة :

- إنت جرالك إيه يا حلمى.. إنت ماكنتش كدة.. وعمرك ما فكرت كدة.. عمرك ما فكرت إن اللى بينى وبينك يبقى خيانة.. الحب مافيهش خيانة يا حلمى.. الحب أنظف من كدة بكتير.. وإنت اللى علمتنى أقول الكلام ده.. إنت اللى فهمتنى كدة.

وقال حلمى وهو يزفر أنفاسه ويرفع عينيه إلى سقف الغرفة :

- إذا كنت اتغيرت.. إنتى اللى غيرتينى.

وقالت وهى تقترب منه.. وتقترب أكثر :

- أنا ما غيرتكش.. إنت بس اللى زعلان منى.

وملأت رائحة عطرها أنفه.

إنه يخاف هذا العطر.. إنه عطر يدغدغ أعصابه.. ويسرى فى عروقه حتى يصل إلى أطراف أصابعه.

وهو يعلم ما سيحدث الآن.. ستضع يديها فى يديه.. وستضغط كل يد على الأخرى.. وصدرها سيقترب من صدره.. وشفتاها

قريبتان من شفتيه.. قريبتان جدا.. إنها ستنظر إليه بشفتيها.. وينظر إليها بشفتيه.. وشعرها يهفو على وجهه.. ويختلط برموش عينيه.. وعقله يذوب.. وجسده يذوب.. ولن يستطيع أن يقاوم.. لقد حاول فى كل مرة أن يقاوم.. ولم يستطع.

وهمست وصدرها يلتصق بصدره :

– حلمى.. بص لى.

وقال فى صوت ذابت نبراته القوية فى حشرجته :

– ده مش من حقنا يا تحية..

وقال وأنفاسها تقبل شفتيه :

– مافيش حاجة مش من حقنا.

لا أمل.

لا أمل فى أن يقاوم.

ولف ذراعيه حول كتفيها، وأخذها كلها فى صدره. وضغطها إليه، لعله يستطيع أن يخبئها بين ضلوعه.. وقلبه يدق فوق قلبها.. ويستريح.. إنه يحس كأنه سينام فوق عنقها.. ولكنه لا ينام.. وشفتاه ترتفعان إلى شفتيها.. لم يعد يدرى أيهما شفتاه وأيهما شفتاها.. ومد أصابعه وفك الايشارب الأخضر من حول عنقها وألقى به على الأرض.. ولف عنقها بشفتيه.. وهى تذوب معه.. ويده مختبئة بين طيات شعرها.. ثم امتدت يده تحاول أن تجذب الثوب من فوق كتفها.

وهمست وعيناها مغمضتان :

– لأ يا حلمى. مافيش وقت.

ما هو الوقت ؟

إنه وهم.. وهم كبير.. الوقت كله هو هذه اللحظة.. الزمن هو أنت وأنا.. كل ما عدانا خارج دائرة الزمن.. كل ما عدانا ليس له أرقام فوق ساعتنا.. لا يا حبيبتى.. الزمن هو عمرى وعمرك.. وعمرى وعمرك هما هذه اللحظة.. فلا تضيعى عمرينا.

●●●

ووقفت تحية تسوى ثوبها، وتمشط شعرها.

وحلمى مكوم فـوق الأريكة الـعريضـة.. رأسـه مـخـتـبىء بين ركبتـيه.. وعروقه بارزة فوق عـضلات ذراعيه العـاريتين.. وصوت حاد كـالصريخ يتردد فى عـقله، ويرن فى أذنيه.. أنا ضـعيف.. أنا ضعيف.. أنا ضعيف.

ورفع رأسه ونظر إلى تحية وعلى شفتيه ابتسامة لا معنى لها.. وصـوت لا يزال يتردد فى أذنـيه.. أنا ضـعيـف.. أنا ضعـيف.. أنا ضعيف.. أنا ضعيف.

وفجـأة قفز من فـوق الأريكة، واتجه نحو مـائدة الرسم والتقط حقيبة تحية، وفتحهـا، وأفرغ ما فيها فوق المائدة.. والتقط من بين محتوياتها مفتاح الشقة.

ونظرت إليه تحية، وقالت فى صوت مسترخ من التعب :

- بتعمل إيه يا مجنون ؟

وقال حلمى ووجهه مزدرد بأنفاسه اللاهثة :

- باخد مـفتـاح الشقـة.. المفتـاح ده اديته لتـحيـة، مش لحرم الأستاذ فخرى.

ونظرت إليه تحية، وبين شفتيهـا هذه الابتسامة التى تبدو كأنها شىء يكاد يقع منهـا دون أن تدرى.. ثم تقـدمت إلى مـائدة الرسم وأعـادت حاجـياتهـا إلى حقـيبـتـها.. واتجـهت إلى الباب، وقـالت، وابتسامتها الغريبة لا تزال بين شفتيها :

- تصبح على خير يا حلمى.

وخرجت.

وأغلق الباب وراءها.. ثم أسند رأسه عليه.. وأخذ يدق عليه بكلتا يديه، وهو يهمس لنفسه بصوت مسموع :

- أنا ضعيف.. أنا ضعيف.. أنا ضعيف.

٥

دار حلمى فى أنحاء الشقة، يحاول أن يفعل أى شيء يلهى به نفسه عن أفكاره.. عن إحساسه بالضعف.. فتح الراديو.. وعاد يجلس على الأرض يحاول اصلاح جهاز البيك آب.. ثم ترك البيك أب فجأة، وقام من على الأرض وذهب إلى المطبخ ولف على وسطه فوطة طويلة، وأخذ يقشر حبات البطاطس التى اشتراها.. يقشرها فى عنف وعصبية.. كأنه يذبح أفكاره.. والسكين يأخذ مع القشر قطعا من البطاطس، كأنه يأخذ قطعا من عقله الثائر المرتبك.. وحاجباه الكثيفان لا يزالان معقدين فوق عينيه الواسعتين، وشفتاه الرفيعتان مزمومتان تحت أسنانه.. ولا أمل.. أفكاره تزداد ضجيجا فى رأسه.. وإحساسه بالضعف يشتد.. إن تحية أقوى منه.. الدنيا كلها أقوى منه، ولكن.. لا.. إنه ليس ضعفه وحده.. إنه ضعف الدنيا كلها.. الدنيا ليست سوى مجموعة من الضعفاء.. وهو واحد من هؤلاء الضعفاء، وعندما يجتمع الضعفاء فى مكان واحد.. يخلقون قوة.. قوة الضعفاء.. قوة الضعف، ويستطيعون بهذه القوة أن يملوا ضعفهم على الأفراد.. ليس بينهم مكان لفرد قوى.. إلى أن يخضع للضعف.. الفرد القوى يضيع بين الضعفاء إلى أن يصبح ضعيفا مثل باقى البشر.. إن قوة الضعف فى هذه الدنيا، أقوى من قوة القوة.

وفتح حلمى عينيه على آخرهما وهو يلقى بقطع البطاطس فى اناء مملوء بالماء المملح.. لماذا يعقد الدنيا من حوله.. لماذا لا يأخذ الأمور ببساطة.. إن تحية عادت إليه بعد أن تزوجت. وأعطته

نفسها.. لا، لم تعطه.. ولكنها عادت إلى جسده.. فلماذا لا يقبل عودتها، ويحمد الله على نعمته.. لماذا يعذب نفسه وقد عادت إليه حبيبته، عادت كلها.. لماذا يضنى نفسه بهذه الأفكار المشوشة؟

ولماذا يضع عنقه تحت مقصلة المبادىء والمثل العليا، التى عاش عمره وهو يضع عنقه تحتها.. لماذا.. لماذا؟ لأنه إنسان يبحث عن الحقيقة.

وارتفعت ابتسامة ساخرة إلى شفتى حلمى، وهمس فى ازدراء.. الحقيقة.. أين الحقيقة؟ هل الحقيقة أن تنام تحية مع زوج لا تحبه... أم الحقيقة هى أن تنام مع رجل تحبه؟

وألقى حلمى بالسكين من يده قبل أن يتم تقشير البطاطس، كأنه عجز عن ذبح أفكاره.. ثم خلع الفوطة من حول وسطه.. وذهب إلى غرفة النوم، وأخذ يخلع حذاءه وبنطلونه، والابتسامة الساخرة لا تزال عالقة بين شفتيه، يزدرى بها الحقيقة.

لقد عاش عمره كله وهو يبحث عن الحقيقة.

ربما ولد وهو يبحث عن الحقيقة.

وقد ولد بين شقيقين.. أحدهما أكبر منه، والآخر أصغر منه.. ولم يكن ثم خيار فى اختيار مكانه بين شقيقيه.. لم يتعمد أن يكون الأخ الأوسط بينهما.. ورغم ذلك فقد وجد نفسه مضطهدا فى عائلته لمجرد أنه الأخ الأوسط.. الأخ الأكبر، مدلل، مسموع الكلمة، لأنه «البكرى».. والأخ الأصغر مدلل ومسموع الكلمة، لأنه «النونو» آخر العنقود.. أما هو فليس البكرى.. ولا النونو..ليس له وضع مميز.. ليست له صفة فى العائلة.. والثياب الجديدة تشترى للأخ الأكبر.. والأخ الأصغر.. أما هو فلا تشترى له ثياب جديدة، إنما يلبس ثياب أخيه الأكبر بعد أن تقصر عليه.. والكبدة المشوية تطهى لأن الأخ الأكبر يحبها.. والمكرونة الاسباجيتى تطهى لأن الأخ الأصغر يحبها.. أما هو.. فلم يبق له شىء يحبه ويختاره.. وزعت قائمة الطعام بين أخيه الأكبر وأخيه الأصغر.. حتى حنان أمه، كان يحس إنه مغبون فيه.. كان يرى نظرة الزهو فى عينيها وهى تنظر إلى أخيه الأكبر، ويرى الضحكة الكبيرة فى عينيها وهى تنظر إلى أخيه

الأصغر.. أما هو فنظرتها إليه باهتة.. إنه يحبها.. ربما أكثر من أخويه.. ولكن نظرتها إليه ليس فيها هذا الزهو، ولا هذه الضحكة الكبيرة.

وأحس طول صباه بأنه مشدود من عنقه ومن قدميه بين أخيه الأكبر وأخيه الأصغر.. وهذا الوضع المشدود يؤلمه.. يمزق ضلوعه.. وكان ينظر فى عينى أبيه يبحث عن سر كل هذه الأحاسيس التى تعصف به.. كان يبحث فيهما عن الحقيقة.. ولم يكن أيامها قد اكتشف كلمة «الحقيقة».. ولكنه كان يبحث فى عينى أبيه عن الراحة.. عن العدالة.. عن المساواة بين أخويه.. كان أبوه يمثل أمامه القوة التى تمثل الحقيقة.. قوة الحقيقة.

ولكن أباه أيضا كان يدلل أخاه الأكبر وأخاه الأصغر، ولا يدلله.. كان يضحك لهما، ولا يضحك له.. كان يحتمل أسئلتهما الساذجة ولا يحتمل أسئلته.. وكان يخاف أباه أكثر مما يخافه أخواه.. لا يستطيع أن يسأله.. رغم أنه أكثر حاجة من أخويه للسؤال.. السؤال عن سر هذه الأحاسيس التى تفرى أعصابه.

إلى أن كان يوم.

وهو يذكر هذا اليوم جيدا.

كان يلعب بالكرة، مع أخيه الأكبر وبعض أبناء الجيران، فوق سطح منزلهم.. وضرب حلمى الكرة فسقطت فوق حجرة السطح، وجرى أخوه الأكبر وتسلق حائط الحجرة، وأمسك بالكرة.. وصاح فيه حلمى ألا يقذفها.. ولكن أخاه قذف الكرة.. شاطها.. وأصابت نافذة البيت المجاور فكسرتها.. وصرخت نساء الجيران.. وحاول حلمى وأخوه الاختباء، ولكن بقية أبناء الجيران أبلغوا عنهما.. واشتكى الجيران للأب.

وناداهما الأب.. ووقف حلمى أمامه يرتعد.. وأخوه واقف وعلى شفتيه ابتسامة بلهاء.. وسمع منهما القصة.. وفجأة رفع الأب كفه وضرب حلمى.. ضربه كثيرا.. وضربه بالشلوت أيضا.. لماذا يضربه وقد قال له إنه حذر أخاه من قذف الكرة.. لماذا.. لماذا.. لماذا ؟ وصرخ الأب بأعلى صوته.. إنت السبب فى كل البلاوى..

لو ماكنتش حدفت الكورة فوق السطوح.. ماكانش كل ده حصل..

هل هذه هى الحقيقة ؟

لا.. إن أباه ليس الحقيقة.

وفقد إيمانه بأبيه.

وعندما فقد إيمانه.. تاه.. ضاع.. قضى سنوات طويلة وهو منطو على نفسه، وفى رأسه أشياء كثيرة لا يفهمها.. سحب كثيرة لا يستطيع أن يتبين من خلالها طريقه.. إلى أن اكتشف الله.

أمه تنادى الله.. حتى أبوه ينادى الله.. ومدرس الديانة قال لهم: ليس عند الله كبير أو صغير.. وسيبعث الناس فى الآخرة، وكلهم فى أعمار واحدة.. سيكون هو وأخوه فى عمر واحد.. لن يكون الأخ الوسط بينهما.. بل سيكون هو وأبوه فى عمر واحد.. لا كبير ولا صغير.

وأصبح صديق الله.

لم يعد يفكر فيما حوله، ولكنه يفكر فيما فوقه.. عيناه مرفوعتان إلى السماء.. ولا يهمه ما يجرى له فى الدنيا.. لم يعد يهمه أن يتميز عنه أخواه.. ولا أن يفقد زهو أمه بأخيه الأكبر، ولهفتها على أخيه الأصغر.. إنه مع الله.. صديق الله.. وإذا لم يجد ما يريده فى هذه الدنيا، فسيجده عند صديقه.

وبدأ فى الحادية عشرة من عمره يصلى.

يصلى بكل ما فيه من حرارة.. وكان يغالى فى صلاته.. ويطيل فيها.. وكان يشعر وهو يصلى بأنه مع صديقه.. فى حديث لذيذ.. بلا خوف.. ولا رهبة.. حديث كله حب.. وكان يصحو فى الفجر، ويتوضأ ويلف حول رأسه البشكير فيبدو كأنه عمامة كبيرة، وبعد أن يصلى الفجر، يجلس ويقرأ القرآن.

وفرحت به أمه.. ولكن فرحتها خبت بعد قليل.. وأصبح أخواه يتهكمان عليه ويسميانه الشيخ حلمى.. وانتقل التهكم إلى بقية أفراد العائلة.. حتى أبوه ينظر إليه متهكما، ويسميه «الواد العبيط».. ولم يؤثر فيه تهكم عائلته.. أنه سعيد مع صديقه الجديد.. مع الله.

وحاول أن يضم إليه فى تدينه صديقه محمد.. وقد صلى معه محمد مرات، ولكنه لم يستمر.. إنه سعيد بلا صلاة.. أو ربما وجد محمد عالما آخر يرتفع إليه غير عالم الله.. وصديقه توفيق يضحك. ويقول له.. ربنا يفتح عليك يا سيدنا الشيخ !

وأصبح يذهب إلى مدرسة فؤاد الأول الثانوية، وفى جيبه جورب طويل، حتى إذا حانت صلاة الظهر، دخل المصلى، ولبس الجورب حتى يغطى ساقيه من تحت بنطلونه القصير، وأدى الصلاة.. وكان يلتقى فى المصلى بفريق من زملائه.. لا يتغيرون.. يصلون معه.. ثم يلتفون فى حلقة حول طالب فى السنة الخامسة، يتحدث إليهم فى الدين.

إن هذا الطالب يتكلم كلاما غريبا.. وصوته ملىء كأنه يعب منه بملء فمه.. إنه يقول إن الخطيئة ملأت قلوب البشر.. وإن مدنية أوروبا هى مدينة الكافرين الملحدين، وأن على الشرق المسلم أن يعود ويحمل مشعل الحضارة.. وأن الحكومة حكومة كفرة.. الحكومة التى تطبق قوانين من صنع البشر، وتترك قوانين من صنع الله.. حكومة كافرة.. فكل كبيرة وصغيرة من شئون الحكم وأمور الحياة لها نصوص وقواعد فى القرآن والسنة.. والأحزاب ورجال الأحزاب من الكفرة المنحلين.. وعلى الشباب المؤمن أن يعمل للقضاء على الحكومة وعلى الأحزاب، وإقامة حكومة إسلامية تطبق قوانين الله.. ولو ضحى فى سبيل ذلك بروحه.. فثواب الجنة للمؤمنين.. والحديث الشريف يقول : «من رأى منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وهذا أضعف الإيمان».

واحتار حلمى فى هذا الكلام.

لقد كان يعتقد أن الدين هو علاقة بينه وبين الله.. هو حديث خاص بينهما.. هو صداقة وسيلتها الصلاة.

ولكن زميله الكبير يقول له كلاما آخر.. يقول إن الناس مخطئون.. ولابد أنهم مخطئون.. فأبوه مخطىء عندما يميز أخويه

عنه، وهو فى حاجة إلى أن يؤمن بالله والقرآن حتى يساوى فى معاملاته لأبنائه.. ولكن الزميل الكبير يقول إن الدنيا لن تنصلح إلا إذا قضى على هذه الحكومة.. وعلى الأحزاب.. وهو يستشهد فى كلامه بالقرآن.. فلابد أن كلامه صحيح.. القرآن حق.. القرآن هو الحقيقة.. ويوم يقضى على الحكومة والأحزاب، ينصلح حال أبيه.. ويرتاح فى الدنيا، وينال ثواب الآخرة.

كيف ؟

كيف يقضى على الحكومة وعلى الأحزاب، ويقيم حكم الله؟

إنه مؤمن.. ولا يكتفى بأضعف الإيمان.. وقد كان يعتقد أن كل واجبه نحو إيمانه، هو أن يجمع الحسنات حتى يدخل بها الجنة.. كما يجمع القروش فيشترى تذكرة السينما.. كان يصلى.. ولا يكذب.. ولا يؤذى أحدا.. كان يفعل كل ذلك ليدخل الجنة، ويلتقى بالله.. صديقه.. ولكن هناك واجبا أكبر من ذلك نحو إيمانه.. إن عليه أن يقضى على الحكومة، وعلى الأحزاب، ويعيد حضارة الإسلام.

كيف ؟

كيف يؤدى واجبه؟

وأرقه هذا التساؤل.. قضى شهورا وهو يزداد ضياعا.. ويصلى فيتوه عن صلاته.. ويرفع عينيه إلى الله.. يسأله.. ولا يجد الجواب.. ويهرع إلى زملاء المصلى، ويلتصق بهم.. إنه معهم يحس بأنه فى الطريق الصحيح.

وفى أحد أيام الثلاثاء، همس فى أذنه أحد زملاء المصلى :

– استنانى بعد المدرسة.. نروح سوا المركز.

وكان قد سمع عن «المركز» وكانت له فى خياله صورة غامضة.. صورة حديقة واسعة، فيها أشجار.. وعصافير.. وناس تشع وجوههم بالنور، ولهم لحى بيضاء طويلة.. صورة أقرب إلى صور الجنة.. وفرح عندما دعاه صديقه ليذهب معه إلى هناك.. إلى الجنة.. وأخفى فرحته عن صديقيه محمد وتوفيق.. وأخفى نفسه عنهما بعد انتهاء المدرسة.. وانتظر زميل المصلى وذهب معه.

وكان المركز بناء كبيرا فى حى الحلمية.. ليس حديقة كما كان يتصور.. وزحام كثير.. ناس ليس لهم لحى بيضاء طويلة، ولا تشع وجوههم نورا.. ورغم ذلك فقد دخل وهو يرتعش من الرهبة، ويمسك بذراع زميله، يتشبث به حتى لا تصرعه الرهبة.

وجلس بجانب زميله يستمع إلى ترتيل القرآن.. ثم وقف رجل قصير القامة، أبيض الوجه، ذو لحية سوداء.. يتحدث.. إن حديثه يتسلل إلى قلب حلمي.. إنه لا يفهمه كله، ولكنه مأخوذ به.. مشدود إليه بكل أعصابه.. بكل أذنيه.. بكل عينيه.. ووجد نفسه يتمتم مع بقية الناس «صدق الله العظيم» كلما ذكر الرجل فى حديثه آية من آيات القرآن.. ويتمتم «صلى الله عليه وسلم» كلما جاء ذكر النبى.

وخرج وفى رأسه دوار.. وألف سؤال.. وأصبح يتردد على المركز كل ثلاثاء، ليريح رأسه من الدوار عندما يسلمه إلى الرجل ذى اللحية السوداء، وليجد الجواب عن أسئلته.

وفى سن الرابعة عشرة، أصبح عضوا فى جماعة الإخوان المسلمين.. أحس بأنه لم يعد الوسط بين أخويه ليس فوقه كبير، ولا تحته صغير.. ولكنه واحد فى جيش المسلمين.. جندى كبقية الجنود.. فارس من فرسان النهار، وراهب من رهبان الليل.. إنه أكبر من أخويه.. أفضل منهما.. وأفضلكم عند الله أتقاكم.. وشعر لأول مرة بأنه أصبح إنسانا مهما.. أصبح أحد المنقذين الذين اصطفاهم الله الرحمن، لتخليص البشر من خطاياهم.

لقد وجد الحقيقة.

وتغيرت كل حياته.. سلمها كلها للإخوان.. ممثلى الحقيقة.

وأصبح يذهب معهم فى رحلات إلى الجبل، وهو مرتد ثيابا عسكرية، ويمرنونه هناك على تفجير القنابل وإطلاق الرصاص.

ولم يعد يخالط الشبان الحزبيين فى مدرسته لأنهم من الكفار الملحدين.

ولم يعد يذهب إلى السينما، لأنها أداة دعارة وإلحاد.. ولم يعد يستمع إلى أغانى عبدالوهاب وشادية.. لأنها خلاعة وانحلال.

حتى علاقته بالله تغيرت.. لم تعد الصلاة حديثا بينه وبين ربه.. بل أصبحت الصلاة تجمعا بين الاخوان لمواجهة الكفار.

وكانوا يعطونه جدولا معينا به عدة أسئلة يجيب عنها كل مساء قبل أن ينام، ليكفر عن خطاياه.. هل نظرت اليوم إلى أنثى؟ لا.. هل ذهبت إلى السينما؟ لا.. هل فاتتك فريضة من فرائض الصلاة ؟ لا.. هل.. هل.. أسئلة كثيرة يجيب عنها ليعترف بخطاياه، إذا كان قد ارتكب في يومه خطيئة.. ثم يقرأ «وردا» خاصا يستغفر به ربه.. ثم يقدم كشف الخطايا فى اليوم التالى لرئيس الشعبة التى ينتمى إليها.. ويتلقى التعليمات.. الاشتراك فى مظاهرة.. أو ضرب الكفار من المعارضين.

ويبدأ يشعر بالخوف.

الخوف من الله.

لقد كان يحب الله.. ولكنه أصبح يخافه.. كما كان يخاف أباه.. كان أبوه ظالما، ولهذا كان يخافه.. ويكرهه.. ولكن الله ليس ظالما، فلماذا يخافه؟ وأحس أنه مندفع مع الإخوان بالخوف، لا بالإيمان.. والخوف يستبد به.. إنه يخاف حتى من نفسه.. يخاف أن يرفع عينيه حتى لا تلتقيا بوجه امرأة.. يخاف أن يتكلم حتى لا ينطق كلمة كفر.. يخاف أن يحس حتى لا يكون فى إحساسه خطيئة.. يخاف.. يخاف.. وكلما استبد به الخوف أكثر، ازداد التصاقا بالإخوان ليحموه من الخوف.. ليحموه من الله.

هل هذه هى الحقيقة؟

إنه لا يدرى.

ويبدأ يحتار.

إيمانه يهتز.. وكلما اهتز إيمانه اشتد خوفه.

إلى أن كان يوم.

وصدرت إليهم التعليمات بالقيام بمظاهرة عنيفة احتجاجا على الحكومة.. ووقف حلمى فى الصباح على سلم المدرسة المؤدى إلى الفناء يخطب فى زملائه.. ويثيرهم.. خطب تمرن عليها، وأجادها فى

اجتماعات الشعب.. وتوالى الخطباء.. والحماس يستبد بكل الطلبة.. والهتافات الغاضبة الساخطة تملأ السماء.. ثم انطلقوا.. حطموا المدرسة.. وأحرقوا المعمل.. ثم خرجوا إلى الشارع.. يحطمون.. إن فى صدر كل منهم طاقة هائلة.. طاقة محطمة.. مدمرة.. السواعد الصغيرة تقلب عربات الترام وتشعل فيها النار.. وتخلع فوانيس الشارع.. وتنزع الأشجار.. كل شيء فى الطريق يتحطم.. ويحترق.

وجاء البوليس.. فوق رأس الجنود خوذات من الصلب.. وفى أيديهم عصى طويلة.. وبعضهم يحمل البنادق.. وتقدم الضابط يحاول أن يتفاهم مع الزعماء.. ووقف حلمى بجانب رئيس شعبة الإخوان وهو يتحدث إلى الضابط.. والعرق يتصبب من وجهه.. وعيناه غاضبتان، مجنونتان بالغضب.. غضب يشعل كل عصب فيه.. ولم يسمع ما يقوله الضابط.. غضبه سد اذنيه.. وكل ما يحس به أنه فى المعركة.. معركة ضد الكفار.. وهو أحد المنقذين الذين اصطفاهم الله.

ورفض رئيس الشعبة أن يتفاهم مع الضابط.

وبدأت المعركة.

وقطع الطوب تنهال كالحجارة السجيل فوق رؤوس الجنود.. وهتافات الطلبة كصراخات الحرب.. والبوليس يطلق الرصاص.. وزميل له وقع بجانبه.. وهو يتحرك بلا وعى.. يتحرك تلقائيا.. يضرب ويقذف الطوب.. ويطلق صرخات الحرب...

وناوله رئيس الشعبة قنبلة يدوية، وهو يأمره :

– خد.. ارمى دى !

وفى حركة آلية صرخ.. الله أكبر.. ثم نزع صمام القنبلة بأسنانه كما علموه فى الجبل.. وقذف بها على مدى ذراعه الصغير.. ثم وقف يصرخ مرة أخرى الله!.. ووقفت الصرخة فى حلقه، كأن الله خنقه.. وأمامه جثة عسكرى بوليس ملقاة على الأرض، والدم يسيل من عنقه.

ووقفت نظراته فى عينيه.

وفمه لا يزال مفتوحا.

والطلبة يدفعونه معهم وبينهم.. ورائحة البارود المنطلق من بنادق البوليس تملأ الهواء.. واحتكاك الأقدام المتدافعة بالأرض، له صوت كصوت ملايين المناشير تحاول أن تنشر الأرض.

وجاءت نجدة بوليس فى عربات مصفحة.

وسمع رئيس الشعبة يصيح فيه :

- اهرب.

وأخذ يجرى.. ويجرى.. ولكنه لم يكن يحس باحساس الهرب.. إنه يجرى فقط لأن الأمر الذى أصدره له رئيس الشعبة، يعنى الجرى.. وهو يريد أن يقف.. يريد أن يقف ليتحقق من هذه الصورة التى لا تزال تملأ عينيه.. صورة عسكرى البوليس الملقى على الأرض والدماء تنزف من عنقه.. لعله لم يمت.. ويجرى.. وفى قلبه نداء يتردد مع أنفاسه اللاهثة.. لعله لم يمت.. لعله لم يمت.. ولا يستطيع أن يقف، كأنه يخاف أن يقف قبل أن يصدر إليه أمر بالوقوف.. وأخيرا وقف.. خيل إليه أن قلبه وقف.. ورئتيه وقفتا.. وعضلات ساقيه تصلبتا.. لم يعد يستطيع الجرى.. تعب.

ونظر حلمى حوله وأنفاسه اللاهثة تنطلق من فمه.. من أنفه.. من عينيه.. من أذنيه.. واستند بظهره على جدار بيت، كأنه يعلق أنفاسه على الجدران إلى أن تستريح. وتبين الشارع الذى وصل إليه.. شارع الملكة نازلى.. إنه لم يبتعد كثيرا عن المعركة التى دارت فى شارع العباسية، رغم المدة الطويلة التى قضاها يجرى، فقد كان يجرى فى الحوارى والشوارع الصغيرة، التى تلف وتدور حول الحى.

وركب الأوتوبيس إلى مصر الجديدة ليبتعد أكثر عن أرض المعركة.. وصورة العسكرى الملقى على الأرض والدماء تنزف من عنقه، لا تزال تملأ عينيه.. ويده التى أمسك بها القنبلة ثقيلة، كأنه لا يزال ممسكا بها.. وفى رأسه أفكار يخاف أن يواجهها.. أسئلة كثيرة تصرخ فى أذنيه، ويحاول ألا يسمعها.. إنه يزداد خوفا..

خوفا من نفسه.. يخاف من هذه الأفكار.. يخاف من هذه الأسئلة.

وأصبح بعد يوم المعركة صامتا.. يصلى، ويتوه فى صلاته.. ويذهب ليجلس مع زملاء المصلى، فيتوه عن أحاديثهم.. وبدأ يشعر بينهم بإحساس الاضطهاد.. يحس بأن الإخوان قد اضطهدوه عندما أعطوه قنبلة ليقتل بها عسكرى البوليس.. نفس الإحساس الذى كان يشعر به فى بيته عندما يكلفه أبوه بأن يذهب إلى الجيران، ولا يكلف أخاه الأكبر ولا أخاه الأصغر.. لو كان صغيرا لما كلفه الاخوان بإلقاء القنبلة.. لخافوا عليه.. ولو كان كبيرا لما كلفوه بالقاء القنبلة، لأن الكبير يصدر الأوامر بالقاء القنبلة، ولا ينفذها.. إنهم يضطهدونه.. وهو خائف.

وبعد أيام أصدرت الحكومة أمرا بحل الإخوان المسلمين.

ثم قتل الإخوان المسلمون رئيس الحكومة.

ثم قتلت الحكومة زعيم الإخوان المسلمين.

وحلمى يتابع هذه الأحداث ويحاول أن يوفق بينها وبين الحقيقة، وعندما يعجز، يخاف.. يخاف من الله.. ويخاف من الإخوان.. ويخاف من نفسه.. وهو ضيق بهذا الخوف.. يريد أن يتحرر منه.. يتحرر من الله.. ومن الإخوان.. ومن نفسه.. ويزداد إحساسه بالاضطهاد.

وصدرت التعليمات إلى أفراد الإخوان أن يختبئوا.. الزعماء يختبئون فى أماكن أعدت لهم.. والاتباع يذوبون فى الحياة.. لا يكشفون عن شخصياتهم كإخوان.. ولا يتصرفون تصرفات ظاهرية كإخوان. وسمح لهم بالاختلاط بالكفار من شبان الأحزاب الأخرى.. والتردد على الملاهى ودور السينما.. وعدم التردد على المساجد.

وتعجب حلمى من هذه التعليمات.

هل نخون الله، خوفا من البوليس ؟!

الله يمنعنا من مخالطة الكفار، والله يمنعنا من الذهاب إلى السينما، والله يأمرنا بالتردد على المساجد.. فكيف نعصى الله؟

ولكن.

هل هذه هى الحقيقة؟!

هل الحقيقة هى أن الله يريد لنا الحياة ولو على حساب تعاليمه ؟

أم الحقيقة هى أن الله يريد أن يحرمنا من الحياة فى سبيل تعاليمه ؟

وتاه.

ولكنه خرج يختلط بشبان الكفار.. وسمع أحاديثهم.. إنهم ليسوا كفرة، إنهم يحبون الله.. بعضهم يصوم ويصلى.. وقد يختلفون معه فى الرأى.. ولكنهم ليسوا كفارا.. ليسوا أعداء له.

وذهب إلى السينما.. وأحس بأنه يكتشف عوالم جديدة، لا على شاشة السينما، ولكن فى عقله.. عوالم جميلة.. حلوة.. هادئة.. إنه يهيم مع عينيه المعلقتين على الشاشة.. ويحس بأن الجمال ينبعث من نفسه.. من نفسه هو لا من الشاشة.. جمال يحركه شىء كبير.. اسمه الفن.. الفن ليس كفرا.. لا يمكن أن يحرم الله الفن.. الفن يحرك أحاسيس الجمال فى الإنسان.. والله يحب الإنسان، ويحب له الإحساس بالجمال.

وأصبح يذهب إلى السينما ثلاث مرات فى الأسبوع.. عطشان إلى الفن.. إلى الإحساس بالجمال.. ويسمع أغانى عبدالوهاب.. وأم كلثوم.. وشادية..ويضحك لأغانى شكوكو، ونكات إسماعيل يس.. ويقول.. الله.

وأصبح يحس بالندم على السنوات التى قضاها محروما من الحياة.. محروما من الناس.. محروما من الفن.. وأحس بالحقد على الإخوان.. إنهم لا يمثلون الحقيقة.. ولا يمثلون الله.. الحقيقة ليست الخوف.. والله ليس الحرمان.. لقد كان الإخوان يضطهدونه كما تضطهده عائلته.

ولم يعد يقرأ «الورد» كل مساء.. ولم يعد يملأ جدول الخطايا.. إنه ليس مذنبا حتى يحاسب نفسه.. وأهمل صلاته.. حاول أن يجرى من الله الذى صوره له الإخوان المسلمون.. الله الذى يطلبه

بأن يعتبر كل الناس أعداء له.. والذى يطالبه بأن يحقد.. وأن يكره.. وأن يقتل.

ولكنه لم يفقد ثورته.

الثورة لا تزال تصيح فى صدره، والبحث عن الحقيقة يملأ رأسه.. وقد خرج من تجربته مع الإخوان المسلمين بفهم جديد.. عرف أنه لن يستطيع أن يجد الحقيقة فى بيته.. ولكنه سيجدها فى المجتمع.. سيجدها بين الناس كلهم.. والحقيقة لا تخصه وحده، ولكنها تخص الناس كلهم.. والحقيقة ليست حل مشكلته، بل حل مشكلة الناس كلهم.

وذهب يوما مع صديق له من أصدقائه الجدد، إلى مقر الحزب الاشتراكى.. لقد قال له صديقه إنهما ذاهبان إلى حزب مصر الفتاة.. ولكنه عندما ذهب إلى هناك قرأ اسم الحزب الاشتراكى.

ووقف يستمع إلى زعيم الحزب وهو يخطب.

إنه يقول كلاما غير الذى كان يسمعه من زعيم الإخوان.. ولكنه لا يبدو أنه كافر.. إنه يتحدث عن حق الناس فى الحياة، لاحقهم فى السماء.. ويتكلم عن الحقوق الاجتماعية.. والحكومة الدستورية.. والفساد.. إنه هو الآخر يريد أن يسقط الحكومة، ولكن بمنطق جديد.. إنه يعبر عن حقيقة أخرى.. هل هناك أكثر من حقيقة للموضوع الواحد.. ربما كان ما يسمعه الآن هو الحقيقة.. ولكنه يقاوم أذنيه.. ويقاوم عقله.. يقاوم الزعيم الذى يتكلم.. إنه لا يريد أن يسلم قياده بسهولة، كما فعل عندما أسلم قياده للإخوان.. يريد أن يرى الطريق بوضوح قبل أن يسير فيه.

والطريق يبدو أمامه غارقا فى السحب، إن كل ما سمعه فى الحزب لم يضع يده على حقيقة مجسمة.. لم يؤد به إلى رؤية صورة هذه الحقيقة.. ربما لم تكن الصورة واضحة حتى فى أدمغة زملائه من شباب الحزب.

وهناك شىء يقلقه دائما.

شىء قابع فى صدره لا يريد أن يتحرك.

- ...

الله قابع فى صدره.

إنه لم يعد يصلى، ولم يعد يقرأ القرآن، ولم يعد يذهب إلى المسجد.. ورغم ذلك فالله فى صدره.. يحاول أن يتناساه، فلا يستطيع.. ويقدم على خطيئة، فيشكه الله فى صدره.. لقد حاول كثيرا أن يذهب إلى امرأة.. وقد كان فى حاجة شديدة ليذهب إلى امرأة.. إنه يتعذب بشبابه الجديد.. ولكنه لم يستطع.. خاف هذا المجهول القابع فى صدره.. يارب.. لماذا يعيش الكافرون فى سعادة، والمؤمنون فى شقاء.. لماذا تحل نعمك على من يكفر بك، وتحرمها على من يؤمن بك؟ وهو يقاوم.. يقاوم هذا الرقيب الذى يشل حركاته، ويقيد انطلاق شبابه، ويقف فى طريق سعادته.. يقاوم الله.. ثم انفجر فى رأسه السؤال الذى يخافه.. هل الله موجود.. وهل هناك حساب فى الآخرة.. بل.. هل هناك آخرة؟

وبدأ هذا السؤال ينزف فى عقله، كأنه ينزف من شريان مفتوح. ويتعذب.

ثم قرر أن يتخلص من عذابه على يد أستاذ الفلسفة فى المدرسة.. ذهب إليه بعد انتهاء الحصة.. وأطرافه ترتعش.. والدماء مكتنزة فى وجنتيه.. وصهد ساخن يحرق عينيه، وسأله فى تلعثم وخوف.. هل الله موجود ؟

ورفع الأستاذ قامته القصيرة، وابتسم فى سخرية من تحت أنفه المدبب.. ثم قال له.. إذا أردت أن تستريح فلا تناقش.. آمن كما آمن أجدادك.. أما إذا ناقشت فلن تصل إلى شىء !

وتركه وذهب.

وحلمى ينظر خلفه وهو مشدوه.. ماذا قال هذا الأستاذ.. لا يمكن أن يكون كلامه صحيحا.. إن الله موجود قطعا.. وكل مناقشة تنتهى باثبات وجود الله.. الله هو الحقيقة.. الله هو استمرار الوجود.. الله هو الإنسان.. و.. وأحس بالثورة تندلع فى صدره.. ثورة من أجل الله.. من أجل صديقه القديم.. إنه سيثبت وجود الله لهذا الأستاذ بالمناقشة.

وقضى ليلته يستعد لهذه المناقشة.. ويشعر بالخوف يعاوده مرة أخرى.. إنه يشعر بالخوف وهو يناقش نفسه، فكيف يستطيع أن يناقش الأستاذ.. ويتعذب.. رأسه كله ملتهب.. كأنه مشتعل بالنار.

ورغم ذلك ذهب إلى الأستاذ فى اليوم التالى، وفى عينيه عناد كبير.. وبدأ يناقشه.. ولكن الأستاذ قاطعه وهو ينظر إليه بعينين سوداوين ثاقبتين كأنه ينخر بهما صدره.. وقال وابتسامته الساخرة تطل من تحت أنفه المدبب.. إن الموضوع من وجهة نظر البحث الفلسفى.. هو علاقة الروح بالمادة وأيهما يسبق الآخر فى الوجود.. وقد اثبت البحث الفلسفى أن المادة هى الكائن الوحيد.. وأنها تتحرك بذاتها بلا حاجة إلى روح.. المادة هى الحقيقة.

وأحس حلمى بالدوار.. ونظر إلى الأستاذ فى بلاهة وقد اتسعت عيناه حتى غرق فيهما كل وجهه.

ماذا يقول هذا الأستاذ؟

هل هناك أناس اكتشفوا الحقيقة، التى يستريح عندها الإنسان؟

وهل هذه الحقيقة هى المادة.

وما هى المادة؟

وجرى وراء الأستاذ.. يا أستاذ.. يا أستاذ.

انتظره الأستاذ، وقبل أن يفتح حلمى فمه، قال له وهو يربت على كتفه، وعيناه الثاقبتان تنخران فى صدره.. سأعطيك كتبا تقرؤها.

وبدأ حلمى يقرأ.

يقرأ كتب ماركس وانجلز ولينين.. وستالين.

وكانت القراءة خارج المقررات الدراسية، شيئا جديدا عليه، فأقبل عليها كأنه يقبل على حب جديد.. يقرأ بكل عينيه.. بكل أعصابه.. بكل عقله.. يقرأ فى كل وقت.. وكان يعلم أن الكتب التى يقرؤها كتب مصادرة بأمر الحكومة.. ممنوعة.. فكان يحس وهو يقرأ بأنه يقوم بعمل خطير.. كأنه أصبح عضوا فى جمعية سرية..

ودفعه هذا الاحساس بالخطر إلى الإندفاع أكثر فى القراءة.. والمنطق الشيوعى يتسلل إلى رأسه.. ويسرى فى شرايينه.. ويحاول أن يقاومه.. أن يناقش ما يقرؤه.. ولكنه لا يستطيع.. يعجز عن المناقشة.. فيستسلم أكثر.

وكان يذهب إلى أستاذ الفلسفة أحيانا، ليسأله عن بعض ما يصعب عليه فهمه.. ويجيبه الأستاذ بسرعة.. بعصبية.. ويخاف حلمى أن يسأل أكثر حتى لا يبدو جاهلا، فيهز رأسه كأنه فهم.. ويعود يحاول أن يفهم وحده.

إلى أن التقى بمحمود، فى أحد اجتماعات الحزب الاشتراكى.. شاب أكبر منه.. لعله فى الخامسة والعشرين من عمره.. وبدأ يناقشه فيما يقرؤه.. واستراح لمناقشته.. كل شىء مفهوم بينهما.. واكتشف حلمى بعد أيام أن محمود شيوعى، مندس فى الحزب الاشتراكى، كما كان هو أخوانيا مندسا فى نفس الحزب.. يبدو أن الأحزاب أيامها كانت كلها مندسة بعضها فى بعض.. يختبىء بعضها فى بعض، ويتجسس بعضها على بعض.. وأحس.. مجرد إحساس.. أن محمود يضعه تحت الاختبار.. إنه يسأله عن أشياء كثيرة.. عن أبيه.. وعن أصدقائه.. وعن ثروة عائلته.. وعن نشاطه السياسى.. كثير من الأسئلة تبدو أحيانا متعمدة.

ولم يهتم حلمى بهذا الاختبار.. استسلم له، دون أن يهمه شئ.. وبدأ محمود يمر عليه فى البيت.. ويناديه، ويمشيان سويا فى شارع أحمد سعيد الذى يشق صحراء العباسية.. ويتناقشان.. وأحيانا كان ينتظره على باب المدرسة.. ويصحبه فى رحلة مناقشة.. وبدأ يردد مع محمود مفاهيم جديدة لكل شىء حوله.. أصبح يقول إن أباه يمثل السلطة الرجعية فى المجتمع، ولن يحل مشكلته مع أبيه إلا إذا قضت الثورة على السلطة الرجعية.. ستقضى الثورة على تحكم الآباء وسيطرتهم.. وقد كان يكره أباه طوال عمره، ويعتبره إنسانا ظالما متعسفا، ولكنه لم يكن يجد مبررا لهذه الكراهية، إلى أن اكتشف أن أباه يمثل السلطة الرجعية،

واقتنع بأن هذا هو السبب فى كراهيته له.

والحب، ليس سوى عاطفة برجوازية متأخرة، نشرها البرجوازيون، حتى يلهوا الشعب عن حب المجتمع.. المجتمع هو الحب الوحيد.. أى حب بين فرد وفرد علاقة برجوازية.. وحاول حلمى أن يتصور هذا الذى يسمونه «المجتمع».. أن يضع له بعقله الصغير، شكلا محددا، حتى يحبه.. ولكنه لم يستطع.. ورغم ذلك فقد أقنع نفسه بأن الحب الفردى هو عاطفة برجوازية متأخرة.

والمدارس، والصحف، هى أسلحة فى يد الرأسمالية.. المدارس تخرج عبيدا للرأسمالية.. والبرامج الدراسية أعدت للعبيد.. والصحف هى أحذية الرأسمالية، تسير بها على رقاب القراء.

والدين.. أفيون الشعب.. وقد ناقشه محمود طويلا فى الدين، كأنه يقوم بغسل عقله من كل ما علق به من تعاليم الإخوان المسلمين.. وقد أسلم حلمى عقله لمحمود.. ولكن صدره ظل به طيف يقلقه.. طيف الله.. ويخاف أن يفصح عنه لأحد.. يخاف أن يبدو كأحد البرجوازيين، أو يتكلم كما يتكلم البرجوازيون.

والفن.. برجوازى.. عبدالوهاب يمثل البرجوازية وأم كلثوم تمثل الإقطاع، وشادية تمثل البرجوازية الصغيرة المائعة.. وفريد الأطرش يمثل البرجوازية المنحلة.. وموسيقى الجاز تخاطب الغريزة، وتحطم الروح.. إنها سلاح برجوازى.. أما الفن.. فهو موسيقى كورساكوف.. وخاتشادوريان، وتشايكوفسكى.. وسمع حلمى صديقه محمود يصفر وهو يسير بجانبه، لحنا لم يسمعه من قبل.. وكرر محمود نفس اللحن.. إنه يعزفه بشفتيه دائما.. ما هذا.. ما هذا اللحن؟ إنه نشيد الشيوعية الدولية.. وبدأ حلمى يصفر اللحن مع محمود.. ثم ألح عليه أن يطلعه على كلمات النشيد.. وأخذ محمود يغنى النشيد وهو منفوخ الصدر، يسير بخطوات عسكرية.

يا بؤساء الدنيا قوموا
قوموا يا محرومين من الخير
سخطكم بقى رعد، قوموا

ده الانــتـظار الأخـــــــيــــــــر
انســــوا المــاضــى وامـــســـحــوه
يا عـــبــــيــد قـــومـــوا، قـــومـــوا
ونظـام العـــــالم، غـــيـــــروهو
كـل شـىء كــــونـوا، كــــونـوا
آخــــــر الـحــــروب أهـيـــــه
اتحـــــدوا لكى تـســـود الدولـيـــة

واحتـار حلمى فى ركاكة الكلمات.. ولكن ماذا يهم الشعر.. إن الشعر الموزون من خلق البرجوازية.. والكلمات الناعمة من المخدرات الرأسمالية.. المهم المعنى.. المعنى وحده.

وبدأ حلمى يردد «نشيد الدولية» ويردد التعاريف والشعارات الشيوعية، ويملأ بها فمه.. ويحس بالزهو وهو يرددها.. يحس بأنه إنسان مثقف.. يعرف أكثر مما يعرف كل زملائه المخدرين بأفيون البرجوازية، ويرى أكثر مما يرون.. وبدأت هذه الابتسامة الساخرة تعلو شفتيه.. يسخر بها من كل شىء.. يسخر من الدروس التى يلقيها عليه المدرسون.. ويسخر من المدرسين أنفسهم.. ويسخر من زملائه ومن مناقشتهم.. إن كلا منهم غبى أو جاهل أو عميل، ويسخر من الحكومة البوليسية التي تحكم، ويسخر مما يقرؤن في الصحف.. إنه مجتمع برجوازى.. مجتمع جاهل..وكل شىء سيهدم.. ستهدمه الثورة.. وستحكم البروليتاريا.. ومحمود يعطيه كتبا جديدة ليقرأها.. ومنشورات.. ومذكرات مكتوبة بخط محمود عن المفاهيم الشيوعية.. وكان حلمى يأخذ هذه المذكرات وينقلها فى كراسات خاصة.. وخط يد محمود الذى كتبت به هذه المذكرات أصبح كحروف المطبعة فى عينى حلمى، من كثرة ما أطل فيه.. إنه يستطيع الآن أن يميز هذا الخط ـ خط محمود ـ من بين عشرات الخطوط.

وبعد أيام طويلة.. شهور.. قدمه محمود إلى زملائه الشيوعيين.. ووجد نفسه يعيش بينهم.. معهم دائما.. إنه يخرج من المدرسة إليهم.. وأحيانا لا يذهب إلى المدرسة ويذهب إليهم.. والمناقشات

مستمرة.. وقراءته لا تقف عند حد.. كلما انتهى من كتاب، أعطوه كتابا آخر.. وإحساسه بأنه إنسان مثقف يشتد، وابتسامته الساخرة تكبر على شفتيه.

وفى هذه الأثناء مات أبوه.. مات قبل أن يتم السادسة عشرة من عمره.. وصدم لأول وهلة عندما سمع بخبر الموت.. ولكنه أفاق من صدمته سريعا.. إن كل ما حدث هو أن العائلة تخلصت من سلطة الرجعية.. ولم يحزن.. قضى منطقه الجديد على حزنه.

وكانت أمه امرأة ضعيفة.. تزوجت أباه لأنهم زوجوه لها، ولأنها لم تعرف رجالا قبله ولا بعده.. وانتقلت إلى بيته كامرأة غريبة فى زيارة دائمة.. فقد كان يقيم معها أختا زوجها.. وأصرا على أن تظل المرأة الوافدة عليهما امرأة غريبة.. ضعيفة.. ليس لها من البيت إلا حجرة نومها.. وقد ماتت احدى الأختين.. وظلت الزوجة ضعيفة.. غريبة فى وسط بيتها.. وشاخت الأخت الأخرى ولم تعد تتحرك.. ورغم ذلك ظلت الزوجة ضعيفة غريبة.. ثم مات زوجها.. فاشتد ضعفها.. وأصبحت غريبة بين أولادها.. لا تستطيع أن تحزم أمرهم.. تركت كلا منهم تنمو شخصيته نموا تلقائيا.. كل منهم له عالمه.. وهى تزهو بالابن الأكبر.. وتضحك للأصغر.. وتنسى الأوسط.

وأصبح حلمى أكثر انطلاقا بعد موت أبيه.. لا شىء يحد انطلاقه.. يعود وقتما يشاء، ويخرج وقتما يشاء.. ويفعل ما يشاء.. وقد كان متمردا على عائلته دائما.. ولكنه بعد موت أبيه، أصبح التمرد، حياته الطبيعية.

واندفع أكثر من الرفاق.

أصبحوا هم عائلته.. دنياه.

لا شىء خارج الدائرة التى يعيش فيها معهم.. حتى صديقاه محمد وتوفيق لم يعد يهتم بهما.. إنه يراهما فى الطريق.. وفى المدرسة.. ولكنهم ليسا فى دنياه.

وأخيرا قدمه الرفاق إلى كمال.

الرفيق كمال.

وكان كمال إنسانا هادئا.. ممصوص الوجه.. واسع العينين.. شعره ناعم تسقط خصلة رفيعة منه على جانب من جبينه.. وكان يتكلم كأنه يستعذب كلماته.. كأنه يغني.. وفي حديثه ثقة كبيرة بنفسه.. إنه يتكلم كأنه يرسم خطوطا واضحة للمستقبل.. وكان حلمي يسمع عنه من بقية الرفاق.. وعرف أنه من عائلة غنية، وأنه تلقى علومه في باريس، وكان هناك عضوا في الحزب الشيوعي.. وعاد إلى مصر، وكتب تقريرا عن الوضع الطبقي في الشرق الأوسط.. وأصبح هذا التقرير المرجع الأساسي للنشاط الشيوعي.. حتى المنظمات التي لا يشرف عليها كمال تتخذ هذا التقرير أساسا لأبحاثها.

وبدأ كمال يناقش حلمي.. مناقشة لا تبدو متعمدة.. وحلمي مبهور به.. مبهور بهدوئه.. بصوته الواثق.. بعينيه الكبيرتين، بوجهه الممصوص.. بمنطقه الذي لا يحتمل المجادلة، ولا يترك ثغرة فيه لأحد.

وبعدها أصبح حلمي عضوا في المنظمة السرية الشيوعية.

وكان أصغر الأعضاء سنا.

كان في السادسة عشرة من عمره.

وأخذوه معهم إلى بيت في حي القلعة حيث تعقد المنظمة اجتماعاتها.. ودهش عندما وجد هناك عددا من الآنسات.. خمسا.. ثلاثا منهن إسرائيليات.. وأعلن كمال انضمام حلمي للمنظمة.. وشربوا بضع زجاجات من البيرة.. وكانت المرة الأولى التي يشرب فيها حلمي البيرة.. وقد حاول أن يعتذر.. ولكن الرفاق صرخوا فيه ساخرين.. فشرب.. إن طعمها مر.

وأطلقوا عليه اسما جديدا.. حتى يبقى اسمه الحقيقي سرا.. أسموه : عوض.. وكمال نفسه هو الذي اختار الاسم.. إنه لم يحب هذا الاسم.. لماذا أسماه كمال عوض.. لماذا لم يختر له اسما آخر؟ ولكنه لم يجادل.. وأخذ يطوف بعينيه في وجوه بقية الرفاق.. ويتساءل.. هل الأسماء التي يعرفهم بها هي أسماؤهم الحقيقية، أم أسماء «حركية».

وضحك كمال، وقد اكتشف سر التساؤل فى عينى حلمى، وقال خلال ضحكته :

– كل واحد فينا حر.. يقول اسمه الحقيقى أو اسمه الحركى.. مادام بين الرفاق.. إنما فى تحركاتنا واتصالاتنا ما نستعملش إلا الاسم الحركى.

وهز حلمى رأسه موافقا.

وعاد يطوف بعينيه بين الرفاق كأنه يستحلف كلا منهم أن يقول له اسمه الحقيقى.. وعيناه تصرخان.. محمود.. هل اسمك محمود؟ خالد.. هل اسمك خالد؟

ولم يطف بعينيه على وجوه البنات، إنه منذ دخل إلى مكان الاجتماع، وهو لا يستطيع أن يرفع عينيه فى وجوه البنات.. أثر من آثار البرجوازية لا يزال عالقا به.. وقد حاول أن يتخلص من هذا الأثر حاول كل جهده.. ولكنه لم يستطع.. لم يستطع أن يرفع عينيه إلى وجوه البنات.

وأعطوه ليلتها منشورات ليوزعها على عمال مخزن الترام فى العباسية.

وأخذ المنشورات بيد حاول كل جهده ألا ترتعش.. وطواها ووضعها فى جيب بنطلونه.. ودخان السجائر يملأ الحجرة المغلقة النوافذ.. ورائحة البيرة تملأ أنفه.. والرفاق بدءوا يتبادلون النكات ويضحكون.. وضحكات البنات ترن كصليل السلاسل.. وكمال جالس هادىء، وبجانبه مارى.. ذراعها حول كتفه.. وحديث طويل يدور بينهما.

واقترب منه أحد الرفاق، وقال له وهو يرفع كأس البيرة فى وجهه :

– اشرب يا عوض.

وانتبه على اسم عوض.. وقام واقفا وهو يقول :

– أنا حاروح بأه.

وصاح محمود :

– وده معقول.. ده لسة بدرى.

وقال كمال فى حزم :

- سيبه يروح يا محمود.

ثم التفت إلى حلمى وقال فى حزم هادىء :

- بكرة.. هنا.. الساعة ثمانية.. خد بالك كويس.

وخرج حلمى وهو مبهور.. لا يدرى أهو حلمى أو عوض.. وصور الرفاق تملأ عينيه.. كمال.. ومحمود.. وعدلى.. ومارى.. إنه لم يتحقق جيدا من وجه مارى.. لم يلتقط كل ملامحها.

وفجأة تنبه إلى المنشورات التى فى جيب بنطلونه.. وأحس بساقه ثقيلة.. ثقيلة.. تماما كما كان يحس بثقل يده عندما يمسك بالقنبلة.. إن الإخوان المسلمين لم يعطوه منشورات ليوزعها، ولكنهم أعطوه قنابل.. ورغم ذلك فهو يحس بعدم وجود فرق بين المنشورات والقنابل.

وأحس بالخطورة.. لم يحس بالخوف.. ولكن بالخطورة.. وليست خطورة العمل الذى يقوم به.. ولكن خطورة نفسه.. أهميته.. عبء طبقة البروليتاريا الذى يحمله على كتفيه.

ورفع قامته ليبدو إنسانا خطيرا.. واحتدت النظرات فى عينيه.. وأخذ يتلفت حوله، لا لأنه ينتظر أن يهاجمه البوليس، ولكن لأنه إنسان خطير.. وركب الترام ويده على ساقه التى يحمل فوقها المنشورات.. ساقه الثقيلة.

ولم ينم ليلتها.

إحساسه بخطورته.. وأهميته.. وعبء طبقة البروليتاريا.. أيقظ عقله وعينيه.. وخرج من البيت فى الساعة الخامسة صباحا.. وذهب إلى مخزن الترام فى آخر شارع العباسية.. وتسلل بين عربات الترام... فى شمالها.. يلقى فى كل عربة - خصوصا فى مكان السائق - بضعة منشورات.. وقلبه يدق.. ويداه ترتعشان.. وفى عينيه نظرات تكاد تفضحه.

ولمحه أحد عمال الترام، وقال له وهو يبتسم ابتسامة الصباح :

- بتعمل ايه يا افندى ؟

وارتعش حلمى.. واهتزت نظراته فى عينيه.. ثم أعانته ابتسامة

العامل على أن يتمالك نفسه، وقال :

– اقرأ.. وإنت تعرف.

وقال العامل وهو لايزال يبتسم :

– هو إحنا عندنا وقت نقرأ يا أفندى، لكن نقرأ علشان خاطرك.

وجذب عامل الترام منشورات أخذ يقرأ فيه.

وخرج حلمى من بين عربات الترام وهو يسير بخطوات مرتبكة سريعة.. إلى أن عاد إلى البيت.

وألقى نفسه على السرير، ونام.

لم يستطع أن يذهب إلى المدرسة يومها.

وفى المساء ذهب إلى مكان الاجتماع وقدم تقريرا مفصلا عن عملية توزيع المنشورات.. وسأله كمال أسئلة كثيرة.. كثيرة جدا.. شملت أدق التفاصيل.. وكان يلقى اسئلته فى لهجة بسيطة.. مرحة.. ليس فيها صيغة التعالى ولا القيادة.. كأنه يسأل عن مباراة فى كرة القدم اشترك فيها.. كأنهم كلهم يلعبون.. ثم أخيرا هنأه.. وشكره.

ثم أعلنه أنه تقرر أن ينضم إلى خلية مكونة منه، ومن مارى.. وأن هذه الخلية المكونة من اثنين فقط، ستكون مسئولة عن نشاط المنظمة فى منطقة مصانع نسيج الحرير ومصانع الأسمنت بطرة.. ولم يعلنه كمال بهذه القرارات فى صيغة الأمر.. إنما أخذ رأيه فيها، كأنه يعرض عليه لعبة جديدة.. لعبة كفاحية.

●●●

وأفاق حلمى من ذكرياته على صوت المفتاح يدور فى قفل الباب، مرة ثانية.

وخرج من غرفة النوم بسرعة، وقد انتهى من خلع حذائه وبنطلونه، أصبح بالفانلة والسروال الداخلى.. حافى القدمين.

وفوجىء بتحية تدخل من الباب.. مبهورة الأنفاس، متعجلة.. وقالت وهو واقف أمامها كالمصعوق :

– المفتاح اللى حضرتك خدته، ده يبقى مفتاح بيتى.. وأفاق من صعقته، وقال وابتسامة ساخرة تطل من شفتيه :

– والمفتاح اللى معاكى يبقى مفتاح إيه ؟

وقالت تحية فى تحد وعجلة :

- يبقى مفتاح بيتي برضة.. اعمل معروف يا حلمى.. هات المفتاح.. ما تتسببش لىّ فى مصيبة.

وقال حلمى :

- هاتى المفتاح اللى معاكى، الأول.

وقالت تحية وهى تدق الأرض بقدمها :

- حلمي.. ماتجننيش.. أنا موقفة التاكسى تحت.. وجوزى زمانه جاى.

قال فى عزم وهو يضع يديه فى خاصرته.. وقوامه الممشوق القوى يقف عاريا كتمثال إله صغير :

- هاتى المفتاح.. وأنا أديكى مفتاحك.

وقالت تحية فى عصبية :

- لأ.. مش حاديك المفتاح إلا لما أقرر أنا.. ماتنساش إن ده بيتى.. هدومى فيه.. الحاجات بتاعتى فيه.. صورى فيه.

وقال وحاجباه الكثيفان يتعقدان فوق عينيه الواسعتين :

- خدى حاجتك.. وسيبى المفتاح.

وقالت تحية وهى تصرخ فى عصبية :

- لأ.. إنت مش من حقك تطردنى.

وقال ساخرا :

- وإنتى من حقك تتجوزى.. مش كدة.

قالت :

- أنا اتجوزت.. لكن ماطردتكش.

قال فى مرارة :

- بس جبتى علىّ واحد تانى.

قالت صارخة :

- حلمى.. هات المفتاح.

ثم اندفعت إلى داخل حجرة النوم، وأخذت تتلفت باحثة عن المفتاح.. ووجدته فوق الدولاب الصغير الموضوع بجانب السرير،

فالتقطته فى عجلة.. وحاولت أن تخرج.. ولكن حلمى سد عليها الطريق.. ومد يده يحاول أن يجذب حقيبتها من تحت ذراعها.. وتشبثت تحية بحقيبتها.. واقتربت منه لاصقة جسدها بجسده، وهى تقول فى توسل وصوت مبهور :

– اعمل معروف يا حلمى.. سيبنى.. أنا اتأخرت قوى.

وأحس برائحة عطرها تتسلل إلى أعصابه.. وجدها يطلق النار فى جسده العارى.. أحس بكل ما يمكن أن يحدث لو أصر على أن يجذب حقيبتها.. ستتعلق بعنقه.. وتضع شفتيها فوق شفتيه.. ولكن.. لا.. لن يضعف مرة أخرى.

وابتعد عنها بسرعة.. وقال وهو لا ينظر إليها :

– اتفضلى.

ونظرت إليه فى امتنان.. ومالت برأسها وقبلت عضلات كتفه العارى قبله سريعة.. وابتسمت هذه الابتسامة التى تبدو كشىء يكاد يقع منها دون أن تدرى، ثم قالت هامسة :

– بكرة.. حاتصل بيك فى الشركة.

وخرجت.

وأغلقت الباب وراءها.

●●●

وتنهد حلمى.. وهز رأسه كأنه يتعجب من نفسه، ثم جذب فوطة كبيرة، وضعها على كتفه، ودخل الحمام.

ورأسه مشغول بمشكلته مع تحية.

ربما بدأ مشكلته مع تحية، منذ عرف مارى.



وقف حلمى تحت الدش وشريط الذكريات يمر أمام عينيه من خلال خيوط المياه المتساقطة على جسده.. وابتسم ابتسامة صغيرة ساخرة وهو يرى فى ذكرياته وجه مارى.. الوجه الأصفر الحزين.. فى حزنه سخط.. وفى سخطه عناد.. والعينان الصغيرتان الذكيتان العصبيتان.. والرموش المتآكلة.. والحاجبان العريضان.. والأذنان الكبيرتان اللتان تلتف حولهما خصلات شعرها، كأنها تعلق خصلاتها على شماعة.. وفى ثقبيهما حلق صغير من الذهب كحبتى الحمص.. والأنف الكبير المقوس.. وشفتها العليا ترتعش دائما.. هذه الرعشة كانت تثيره، كأنها شعاع يزغلل عينيه.

وقد عقد معها أول اجتماع للخلية فى بيت القلعة بعد أن انصرف بقية الرفاق.. وهو وهى وحدهما فى الغرفة الكبيرة.. وجلس بجانبها على الأريكة الاستامبولى الموضوعة فى صدر الحجرة، وأمامهما مائدة صغيرة.. وهو لا ينظر إليها.. عيناه ساقطتان على ذراعها.. وذراعها من أول يدها إلى كوعها، مغطاة بالشعر، كزغب أرنب أسود.. لماذا لا تنزع هذا الشعر؟ إنه يعرف أن النساء ينزعن مثل هذا الشعر.

ومارى تحدثه بصوتها الإسرائيلى الذى ينطلق نصفه من أنفها، ونصفه من بين شفتيها.. تحدثه عن التنظيمات العمالية فى منطقة حلوان.. وعن الأشخاص الذين يمكن أن يلتقى بهم هناك، وعن طريقة جمعهم ليلقى فيهم محاضراته وينقل إليهم تعليمات

المنظمة.. وهو يحاول أن ينظر إلى وجهها.. أن يركز عينيه فوق شفتيها.. ولكنه لا يكاد يرفع عينيه حتى تعودا وتسقطا فوق ذراعيها.. فوق زغب الأرنب الأسود.. إنه لا يستطيع أن ينظر فى وجه امرأة.. طوال حياته كان لا يستطيع.. وقد أحب بثينة ابنة جيرانه فى شارع الأجهورى بالعباسية، وهو فى الرابعة عشرة من عمره.. وكان يتعمد أن يمر من أمام بيتها عدة مرات فى اليوم.. ولكنه لم يكن يستطيع أن يرفع عينيه إلى نافذتها.. ولا إلى وجهها.. ولكنه أيامها كان يخاف الله، وكان يؤمن بأن النظر فى وجه بثينة خطيئة يعاقب عليها الله.. وقد تحرر الآن من الله.. فلماذا لا ينظر فى وجه مارى.. لا يدرى.. أو لعله يدرى.. يدرى أنه لا يستطيع أن يواجه الناس بحقيقة احساسه فيخفى عنهم عينيه حتى لا يروا احساسه من خلالهما.. لقد كان يكره أخاه الأكبر فأخفى عنه عينيه حتى لا يرى فيهما كراهيته.. وأخوه الأصغر.. وأبوه.. كلهم كان لا ينظر إليهم فى وجوههم.. كانت عيناه معلقتين دائما فى الوسط.. ينظر بهما، ولا ينظر بهما.. نظراته ليست مرفوعة، ولا خفيضة.. نظرته دائما نصف نظرة.. ويستعيض عن النصف الآخر بذكائه.. تماما كما ولد فى الوسط بين أخيه الأكبر، وأخيه الأصغر.. كل شىء فيه وسط، كل شىء فيه نصف شىء.

وهو يشعر بأن هناك احساسا فى نفسه لا يستطيع أن يواجه به مارى ويخاف أن تقرأه فى عينيه.. لا يدرى ما هو هذا الاحساس.. ولكنه احساس يحرمه من النظر فى وجوه كل النساء.

ومارى لا تزال تتحدث عن التنظيمات العمالية فى منطقة حلوان.. وهو يلتقط نصف كلامها، والنصف الآخر يضيع.

وفجأة سكتت مارى عن الكلام، وركزت عينيها الذكيتين على وجهه، وقالت فى لهجة آمرة :

– حلمى.. بص لى.

ورفع إليها عينين مترددتين متسائلتين.. ثم عاد وخفض عينيه سريعا، وضباب أحمر يزحف على وجهه.

وعادت مارى تأمره :

- خليك باصص لى.

ورفع عينيه إليها مرة أخرى وعلى شفتيه ابتسامة صغيرة يحاول أن يستمد منها جرأته.

وأطلت مارى فى وجهه برهة ثم سألته بصوتها الإسرائيلى :

- إنت عندك بنت؟

وقال حلمى فى غباء :

- مش فاهم ؟

وقالت مارى كأنها تشرح له نظرية جديدة :

- تعرفش بنات.. مالكش علاقة مع بنت.

وقال حلمى فى براءة :

- لأ..

وتنهدت مارى كأنه ألقى على كتفيها بمهمة صعبة، وقالت :

- يبقى مافيش فايدة.

قال فى بلاهة :

- مافيش فايدة من إيه؟

قالت فى عصبية :

- منك.. إنت من ساعة ما اجتمعنا وإنت سرحان.. عقلك بعيد.. نص كلامى مابيوصلش لودانك.. و..

وقاطعها حلمى :

- أبدا.. مش صحيح.

وقالت فى حزم كأنها تأمره ألا يكذب :

- لأ.. صحيح.. تعرف ليه ؟

وقال حلمى وهو يحس بأنه يتعرى أمامها :

- ليه ؟

قالت كأنها تلقى محاضرة :

- لأن هناك مشكلة فردية تعطل إحساسك وفهمك لمشكلة المجتمع.. ولازم تتخلص من المشكلة دى.. بسرعة. علشان تعرف

تشتغل.. تعرف تقوم بدورك.

وقال حلمى ووجهه يغوص فى السحابة الحمراء :

– مشكلة إيه ؟

قالت فى بساطة حازمة :

– المشكلة الجنسية.

وفغر حلمى فاه ثم عاد وأغلقه سريعا، وعقد ما بين حاجبيه، وحنى رأسه قليلا كأنه يتظاهر بمناقشة مشكلة علمية.

وعادت مارى تقول فى طلاقة كأنها تردد درسا حفظته عن ظهر قلب :

– المجتمع البرجوازى علشان يسيطر على أفراده وضع تقاليد كان من نتيجتها أن وجدت المشكلة الجنسية.. المجتمع البرجوازى سمى الجنس خطيئة يعاقب عليها ربنا.. واللى يحاول يحل المشكلة دى يخش النار.. ويمكن يخش محكمة الجنايات.. وكانت النتيجة أن تسعين فى المائة من تفكير الفرد فى المجتمع البرجوازى أصبح فى حل مشكلته الجنسية.. كل راجل يفكر فى ست.. وكل ست بتفكر فى راجل.. ونسيوا مشكلة المجتمع.. مشكلة تحرير المجتمع من سيطرة البرجوازية والشكل ده سيطر المجتمع البرجوازى على أفراده.. و..

وبلع حلمى ريقه، وقال وصوته محشور فى زوره، يحاول أن يشترك فى المناقشة :

– الواقع إن.. و..

وقاطعته مارى كأنها تعرف أنه لن يستطيع أن يشترك معها فى النقاش.. وقالت تردد بقية الدرس :

– فيه أسطورة يونانية بتقول إن ربنا خلق الإنسان وهو مكتف بنفسه.. يعنى كل فرد عبارة عن راجل وست.. وبعدين الإنسان ده بقى قوى.. قوى خالص.. بقى أقوى من ربنا.. وربنا زعل.. وفكر فى طريقة يضعف بيها الإنسان.. يعمل إيه.. قسمه نصين.. نص راجل، ونص ست.. ومن يومها انشغل الإنسان عن قوته.. كل نص

منه عاش يدور على النصف التانى.. وربنا ضمن عبودية الإنسان.. مابقاش حد قادر يتحداه.. وده نفس اللى عمله فلاسفة المجتمع البرجوازى.. وضعوا تقاليد تقسم الإنسان نصين.. نص راجل، ونص ست.. وكل نص بيدور على التانى.. وما حدش فاضى يفكر فى التحرر من البرجوازية ماحدش بيفكر فى التحرر من العبودية.. إنما المجتمع البروليتارى، قدر يتغلب على المشكلة الجنسية.. مافيش حاجة اسمها راجل وست.. فيه حاجة واحدة اسمها الإنسان.. ورجع الإنسان قوى فتحدى المجتمع البرجوازى وقضى عليه، وتحدى الآلهة وألغاها.

وكان حلمى يستمع إلى مارى، ورأسه على صدره، وشوكة فى حلقه.. إنه لم يحس أبدا بالمشكلة الجنسية كمشكلة.. ولكنه كان يحس بالجنس كنوع من الألم.. ألم ينطلق فى جسده كصاروخ من نار.. ولكنه ألم يداوى نفسه بنفسه، وكانت له القدرة على احتماله.. كانت معتقداته تعينه على احتماله.. وكان ينتظر اليوم الذى يستريح فيه من هذا الألم.. يوم أن يكبر ويتزوج.. أو يوم أن يموت ويدخل الجنة.

ولكن مارى تقول إن الجنس مشكلة.. وليس ألما.. وإن الحل قد وجد لهذه المشكلة.. لا رجل، ولا امرأة.. وكلام مارى مقنع.. إن عمره مشحون دائما بالتفكير فى البنات.. وربما استنزفت البنات معظم تفكيره.. وكان يحاول دائما أن يهرب من هذا التفكير.. كان ينكره على نفسه.. ويكتفى بتصور الجنة التى وعد الله بها المؤمنين.

وقال حلمى يرد على مارى وصوته محشرج بانفعاله :

– فعلا.. فعلا.. دى مشكلة.

وقالت مارى :

– عرفت بأه إنت كنت سرحان ليه وأنا باكلمك.. لأن المشكلة الجنسية كانت واقفة بينى وبينك.. كنت خايف تبص لى لأنك خايف من مشكلتك الجنسية .. كنت بتحس بجسمى وجسمك أكتر ما بتحس بعقلى وعقلك.

وقال حلمى ولسانه يتعثر :

– أبدا.. أنا كنت بافكر فى عمال منطقة حلوان.

وقالت مارى على الفور :

– إنت لسة تفكيرك برجوازى.. بتهرب من نفسك زى البرجوازيين.. البرجوازية الجبانة.. المهم.. ازاى نحل مشكلتك الجنسية.

وقال حلمى وهو يحس بدمائه تفور، وعيناه ملقيتان فوق بوز حذائه :

– بلاش الموضوع ده دلوقت يا مارى.. خلينا فى موضوع تنظيم المنطقة.

وقالت مارى فى لهجتها الآمرة وصوتها يخرج نصفه من أنفها ونصفه من بين شفتيها :

– حلمى.. بص لى.

ورفع إليها رأسه.. وارتعاشة شفتها العليا تزغلل عينيه.. ثم تنتقل إلى شفتيه.. شفتاه ترتعشان.. ووجنتاه.. وجفونه تسقط على عينيه وترتفعان فى حركات عصبية، ونظراته تبدو كأنوار النيون تضىء وتنطفىء.

وقالت مارى فى نفس لهجتها الآمرة ودون أن تبتسم

– بوسنى.

وقال حلمى فى دهشة وصباه يرتعش.. صبا السادسة عشرة :

– إيه ؟

وقالت مارى :

– بوسنى يا حلمى.

ولم يتحرك.. بقى جالسا بجانبها وعيناه كأنوار النيون تضىء وتنطفىء.. وشفتاه المرتعشتان ترسمان البلاهة.

واقتربت منه.. ولفت ذراعها حوله وجذبته إليها.. وسقطت بشفتيها فوق شفتيه.. وهو لا يدرى ماذا يفعل؟ ولكن شفتيه تتحركان بين شفتيها.. وأنفاسه تلهث.. والألم يشق جسده.. ولكنه

لا يستطيع أن يحتمله.. وليس فى حاجة إلى احتماله.. إن مارى تداوى ألمه.. ليس ألما.. إنها مشكلة.. مشكلة فردية.. وهو يحل مشكلته الفردية.. بسرعة.. وأنفاسه مبهورة.. تلهث.

وحلت مشكلته.

وكانت مارى أول امرأة فى حياته.

أول جسد.

وهو فى السادسة عشرة.

وهى فى الثانية والعشرين.

وألقى حلمى بكل شبابه المبكر فى هذا الجسد.. لا يكتفى.. ولا يتعب.. كلما أخذ أكثر، طالب بالأكثر.. وعقله كله مشغول بالجنس.. إنه ينام وهو يفكر فى جسد مارى.. ويذهب إلى المدرسة وهو يفكر فى جسد مارى.. ويذهب إلى العمال فى حلوان ويلقى عليهم محاضراته، ويبلغهم تعليمات المنظمة، لا لشىء إلا ليعود إلى جسد مارى.. يقدم لها التقرير.. ويأخذ جسدها.

ثم بدأ يتنبه.

إنه يعيش فى جسد مارى.

كل تفكيره.. وكل نشاطه.. وكل آماله.. محصورة فى هذا الجسد.. لقد ضحكت عليه مارى.. خدعته بمنطقها.

إنها لم تحل مشكلته.

ولكنها ألقته فيها.

لم تحرره من الجنس.

ولكنها أثارت فيه الجنس.

وقد كان قبل أن يلتقى بها قادرا على أن يتلهى من مشكلته.. كان يتلهى عنها بأصدقائه.. بمحاولته فهم ما حوله.. بنشاطه السياسى.. بمخاطبة نفسه.. بمشاكله مع عائلته.. ولكن الآن، بعد أن عرف طريق الجسد.. طريق الجنس.. لم يعد يعرف طريقا غيره.. ولم يعد يستطيع أن يتلهى عنه.. حتى إيمانه بالمبادىء الشيوعية، أصبح طريقا إلى جسد مارى.. وأصبحت كل قيمة المنظمة

الشيوعية هى أنها المكان الذى يلتقى فيه بجسد مارى.

وقد اعتقد عندما بدأت علاقته بمارى أنه يجب أن يخفى هذه العلاقة عن بقية الرفاق.. كان لا يزال فى أعماقه الإحساس بالخطيئة.. والجنس خطيئة.. فكان يتعمد فى اجتماعات المنظمة أن يجلس بعيدا عنها.. ويتعمد ألا يرفع عينيه إليها، وألا يبدى اهتماما بها.. ولكن مارى تنظر إليه وتضحك ضحكة كبيرة تسخر بها منه.. والرفاق كلهم يضحكون.. ويسخرون.. وينكتون.. ويجمعون فى نكاتهم بينه وبين مارى.. ويتهمونه بأنه لا تزال فيه بقية من البرجوازية.. ثم لاحظ أن كل خلية من خلايا المنظمة مكونة من اثنين.. شاب وفتاة.. كالخلية التى تضمه هو ومارى.. وربما كانت العلاقة فى داخل الخلية، هى نفس العلاقة بينه وبين مارى.

وبدأ يحاول أن يجارى كل هذا الذى يجرى حوله.. ولكنه يتأزم.. وكلما تمادى أكثر، تأزم أكثر.. وبدأ يشرب البيرة مع الرفاق ليدارى أزمته.. ثم بدأ يشرب الكونياك.. يشرب دون أن يتذوق ما يشربه.. وتنقلب معدته.. ثم يسكبها على الأرض.. والرفاق من حوله يضحكون.. ضحكاتهم كالصراخ، وهو يحس بأن أزمته تشتد.. إنه يحس بفراغ كبير داخل نفسه، لا يستطيع جسد مارى أن يملأه.. وحاول أن يلجأ إلى صديقيه محمد وتوفيق.. ولكن محمد لا يهمه شىء.. وتوفيق لا يستطيع أن يفهمه.

وبدأ حلمى يحاول أن يملأ فراغ نفسه بالسخط.. السخط على كل ما حوله.. ويشعل السخط فى نفسه إلى حد القسوة.. القسوة على كل ما حوله.. بدأ يقسو حتى على أمه.. لقد كان يطالبها بنقود كثيرة.. أكثر مما تعود وأكثر مما تطيق ميزانية العائلة.. كان يريد أن يدفع اشتراكات المنظمة.. ويدفع ثمن البيرة والكونياك.. وثمن مارى.. هذه الهدايا الصغيرة التى تطلبها منه مارى دائما.. وترفض أمه، وعندما ترفض لا يفكر فى ميزانية البيت ولا يحاول أن يناقشها فيها.. ولكنه يحس بالاضطهاد.. أمه تضطهده.. ولو كان أخوه الأكبر لأعطته.. ولو كان أخوه الأصغر لأعطته.. أما هو فلا

تعطيه لأنه الأخ الأوسط.. ويثور.. ويصرخ في البيت.. ويتشاجر مع أخيه الأكبر.. ويضرب الأصغر.. ثم.. ثم سرق نقودا من حقيبة أمه.. جنيها واحدا.. صرفه ليلتها في المنظمة.. وظل يرقب أمه أياما وهي تعيد حساباتها.. وتفتش في كل مكان عن الجنيه الضائع.. ويعاني أزمته وهو يرقبها.. ويحس بالدموع تتجمع تحت جفونه كحبات الحصى الصغيرة.. ولا يستطيع أن يكبت دموعه إلا بمزيد من السخط.. من القسوة.

ثم أصبح متمردا.

وبدأ تمرده على ماري نفسها.. إنه لم يعد يطيق هذا الشعر الذي يكسو ذراعيها كزغب الأرنب الأسود.. لماذا لا تنزعه؟

وترد عليه ماري في احتقار ساخر :

- إنت تفكيرك بورجوازي.

ويرد صارخا :

- لو كانوا البنات البورجوازيين بيشيلوا الشعر.. يبقوا أنظف مننا.. إنما بنات البلد بيشيلوا الشعر كمان.. المسألة مسألة نظافة.. نظافة.. فاهمة!

وترد عليه وابتسامتها الساخرة ترتعش مع شفتها العليا :

- ومابتشلش شعر دراعك إنت كمان ليه.. علشان تبقى نظيف.

ويثور صباه الساذج، ويعود يصرخ :

- فيه فرق بين الولد والبنت.. لازم يبقى فيه فرق.. حتى في الحيوانات.. الأسد عنده شعر.. واللبؤة معندهاش.. الديك عنده عرف.. والفرخة ماعندهاش.

وتنظر إليه ماري كأنها تحاول أن تصل إلى أعماقه :

- إنت مش ممكن تكون شيوعي.. ولا حاتبقى شيوعي.. المجتمع بتاع أبوك كابس على مخك.. المجتمع بتاع أبوك بيعتبر الست متعة.. حاجة معمولة مخصوص علشان يتمتع بيها الراجل.. جارية.. إنما أنا مش جارية.. أنا زيك.. وزي أبوك.. مش مسئولة عن مزاج حضرتك.. مش مسئولة إذا كنت بتحب الشعر ولا ما

بتحبوش.. أنا ليّ دور كفاحي في المجتمع زي دور أي راجل.. وأكتر.

وحاول أن يقسو على ماري.

بدأ يسطو على بنات الخلايا الأخرى.. ولكنه اكتشف أن ما يقوم به ليس عملية سطو.. إنها عملية استسلام.. إنه يستسلم لبنات المنظمة.. ليس بينهن واحدة تحس بأنه سطا عليها.. وليس بين الرفاق من يعتبره بطلا يقوم بعمليات السطو.. وماري لا تغتاظ.. ولا تسأل فيه.

واندفع في انحلاله.. وانحلاله يسوقه إلى تمرد أبعد.. حتى بدأ يتمرد على تعليمات المنظمة.. والمنظمة تهدف إلى اسقاط الحكومة.. أي حكومة وكل حكومة.. وهو موافق.. مقتنع.. وتسعى إلى إثارة العمال في كل مصنع.. وتنفيذ خطة لدفع العمال إلى تدمير مصانع حلوان.. وهو موافق.. مقتنع.. ولكن التعليمات تقضي بأن يتعاون أعضاء المنظمة الشيوعية مع الإخوان المسلمين، الذين انقلبوا إلى جمعية سرية تعمل تحت الأرض.. وهو ليس موافقا ولا مقتنعا.. إن هذا التعاون سيكون في مصلحة الإخوان.. وهو يعرفهم.. إنهم أكثر عددا، وأدق نظاما.. وهم أخطر على الشيوعيين من باقي الأحزاب.. إن الحرب يجب أن تبدأ على الإخوان.. وأي تقوية لهم معناها القضاء على الشيوعيين.

ويحاول الرفاق أن يقنعوه بأن التعاون مع الرجعية هو مرحلة للوصول إلى هدف، وينتهي عنده التعاون، وتبدأ الحرب بين الفريقين.. ويستشهد الرفاق بأقوال لينين وستالين على ما يقولون.. ولكنه لا يريد أن يقتنع.. لا يريد، لأنه أصبح يحب المناقشة. يحب أن يبدو دائما معارضا.. إن معارضته تفرج عن سخطه الخفي على نفسه وعلى رفاقه، وتعطيه شخصية أكبر يحتاج إليها ليملأ فراغ نفسه.

ووصل في تمرده إلى حد أن وصل إلى مناقشة أقوال لينين وستالين.. لم يعد يكتفي بما قرأه، بل يريد أن يناقشه.. أن

يعارضه.. وهو لم يكن يعارض القرآن، لأنه كلام الله.. ولكن الله لم يعد له وجود.. ولينين وستالين لم يحلا محل الله.. ولم يملأ مكانه الشاغر.. فلماذا لا يناقشهما، ولماذا لا يعارضهما؟

وبدأ الرفاق يرتابون فيه، ويكرهونه.

ما عدا كمال رئيس المنظمة.

كان كمال يحب حلمى، ويعتقد أنه يمر بأزمة نفسية يستطيع أن يجتازها.. وكان حلمى يحب كمال.. يشعر بأنه صنف أرقى من بقية الرفاق.. ويحب هدوءه.. ومنطقه الهادئ.. ويحب تعاليه الطبيعى عن البذاءة التى تحيط به.

وبدأ كمال يدعو حلمى إلى بيته فى المعادى.. بيت صغير تحوطه حديقة كبيرة منسقة.. كل شبر فيها معتنى به.. ويجلس معه ساعات طويلة فى حجرة واسعة لها نافذة عريضة تطل على الحديقة.. ويعزف كمال البيانو.. ألحانا هادئة رقيقة.. يعزف طويلا.. ثم يبدأ حديثا طويلا مع حلمى.. حديث فى نفس هدوء ورقة الموسيقى التى كان يعزفها.

وبهر حلمى بكل ذلك.. بهر بالهدوء الذى يحيط بالبيت.. وبهر بالحديقة.. وبهر بأصابع كمال وهى تقفز فوق مفاتيح البيانو.. وبهر بالحديث الهادئ الطويل.. ولكن هذه البهرة كانت تزايله بمجرد أن يعود إلى مقر المنظمة فى القلعة.. فتنتابه حالة التمرد.. وقد أصبح فى تمرده كثير التقزز.

إلى أن كان يوم.

وكان عائدا من منطقة حلوان، ومر على بيت كمال فى المعادى.. وكان قد تعود أن يزوره بلا سابق موعد.. وما كاد يخطو خطوتين فى حديقة البيت حتى خرجت عليه من خلف شجرة فتاة.. شقراء.. شعرها فى لون الذهب الغامق.. عيناها فى زرقة البحر الهادئ.. شفتاها تبتسمان كوردة الصباح.. وكل شىء فيها نظيف.. لا يدرى لماذا أحس بالنظافة بمجرد أن رآها؟ ربما لأنه كان يحن إلى شىء نظيف.. ونظر إليها مبهورا.. نفس البهرة التى يحس بها وهو يتابع

أصابع كمال وهى ترقص على البيانو.. ولم يستطع أن ينظر إليها طويلا.. خفض عينيه، وعاودته هذه السحابة الحمراء التى كانت تزحف على وجهه قبل أن يلتقى بمارى.

وهمس :

- كمال موجود :

وقالت وهى تنظر إليه وتبتسم.. نظرتها نظيفة، وابتسامتها نظيفة :

- أيوه.. اتفضل.

وهز رأسه وتمتم :

- متشكر.

وخطا خطوتين.. ثم استدار لها، وفوجىء بعينيها تتبعانه.. وعاد يهمس :

- إنتى قريبته.

واتسعت ابتسامتها، وقالت فى هدوء :

- أخته.

وابتسم قائلا كأنه يحادث نفسه :

- أنا ماكنتش أعرف أن له أخت.

وقالت وهى تضحك ضحكة خفيضة :

- وأنا ما كنتش أعرف إنك صاحبه.

وضحك.

ووقفا ينظران إلى بعضهما برهة.. وأحس بأن كل شىء فيه يستريح.. يستريح من سخطه.. ومن تمرده.. ومن الجنس.. عقله يستريح.. وروحه تستريح.. وجسده يستريح.

ثم تركها ودخل البيت، وجلس مع كمال فى الحجرة الواسعة وتعمد أن يختار مقعدا مواجها للنافذة التى تطل على الحديقة.. ليطل عليها بعينيه.. ويرقب قوامها وهى تتنقل بين أشجار الورد.. القوام المتسق.. ومشيتها الرقيقة.. هذه البنت لا يمكن أن تكون شيوعية حتى لو كانت شقيقة كمال.. البنات الشيوعيات ليس فيهن هذه

الرقة.. إنهن يعتبرن الرقة من مظاهر المجتمع البرجوازى.. هذه البنت، لابد أن تكون برجوازية.

وكمال يعزف على البيانو.. وعينا حلمى هائمتان فوق النغم عبر النافذة التى تطل على الحديقة.

ثم بدأ كمال يتكلم، واضطر حلمى أن ينزع عينيه من فوق النافذة.. ولكنه لا يستطيع أن يتتبع كل كلام كمال.. عقله سارح وراء البنت.. وبدأ حلمى يحس بالضيق من كلام كمال.. لأول مرة.. بدأ يحس بأن كمال يريده أن يقتنع بما يقول، ولكنه لا يسمح له بألا يقتنع.. كمال دائما هكذا.. لا يناقش، ولكنه يلقى أوامر.. كل ما هنالك أنه يلقيها بهدوء ورقة.. أوامر طويلة تشمل تعاليم ماركس ولينين كلها.

وانصرف حلمى سريعا ليلحق بالفتاة قبل أن تختفى.

ولكنها اختفت.. لم يجدها فى الحديقة !

وعاد إلى بيته وقلبه يضحك.. وكل شىء فيه هادىء مستريح.. ولم يذهب إلى مقر الاجتماع ليلتها.. بقى فى البيت لدهشة أمه.. ونام مبكرا.. وابتسامة مستريحة راقدة بين شفتيه.

وصحا فى اليوم التالى وهو يحس بهدوء عجيب، لم يحس به من قبل.. هدوء نشط.. يحس بأن صدره بدأ يمتلىء بشىء غير السخط.. وغير الحقد.. وغير التمرد.

وفى نفس الموعد، ذهب إلى بيت كمال وهو يعلم أنه لا يريد كمال.. ولكنه يبحث عن الفتاة الشقراء.. والعينين النظيفتين.

ورآها فى الحديقة بين الشجر.

هل كانت فى انتظاره ؟

أم هى الصدفة مرة أخرى ؟

لا يدرى.

وقلبه يشده إليها.

ووقفت تتلقاه بعينيها، وابتسامة ندية كوردة الصباح فوق شفتيها.

واقترب منها وقال في بساطة دون أن يحييها، كأنه لم يفترق عنها حتى يعود ويحييها :

- إنتي اسمك إيه ؟

وقالت وعيناها تضحكان :

- نوال.. وإنت ؟

وقال وهو يبتسم :

- حلمي.

وعيناه تشربان منها.

وتحادثا.. لا يدرى كم تحادثا.. ولا يدرى من أين بدأ موضوع حديثهما، ولا أين انتهى؟ ولكنه يذكر أنه كان يحادثها حديثا جادا.. كان يحاول أن يبدو أمامها أنه ليس أقل ثقافة من أخيها كمال.. ورغم ذلك لم يحس في حديثه بطعم السخط الذى كان يحس به كلما تحدث حديثا جادا.

وأدار حلمي عينيه حوله وقال كأنه يعلن لها مبادئه :

- أنا من رأيي إنكم تهدوا سور الجنينة.

وقالت نوال وهي تنظر إليه كأنها مبهورة به :

- ليه ؟

قال في ثقة :

- علشان الناس كلها تتمتع بالجنينة.. تتمتع بالورد.. والشجر.

وقالت في سذاجة :

- والحرامية ؟

وقال وابتسامة واثقة تقف بين شفتيه :

- الحرامية دول من علامات المجتمع البرجوازي.. المجتمع البرجوازي كله حرامية.. حرامية كبار وحرامية صغيرين.. والحرامية الكبار بيعملوا قوانين علشان يقبضوا على الحرامية الصغيرين، ويتخلصوا منهم.. ويوم ما نحطم المجتمع ده.. يوم ما نحقق المساواة والعدل، مش حايبقى فيه حرامية.. ماحدش حايحتاج إنه يسرق.

وقالت نوال وهى تنظر إليه في ذهول :

– يعنى نهد السور دلوقت، ولا نستنى لما الحرامية يخلصوا.

وقال فى ثقة :

– نهده دلوقت.. لازم يكون عندنا ثقة فى الناس.. فى الشعب.. الناس مش ممكن تعتدى على حاجة وهى حاسة إن من حقها إنها تتمتع بيها.

ونوال تنظر إليه مبهورة، وخفقات قلبها تقفز فى عينيها وتهز رموشها.. وحلمى يحس بأنه كبير.. كبير جدا.. إن نوال فى السادسة عشرة من عمرها.. أصغر منه بسنة ونصف.. ولكنه يحس بأنه أكبر منها بكثير.. وإحساسه بأنه كبير لا يخالطه شىء من السخط.. ولا من الحقد.. ولا من التمرد.. ولكنه يشعره بأنه قوى.. بأنه كامل.

وتعدد لقاؤه بنوال.. هذا اللقاء العابر تحت أشجار حديقة البيت.. وإحساسه بالقوة يزداد.. قوة شخصيته.. قوته على نفسه.. وبدأ يحس بنوال فى كل تصرفاته.. يحس بها بجانبه دائما.. يحس بها وهو يأكل، فيتأنى فى تناول طعامه كأنها ترقبه.. ويحس بها وهو يتكلم، فينتقى حديثه، ويتجنب الكلمات الجارحة، كأنه يخشى أن تسمعه.. ويحس بها وهو فى سهرات المنظمة، فيتصرف تصرف رجل قوى، ويتعفف عن البنات، كأنه يخشى أن يغضبها.

ورغم أن نوال كانت فى خياله دائما، إلا أنه لم يحس بها احساسا جنسيا أبدا.. إن قلبه يتحرك لها.. وعقله يتحرك لها.. وخياله يتحرك لها.. كل قطعة منه تحس بها.. ولكنها لا تثير فيه شهوة.. هذه الشهوة التى كانت تثيرها فيها مارى.. إن هناك شيئا يربط البنات والأولاد غير مجرد الجنس.. غير هذه العلاقة التى يمارسها مع مارى.

واكتشف هذا الشىء.

إنه الحب.

لابد أنه الحب.

ولم يعد حبه يكتفى بهذه اللحظات العابرة التى يلتقى فيها مع نوال تحت أشجار الحديقة.. وكان يستطيع أن يتفق معها على لقاء طويل، بعيدا عن البيت.. إنها لن تخيب رجاءه إذا طلب منها لقاء.. إنه يحس بعينيها معلقتين به كأنها لا تريد أن تتركه أبدا.. كأنها تعرض عليه أن يذهبا معا إلى آخر الدنيا.. ولكن.. لا.. إنه لا يريد أن يختلس شيئا.. لا يريد أن يبقى حبه سرا. وأن يخفيه فى الظلام كالخطيئة.. إن حبه فضيلة.. كالحقيقة.. ويجب أن يجاهر به. ويجب أن يعلم به كمال أخو نوال.. لا لأن كمال صديقه، بل لأن نوال حبيبته.. ولأن حبه ليس جريمة يخفيها عن كمال.

وذهب إلى كمال.

وكمال جالس يعزف على البيانو لحنا لشوبان.. وحلمى جالس بجواره، ووجهه غارق فى سحابة حمراء، وقلبه يدق، وأعصابه مشدودة، والأنغام تمر على أذنيه كالضجيج.. وهو يتساءل عن سر هذا الارتباك الذى يعانيه.

كل ما هنالك أنه يحب.. وحبه بسيط ناصع كالحقيقة.. وقد جاء ليعلن الحقيقة.. فلماذا يرتبك ؟

وجمع حبال صوته وقال فى صوت محشرج :

- أنا عايز أكلمك فى مسألة خصوصية يا كمال.

وقال كمال وهو مستمر فى العزف، دون أن يلتفت إليه :

- إتكلم.

وبلع حلمى ريقه، وقال :

- بس أرجوك تاخد الموضوع جد.

وقال كمال وأصابعه ترقص على البيانو :

- حاضر.

وعاد حلمى يقول بصوته المحشرج :

- أنا باحب نوال.

ونامت أصابع كمال على البيانو، والتفت إلى حلمى، يسأله فى دهشة :

- نوال مين.
وقال حلمى وهو ينظر فى عينى كمال :
- أختك.
وسكت كمال.. وأغلق البيانو فى بطء.. ثم استدار بمقعده المتحرك وواجه حلمى بوجهه الممصوص وعينيه الواسعتين وشعره الناعم الساقط على جبينه.. وقال وهو يبتسم ابتسامة صغيرة :
- وعايزنى أعمل إيه ؟
وقال حلمى وقد شجعته ابتسامة كمال :
- ولا حاجة.. عايزك توافق.. لأنى ناوى أعرض على نوال إنها تخرج معايا.
وامتقع وجه كمال قليلا، ثم قال وهو يبدو أكثر هدوءا :
- بس تقاليد نوال ماتسمحش لها إنها تخرج مع حد.
وقال حلمى فى حماس :
- دى تقاليد برجوازية.. ماتهمش.
وقال حلمى وابتسامته تضيق أكثر :
- نوال اتربت فى مجتمع برجوازى.
وقال حلمى وهو أكثر حماسا :
- وماله.. ما إنت تربيت فى مجتمع برجوازى.. إنما بقيت تقدمى.. شيوعى.
وقال كمال وصوته يحتد قليلا :
- أنا أقدر أحمل مسئولية نفسى.. إنما ما أقدرش أحمل مسئولية نوال.
وقال حلمى وقد بدأ يتنبه إلى موقف كمال :
- سيبها تحمل مسئولية نفسها.
وقال كمال وهو أكثر حدة :
- أبويا وأمى هما اللى حاملين مسئوليتها.
وقال حلمى يردد الشعار الذى حفظه :

- الآباء يمثلون السلطة الرجعية.. وإحنا بنقاوم الرجعية بنحطمها.

وقال كمال وقد علا صوته :

- إنت ما تقدرش تحل مشكلة المجتمع على مستوى فردى.. تحرير نوال مش معناه إنك حررت المجتمع.. بالعكس.. لازم الأفراد يفضلوا عايشين تحت ضغط المجتمع البرجوازى، لغاية ما يحسوا بمشكلتهم أكثر.. لغاية ما يتعقدوا أكثر.. لغاية ما يحسوا بالسلاسل اللي فى إيديهم وفى رجليهم علشان يوم الثورة ما تقوم يندفعوا فيها.. علشان يوم ما نتحرك يتحركوا ورانا.. و..

وقال حلمى يقاطعه وقد فقد أعصابه :

- لكن كل اللى بتعمله المنظمة بتاعتنا إنها بتحل مشاكلنا على مستوى فردى.. مشكلتى حلتوها على مستوى فردى.. مشكلة مارى اتحلت على مستوى فردى.. ومشكلة محمود.. وراشيل.. وسوسن.. كلهم اتحلت مشاكلهم على مستوى فردى وهم عايشين فى وسط المجتمع البرجوازى.. اشمعنى نوال مش عايز تحل مشكلتها على مستوى فردى.

وضبط كمال أعصابه وقال وهو ينظر فى عينى حلمى كأنه يحاول أن يسلب إرادته :

- مارى كان عندها حق.. إنت مش ممكن تكون شيوعى.. احساسك بالفرد أقوى من إحساسك بالمجموع.. كل المسائل بتاخدها على مستوى شخصى.. تنقصك العقلية الدينيماكية الثورية التقدمية، علشان تقدر تكون عنصر شيوعى ثورى.

وقال حلمى وهو يكاد يصرخ :

- العقلية الدينيماكية الثورية ما تخلنيش أرضى لبنات الناس باللى مارضاش بيه لأختى.. ماتخلنيش أسمح لمارى باللى ما اسمحش بيه لأختى.. وأنا مش عايز حاجة من أختك.. أنا بحبها، وهى بتحبنى.. وده حقنا إحنا الاتنين.

وقال كمال فى برود :

- اعتبر كلامنا انتهى.. خلاص.. اقفل الموضوع ده.
وأدار له ظهره.. وفتح البيانو، وبدأ يعزف عليه.
ووقف حلمى ينظر إليه طويلا، وكل حدة شبابه متجمعة فى عينيه، ثم تمالك أعصابه وقال فى صوت يعلو على صوت البيانو :
- أنا مستعد أتجوزها.
وتوقف كمال عن العزف، ونظر إليه وحاجباه مرفوعان من الدهشة، ثم قال وابتسامة ساخرة بين شفتيه :
- حسب المقاييس البرجوازية.. ما تنفعش.
وأحس حلمى بأن كمال يصفعه بابتسامته الساخرة، فصرخ بأعلى صوته :
- لازم تعرف إن إذا كان فيه واحد منا برجوازى فهو إنت.. إنت مش شيوعى.. إيه اللى يخللى واحد غنى زيك يبقى شيوعى.. إنت شيوعى صالونات.. إنت.. إنت قريت الشيوعية زى ما قريت روايات الفرسان الثلاثة.. واتأثرت بيها زى ما اتأثرت بالبطل باردليان.. إنت مش شيوعى.. إنت منحرف.. وأنا أتغشيت فيك.. منحرف.. منحرف.
ولم يرد عليه كمال.
خبط على مفاتيح البيانو بعنف كأنه يطرد صوت حلمى.
وخرج حلمى وهو يضرب الأرض بقدميه.. ووجهه محتقن بدمائه. وعيناه مشتعلتان بثورته.. وأنفاسه تختنق فى صدره.
والتقى فى طريقه بنوال واقفة فى الحديقة. فاندفع إليها، وقال وصوته يتهدج بثورته :
- نوال.. إحنا لازم نقف جنب بعض.. لازم تقفى جنبى.. أخوكى ضدنا.. وأبوكى ضدنا.. إنما ما يهمناش حد.. حاننتصر عليهم كلهم.
وقالت نوال وهى تنظر إليه كالمصعوقة :
- مش فاهمة يا حلمى.. قصدك إيه !
ولم يكن قد قال لها إنه سيعلن حبه لأخيها.

ولم يقل شيئا.

تركهما وأكمل طريقه وهو يضرب الأرض بقدميه.. وركب القطار من محطة المعادى عائدا إلى بيته فى العباسية وثورته لا تزال تضج فى صدره.. ويحس وسط ثورته بالضياع.. نفس الضياع الذى كان يحس به بين أخويه الأكبر والأصغر.. نفس الضياع الذى كان يحس به وهو يبحث عن الحقيقة.

لقد فقد الحقيقة مرة أخرى.

وبدأت ثورته على كمال تمتد لتشمل المنظمة كلها.. أين الحقيقة وسط هذه المنظمة؟ إن الحقيقة تحتمل دائما النقاش.. الحقيقة لا تخاف النقاش. ولكنهم لم يبيحوا له حق النقاش.. كانوا يحتمون عليه أن يحفظ ما يقرأ.. وأن يردده كما هو.. ولم تكن جلساتهم لنقاش.. إن أحدا منهم لم يجرؤ على مناقشة كارل ماركس، أو لينين، أو ستالين.. كأن هؤلاء آلهة لا يمكن نقاشهم.. تماما كالإخوان المسلمين.. إنهم أيضا لم يكونوا يسمحون له بالنقاش.. فقط بالترديد.. ترديد القرآن.. وترديد الأحاديث.. وترديد خطب المرشد العام.. كلهم.. الشيوعيون والإخوان.. كانوا يخافون النقاش.

كيف نخاف على الحقيقة من النقاش؟

لا.. ليست هذه هى الحقيقة.

ووصل إلى بيته.. وبقى فيه يومين وهو يناقش نفسه.. ويعيد مناقشتها.. ويحاول أن يهدىء ثورته، ليعود ويناقش من جديد وهو أكثر هدوءا.. ولكن.. لا.. إن هذه الشعارات التى تفرض عليه، فقدت معناها.. إنه يحس بأنه غارق فيها، دون أن يفهمها.. لقد ألقى بنفسه فيها دون أن يفكر، كأنه ينتحر.. ثم هذه الحياة التى يحيونها داخل المنظمة، هل يمكن أن تكون حياة كل الناس.. هل يمكن أن تكون هذه المنظمة هى صورة للدنيا بعد أن تنتصر الثورة الحمراء.

والنقاش بينه وبين نفسه لا ينتهى.

والحيرة تعذبه.

وفي نهاية اليومين مر عليه محمود في المساء، ودعاه إلى اجتماع المنظمة.. وبقي معه إلى أن ارتدى ثيابه خرجا معا.. ولم يكن يبدو على محمود شيء.. كان ضاحكا لبقا كعادته.

وسأله حلمي في اهتمام :

– عرفت اللى حصل بينى وبين كمال ؟

وقال محمود في بساطة :

– لأ.. خير.

وقال حلمي :

– أنا احتديت عليه.. اتناقشنا واتخانقنا.

وقال محمود وهو يضحك ضحكة صغيرة :

– ولا يهمك.. ياما اتناقشنا.. واتخانقنا.

وابتسم حلمي وهو يستعيد بينه وبين نفسه مناقشته مع كمال.. وسار بجانب محمود وقد قرر أن يحاول الاقتناع بكمال مرة أخرى.. ربما كان مخطئا في كل ما دار بخلده عن كمال وعن المنظمة.. وربما كان كمال محقا وهو يحاول أن يحمى أخته من حبه وحبها.

ووصل إلى بيت القلعة.. والرفاق كلهم مجتمعون في الحجرة الواسعة، وفي وسطهم كمال، جالسا على المقعد الأسيوطي الكبير الذي تعود أن يجلس عليه، وبجانبه ماري تلف ذراعيها حول كتفيه.. والجميع ينظرون إليه وفي عيونهم نظرات جامدة وشفاهم مزمومة.. ونظر في وجه كمال.. إنه لا يبتسم كعادته.. وجهه الممصوص جامد، وعيناه باردتان.. وعاد ينظر إلى محمود الذي كان يضحك طوال الطريق.. لقد اختفت ضحكته، وجمد وجهه هو الآخر.

وقال في تردد :

– سلام.

– ولم يرد عليه أحد، ولم يقم أحد لاستقباله، ولم يهلل له أحد.. وتلفت حوله، وجلس على المقعد الوحيد الخالي، وهو يشد أنفاسه، ويشعر بهواء بارد يئز في صدره.

وصمت ثقيل يكتم أنفاسه.

وتنحنح حلمى كأنه ينفض الصمت عن كتفيه، وقال فى صوت محشرج وهو يحاول أن يغتصب من شفتيه ابتسامة :

– خير.. حصل إيه ؟

ولم يرد عليه أحد.

الصمت يحاصره.. وهو يتلفت بين الوجوه الجامدة والعيون الباردة.. وقلبه يقفز من الرعب.

ثم تكلم محمود.. قال فى صوت قاس كأنه يصدر حكما بالإعدام:

– المنظمة قررت إنك تسافر طنطا.. تشتغل هناك طول مدة الأجازة.

وفوجىء حلمى.. وبلع مفاجآته وقال فى صوت حاول أن يخفى انفعاله :

– بس أنا عندى ملحق.. ودى أول سنة يجيلى ملحق فيها.. ولازم أنجح.

وعلت الشفاه ابتسامات ساخرة.

وقال محمود كأنه لم يسمع كلام حلمى :

– حاتروح هناك تتصل بالأستاذ سعد الدين المحامى. وهو حايديك التعليمات.. والمنظمة حاتدفع لك مصاريفك.. أربعة جنيه كل شهر.

وسكت حلمى.

وسكت وهو ينظر فى عينى كمال.. وعينا كمال لا تطرفان، ولا يبدو فيهما شىء.. باردتان.. ميتتان.

وطالت برهة سكوت حلمى كأنه يراجع نفسه قبل أن يتكلم، ثم شد ظهره واعتدل فى جلسته، وانطلق صوته كأنه يلقى به فى معركة :

– أنا معارض فى القرار ده.. القرار ماصدرش إلا بعد ما اتخانقت مع كمال.. ولأسباب شخصية.

ولم تطرف عينا كمال.
وقال محمود في صوته القاسي :
– القرار خدناه بالاجماع.
وقال حلمي وقد بدأت ثورته تغلي :
– أنا ميهمنيش الاجماع.. ما اشتركتش فيه.. القرار ده مقصود بيه إبعادي عن مصر لأسباب شخصية.
وصاح صوت من الأعضاء :
– ده اتهام لنا كلنا.
وعاد حلمي يقول :
– أنا مش حانفذ القرار ده.
وارتفع صوت :
– إنت مجند في المنظمة.
وارتفع صوت آخر :
– إنت تعتبر منحرفا.
وصاح صوت ثالث :
– ده جاسوس.
وقال رابع :
– ده مباحث.
والكلمات تخرق أذني حلمي.. وضجيج كبير يملأ رأسه.. وينظر إلى كمال.. عيناه باردتان ميتتان.. وينظر إلى ماري.. شفتها العليا ترتعش، والسفلى منقلبة ازدراء.
وقام من على مقعده فجأة قائلا :
– مافيش لازمة للكلام ده.. أنا ماشي.
ولكنه لم يكد يمشي خطوة، حتى وضع أحد الرفاق ساقه أمامه وجذبها بعنف، فسقط حلمي منكفئا على الأرض.. وأحس بقدم أخرى تضربه في جنبه.. وقدم ثانية.. وثالثة.. إنهم يضربونه.. الكلاب، يضربونه.. وحاول أن يقاوم من على الأرض.. وقام فعلا، وما كاد يستند على قدميه، حتى لحقته لكمة في وجهه.. وشوح

بذراعه.. وأحس بقبضته تصطدم بوجه، لا يدرى أى وجه.. ويضربونه.. إنه يتألم.. ويحاول ألا يقع على الأرض.. ولكنه وقع.. وأحذية كثيرة تسقط على جسده، وفوق رأسه.. ودماؤه تسيل.. إنه يحس بسخونتها تسيل من أنفه.. ومن رأسه.. ويضربونه.. ولكنه لا يبكى.. إن فى صدره شيئا أقوى من الألم.. الغيظ.. الغيظ من كل هذه الأيام التى قضاها مع هؤلاء الكلاب.. الغيظ من نفسه.. من سذاجته.. من غبائه.. وهم يضربونه.. بقسوة.. ولا يبكى.. ولا يصرخ.

وحاول أن يقوم من على الأرض مرة ثانية.. واستطاع أن يقف على قدميه.. واخترق جمعهم وجرى.. وهم يجرون وراءه.. ثم سمع صوت كمال يصيح فيهم :

سيبوه.

وأحس بهذا الصوت.. صوت كمال.. يخترق أذنيه كصاروخ من نار.

وسمع صوت آخر يصيح وراءه :

– لسة حسابك ما خلصش.

وجرى.. ظل يجرى فى حوارى القلعة.. ودمه يسيل من أنفه.. ومن رأسه.. وهو لا يحس بالألم.. ولا بدمه.. الغيظ لا يزال يشق صدره.. ثم وقف فى حارة مظلمة مستندا على جدار.. وبكى غيظه كله.. بكى بحدة وعنف.. ومر به رجل عائدا إلى بيته، ووقف قبالته قائلا :

– خير يا سيدنا لفندى.. حصل إيه.

ثم اقترب منه واستطرد قائلا :

– سليمة باذن الله.. بس بلاش عياط بأه.. عيب.. هى الرجالة تعيط.

ثم تركه وسار فى طريقه وقال بعد أن أطلق ضحكة كبيرة:

– تعيش وتاخد غيرها يا سيدنا لفندى.

وجفف حلمى دموعه.. وأحس بالراحة بعد أن بكى.. أحس

بهدوء أعصابه.. وعندما هدأت أعصابه بدأ يحس بالألم.. ألم فى جنبه من أثر الركلات.. وألم فى رأسه الجريح.. وألم فى وجهه.. وأخرج منديله وحاول أن يوقف الدم السائل من أنفه ورأسه.. وسار فى الحوارى الضيقة.. والألم يسير معه.. حتى خرج إلى ميدان القلعة.. والقى بنفسه فى سيارة أجرة.. والتفت السائق إلى الدماء التى تلوث قميصه، وقال فى قرف :

– الإسعاف.

ورد حلمى فى ضعف ورجاء :

– لأ.. العباسية.

وقال السائق وهو يدير موتور السيارة :

– وكان عليك من ده إيه.. يا أستاذ !

ولم يرد حلمى.. ألقى برأسه فوق مسند السيارة، وزفر آلامه.

ووصل إلى بيته.

واستقبلته أمه صارخة.. وخرج إليه أخوه الكبير مذعورا :

– مالك يا حلمى.. إيه اللى حصل ؟

وقال حلمى وهو يسقط إعياء على مقعده :

–أبدا.. حاجة بسيطة.

وقال أخوه فى لهفة :

– إنت مضروب.

وقال حلمى :

– خناقة.. بسيطة.

وقال الأخ الأكبر وهو يطلب من أمه أن تأتى بآنية فيها ماء، ويجفف دماء حلمى :

– مش تعقل بأه يا حلمى.

وأحس حلمى لأول مرة بعطف أخيه.. أحس بأنه يحبه.. ربما كان يعطف عليه دائما، ويحبه دائما، ولكنه لم يكن يدرى.

وصرخ أخوه الأصغر :

– قول لى مين هم دول، وأنا ألم العيال ونروح نضربهم لك.

ومد حلمى كفه وربت على ظهر أخيه، وبوده أن يحتضنه.
ونام ورأسه مربوط بالشاش.
نام دون أن يفكر.
لم يعد هناك ما يفكر فيه.
لقد فقد الحقيقة..
وعليه أن يبحث عنها من جديد.
يكفى الآن أن يفكر فى نوال.
وبقى فى فراشه.
يفكر.
فى نوال.
وبعد يومين.. وفى الساعة التاسعة مساء.. دق جرس الباب فى بيت حلمى.. وأطل من ورائه ضابط بوليس ومعه رجلان.. لعلهما.. مباحث.
حلمى.. مطلوب فى الداخلية.
وذهل حلمى.. لقد كان دائما يعلم أن البوليس قريب منه.. وأصدقاء كثيرون له من بين الإخوان المسلمين.. والاشتراكيين، والشيوعيين، والحزبيين كان البوليس يقبض عليهم.. ولكنه لم يكن يحس بأن الدور سيأتى عليه.. ربما كان اندفاعه يلهيه عن إحساسه بالبوليس.
وصرخت أمه.
ولكن ضابط البوليس طمأنها.
ونزع حلمى الضماد من فوق رأسه وارتدى ثيابه وخرج مع الضابط والجنديين.. وأركبوه سيارة «بوكس».. وذهبوا به إلى الداخلية.. وأوقفوه بجانب باب مكتوب عليه «وكيل الأمن العام».. وقف طويلا.. تعب من الوقوف.. وبعد أكثر من ساعة أدخلوه إلى وكيل الأمن العام.
إنه عبدالرحمن بك بدوى.
وهو يعرف عبدالرحمن بك.. إنه من سكان العباسية، وكان

صديقا لوالده، وكـان يعرف أنه ضابط بوليس كبـير، ولكنه لم يكن يعلم أنه وكيل الأمن العام.

وحاول أن يبتسم لعبدالرحمن بك.

ولكن عبدالرحمن بك لم يبتـسم، ولـم يدعه للجلوس.. أبقاه واقفا أمـامه وهو ينـظر إليه نظرات ثـاقبـة ويبـرم بأصابعـه فى شنبـه الصغير ثم قال فى صوت جاد خشن :

- إزيك يا سى حلمى.. حضرتك عامل شيوعى.

وبهت حلمى، وظل ساكتا.

وترك عبـدالرحمن بك شـاربه، ثم فتح دوسيـه بجانبـه وأخرج ورقة منه مكتوبة بخط اليد نظر فـيها ثم عاد ينظر إلى حلمى وقال كأنه يشـخط فيه :

- ماترد.. إنت شيوعى؟

وقال حلمى فى صوت خافت كأنه يحادث نفسـه :

- كنت.

وسمعه عبدالرحمن بك فقال :

- ودلوقت تبقى إيه؟

قال حلمى وهو يتنهد :

- ولاحاجة.

وسـقطت عـينـا حلمى على الورقـة المكتـوبة التى أخـرجـهـا عبدالرحـمن بك من الدوسيه.. ثم رفع عينيه.. ولكنه عـاد وأسقطها سريعـا فوق الورقة.. إنه يعـرف هذا الخط.. مؤكد إنه يعـرفه.. خط مَنْ.

وقال عبدالرحمن بك :

- وسبت الشيوعية ليه ؟

وسكت حلمى برهة.. ثم قال وهو يتنهد :

- اكتشفت إنى مش مقتنع بيها.

وعادت عينا حلـمى تسقطان فوق الورقة المكتـوبة.. ويتساءل.. خط مَنْ هذا ؟

وقال عبدالرحمن بك فى حدة :

- علشـان مش مـقـتنع.. ولا علشـان انضـربت علقـة. إيه اللى مخرشم وشك كدة.

وقال حلمى :

- دى خناقة بسيطة.

وقال عبدالرحن بك وهو يزأر :

- عارف إنها خناقة.. واتخانقت مع مين يا سى حلمى.

وتلعثم حلمى قليلا، ثم قال :

- مع ناس ما عـرفهمش.. كـان فيه خناقـة فى السكة، وحاولت أحوش.. و..

وقاطعه عبدالرحمن بك صارخا :

- إنت فاكرنى بالعب معـاك يا ولد.. تحب أقول لك اتخانقت مع مين.. الأسماء كلها عندى.. فى الورقة دى.

وخبط عبدالرحمن بك بكفه عـلى الورقة التى أمامه عدة خبطات، واستطرد قائلا :

- وكمان حضـرتك بتخبى عليهم بعد ما ضـربوك.. بتخبى علىّ كمان وبقية الشلة.

وعينا حلمى لا تتحولان عن الورقة التى أخرجها عبدالرحمن بك من الدوسيه.

إنه يعرف صاحب الخط.

وصرخ عبدالرحمن بك :

- مـالك واقف مـبلم كـدة.. اسمع.. أنـا حكايتك شـغلتنى طول النهار.. وإنت عارف إن أبوك الله يرحمـه كان صاحبى.. وكنت دايما باعتبرك زى ولادى.. علشان كدة جبتك فى مكتبى.. لأنى عرفت إنك ولد عبيط.. مضحوك عليك.. ومضروب علقة.. ولولا كدة كان زمانك مرمـى فى السجن.. وكـمان علشـان خاطر الست والدتك.. فـاهم.. لو سمـعت مرة تانية إنك اشـتركت مع الجمـاعة دول.. ولا مع أى جماعة تانية.. ماعنديش رحمة.. مش حاأقدر أعمل لك حاجة.. فاهم؟

وحنى حلمى رأسه وعيناه لا تزالان فوق الورقة.

إنه يعرف صاحب هذا الخط.

وتمتم حلمى :

- فاهم.

وقال عبدالرحمن وقد هدأت أنفاسه بعد الصراخ :

- وإنت إيه اللى لمك على الجماعة دول.. دول مش شيوعيين يا ابنى.. دول منحلين.. دول بتوع بنات وسكر.

وسكت حلمى.

وقال عبدالرحمن بك :

- اسمع يا حلمى.. أنا حاسيبك تروح.. إنما حاحطك تحت المراقبة.. ولو عرفت إنك اتصلت بالجماعة دول تانى.. ولا بجماعة تانية.. مافيش رحمة.. فاهم.

وقال حلمى :

- حاضر يا عمى.

وقال عبدالرحمن بك وهو يشير إليه فى قرف، ليخرج :

- اتفضل.. سلم على والدتك.. وأنا حاخلى الهانم تكلمها، وتفهمها على مصيبتك.

وخرج حلمى.

والورقة التى أخرجها عبدالرحمن بك من الدوسيه، لا تزال أمام عينيه.

إنه يعرف صاحب هذا الخط.

يعرفه جيدا.

إنه محمود.

الرفيق محمود، الرجل الثانى فى المنظمة بعد كمال.

هل محمود.. مباحث؟

لاشك أنه مباحث.

وبدأ يحس بكل شىء فيه ينهار.. كل أمله فى نفسه.. وفى الناس.. وفى الحياة.

وعاش فى يأسه أياما طويلة.. انتظر خلالها فى أن تتصل به نوال.. لعلها ترسل له خطابا.. إنها تعرف اسم مدرسته.. ولكنها لم ترسل له شيئا.. لعلها تأتى وتبحث عنه فى بيته.. إنها تعرف على الأقل اسم الشارع.. ولكنها لم تأت.

لماذا ينتظرها.. لماذا لم ييأس منها هى الأخرى.. لماذا يثق فيها.. ويثق فى الحب.. لماذا.. لماذا؟

ويتعذب.

يتعذب بحبه ويأسه.. ويطل عليه من خلال يأسه شعاع من الأمل.. لعل شقيقها سافر بها، كما حاول أن يرسله إلى طنطا.. لعله أبلغ والديه ففرضا عليها رقابتهما.. لعلها تفكر فيه كما يفكر فيها.. لعلها تتعذب كما يتعذب.

وذهب إلى المعادى.. وتسلل بجانب البيت يطل فى الحديقة من خلال ثقوب السور.. ولكنه لم يرها.

وذهب مرة أخرى.. ولم يرها.

واليأس يزحف على صدره.

وفى هذه الأيام ازداد التصاقا بصديقه محمد.. إن محمد استطاع أن يرتفع بخياله فوق الواقع.. إنه لا يعيش فى الحياة.. ليس له واقع.. ولا مشاكل.. ولا حقيقة يبحث عنها.. إنه إنسان سعيد.. سعيد. كالعصفور.. كالوردة.

وحاول أن يؤمن بفلسفة محمد.. وأن يعيش معه فى الخيال.. كان يمثل معه القصص التى يتخيلها.. ويصحبه إلى جمعيات الهواة.. ويضحك معه.. ولكن.. لا أمل.. إنه كلما تلفت حوله يصدمه الواقع.. والواقع يثير سخطه.. إن كل شىء حوله خطأ.. خطأ.. خطأ.. وهو ضائع وسط هذه الأخطاء.. وهو يريد أن يجد الحقيقة ليسترشد بها فى اكتشاف طريقه.

وفى هذه الأثناء بدأ إيمانه بالله يطفو على السطح.. ليس نفس الإيمان القديم.. ولكنه إيمان أكثر وعيا.. إيمان يشترك فيه العقل.. ووجد بعض الراحة فى استعادة إيمانه.. وبدأ يصلى ويجد فى

الصلاة راحة نفسية.. لم يكن يؤمن ويصلى عن خوف.. ولا عن مجرد حب الله.. حب صديقه القديم.. بل أصبح يؤمن ويصلى عن اقتناع.

وبدأ يجتر تجاربه السابقة.. بدأ يحلل كل ما وعاه.. واكتشف أنه كان فى حاجة إلى هذه التجارب.. وأن عيبه فى كل هذه التجارب أنه كان يردد، ولا يناقش.

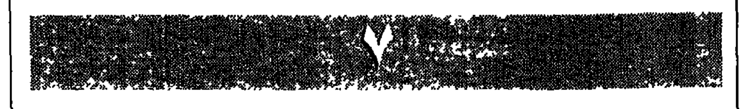
وبدأ يناقش نقاشا طويلا بينه وبين نفسه.

إن فيما يقوله الإخوان المسلمون بعض الحقيقة.. وفيما يقوله زعيم الحزب الاشتراكى، بعض الحقيقة.. وفيما يقوله الشيوعيون بعض الحقيقة.. فكيف يجمع بين هذا وذاك، ليصل إلى الحقيقة كاملة.

ربما استطاع أن يجمع بين كل هذا فى نفسه.

ربما كان عليه أن يبدأ البحث عن الحقيقة داخل نفسه.

ولو استطاع أن يكتشف الحقيقة فى نفسه، لأصبح إنسانا قويا.. بل.. ربما لن يستطيع أن يكتشف الحقيقة إلا إذا أصبح أولا إنسانا قويا.



خـــرج حلمـى من تحت الدش.. وقـطع شـــريط ذكرياته.. ودخل غـرفة النوم، وهو يبـتسم ابتســامة مسكينة حزينة.

وارتدى بيجامته، ولف الفوطة حول وسطه، وأخذ يكمل تقشير البطاطس، وقـد رطب الدش أعصابه، وهدأ قلبه.. وهدأ عقله.. وسكين فى يده تنزع قشر الـبطاطس فى هدوء كأنها تخشى عليهـا من أن تجرحها.. وشـريط الذكريات يمر هادئا أمام عـينيه.. وسؤال يتسلل إلى رأسه فى بطء وإلحاح :

كيف يتخلص من تحية ؟

وابتسم حلمى.. لقد سأل نفـسه هذا السؤال ألف مرة، ولم يجد له جوابا.. ربمـا لأنه لا يريد أن يجد له جوابا.. وربما كـان الأجدى عليه أن يبدأ بسؤال نفسه :

لماذا يريد أن يتخلص من تحية ؟

لأنها تزوجت.. ومثله العليا ومبادئه تأبى عليه أن تكون له علاقة بامرأة متزوجه، حتى لو كان يحبها.. إنه يستطيع أن يحتفظ بحبها فى قلبه.. يستطـيع أن يحبها ما وسـعت السماء والأرض من حب.. ولكنه لا يستطيع أن يتخذ من هذا الحب عذرا ليعتدى على حق رجل آخر.. لا يسـتطيع أن يتخـذه عذرا ليـرتكب خطيئة.. لا يسـتطيع أن يجـعل من حبـه جريمـة تعيـش فى الظلام، وتختـبىء عن الناس.. لا يستطيع أن يجعل من حبه، خوفا.. ولذة!

ولكن.

لا يكفى أن تكون لك مبادىء ومثل عليا.. المهم أن تستطيع حملها والسير بها.. ومن السهل دائما أن تعتنق مبادىء أو مثلا عليا ما دامت تحقق لك مصالحك.. من السهل أن تؤمن بالاشتراكية إذا وجدت أن الاشتراكية ستجعل منك مديرا.. ومن السهل أن تؤمن بالشيوعية إذا وجدت أن الشيوعية ستجعل منك زعيما.. ومن السهل أن تؤمن بالرأسمالية إذا كنت مدير مكتب صاحب الشركة.. ولكن الصعب هو أن تؤمن بهذه المبادىء وهذه المثل العليا حتى لو تعارضت مع مصالحك.. مع رغباتك.. مع راحتك.. تؤمن بها من أجل خير الناس كلهم.. لا من أجل نفسك وحدك.. وأن ترى هذه المبادىء من خلال الناس كلهم لا من خلال نفسك.. هنا تبدو القوة.. قوة احتمال التضحية.. واحتمال العذاب.. قوة عيسى ومحمد.. قوة ماركس ولينين.. قوة غاندى.. قوة ديفاليرا.. قوة الأفغاني.. قوة محمد فريد.

ولكنه ضعيف.

أضعف من أن يحمل مبادئه ومثله العليا إلى آخرها.

أضعف من الحرمان.. والعذاب.

أضعف من أن يضحى بتحية.

وقد حاول كثيرا أن يكون إنسانا قويا.

لقد آمن بعد أن خرج من تجربته مع الإخوان والشيوعيين إنه لن يستطيع أن يكون إنسانا نافعا إلا إذا كان إنسانا قويا.. ولن يستطيع أن يخدم المجموع إلا إذا كان هو نفسه قادرا على خدمة المجموع.. قويا.. إن الطليعة هى مجموعة من الأفراد الأقوياء، ولن يستطيع أن يقف فى الطليعة إلا إذا كان قويا... أقوى من أن ينقاد.. أقوى من أن يخدع.. أقوى من أن يحصر عينيه فى ثقب ضيق، بل يرفع عينيه ليرى الأفق الواسع.. ليرى الناس كلهم.. والطريق كله.

وبدأ يبنى نفسه بناء قويا.

كبت حبه لنوال.. وتحمل العذاب فى صبر.. لأنه لم يجد طريقا نظيفا يقوده إلى نوال.

وبدأ يرى أخاه الأكبر وأخاه الأصغر، بعين جديدة.. إنهما يحبانه.. وحتى لو كانت عقدته تجاههما عقدة صادقة.. فما ذنبهما ليكرههما.. ليخرجهما من دنياه.؟. إن الذنب ذنب أبيه وأمه.. وهو ذنب ليس مقصودا.. إنه ذنب طبيعتهما، والمجتمع الذى نشأ فيه، والذى عودهما على الزهو بالابن الأكبر، وتدليل الأصغر، وتجاهل الأوسط.. وناقش نفسه طويلا، وبدأ يزيح عقدته من أعماقه، واكتشف أنه يحب أخويه فعلا.. ربما كان يحبهما طوال حياته.

ولم يعد يكذب.. وإن الكذب يشعره بالضعف.. والصدق يشعره بالقوة.

ولم يعد يندفع فى حماسه المجنون.. أصبح حماسه عاقلا.. يناقش.. ويفهم.. ثم يعمل.

ولم يعد يعتدى.. لا بالقول، ولا بيده.. إن القوة الايجابية أصبحت مرتبطة فى مفهومه بالحرية.. ليس من حقه أن يستعمل قوته ليعتدى على حرية أحد، حتى لو كان يؤمن بغير ما يؤمن به، ولا يسمح لأحد أن يعتدى على حريته بالقوة.. إن القوة ليست اعتداء على الحرية.. ولكنها دفاع عن الحرية.. حريتك.. وحرية غيرك.

وهو يزداد قوة.

قوة داخلية.

وكلما ازداد قوة، ارتاح أكثر.. هدأ وأحس بنوع من الاستقرار، استقرار شخصيته.. وأحس بهذه الشخصية بين زملائه.. إنهم يحترمونه.. يحبونه.. يلجأون إليه.. ومحمد وتوفيق كلاهما يزداد ثقة به، رغم الخلاف الكبير بينهما.

وهو فى كل ذلك لم يفقد ثورته.

إنه لا يزال يبحث عن الحقيقة التى تقود المجموع كله.

ويرقب معركة الأحزاب والهيئات السياسية من بعيد، وينظر إليها بفهم جديد، ووعى جديد يعينه على أن يكتشف انحرافات كل حزب، ويعينه على أن يرى الفرق بين المبادىء، والمصالح الحزبية ومصالح القادة.

وهو يؤمن بأن الثورة يجب أن تحدث.

ولكنه لا يريدها أن تحدث لمصلحة حزب من الأحزاب، أو زعيم من الزعماء.

وهو يؤمن بإلغاء الملكية وعزل الملك.. ولكنه لا يستطيع أن يرى بوضوح النظام البديل للملكية والملك.

والطلبة الحزبيون فى المدرسة كل منهم لا يزال يحاول أن يكتسبه إلى صفه.. وهو ليس منعزلا عنهم، فهم فى رأيه أدوات الثورة التى يجب أن تحدث.. ولكنه ليس منضما إلى فريق منهم ضد آخر.. ليس متحزبا.. وهذا الموقف يتعبه، ولكنه كان قد اكتسب من القوة ما يعينه عليه.

إلى أن فوجىء بثورة ٢٣ يوليو وهو فى السنة الأولى بكلية الهندسة.

وأذهلته المفاجأة.

لقد كان يعلم أن الجيش تشقه تيارات سياسية مختلفة.. كان يرى بعض الضباط فى اجتماعات الإخوان المسلمين.. وكان كمال رئيس المنظمة الشيوعية يقول له إنه على اتصال ببعض ضباط الجيش، وأن منشورات المنظمة توزع داخل الثكنات.. وكان يعلم أن هناك ضباطا وجنودا يؤمنون بالوفد.. وبعضهم يعمل فى جمعيات ارهابية كونها الملك فاروق داخل صفوف الجيش.

ولكنه لم يكن ينتظر أن تأتى الثورة من داخل الجيش.

ثم أنه لا يعرف هؤلاء الضباط.. قادة الثورة.

وبدأ يرقب الثورة من بعيد.

يرقبها فى حذر.

واهتمام.

ووعى.

وبدأ يتساءل.. لمن قامت الثورة.. للإخوان.. للشيوعيين.. للوفد.. ويسمع الاشاعات، ويصدقها.. ثم يعود، ويكذبها.

والاجراءات السريعة التى يتم بها كل شىء تذهله.. ألغى النظام الملكى.. ألغيت الألقاب.. ألغى الاقطاع.. و..

وبدأ يحس بأن الثورة فى معركتها مع الأحزاب والهيئات السياسية، تعانى نفس أزمته.. تعانى الحيرة بين المبادىء والاطماع الحزبية والطبقية.. تعانى الحيرة بين سلامة المبدأ، واستغلال المبدأ.. وتحتار بين المذاهب.. فى كل منها شىء نريده، وشىء لا نريده..

إن الثورة فى حاجة إلى قوة لتخرج من هذه الحيرة.

نفس القوة التى يحتاج إليها ليخرج من حيرته.

وتكونت هيئة التحرير.. ولم يسع إليها، ولم يفكر فى الانضمام إليها.. لا يريد أن يخدع كما خدع من قبل.

وبناؤه الداخلى القوى يزداد قوة.

وهو يراقب أحداث الثورة.. ويناقش.. ويؤمن.. ثم يهتز إيمانه.. ثم يعود ويؤمن.

إلى أن وقع الاعتداء الثلاثى، وتطوع فى الحرس الوطنى، ولكنه لم يشترك فى المعركة.. لم يرسلوه إليها.

وانتهت معركة السويس، وإيمانه قد ثبت.

إن هذه الثورة، ثورته.

ثورة تعبر عن منطقه، وتعبر عن عواطفه.

ثم تكون الاتحاد القومى.. ولم ينضم إليه.. لم يفهمه.. ولم يجد لنفسه دورا فيه.. ولكنه باق على إيمانه.. هذه الثورة، ثورته.

وأصبح فى السنة النهائية.. فى الدبلوم.

وجاء توفيق، وقال له إنه اكتشف أن له قريبا على صلة وثيقة بالدكتور رفعت خليل المهندس المعمارى المشهور.. وأن قريبه توسط له لدى الدكتور، ووعده بأن يساعده فى رسم مشروع الدبلوم.. وعرض عليه أن يذهب معه إلى مكتب الدكتور المهندس، ليساعده هو الآخر فى وضع مشروعه.

ورفض حلمى.

هذا غش.. وهو لا يقبل أن يغش.

وصرخ توفيق :

- ماتبقاش مجنون.. ده الدكتور حايسعدنا ببلاش.. ده بياخد من الطلبة اللى ما يعرفهمش ميت جنيه.

وأصر حلمى على الرفض.

وذهب توفيق وحده.

ونجح الاثنان.

وكان ترتيب توفيق متقدما على ترتيب حلمى.. مجموعه أكبر.. بفضل المشروع الذى رسمه له الدكتور رفعت خليل.

ولم يهتم حلمى.. إنه رغم ذلك، يشعر بأنه أقوى من توفيق.. هذه القوة التى ترسم استقرار شخصيته، وتحقيق راحته..

وعين حلمى بعد تخرجه مهندسا فى شركة المقاولات الهندسية.. مهندس تنفيذ.. وعهد إليه بالاشراف على بناء وحدة علاجية فى بنى سويف.. وسافر إلى هناك، يقضى اليوم كله بين عمال البناء.. والمقاولون من الباطن يتوددون إليه.. ويدعونه إلى الغداء، وإلى العشاء.. و.. تشرب ويسكى.. آسف ماباشربش.. نلعب شوية كوتشينة.. آسف، مابلعبش.

ولاحظ حلمى أن مقاول البناء يخلط الأسمنت المسلح بنسب غير المتفق عليها.. زكيبتين رمل وزكيبة أسمنت، بدلا من زكيبتين أسمنت وزكيبة رمل.. ونبه المقاول إلى هذا الخطأ.

ونظر المقاول فى عينيه، وقال وهو يضحك ضحكة خشنة :

- ما تدقش يا باشمهندس.. دى غلطة.

وقال حلمى فى هدوء :

- الغلطة تتصلح.

وصاح المقاول فى العمال :

- اضبط ايدك يا جدع إنت وهو.. الباشمهندس واقف لكم.

ثم ابتسم لحلمى، قائلا :

- نشوفك بكرة باذن الله.

وانصرف المقاول.

ووقف حلمى يراقب العمال، ويعد زكائب الأسمنت، وزكائب الرمل.

فى صباح اليوم التالى جاءه المقاول وسلمه ظرفا مغلقا.

وأخذ حلمى الظرف فى دهشة قائلا :

– إيه ده ؟

وضحك المقاول ضحكته الخشنة وقال :

– جواب من مصر.

وقلب حلمى الظروف فى يده.. الظرف أبيض.. ليس عليه اسم ولا عنوان.. وبدأ يفتحه.. فى عصبية.

ووضع المقاول يده فى يد حلمى وقال وهو ينظر إليه فى قرف:

– مابلاش تفتحه دلوقت.. خليه لما تفتحه فى البيت.

وأزاح حلمى يد المقاول فى عنف.

وفتح الظرف.

ووجد فيه ورقة من ذات العشرة جنيهات.

واحتقن وجه حلمى.. وتعقد حاجباه فوق عينيه الواسعتين.. ثم ألقى بالظرف والعشرة جنيهات فى يد المقاول، كأنه يقذف بهما فى وجهه، وقال وصوته يرتعش بغضبه :

– لو كنت أقدر أثبت عليك الجريمة دى.. كنت وديتك فى داهية. اتفضل.. روح لشغلك.

وتشدد حلمى أكثر فى مراقبة العمل.. والمقاول ينظر إليه من بعيد كأنه يخنقه بعينيه !

ولم ينم حلمى ليلتها.

لقد كان يسمع وهو طالب عن الفساد، ولكنه الآن فى وسط الفساد.. عرضة للفساد.

وهو يشعر بأنه أهين.

يشعر بأنه يجب أن ينتقم من هذا المقاول الذى أهانه.

ولكنه ليس مقاولا واحدا.. إن الفساد بين كل المقاولين.. فكيف

يستطيع أن يقضى على كل هذا الفساد؟
وفى الصباح الباكر استدعت الشركة حلمى إلى مقرها فى القاهرة، بالتليفون.. إشارة عاجلة.. يجب أن يكون هناك فى نفس اليوم.
وسافر فى نفس اليوم.. وهو حائر عن السبب الذى استدعته الشركة من أجله.. ربما كانت هناك عملية جديدة يريدونه من أجلها.
ودخل إلى مكتب مدير الشركة مبتسما، وتلقاه المدير بوجه متجهم، قائلا وهو يدعى الهدوء :
- إنت معطل عملية بنى سويف ليه ؟
وقال حلمى فى دهشة :
- العملية مش متعطلة.. بالعكس إحنا متقدمين عن الميعاد.
وقال المدير فى استهزاء :
- ولما انتم متقدمين عامل مشاكل مع المقاولين ليه.. إنت مش عارف إن دول الرجالة بتوعنا.. هم اللى قايمين بكل شغل الشركة.
- أنا ما عملتش مشاكل مع المقاولين.. مافيش إلا واحد كان بيغش فى خلطة الأسمنت.. وحاول يرشينى بعشرة جنيهات.
وقال المدير ساخرا :
- لا يا شيخ.. حاول يرشيك، ولا حاول مايرشكش.. إحنا برضه كنا مهندسين صغيرين زيك كدة.. وعارفين.
وقال حلمى وقد بدأ يرتعش من الغضب :
- أنا ماسمحش لحد يكلمنى بالأسلوب ده. إنت سيادتك بتتهمنى.. وأنا أطلب التحقيق.
وهز المدير كتفيه فى قرف، وقال :
- وعلى إيه تحقيق.. مافيش لازمة.. أنا آسف إذا كنت فهمت كلامى غلط.. إنت أصلك لسة جديد.. لسة مشدود.. مابقالكش شهر معانا.. والشركة آسفة جدا لأنها مضطرة للاستغناء عن خدماتك.. اتفضل.. وقبل ما تتفضل خد نصيحة منى.. غير طريقتك.
ونظر حلمى إلى المدير فى قوة متعالية وخرج وهو يضرب

الأرض بقدميه ساخطا.. وحاجباه يكادان يأكلان عينيه، وأسنانه تأكل فى شفتيه.

ماذا يفعل.. هل يقدم شكوى إلى النيابة.. لا.. ليس لديه اثبات على شكواه.. هل يجمع مهندسى الشركة ويروى لهم القصة، ويحرضهم على اتخاذ إجراء جماعى.. إنهم لن يصدقوه بعد أن فصل.. سيعتبرونه موتورا.. غاضبا لفصله.. وهو ليس غاضبا لفصلة.

إنه حائر.

حائر أين يوجه ثورته.. ومن يضرب بهذه الثورة؟

وعندما سمع صديقه توفيق بحكاية فصله من الشركة، صرخ فى وجهه قائلا :

- إنت فاكر إنك حاتصلح الدنيا لوحدك.. الدنيا يا حبيبى ماشية كدة، ولازم تمشى معاها.. ولا فاكر إن الناس حاتقول عليك بطل.. ماحدش حايحس بيك.. واللى يحس بيك حايقول عليك مغفل.

وابتسم حلمى.. إنه لا يريد أن يكون بطلا.. ولا يريد أن يحس به أحد.. كل ما يريده هو أن يكون قويا.

ووجد حلمى عملا آخر فى شركة أخرى.. الشركة الهندسية الكبرى.. وفى هذه الأثناء سافر زميله فى الدراسة.. حسين شاهين..إلى ألمانيا فى بعثة، مدتها ثلاث سنوات.. وعرض عليه أن يقيم فى شقته الصغيرة التى يستأجرها فى شارع النمر.. على أن يدفع إيجارها.

وقبل حلمى.. وترك عائلته، وأقام فى الشقة.. والإيجار ثمانية جنيهات.

ثم.

التقى بتحية.

●●●

وألقى حلمى بقطع البطاطس فى الزيت المغلى، وبحلق بعينيه فيها، كأنه يبحلق فى قلبه وهو يشوى فى النار.

وقفزت أمام عينيه صورة تحية كما رآها لأول مرة منذ عامين.. إنها لم تتغير.. القوام الملفوف كشجرة الموز.. والنظرة الساخنة تطل من عينيها كالنار الهادئة، تصهر وجنتيها.. وابتسامتها تطل من شفتيها كأنها شئ يكاد يقع منها دون أن تدرى.. ونهداها.

والتقى بها لأول مرة عندما دعى إلى بيت زميله فى الشركة المهندس عفت رحمى، فى مناسبة الاحتفال بعيد زواجه الأول.. وأخذت تحية عينيه من النظرة الأولى.. أحس بأعصابه كلها تصرخ لرؤيتها.. وحاول أن يقاوم النظرة الثانية.. ولكنه لم يستطع أن يقاوم، فرفع إليها عينيه.. والتقى بعينيها تنظران إليه والنار الهادئة تطهر وجنتيها.. والتقى بابتسامتها، تكاد تقع منها دون أن تدرى.. ثم تذكر أنه إنسان قوى، وأنه يستطيع أن يقاوم النظرة الثالثة.. يجب أن يقاوم.. وقاوم فعلا.. لم ينظر إليها.. ولكنه يحس بها أمامه.. ثم يحس بها على يمينه.. ثم يحس بها على شماله.. ويحس بعينيها تلسعانه.. وابتسامتها تشد ابتسامته.. ويحاول أن يندمج فى حديث مع بعض المدعوين ليتجاهل إحساسه بها.. ولكنه لا يستطيع.. وهو يكره هذا الإحساس.. إنه منذ حادثة حبه لنوال، قد عود نفسه على ألا يحس بامرأة.. أى امرأة.. لا إحساسا جنسيا ولا احساسا عاطفيا.. وقد عانى فى سبيل ذلك معاناة كبيرة.. عانى كبت شبابه.. وعانى جفاف عواطفه.. وهو لا يريد أن تضيع كل هذه المعاناة فى نظره إلى وجه امرأة التقى بها صدفة.

ولكنه وجد نفسه واقفا بجانبها عندما دعى إلى مائدة العشاء.. وقدمتها له صاحبة الدعوة فى اختصار شديد :

- تحية.

وقدمته لها فى اختصار أشد :

- حلمى.

ثم تركتهما إلى باقى المدعوين.

ووقفا.. كلاهما ينظر فى وجه الآخر، وابتسامة مترددة على شفتيه.. ويخشيان نظرتهما ويخشيان ابتسامتهما، فيتشاغل كل

منهما عن الآخر، بالتقاط طبق من أطباق الطعام، وشوكة وسكين.

وقال وهو يحاول أن يسيطر على صوته :

- تحبى أساعدك يا مدموازيل.

وقالت تحية فى بساطة :

- مدام.

وتلفت حلمى حوله فجأة كأنه ضبط متلبسا بجريمة.. ونظراته تدور فى وجوه الرجال، يخشى أن يكون زوجها قد ضبطه.

وقبل أن يتكلم، ناولته تحية طبقها، وقالت وهى تشير بطرف السكين إلى مائدة الطعام :

- حتة روزبيف واحدة.. لو سمحت.

وأخذ حلمى الطبق من يدها، واستدار إلى مائدة الطعام، ووضع فى الطبق قطعة واحدة من لحم الروزبيف، ووضع قطعة أخرى فى طبقه.. وهو ساهم.. وعاد إليها وهو لا يزال ساهما.

وأخذت منه الطبق، قائلة فى صوت هامس :

- مرسيه.

وقطعت قطعة من الروزبيف.. قطعة صغيرة جدا.. ثم استطردت:

- وعندى بنت كمان.

وقال حلمى وهو ينظر إليها فى دهشة :

- مش معقول.

وضحكت تحية ضحكة صغيرة ثم قالت :

- ماحدش بيصدق.. كل ما أروح حتة يقولولى يا مدموازيل.. ولما تكون بنتى معايا، أقول لهم المدموازيل أهيه.. وأنا المدام.

وقال حلمى وهو يحاول أن ينفض ارتباكه :

- وإنتى تفضلى إيه.. مدموازيل.. ولا مدام؟

وضحكت تحية قائلة :

- أنا بافرح لما الناس بتقول لى يا مدموازيل.. وبافرح لما أنا أقول للناس إنى مدام.

وقال حلمى فى تردد :
- مدام مين ؟
وقالت وهى تهز كتفيها :
- مايهمش.. تيجى ناخد حتة روزبيف تانية.
وعاد حلمى إلى مائدة الطعام يملأ الطبقين.. وكلمة «مايهمش» لا تزال ترن فى أذنيه.. كيف لا يهم أن يعرف من يكون زوجها.. ووضع قطعة روزبيف فى كل طبق، وهو ساهم، لم يفكر فى أن ينظر إلى باقى أصناف الطعام المرصوصة على المائدة، لعله يختار لنفسه شيئا آخر منها.
وعاد إليها، وقالت وهى تلتقط طبقا من يده :
- تحب تعرف.
وقال فى سذاجة، وصوته القوى النبرات يتردد بين شفتيه الرفيعتين :
- أعرف إيه.
قالت وابتسامتها بين شفتيها :
- تعرف أنا مدام مين ؟
قال وهو يبتسم لهذا الدلال :
- مدام مين؟
قالت فى لهجة ساخرة :
- مدام راضى ؟
ثم استطردت :
- تعرف راضى يبقى مين ؟
قال وابتسامته تتسع :
- مين ؟
قالت :
- يبقى أبويا.
واختفت ابتسامتها، ومرت سحابة فوق جبينها، وحنت رأسها فى طبق طعامها.

وقال فى تردد :
- يعنى.
ورفعت إليه رأسها، وقاطعته كأنها تتحداه :
- يعنى مطلقة.. وزهقانة.
واسترخت نظرتها فى عينيها كأنها قالت كل ما عندها.. وتشاغل عنها برهة بابتلاع قطعة من الروزبيف لم يستطع أن يمضغها، ثم قال :
- وزهقانة ليه.. مابتشتغليش ؟
قالت وهى تهز كتفيها بلا مبالاه :
- لأ.
قال فى حماس :
- لأ ليه.. لازم تشتغلى.
قالت.. كأنها تعودت هذه الحديث :
- أولا.. تقاليد العائلة الكريمة تمنع.. ثانيا.. ما أعرفش أشتغل حاجة.
قال وهو يبتسم لها كأنه يخفف عنها :
- أولا: مافيش تقاليد دلوقت تمنع البنت إنها تشتغل.. ثانيا: تتعلمى أى حاجة، وتشتغلى.. تقدرى تتعلمى تايبريتر.. تقدرى تتعلمى خياطة.. تقدرى تتعلمى انجليزى.
قالت وهى تنظر فى عينيه كأنها تحاول أن تصل إلى حقيقته :
- وبنتى.
قال فى حماس :
- بنتك مش كفاية علشان تشغل كل وقتك.. لازم تشتغلى.. ماتقعديش فى البيت.. طول ما إنتى قاعدة فى البيت حاتفضلى زهقانة.. وحاتفضلى حاسة إنك مطلقة.
وطال حديثهما.. وبعد أن انتهيا من الطعام، جلسا أحدهما بجانب الآخر، والحديث لا يكف بينهما.. ومرت بهما صاحبة الدعوة وابتسمت ابتسامة غريبة.. لمحها حلمى ولم يفهم معناها.

وانتهى اللقاء الأول بلا موعد.

وظلت تحية بين عينى حلمى.. لا يستطيع أن يتخلص منها.. ويتعجب من نفسه.. لماذا تحية بالذات؟ لقد التقى من قبل ببنات وسيدات كثيرات.. إنها أجملهن.. هل يكفى الجمال وحده ليشده إليها إلى هذه الدرجة.

ومر يومان.

وثلاثة.

وتحية لا تريد أن تفارق خياله.. وكلما اختلى فى بيته رسم لنفسه صورا معها.. دائما معها.

ويراوده اليأس.. لن يراها مرة ثانية.. ثم يراوده الأمل.. سيراها.. ثم يستعيد قوته.. إنه لا يريد أن يراها.. لا يريد منها شيئا.

وفى اليوم الرابع اتصلت به تحية فى تليفون الشركة واستمع إلى صوتها كأنه يملأ منه أذنيه.. إن صوتها فى التليفون أرق.. أكثر نعومة.. و «آلو» التى تقولها، تشق قلبه كالسهم.

وقالت له تحية إنها قررت أن تعمل، وهى تريده أن يدلها على مدرسة تتعلم فيها الآلة الكاتبة.. وأحس حلمى بالزهو لأنه استطاع أن يقنعها بالعمل.. لأنها سمعت كلامه... وبدأ من يومها يبحث عن مدارس الآلة الكاتبة.. يسأل زملاءه فى الشركة.. ويسأل أصدقاءه.. ويقرأ الإعلانات المبوبة فى جريدة الأهرام.. ويجمع المعلومات.. لابد أن يختار لتحية مدرسة محترمة.. ولابد أن تكون قريبة من بيتها فى جاردن سيتى.

وتحية تحادثه فى التليفون كل يومين.. ثم كل يوم.. وهو ينتظر حديثها.. وزملاؤه يتغامزون، لأنه يطيل فى حديثه أكثر من المعتاد.

ودعاه زميله عفت رحمى إلى بيته مرة أخرى.. والتقى هناك بتحية للمرة الثانية، ووجد نفسه يجلس بجانبها.. ورأى على شفتى زوجة زميله نفس الابتسامة الغريبة التى رآها أول مرة جلس فيها بجانب تحية.

وبدأ الأصدقاء الذين التقى بهم فى بيت عفت، يدعونه بدورهم إلى بيوتهم.. ويلتقى فى كل بيت بتحية.. وأحس بأنهم يتعمدون دعوتها معه، أو دعوته معها.. كأنه شيء متفق عليه.. ويلمح دائما هذه الابتسامة الغريبة بين شفتى صاحبة البيت.. كلما جلس مع تحية.

وكل شيء جديد عليه.. مجتمع جديد لم يدخله من قبل.. قطاع من قطاعات الطبقة الوسطى، يضم أزواجا وزوجات فى عمر الشباب.. والأنوثة هى المسيطرة فى هذا المجتمع.. أنوثة صارخة، ذكية، ناعمة.. إن كل زوجة ديكتاتورة صغيرة.. ديكتاتورة مختفية فى ثياب زوجها، حتى يعتقد الزوج أنه هو الديكتاتور.. وهو مجتمع يسوده التطلع إلى فوق ولا يحس بما تحته.. كل زوجة تطمع فى شيء أكثر.. وكل زوج يطمع فى ترقية أو علاوة.. والكرابيج فى يد النساء يسقن بها الأزواج إلى فوق.. إلى الترقية.. إلى العلاوة.. حتى تحصل كل منهن على الشيء الأكثر.. مجتمع مظاهر.. كل شيء فيه على السطح.. البريق كله على الحوافى.. النظافة، نظافة الوجوه لا نظافة الأعماق.. ويخيل إليه أنه لو رفع طرف السجادة العجمى لوجد تحتها أكداسا من التراب.. ولو فتح درج البوفيه الأنيق، فسيجد فيه ملاعق مصدية، وقطعا من الدوبار، وقدوما، تماما كما فى بيتهم فى العباسية.. والنساء لهن لغة مخصوصة.. لا يسمعها، ولكنه يلمحها.. إن كل نظرة همسة، وكل ضحكة رشوة، وكل ابتسامة أمنية.. وهو يلمح هذه اللغة تتحدث عنه وعن تحية.. ولا يفهم حديثها.. هل ينتظر منه النساء أن يتزوج تحية.. هل هى خطة مدبرة؟ إنه لن يتزوج تحية.. لا يفكر فى الزواج أبدا.. لسة بدرى.

وهو يكره هذا المجتمع.. إن نعومته اللزجة تسيل على أعصابه.. ورغم ذلك فهو مندفع فيه.. مندفع مع تحية.. وهو يشعر فى اندفاعه، بأنه ضعيف.. ولكنه لا يستطيع أن يقاوم.. إنه عطشان دائما إليها.. وكلما شرب أكثر، عطش أكثر.. وبدأ يعرف كل شيء عن تحية.. كل يوم يعرف شيئا جديدا.. عرف لماذا طلقت زوجها

الأول.. لقد كـانت فى السابعة عشـرة من عمرها.. ولم يكن زوجـها يكبرها كثيرا.. عشر سنوات فقط.. ولكنها لم تستطع أن تحبه.. كان غيورا.. قاسـيا.. منفرا.. ولم يكن غنيا.. كل ماهيتـه خمسة وثلاثون جنيها.. وكان أبوها يساعدها ماليا.. ورغم ذلك لم تستطع أن تدبر حياتها مع زوجها.. ولم تسـتطع أن تتحمله.. حاولت سنتين، ولدت فيهـما ابنتها.. ثم قـررت أن تطلق.. لا لشىء.. لم تلتق برجل آخر.. فقط لم تعد تـستطيع أن تحتمله.. وحاول زوجـها كثيـرا أن يحتفظ بها.. ووقف والـدها ضد رغبـتهـا.. ولكنها جنت.. كانـت تهرب إلى بيت صـديقـاتهـا، وتعـود إليـه بعـد منـتصـف الليل.. ثم تهـرب، ولا تعود.. وأخيرا طلقها.. وأعطاها ابنتها.

واستراحت.

ولكنها لم ترتح طويلا.

بدأت تحس بالضياع.

هل عرفت شابا آخر بعد أن طلقت، وقبل أن تلتقى بحلمى.. أبدا.. وحياة ماما.. وصدقها حلمى بسرعة.. لا يدرى لماذا صدقها؟ ولكن كل قطعة منه صدقتـها.. إنها صادقة فعـلا.. وحتى لو كانت عرفت شابا آخر.. فـماذا يهم؟ إن عقله أوسع من أن يلومها.. فـقد كان من حقهـا أن تعرف أى شاب.. بل إنه لامها لأنهـا لم تعرف شابا طوال هذه المدة.. أو تظاهر بلومها.

ولم تلتحق تحـية بمدرسة الآلة الكاتبة.. وذكـرها حلمى مرة أو مرتين.. ثم نسى هو الآخر.. وكل يوم يكلمها فى التليفون ويكتشف فى حـياتهـا شـيئـا جـديدا.. ويراها بين الحـين والآخر فى بيـوت أصدقـائه الجدد، ويكتشف شيـئا جديدا فى وجـهها.. فى قوامـها.. يرى ابتسامـتها أكثر.. ويرى عينـيها أكثر.. ويرى أنفهـا أكثر.. كل مرة يرى شـيئا لأول مـرة.. ويحس بها تتسلل فى داخل أعـصابه.. يحس بها فى دمائه.

إلى أن كان يوم، وقالت له فى التليفون وهى تزفر أنفاسـها:

– طهقـانة.. عايزة أعمـل حاجة.. أى حـاجة.. حاجـة غلط.. قال

ونبرات صوته القوية تخرج من خلال ضحكة صغيرة، كأنه لا يصدقها :

- زى إيه ؟

قالت :

- ما اعرفش.. إنت عمرك ما عملت حاجة غلط.

قال ضاحكا :

- كتير.. بس ماكنتش حاسس إنها غلط.

قالت وهى جادة.. لا تضحك :

- لأ.. أنا عايزة أعمل حاجة وأحس أنها غلط.. وأندم إنى عملتها.

قال وقلبه يقفز إلى حلقه :

- زى إيه بس يا تحية.

قالت :

- مش عارفة.. عايزة أكسر لوح القزاز اللى قدامى.. ولا أنزل فى الشارع وألعب كورة مع العيال.. ولا أتشعبط فى ترماى القصر العينى.

وقال وقد عاد يضحك مطمئنا :

- كل دى حاجات مش غلط.

قالت وهى تعود وتزفر أنفاسها :

- تبقى ماتنفعش.. اسمع.. إنت فاضى النهاردة.

قال وقلبه يرتفع وينخفض فى صدره كالأسانسير :

- فاضى..

قالت وصوتها يرن بأنوثتها :

- يعنى أقدر أشوفك.

قال وهو يبتلع ريقه :

- فين.. وامتى.

قالت كأنها تتعجله :

- قول إنت.

قال :

- عند عفت.

قالت كأنها لم تسمعه :

- قدام الهيلتون من ناحية كورنيش النيل.. الساعة خمسة.. باى باى بأه.

والقت سماعة التليفون.

وهو واجم مبهور الأنفاس.

إنها المرة الأولى التى يلتقى فيها بتحية.. وحدهما.. فى الشارع.

وارتبك..

ولا يدرى سر ارتباكه.. إن تحية ليست المرأة الأولى فى حياته.. فلماذا يرتبك؟

وذهب قبل الموعد بربع ساعة.. وجاءت بعد الموعد بنصف ساعة.. واستقبلها حلمى وطول الانتظار أرهف أعصابه.. وقال فى حدة :

- عمرى ما افتكرتك زى بقية البنات.. لازم تتأخرى عن الميعاد.

وقالت وهى تتلفت حولها فى خوف :

- انده تاكسى قوام يا حلمى.. خايفة حد يشوفنى.

وخاف معها حلمى. وضاع ضيقه من طول الانتظار.. ونادى سيارة أجرة.. وركبا.. هى تختبىء فى جدار السيارة.. وذهبا إلى ملهى عمر الخيام.. مطعم هادىء فى مركب على النيل يرسو أمام نادى الجزيرة.

وتكرر اللقاء.

وهو يحدثها فى فترات متباعدة عن بيته الذى يقيم فيه وحده.. وكيف يطبخ لنفسه.. وكيف يغسل ملابسه ويكويها.. ثم أصبح حديث بيته أهم حديث بينهما.. وتمتحنه فى الطبخ.. وتمتحنه فى مصروف البيت.. ويضحكان.

إلى أن قال لها :

- إيه رأيك أعزمك على العشا.. علشان تشوفى بنفسك.. حاعملك بطاطس تاكلى صوابعك العشرة وراها.

قالت وهى ترخى عينيها وحمرة خفيفة تطوف بوجهها :

– تتعشى بس.

قال كأنه يقسم :

– بس.. ده لو عجبك طبيخى.

قالت وهى تضحك :

– لو ماعجبنيش.. أطبخ أنا من تانى.

وذهبت إليه.

دخلت.. تحاول أن تخطو خطوات ثابتة كأنها تخفى أنوثتها تحت ثيابها، وتخاف أن تفضحها مشيتها.. ووجهها يرتعش بحمرة ارتباكها.. وفى عينيها نظرات تحد وحذر.

واستقبلها وفوطة المطبخ حول وسطه، والسكين فى يده.

وضحكت عندما رأته.. وضاع ارتباكها فى ضحكتها.. وقالت وهى تشير إليه :

– إيه اللى إنت عامله فى نفسك ده.

قال وهو يضحك فى ارتباك، ويخفى السكين خلف ظهره :

– ده لبس التشريفة بتاع البطاطس.. أصلى كنت فى المطبخ.

قالت وصوتها يضحك بين شفتيها :

– افتكرتك حاتدبحنى.

قال وهو يبتسم :

– مش دلوقت.. حاحلى بيكى !

وضحكت أكثر.. ثم أخذت تتلفت حولها فى أنحاء الشقة.. والكتب ملقاة على الأرض والأسطوانات ملقاة فوق الأريكة العريضة.. وأدواته الميكانيكية والكهربائية مبعثرة فى كل مكان.. ولوحة من رسم جمال كامل مركونة فوق الراديو.. ومسطرة هندسية معلقة فى مسمار.

وقال وهو يتبع عينيها :

– أنا كنت ناوى أساوى الشقة.. إنما قلت إنك لازم تشوفيها زى ما هى..زى ما أنا عايش فيها.

قالت وهى تبتسم ابتسامتها التى تبدو كشيء يكاد يقع منها دون أن تدرى :

- دى مش ممكن تتساوى.. مستحيل.

ودخلت معه المطبخ.. ولفت حول وسطها فوطة أخرى.. ووقفت بجانبه أمام البوتاجاز يطهوان الطعام.. ويتحادثان.. ويضحكان.. وحديثهما ينتقل من موضوع إلى موضوع بسرعة، كأنهما يخشيان أن يسيرا فى موضوع واحد فيصلان إلى ما يريدان.. ونار البوتاجاز تفح فى وجهيهما.. ونار فى أعصابهما.. وكتفه يصطدم بكتفها ثم يفترقان.. ويده تلمس يدها.. ثم تفترق اليدان.. وخفت الحديث بينهما.. أصبح بينهما شيء أكبر من الحديث.. إحساس لا يعبر عنه بالكلام.

واستدارت لتقلب قطعة الشواء على جانبها الآخر.. والتقى وجهها بوجهه.. كلاهما ينظر إلى الآخر بشفتيه.. وتعقد حاجباه فوق عينيه الواسعتين.. وشفتاه الرفيعتان ترتعشان.. كأنه اتخذ قرارا نهائيا لن يعود فيه.. ورفعت إليه عينين مبهورتين فيهما هذه السخونة كالنار الهادئة.. وشفتاها مفتوحتان نصف فتحة.. كأنهما تبتهلان إليه ألا يذبحها.. ألا يجرحها.. ألا يؤلمها.

وفجأة جذبها إليه.. أخذها فى صدره.. كلها.. كلها.. هنا ستبقين.. هنا ستعيشين.. فى صدرى يالهفة شوقى الطويل.. وقلبه يدق.. يدق.. كأن الهواء قد فتح كل نوافذه فجأة وأخذت الريح تهز ضلفه.. تكاد تنزعها.. وهى مستسلمة إلى صدره.. تائهة فيه.. إن صدره واسع.. لا تدرى أى مكان منه تستقر فيه.. والتقط شفتيها المفتوحتين بشفتيه.. يقبلهما.. لا.. ينام فيهما.. يغرق فيهما.. يحاول أن يصل منهما إلى داخلها.. إلى قلبها.

وحاولت أن تزيحه.. كفاية.. كفاية.. كفاية يا حلمى.

وارتفع صوت شهيق اللحم المشوى فوق البوتاجاز.. كأن اللحم يئن.. يزفر كل أنفاسه.. وأفلتت تحية من بين ذراعيه وهى تصيح :

- اللحمة.

واللحمة أصبحت في لون الفحم.

وحلمي يتبعها بعينيه، وحاجباه معقدان فوقهما.. وشفتاه ترتعشان.

ونقلا الطعام من فوق البوتاجاز إلى مائدة صغيرة في وسط المطبخ.. وجلسا حولها وهو لا يزال يتبعها بعينيه.. وشفتاه ترتعشان.. وهي لا تنظر إليه.. عيناها مرتخيتان فوق وجنتيها المصهورتين.. وشفتاها لا تبتسمان. كأنها غاضبة.. وتحاول أن تأكل، ولا تأكل.

وفجأة قالت وهي لا تنظر إليه :

– إنت حاسس بإيه وإنت معاك واحدة مطلقة في بيتك؟

وقال وحاجباه يرتفعان في دهشة :

– أنا مش حاسس إني مع واحدة مطلقة.

قالت في حدة وهي ترفع إليه عينيها :

– لأ.. حاسس.. حاسس إن معاك واحدة ست.. مدام.. ومطلقة.. يعني سايبة.. يعني ست سهلة.

وقال وهو يمد عنقه نحوها كأنه يريد أن يدخل اقتناعها :

– ما تقوليش الكلام ده يا تحية.. ماتبقيش مجنونة.

وألقت الشوكة والسكين من يدها في عصبية، وقامت وهي تفك الفوطة من حول وسطها، وقالت وهي تخطو سريعا خارج المطبخ :

– أنا لازم أروح.

وجرى وراءها صائحا :

– إنتي لسة ماتعشتيش.

وقالت وبين شفتيها ابتسامة ساخرة :

– لازم أروح، قبل ماتحلى بيّ.

والتقطت حقيبتها، وخرجت.. وصفقت الباب وراءها بعصبية.. وهو واقف ينظر وراءها كالمصعوق.

ولم ينم ليلتها.

لقد أخطأ.

كان ضعيفا.. لم يستطع أن يكون إنسانا قويا.. وهو يحس بهذا الضعف منذ أن التقى بتحية.. وتحية لم تعنه على ضعفه.. بالعكس كان يعتقد أنها تتعمد أن تضعفه أكثر.. لم يكن يدرى أنها تريده قويا.. ولم يكن يدرى أنها هى نفسها قوية.

ولكنها ليست قوية.

وهى تريده ضعيفا :

وقد عادت إليه.

عادت إلى شقته.

وأصبح مفتاح الشقة معها.

واستسلمت للفرق الكبير بين المرأة المطلقة، والمرأة غير المطلقة.

●●●

وإنتهى حلمى من شواء قطعتى الكستليتة، وتحمير البطاطس، وأعد طبق السلطة.. ثم جلس إلى المائدة الصغيرة فى وسط المطبخ.. يأكل.. ولا يحس بأنه يأكل.. لا يتذوق الطعام تحت أسنانه.. كل حواسه وراء ذكرياته.. وراء تحية.

لقد أحب تحية.

أحبها بكله.. بقلبه، وجسده.. قلبه يرتعش لها، وجسده ينتفض لها.

لم يكن يحس بها فى جسده كما كان يحس بمارى.. لا.

ولم يكن يحس بها فى قلبه كما كان يحس بنوال.. لا.

ولكن الاثنتين اجتمعتا فى تحية.. العاطفة المجردة.. والجنس المجرد.. وعندما اجتمعا أصبحا شيئا آخر.. شيئا متكاملا.. أصبحا كالحياة يكمل بعضهما بعضا.. أصبحا كالإنسان يكمل بعضه بعضا.. أصبحا الحب فى قمته.

ولا يدرى لماذا أحب تحية بالذات؟ لقد مرت به لحظات كثيرة كان يتخيل خلالها صورة الفتاة التى يمكن أن يحبها.. كان يتخيلها دائما فتاة مثقفة.. تستطيع أن تفهم ثورته.. تستطيع أن تعينه على

فهمه الحائر للمجتمع.. تستطيع أن تساعده على أن يكون قويا.. ولكن تحية ليست مثقفة.. ثقافتها ثقافة بنات الطبقة الوسطى المتعلقة بالمظاهر.. كلمتين فرنساوى، وكلمتين انجليزى.. وتقرأ القصص.. وهى تكمل ثقافتها بذكائها.. ذكاء لماح سريع.. ولكنه ذكاء خاضع لأنوثتها.. يدور فى حلقة ضيقة ترسمها الأنوثة.. إنها لا تنفعل بثورته.. ولا تنفعل بسخطه على المجتمع.. ولكنها تريحه من ثورته، ومن سخطه.. وتستمع إليه، لا لتفهمه، ولكن لتتركه يتكلم.. وتفعل ما يريده منها، لا لأنها مقتنعة، ولكن لتشعره برجولته.

هذا الصنف من البنات، لم يكن يعتقد أنه يمكن أن يحبه.. صحيح أن تحية أجمل من الفتاة التى كان يرسمها فى خياله.. ولكن هذا النوع من الجمال أيضا لم يكن يعتقد أنه يحبه.. كان الجمال فى نظره هو الجمال الهادئ، الجاد.. جمال يتحمل الكفاح.. يتحمل المعركة.. وتحية جمالها ليس هادئا، ولا جادا.. إنه جمال يحس بنفسه، والناس تحس به.. جمال يخلع العينين، ويشد القلب.

ورغم ذلك أحبها.

ربما لأنه لا يزال فى قرارة نفسه عنصرا من عناصر الطبقة الوسطى.. لا يزال الرجل الشرقى القديم، الذى تلمس المرأة حواسه أكثر مما تلمس عقله، وتسيطر عليه بأنوثتها أكثر مما تسيطر عليه بمنطقها.. ولم تستطع ثقافته الجديدة، ولا قراءاته الكثيرة، أن تنشله من شرقيته القديمة.

وكان يرتاح معها.

كان معها يهدأ، وتهدأ الدنيا من حوله.

ولكنها لا تكاد تتركه، حتى يعاوده الإحساس بالضعف.. يحس كأن جانبا منه قد انهار.. ويحس بأن ضعفه قد شغله عن ثورته.. عيناه لا تلتقطان كل ما حوله كما تعود.. أعصابه لا تنفعل لكل الأخطاء التى يمر بها.. لا تنفعل بنفس القوة والحماس.. بل إن عمله لم يعد هو كل ما يشغله.. لم يعد المهندس المثالى الذى أراد أن

يكونه.. إن نصف عقله يفكر فى تحية ونصف وقته يقضيه فى انتظارها.. بل إنه رفض ترشيح الشركة له ليشرف على مشروع فى أسوان وعلل رفضه بمختلف الحجج ولكنه كان فى قرارة نفسه يعلم أنه لا يريد ان يبتعد عن نحية.. لولا تحية لذهب.. وإحساسه بأن علاقته بتحية هى علاقة خطيئة يتجسم أمامه.. ويقلقه.. يقلقه على نفسه.. وعلى مبادئه.. إنه لا يستطيع أن يصلح المجتمع إذا لم يستطع أن يصلح نفسه.. لا يستطيع أن ينصح أحدا إلا إذا كان قادرا على نصيحة نفسه.

إلى أن كان يوم.

وكانا معا فى الشقة.. وصدرها العارى فوق صدره العارى.. الإنسان فى لحظة تكامل.

وهمس كأنه يحادث نفسه :

– تحية.. أظن لازم نتجوز.

قالها وهو لا يفكر فى الزواج، ولكنه يفكر فى التخلص من ضعفه.

ورفعت رأسها من فوق كتفه، ونظرت إليه هذه النظرة الساخنة كالنار الهادئة.. نظرت إليه برهة طويلة كأنها تحاول أن تفهمه.. ثم قالت وابتسامتها كشىء يكاد يقع منها دون أن تدرى :

– إنت خايف لأقولك اتجوزنى.

وقال وعيناه معلقتان فى سقف حجرة النوم :

– أبدا.. مافكرتش فى كدة.. إنما فكرت إننا مش ممكن نعيش كدة على طول.. وأنا عايز أعيش معاكى على طول.

وقبلته قبلة سريعة على جانب شفتيه، وأعادت رأسها فوق كتفه، وقالت وهى تتنهد :

– وبنتى.

والتفت برأسه إليها وقال فى دهشة :

– مالها بنتك ؟

قالت ونهدتها لا تزال بين شفتيها :

- لو اتجوزت، أبوها حايخدها منى.
وعقد حلمى حاجبيه الكثيفين والأسى فى عينيه.. وظل صامتا.
وقالت تحية وهى تمسح بيدها فوق صدره العارى، كأنها تمسح عنه ضيقه :
- أنا ما أقدرش استغنى عن بنتى يا حلمى.
وقال بحدة :
- وتقدرى تستغنى عنى.. مش كدة ؟
وطوت ابتسامتها وقالت كأنها على وشك البكاء :
- ولا أقدر استغنى عنك.
قال وصوته القوى يزداد احتدادا :
والعمل.. الحل.
قالت وهى تتقلب على الفراش مبتعدة عنه :
- ما أعرفش.
قال :
- نفضل كدة.. على طول.
قالت وهى تخفى وجهها فى الوسادة، وظهرها العارى يضوى فى عينيه :
- ما أعرفش.. ماتطلبش منى إنى أضحى ببنتى.. وبعد كدة أنا موافقاك على كل حاجة.
و....
ومرت شهور طويلة وهما يتحادثان عن الزواج.. وهو ييأس.. ويزداد يأسا.. ويدفعه اليأس إلى محاولة قطع علاقته بتحية.. تدمير حبهما.. كان يفتعل الخناقات.. وكان يقسو.. وكان يحاول أن يكرهها.. كان يدفع خياله إلى تصورها امرأة خائنة.. لعوبا تافهة.. ويعذب نفسه.. ولكنه كان لا يلبث أن يهدأ ويلين.. ويستسلم لحبه.. وكان يسافر فجأة.. يهرب.. لعلها تغضب.. لعلها تنساه.. ولكنه كان لا يلبث أن يعود.. ويجدها فى انتظاره.
ثم جاءت إليه يوما.

فتحت الباب بمفتاحها.. ودخلت ساهمة.. عيناها تائهتان.. وشفتاها منطبقتان.. وخطواتها زاحفة.. وجلست على مقعد، ويداها فى حجرها، وعيناها لا تزالان تائهتين.. ولا تتكلم.

ومال عليها يقبلها فوق وجنتها، وقال وهو ينظر إليها بكل عينيه:

– مالك.

وظلت صامتة.

وعاد يقول فى جزع :

– مالك يا تحية.

قالت وهى تنظر أمامها، وكأن شخصا آخر يتحدث من داخلها :

– أنا اتخطبت.

وصرخ حلمى وعيناه متسعتان إلى آخرهما :

– بتقول إيه.

وقالت فى نفس الصوت الساهم :

– ماتزعقش يا حلمى.. اعمل معروف.

وعاد يصرخ :

– بتقولى اتخطبتى ؟!

وقالت ساهمة :

– أيوه.. اتخطبت.

ورفعت عينيها إليه، واستطردت قائلة :

– ما اقدرتش أقاوم أكتر من كدة يا حلمى.. بابا كان مصمم.. والحكاية بقالها أكتر من شهرين.. وكل يوم خناقة فى البيت.. وماكنتش بارضى أقول لك.. كنت فاكرة إنى حاقدر أرفض المرة دى، زى مارفضت كل مرة.. كل شهر كان بيتقدم لى واحد، وكنت بارفضه.. كنت باقعد أزعق وأهدد بالانتحار، لغاية ما بابا يوافقنى.. إنما المرة دى ما قدرتش.. بابا مصمم.

ونظر إليها كأنه يحتار فى تصديقها.. ثم قال ساخرا :

– وبنتك.. و..

وقاطعته بسرعة :

- بابا اتفق مع أبوها إنه يسيبها معايا.
وقال وسخريته تزداد قسوة :
- ولما هو يقدر يتفق مع أبوها.. ما اتجوزتنيش ليه.
وقالت وهى تنظر إليه وقد عادت السخونةإلى عينيها.. وانفرجت شفتاها تبتهلان إليه :
- ماكانش ممكن لأن بابا ما كانش حايوافق على جوازنا.. وأبو بنتى ماكانش حايوافق.. كان حايغير منك، لأنك شاب صغير، ولأنى باحبك.. وغيرته منك كانت حاتخليه يعذبنى بأنه ياخد بنتى منى.. إنما اللى اتخطبت له.. عجوز.. عنده تمانية وأربعين سنة.. تصور.. أكبر منى باتنين وعشرين سنة.. ويمكن عمره أكبر من كدة، وبيخبى.
وأدار لها ظهره.. وجمع قبضته وضرب بها فوق مائدة الرسم.. ثمَ ضغط على أعصابه، وقال وصوته مخنوق :
- واسمه إيه بسلامته.
وسكتت.
وعاد يقول وصوته المخنوق يكاد ينفجر بحنجرته :
- يطلع مين حضرته.
وقالت كأنها ترجوه :
- لازم تعرف اسمه ؟
وخبط مائدة الرسم بقبضته مرة أخرى، وصرخ :
- أيوه.. لازم أعرف.
وقالت كأنها تخاف منه :
- اسمه عبدالعزيز عبدالرحمن.
وقال فى هدوء مفتعل :
- وطبعا غنى.
وقالت فى استسلام :
- أيوه.. غنى.
وسكت حلمى برهة وهو لا يزال مديرا ظهره لها، ثم قال :

- والجواز امتى.

قالت وهى تتنهد :

- الخميس الجاى.. المطلقة ما بتتخطبش.. بتتجوز على طول.

واستدار لها.. وأمسك بيدها ورفعها إلى عينيه، وقال وسخريته تقطر مرارة :

- أمال فين الدبلة ؟

وقالت وهى مذعورة :

- ما أقدرش ألبسها، وأنا جاية لك.

قال وهو يلقى يدها فى سخط :

- انكسفتى.. مش كدة.

قالت وهى ترخى عينيها عنه :

- أيوه.

وأخذ يخطو فى الغرفة بخطوات عصبية.. ويضرب بقدمه كل ما يصادفه.. ثم صاح كأنه يخاطب الجماهير :

- آدى الناس.. الناس ممكن توافق على أن واحدة تحب واحد.. وتعيش معاه.. إنما لو اتجوزته ياخدوا بنتها.. وآدى المجتمع الاشتراكى.. المجتمع الاشتراكى بتاعنا، لسة فيه ناس أغنيا يقدروا يشتروا الستات.. اشتراكية إيه دى.. الاشتراكية مش بالكلام.. الاشتراكية بالناس الاشتراكيين.. وإحنا ما عندناش ناس اشتراكيين.. الناس كلها برجوازيين.. تربية الرأسمالية.. حتى الفقرا برجوازيين.. مافيش اشتراكية.. فيه واحد غنى بيشترى الستات.. وفيه مجتمع ياخد بنت الست اللى تحاول تتجوز.

ثم التفت إلى تحية، وأمسكها من كتفيها، ورفعها من على المقعد، وأخذ يهزها أمامه فى عنف، وهو مستطرد فى صياحه:

- ماتبقيش مجنونة يا تحية.. اللى بتعمليه ده غلط.. غلط.. إنتى حاتقضى على حياتك.. وحياة بنتك.. وحياتى.. خليكى قوية.. ده حقك فى الحياة.. حقك إنك تحبى وتتجوزى.. وتقدرى تتحدى الدنيا كلها بحبك.. تتحدى أبوكى وأمك.. طاوعينى.. تعالى نتجوز.. دلوقت.. حالا.

وقالت وهى تتحمل ألم أصابعه المنغرزة فى كتفيها :
- أنا باضحى يا حلمى.. باضحى بنفسى.. علشان خاطر بنتى.. ما أقدرش ما اضحيش.. ما اقدرش.
وعاد يصرخ :
- تحية.. و...
وقاطعته فى ألم :
- حلمى.. دراعى.
واحتضنها إلى صدره وشفتاه تقبلان شعرها، وقال وكله يتهدج:
- دراعك بتاعى.. كلك بتاعتى.. فاهمة.. بتاعتى.
وقالت تحية وهى تبحث عن شفتيه :
- أنا بتاعتك يا حلمى.. ما كنتش بتاعة حد قبلك.. ومش حاكون بتاعة حد بعدك.. حافضل على طول بتاعتك.
والتقت الشفاه.
وهو يقبلها بقسوة.. يقبلها بأسنانه.. وأعصابه تنبض بالغيظ والغل.. كأنه يحاول أن يخنقها بحبال أعصابه قبل أن تكون لرجل آخر.. وأصابعه تكاد تمزق الثوب عنها.. وهى مستسلمة لكل هذه القسوة.. كأنها تريد كل هذه القسوة.
ولفهما الضعف.
ضعفه.
وضعفها.
ونظر إليها واقفة عند الباب تهم بالخروج وقال فى يأس :
- طبعا مش حاشوفك بعد كدة.
قالت وهى تبتسم هذه الابتسامة التى تبدو كأنها شىء يكاد يقع منها دون أن تدرى :
- أظن.. خد بالك من نفسك يا حلمى.
وقال فى اخلاص كأنه يودعها الوداع الأخير :
- ربنا معاكى.

وتركته هادئا.. وعلى شفتيه ابتسامة حزينة.. لقد كان يتمنى أن يقطع علاقته بتحية.. وقد انقطعت.. لم يقطعها هو، ولكن قطَعتها هي.. عندما أرادت، وفي الوقت الذى حددته.. وماله.. المهم إنها خرجت من حياته.. ويستطيع الآن أن يعود إنسانا قويا.. بلا نقطة ضعف واحدة.. الإنسان الذى أراد أن يكونه.

ولكن.. ما لبث أن انطلق فى صدره صاروخ من نار.. إنه لن يراها أبدا.. أصبحت لرجل آخر.. وبدأ يتعذب.. لا يهم العذاب.. إنه يستطيع أن يحتمل العذاب حتى يقضى عليه.. المهم أنه أصبح الآن بلا نقطة ضعف.

ومر يوم لم تتصل به تحية.. أول يوم يمر دون أن تتصل به.. يوم بطيء.. كل لحظة فيه قطرة من عذاب.. والعذاب يبدو فى عينيه، وفوق شفتيه.. ويسير فى الشارع يتلفت حوله كأنه يبحث عن عبدالعزيز عبدالرحمن.. إنه لا يريد أن يرى تحية.. ولكنه يريد أن يري عبدالعزيز عبدالرحمن.. وكل رجل عجوز يمر به يبحلق فى وجهه.. ويكرهه.. إنه يكره كل العواجيز.. وكل الأغنياء.

ومر اليوم.. وفرح.. فرح لأن عذاب يوم قد انتهى.

وفى اليوم التالى اتصلت به تحية فى التليفون، وقالت فى صوت يشوبه الأسى :

– أنا باطمن عليك يا حلمى.

وضبط أعصابه وقال فى لهجة يحاول أن تبدو قوية :

– اطمنى.

قالت :

– ما أقدرش أعمل لك حاجة.. أى حاجة.

قال :

– متشكر.

قالت :

– أنا عارفة إنك بتتعذب بسببى.. ومش عارفة أعمل لك إيه.. إنما اعذرنى يا حلمى.. وأى حاجة عايزها قوللى عليها.

قال فى حدة مكبوتة :

– عايزة تساعدينى صحيح ؟

قالت فى حماس :

– صحيح يا حلمى.

قال فى حزم :

– ماتكلمينيش تانى.

وسكتت قليلا وكأنها صدمت ثم قالت :

– إذا كان ده يريحك.. حاضر.. باى.

ولم تتصل به بعدها.

تركته وحده للعذاب.. وكان يعتقد أن العذاب يخف مع الأيام.. ولكنه يشتد.. كل يوم عذابه أكبر من الذى قبله.. ويحاول أن يكرهها.. إنه يراها الآن على حقيقتها.. لقد رفضت أن تتزوجه لأنه فى نظرها فقير.. لا يملك سوى مرتبه.. خمسة وثلاثون جنيها فى الشهر.. وتذكر أنها قالت له إن زوجها الأول كان مرتبه خمسة وثلاثين جنيها.. كيف تطلق رجلا بخمسة وثلاثين وتتزوج آخر بخمسة وثلاثين.. لا.. يجب أن يكون زوجها الثانى غنيا.. ميتين جنيه فى الشهر.. ثلثمائة.. وتذكر حبها للمظاهر.. تذكر لهفتها علي الثياب الغالية.. تذكر حبها للعطور الثمينة.. تذكر عبادتها للمجوهرات.. لا.. إنها لم تكن تفكر فى ابنتها عندما رفضت أن تتزوجه وتزوجت الغنى.. كانت تفكر فى الثياب والعطور، والمجوهرات.. ويحاول أن يكرهها أكثر.. وأكثر.. ولكنه لا يدرى هل يكرهها إلى حد الحب.. أم يحبها إلى حد الكراهية؟

إلى أن عادت إليه فى هذا اليوم.

عادت ولم يمض على زواجها سوى أسبوعين.

وعاد إليه ضعفه.

●●●

وتنبه حلمى إلى أنه أتى على الطعام كله.. أكل كل الخبز.. وكل اللحم.. وكل البطاطس.. وكل السلطة.. دون أن يدرى.

وقام يـغسل الصــحون، وذكـرياته مرتبكة فى عـقله، متـداخلة بعضـها فى بعض، ككرة الخيط المعقدة.. والسؤال لا يزال يتردد فى عقله ويلح عليه :

كيف يتخلص من تحية ؟

ورقـد فى فراشــه.. وأطفــأ النور.. وأغمض عـينيــه.. ولم ينم.. السؤال لا يزال يوقظ عقله.

كيف يتخلص من تحية؟

وقام في اليوم التالي، وذهب إلي مقـر الشركة يحمل أرقه تحت عينيه، ويباشر عمله بنصف عقله.

وفى الســاعة الحــادية عـشرة، اتصلت به تحـيـة فى التليفـون، وسمع صوتها المتراخى كأنها تتثاءب بعد نوم هنىء.

- إنت لسة زعلان منى يا حلمى ؟

وقــال فى غـضب حــاد وهو يحــاول أن يكتم صــيـاحــه حـتى لا يسمعه زملاؤه فى المكتب :

- اسمعى يا تحية.. و..

وأحست بغضبه، وقالت بسرعة كأنها خائفة :

- مش دلوقت يا حلمى.. مش قادرة أتكلم دلوقت.. باى باى.

وألقى السماعة من يده.

وعيناه حادتان.. حازمتان.

لقد وجد الطريق ليتخلص من تحية.

سيتزوج.

نعم.. سيتزوج.

سيقيم بينه وبين تحية حائطا يختفى وراءه.

وزم شفتـيه.. ثم التفت حوله فى عـصبية، كـأنه يهم بأن يسأل زميله عن عروس، يتزوجها اليوم.. حالا.



خرج حلمى من بيته فى الساعة السادسة مساء، مرتديا القميص والبنطلون، وسار فى شارع سليمان باشا، مقطب الجبين، مزموم الشفتين، يزفر أنفاسه فى ملل وضيق.. ويفكر فى تحية.. وكلما استطرد فى تفكيره، اشتد ملله وضيقه.. إنه يستسخف نفسه لمجرد التفكير فيها.. أن هناك أشياء كثيرة أهم من تحية يجب أن تشغل تفكيره.. عمله.. الأخطاء الكثيرة التى تقع حوله، والتى يجب أن يحدد موقفه منها.. ورغم ذلك فهو لا يزال يفكر فى تحية.. ويفكر فى المشروع الذى أعده للتخلص منها.. أن يتزوج.

وقلب شفتيه امتعاضا وهو يفكر فى الزواج لمجرد التخلص من تحية.

هذا منتهى الضعف.

لقد وصل فى ضعفه إلى حد اليأس.

كيف يتزوج من واحدة لمجرد الرغبة فى التخلص من أخرى؟

وما ذنب هذه الواحدة؟

ومن أدراه أن الزواج سيخلصه من تحية؟.. إن الزواج قد ساعده على أن يقاوم لقاءها، ويقاوم نزواتها، ويقاوم رغبته المستمرة إليها.. ولكن تحية فى أعصابه، فى قلبه، فى دمه.. ولن يخلصه أحد منها إلا هو نفسه.

ولكن الزواج قد يساعده.

وعلت شفتيه ابتسامة قاسية مرة.. إنه يشعر بالشماتة فى تحية

عندما يفكر فى الزواج.. يشعر كأنه ينتقم منها، يغيظها، يكيدها.
ويحاول أن يطرد هذا الشعور.
إنه شعور خبيث.
شعور حقد.
وركب حلمي الأتوبيس وهو مستطرد فى أفكاره وتساؤلاته، غارق فى زوبعة من أحاسيسه المرتبكة المتناقضة.
واقترب منه الكمسارى وقال :
– تذاكر.
ولم ينتبه حلمى.
ورفع الكمسارى صوته وصاح :
– تذاكر يا أستاذ؟
وحلمي لا يسمعه.. آذانه غارقة في أحاسيسه.
وعاد الكمساري يصيح
– تذاكر يا أخينا.. تذاكر.
ورفع حلمى إليه عينين تائهتين.. واستطرد الكمسارى قائلا بحدة:
– إذا كنت حاتقولى لى أبونيه.. طلعه من جيبك.
وتنبه حلمى، وقال وهو يخرج محفظته من جيب بنطلونه الخلفي :
– أنا آسف.. ماكنتش واخد بالى.
ثم ناول الكمسارى ثمن التذكرة.. وعاد يتوه فى أفكاره.
والأتوبيس فاض.. ليس فيه إلا راكبان آخران.. والكمسارى واقف مستند إلى حاجز سلم الأتوبيس.. ينظر إلى حلمى.. ويطيل النظر إليه.. وأحس حلمى بنظرات الكمسارى منصبة عليه، فرفع إليه عينيه فى نظرة خاطفة، وابتسم ابتسامة خفيفة.. ثم خفض عينيه، وانكمشت ابتسامته، وعاد يتوه فى أفكاره.
واقترب منه الكمسارى وقال وهو لا يزال يصب كل نظراته عليه:

- لقيت حل ؟

ورفع حلمى عينيه وقال فى دهشة :

- حل إيه ؟

وقال الكمسارى مبتسما :

- لمشكلتك.. أصل أنا قاعد أبص لك وأحاول أدرسك.. اعتقدت فى الأول إنك زعلان.. لكن اكتشفت إنك مش زعلان.. إنت حيران.. والحيران لازم يكون عنده مشكلة.

وقال حلمى مبتسما بلا مبالاه :

- يظهر إنك غاوى تحلل الركاب.

وقال الكمسارى :

- فعلا.. أنا غاوى أحلل الركاب.. أنا حاصل على الثانوية العامة، واشتغلت كمسارى، وأنا ناوى أكمل تعليمى.. وكنت قدمت فى كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية.. لكن بعد ما اشتغلت، واختلطت بالركاب.. قابلتنى حاجات غريبة.. ناس مختلفين.. وجوه مختلفة.. وحسيت إن الاختلاف مش فى الشكل، إنما فى النفوس.. وابتديت أغوى تحليل النفوس.. يا ترى الراجل ده بيزعق ليه؟.. وياترى ده بيضحك ليه؟.. ويا ترى الأستاذ الوجيه ده بيهرب من دفع التذكرة ليه ؟.. وقررت إنى أحول من القسم الانجليزى، لقسم الفلسفة.. الفلسفة ألذ، بتخليك تعرف الناس أكتر.

وقال حلمى وابتسامته تتسع :

- وعرفت إنى حيران.

وقال الكمسارى :

- حيران جدا.

وقال حلمى وهو يكاد يضحك :

- وأعمل إيه فى حيرتى ؟.

وقال الكمسارى بحزم :

- ماتفكرش فيها.. سيبها هى تفكر فيك.

وقال حلمى فى دهشة :

- مين دى ؟

وقال الكمسارى مبتسما ابتسامة الفلاسفة :

- مشكلتك.. وأنا متأكد إنها مشكلة عاطفية.. والمشاكل العاطفية زى الميكروبات.. إنت بتفكر فى الميكروبات اللى بتخش جسمك.. طبعا، لأ.. إنما جسمك بيفكر فيها.. أول ما بيخش الميكروب، الكرات البيضاء بتشتغل.. وتعلن الحرب على الميكروب.. وإنت ولا حاسس.. لغاية ما يموت الميكروب، من غير ما حضرتك تعمل حاجة.. والمشاكل العاطفية بالشكل ده.. إنت مش حاتقدر تحلها.. ماتقدرش تروح لدكتور يعالجك منها.. إنما نفسك هى اللى حاتحلها وهى اللى حاتعالجك.. زى ما فيه كرات بيضاء فى الدم لمقاومة الميكروبات، فيه كرات بيضاء فى النفس لمقاومة مشاكل الحب، وعلاجها.

وقال حلمى :

- معقول والله.

وعاد الكمسارى يقول فى ثقة :

- طبعا معقول.. تعرف لولا كدة، كان زمان كل الناس متعذبين وحيرانين.. مافيش واحد فى الدنيا إلا وحب مرة، وحبه خاب.. إنما النفس بتقتل الاحساس بالخيبة.. زى الجسم ما بيقتل الميكروبات.

وقال حلمى وهو يتعجب من اقباله على مناقشة الكمسارى:

- لكن فيه مشاكل بتؤلم.. والألم يخليك غصب عنك تفكر فى التغلب عليه.

وقال الكمسارى :

- ما تفكرش فى التغلب عليه.. فكر فى احتماله، لغاية ما ربنا يتوب عليك منه.

وقال حلمى وهو لا يزال مبتسما :

- أنا مش موافقك على رأيك.. دى فلسفة سلبية.. لازم الواحد يبقى ايجابى نحو نفسه، ونحو مشاكله حتى لو كانت مشاكل عاطفية.

وقال الكمسارى بعد أن قطع تذكرة لراكب جديد :

- إنت تقدر تبقى إيجابى فى كل حاجة.. إلا فى عواطفك.. تقدر تبقى إيجابى فى اختيار الشغلة اللى تعجبك.. تبقى ايجابى فى تدبير عيشتك.. فى عملك.. إنما عواطفك، لأ.. الحب، لأ.. الحب أساسه الانجذاب بين اثنين تقابلوا.. والإنجذاب كلمة معناها أن هناك شيئا أقوى من ارادتك.

والتفت حلمى من خلال النافذة، ثم التفت إلى السائق وقال.

- والإرادة كلمة معناها القدرة على مقاومة الانجذاب.. والإرادة بتعتمد على المبادىء اللى بتؤمن بيها.. إنت وصلت سنة كام فى كلية الآداب ؟

وقال الكمسارى وهو فى دهشة من السؤال :

- سنة تانية.

ووقف حلمى، وهو يقول :

- لما توصل سنة تالتة حاتغير رأيك.. ولما أركب معاك نوبة ثانية نكمل المناقشة.

وقفز حلمى من الأتوبيس قبل أن يقف تماما، والكمسارى ينظر خلفه فى شفقة.

واتجه حلمى إلى مقهى عرابى، وجلس إلى مائدة فوق الرصيف.. وتاه مرة أخرى فى أفكاره.. لعل الكمسارى على صواب.. لعل خير ما يفعله هو أن يترك مشكلته تحل نفسها بنفسها.. أن يترك تحية فى حياته وفى دمه، إلى أن تقتلها كراته البيضاء.. ولعل الأفضل ألا يقاوم الألم، بل يقنع نفسه بتحمله.. ثم ما هو سر ألمه؟ إنه يتألم لأن تحية تزوجت رجلا آخر.. اذن فهو يتألم لأنه يغار من هذا الآخر.. ألم غيرة.. لا ألم الإحساس بأنه خرج على مبدأ من المبادىء التى يؤمن بها.. لقد خرج على هذه المبادىء منذ أخذ جسد تحية بلا زواج.. إنه يضحك على نفسه بهذه المبادىء.. ربما كان فى حقيقته إنسانا بلا مبادىء. إنما هو فقط إنسان يغار على تحية، كما يغار أى رجل من أى رجل آخر.

وجاء الجرسون، ووقف أمامه، ثم انحنى يمسح المائدة بفوطة فى يده.. وحلمى لا يحس به.

وتنحنح الجرسون، ثم قال :

– نجيب القهوة دلوقت، ولا تستنى لما سى محمد وسى توفيق يوصلوا ؟

وقال حلمى دون أن ينظر إليه :

– استنى.. ماتجبش حاجة دلوقت.

وابتعد الجرسون.

ووجد حلمى نفسه يواجه سؤالا غريبا :

هل تحبه تحية ؟

واتسعت عيناه دهشة وهو يواجه هذا السؤال.. سؤال لم يخطر على باله من قبل.. لقد كان حب تحية له شيئا مسلما به.. ولكن.. الآن يجب أن يناقش هذا الحب.. هل كانت تستطيع أن تتزوج من غيره، لو كانت تحبه.. لا.. قطعا لا.. إن الحب معناه، أن هذه المرأة لا تطيق إلا هذا الرجل.. حتى لو كان هذا الرجل فقيرا، لا يملك سوى مرتبه.. فكيف استطاعت تحية أن تطيق رجلا آخر.. كيف؟ من أجل ابنتها !! مش معقول.. إنها فى أسوأ الفروض كانت تستطيع أن تبقى بلا زواج.. إنها لا تحبه.. لا تحبه.. اذن لماذا تريده.. لماذا تتعلق به.. لماذا تصر عليه؟ أى شىء يربطها به.

الجنس ؟!

مجرد الجنس ؟!

لعله الجنس.. لعله لا يزيد عندها على الثور الذى تستورده وزارة الزراعة من هولندا.. مجرد ثور.

وانقلبت أمعاؤه.. أحس بأنه قرفان من نفسه.. ومن تحية.. ومن الدنيا كلها.

●●●

ووصل محمد إلى المقهى.. مرتديا حلته الكاملة.. يسير فوق ساقيه الطويلتين، وخصلة من شعره فوق جبينه، يرفعها فى كل

خطوة، لتسقط فى الخطوة التاليـة.. وصافح حلمى، وجلس بجانبه، وقال وهو ينظر إليـه وابتسامتـه الحلوة بين شفتيـه، وصوته يرن كرنين صوت الأطفال :

– مالك.

وقال حلمى وهو يزفر أنفاسه :

– ماليش.

وقال محمد وهو يضحك ضحكة صغيرة :

– شكلك مش عاجبنى.

وقال حلمى :

– ولا عاجبنى.

ثم استدار ناحيـة محمد، وقال كأنه يهرب من سـؤال قد يوجهه إليه :

– قول لى.. عامل إيه مع سناء.

وقال محمد :

– ولا حاجة.

وقال حلمى فى هدوء وقد بدأ يسترد شـخصيته الكاملة ونبراته القوية وهو بجانب صديقه :

– ولا حاجة إزاى.. انتم مش اتجوزتم.

وقال محمد وهو ينظر أمامه :

– لسة عايشين زى ما إحنا.

ثم التفت إلى حلمى وقال بسرعة كأنه يزفر حيرته :

– إيه اللى كان لازم يحصل بعد ما اتجوزنا ؟

وقال حلمى وهو يبتسم :

– ولا حاجة.

وقال محمد فى عصبية :

– بس أنا حاسس إن كل الناس منتظرة إنه يحصل حاجة.. اللى فى الفرقة بيبصوا لى زى ما يكونوا منتظرين منى أخبار جديدة.. واللى يقابلنى فى الشارع، يسألنى عـامل إيه.. وسناء نفسـها بقت

حالتها غريبة.. وأنا مش فاهم حاجة. مش عارف إيه اللى لازم يتعمل.. ومش مقتنع إن فيه حاجة لازم تتعمل.

وقال حلمى وهو ينظر إلى محمد كأنه يحسده :

- الناس عايزة تعرف إنتم عايشين إزاى.. وساكنين فين.. والحاجات اللى زى كدة.

وقال محمد وهو ينقر على المائدة بأصابعه الطويلة الرفيعة:

- ما هم عارفين إحنا عايشين إزاى.. وساكنين فين. حانغير عيشتنا ليه.. ونغير سكننا ليه.

وقال حلمى :

- علشان بقيتم اتنين متجوزين.

وقال محمد بسرعة :

- إيه الفرق بين اتنين متجوزين.. واتنين بيحبوا بعض.. أنا مش شايف فرق.

وقال حلمى وهو يبتسم فى حنان :

- الجواز يعنى إنك بعد ما كنت فرد، أصبحت عيلة.. إنما ممكن تحب من غير ما تبقى عيلة.

وقال محمد وكأنه طفل على وشك البكاء :

- أنا مافكرتش أبقى عيلة.. مش عايز أبقى عيلة.

وقال حلمى بنفس الهدوء :

- وسناء.

وقال محمد فى عصبية أشد :

- ما أعرفش سناء بتفكر فى إيه.. ولا عايزة إيه.

وسكت حلمى.. خشى أن يستمر فى نقاشه فيتعب صديقه.. خشى أن ينزعه من عالم الخيال، ليضعه على الأرض.. ثم قال :

- أظن نطلب القهوة بأه على بال توفيق ما ييجى.

وقال محمد ضاحكا، كأنه نسى فجأة كل شىء، ولم يعد يهمه شىء :

- إحنا نلحق نطلب قبل ما ييجى توفيق، ويعمل خناقة زى بتاعة إمبارح.

وضحك حلمي، وطلب من الجرسون فنجالين من القهوة.. مظبوط.

وجاءت القهوة.. ورشف حلمي من فنجاله، ثم قال :

- تعرف أنا بافكر أعمل زيك.

وقال محمد في دهشة :

- تعمل إيه ؟

وقال حلمي وهو يبتسم ابتسامة فيها سخرية :

- أتجوز.

وقال محمد :

- صحيح؟! بس متهيأ لي إن الجواز ده حاجة تحصل من غير تفكير.. حاجة الواحد ما يفكرش فيها.. زي حوادث السيارات.. تبقى ماشي على الرصيف، تبص تلاقي عربية طلعت لغاية عندك ودهستك.. وكمان الجواز.. تبقى عايش في أمن الله، تبص تلاقي واحدة طلعت لك واتجوزتك.. نوبة واحد صاحبي اتجوز وجابوا له الإسعاف.

وضحك حلمي.. ضحك من كل قلبه.. كأنه الضحك كله كان مخزونا في قمقم مقفول، إلى أن نزع غطاء محمد.

ونظر إليه محمد وعلى شفتيه ابتسامته الحلوة، وقال :

- بتضحك على إيه.. أنا باتكلم جد !

وقال حلمي وهو لا يزال يضحك :

- وإنت جابولك الإسعاف لما اتجوزت سناء.

وقال محمد بسرعة :

- لأ.. جابولي قزازة ويسكي بدل الإسعاف.

وعاد حلمي يضحك.

ثم ذابت ضحكته.. ووجد نفسه ينتقل بسرعة إلى التفكير في تحية.. كل مشكلته قفزت فجأة لتملأ رأسه.. وتاهت عيناه في الشارع الممتد أمامه.

وقال محمد وهو لا ينظر إلى حلمي :

- يظهر توفيق حيتأخر النهاردة.
وتنبه حلمى على صوت محمد، وقال بلا مبالاه :
- يمكن مشغول فى الشركة بعد ما اتأممت.
وقال محمد فى سذاجة :
- ليه ؟
وقال حلمى فى تعجب :
- ليه إيه ؟
وقال محمد :
- ليه ينشغل بعد ما اتأممت الشركة.. إيه اللى ممكن يحصل بعد التأميم.
وقال حلمى وهو مندهش لسذاجة محمد :
- يحصل حاجات كتير.. كفاية إن الإدارة تتغير.. إنت رأيك إيه فى التأميم ؟
ونظر محمد إلى حلمى وابتسامته الحلوة تملأ شفتيه.. ثم سحب ابتسامته مرة واحدة، وتجهم وجهه، وارتفعت فى عينيه نظرات جادة، وشد ظهره، ووضع ساقا على ساق، وقال فى صوت غليظ، وهو يمثل دور الأستاذ المثقف الذى يناقش أصدقاءه، وهو جالس فى المقهى :
- الواقع يا أستاذ حلمى إن التأميم هو الخطوة الديناميكية الثورية التى تسببت عن الدفع الثورى المتعالى فى قمم الأهوازية، والواقع فى بطون الرومانتيكية السيريالية الفلمنكية الشسترية، ولكن من وجهة نظر المجتمع المتكامل الفلهمونيكى.. و...
وضحك حلمى وقاطعه قائلا :
- يا أخى اتكلم جد.. إنت عمرك ما تتكلم جد أبدا.
وقال محمد وقد عادت إليه ابتسامته الحلوة :
- وحياتك كل اللى بيتكلموا جد، بيقولوا الكلام ده.
وقال حلمى :
- أنا عايز أسمع رأيك.. من غير تمثيل.

وهز محمد كتفيه وقال بلا مبالاه :

- مش جمال عبدالناصر هو اللى عمل التأميم.

وقال حلمى :

- أيوه.

وعاد محمد يقول :

- ومش جمال عبدالناصر هو اللى عمل الثورة.. وهو اللى طلع الإنجليز.. وهو اللى انتصر فى حرب السويس.. يبقى، خلاص.. التأميم كويس.

وقال حلمى وهو يبتسم كأنه يداعب محمد :

- لأ.. مش خلاص.. لازم يبقى لك رأى فى كل حاجة.

وقال محمد وقد بدأ يزهق من المناقشة :

- غريبة.. يعنى إذا لقيت واحد سعيد ومبسوط، يبقى الأحسن إنك تسأله، هو مبسوط ليه وتقعد تناقشه وتعكنن عليه.. ولا الأحسن إنك تشاركه فى انبساطه وسعادته.. أنا شايف الناس مبسوطة من التأميم، ومش مهم إنى أناقشهم فى أسباب انبساطهم.. إنما المهم إنى انبسط معاهم.. إنى أفرح لهم وأفرح معاهم.

وقال حلمى وهو يتعمد اطالة المناقشة بينه وبين محمد، كأنه يتعمد الهرب من مشكلته :

- يمكن الأسباب اللى تسعد الناس ما تسعدكش.

وقال محمد :

- مش مهم.. لو كل واحد فكر فى سعادة غيره.. كل الناس حاتبقى سعداء.

وقال حلمى :

- يابختك.

ونظر إليه محمد متطلعا، وقال :

- يا بختى ليه ؟

وقال حلمى :

- علشان مالكش رأى.
وقال محمد وهو يضحك :
- عقبالك.
وقال حلمى يتم كلامه :
- إنما لو كان كل الناس مالهمش رأى .. لو كان الناس كلها زيك كدة.. ماكنش طلع منهم جمال عبدالناصر.. وجمال لوحده مش كفاية.. لازم ناس كتير يفكروا، ويكون لهم رأى.. علشان البلد تمشى وتتقدم.
وهز محمد كتفيه بلا مبالاة :
- أنا مش عايز الناس تبقى زيى.. أنا عايز الناس تبقى مبسوطة.. وبس.
وقال حلمى :
- لازم تعرف إمتى الناس تبقى مبسوطة.
وقال محمد :
- عارف.. لما أمثل !
وقال حلمى :
- شوف.. كل واحد له دورين فى الحياة.. دور يتخصص فيه.. ودور يشارك فيه المجموع كله.. يعنى إنت متخصص فى التمثيل.. وأنا متخصص فى الهندسة.. إنما إحنا الاتنين لازم يكون لنا دور فى المسائل العامة اللى بتخص المجموع كله.. اللى بترسم إطار المجتمع.. لازم نفهم الاشتراكية.. ونفهم التأميم.. ونفهم القومية العربية.. ومش ممكن حاتقوم بدورك كممثل، ولا أنا حاأقوم بدورى كمهندس إلا إذا فهمنا دورنا فى المجتمع.
ونظر محمد إليه والمرح يملأ عينيه، ثم تجهم وجهه واحتدت نظراته، وشد ظهره، ووضع ساقا على ساق، وعاد يمثل دور الأستاذ المثقف الذى يناقش أصدقاءه فى المقهى.. وقال فى صوت غليظ :
- شوف يا أستاذ حلمى.. المنطق الطبقى النابع من تلافيف

الماركسية اللينينية الستالينية الخرشوفية، له حتمية بوليسية انكشارية تصل إلى باطن المجتمع البرجوازى البوليتارى التقدمى، وبناء عليه فإن الشعوب النضالية التى تموع بأسنان ملتهبة طليعية كفاحية بلاغية، وتصطدم بالآنية الذاتية.. و...

وقاطعه حلمى ضاحكا :

– طيب خلاص.. سكت.. مش حااتكلم.

وضحك محمد وقال :

– لأ اتكلم.. ولا يهمك.

ثم أشار بأصبعه وقال فى مرح كأنه طفل كبير :

– توفيق وصل.

واقتحم توفيق المقهى وهو يزاحم الناس بكتفيه العريضين، ورأسه المربع ممدود إلى الأمام، كأنه يقدم رأسه للذبح، وعيناه السوداوان تشعان ذكاء نشطا، وابتسامته اللزجة ترفع شاربه الصغير وتلصقه بطرف أنفه الكبير.

وجذب مقعدا من حول المائدة المجاورة. وجلس عليه وهو ينظر إلى جرسون المقهى فى تعال وتأفف، قائلا :

– قهوة قوام يا ولد.

ونظر إليه الجرسون فى غيظ، وظل واقفا متلكئا.

وصرخ توفيق :

– اتحرك أحسن لك.. باقول لك قهوة.. بن تقيل وسكر زيادة.

وقال الجرسون وهو يخبط حافة المائدة المجاورة له بطرف الفوطة التى يحملها :

– حاضر يا سى توفيق.. حاضر.

والتفت توفيق إلى حلمى قائلا وابتسامته تتسع :

– تعرف قابلت مين النهاردة.

وقبل أن يرد حلمى، التفت توفيق إلى محمد قائلا :

– إزيك يا محمد.. ازيك يا عريس.

ثم عاد يلتفت إلى حلمى قائلا :

- تفتكر قابلت مين النهاردة ؟

وحلمى ومحمد ينظران إلى توفيق وعلى شفتى كل منهما ابتسامة هادئة، كأنهما يعرفانه جيدا، وكأنه لا يستطيع أن يخرج عليهما بمفاجأة جديدة.

وقال حلمى فى هدوء :

- مين ؟

وقال توفيق فى حماس :

- فهمى.

وقال حلمى بلا حماس :

- فهمى مين ؟

وقال توفيق وهو أشد حماسا :

- فهمى جوهر. زميلنا فى مدرسة فؤاد الأول.

وقال حلمى وابتسامته تتسع فى سخرية :

- آه.. أخو مرات المدير الجديد بتاعكم.

وافتعل توفيق الغضب، وقال فى حدة :

- قصدك إيه.. أنا مايهمنيش إنه يقرب للمدير.. إنما يهمنى إنه كان زميلنا فى المدرسة.

وقال محمد :

- أنا مش فاكرة فهمى ده.

وقال توفيق :

- إنت عمرك ما تفتكر حاجة، ولا تفتكر حد.. فهمى يا أخى اللى كان فى سنة خامسة أدبى..

وقال محمد مبتسما :

- آه.. قلت لى.

وقال حلمى وابتسامته الساخرة بين شفتيه :

- وطبعا قابلته صدفة.

وضرب توفيق المائدة بيده وقال محتدا :

- إنتم بتحققوا معايا ولا إيه.. خلاص.. مش حاتكلم.

وأدار ظهره لحلمى ووجهه إلى الشارع.. وعقد ذراعيه فوق صدره، وقال وهو يزفر أنفاسه :

– على كل حال.. فهمى سأل عليكم، ونفسه يشوفكم.. إنما مش مهم.

وساد الصمت بين الثلاثة.

ثم فجأة صرخ توفيق وهو يشوح بذراعه فى وجه الجرسون :

– فين القهوة يا أخينا.. ياجدع اتحرك.

وقال الجرسون فى برود :

– حاضر ياسى توفيق.. حاضر.

ثم اتجه إلى مائدة أخرى يلبى نداءها.

وقال حلمى كأنه يحاول أن يرطب أعصاب توفيق :

– عاملين إيه فى الشركة.

وقال توفيق وهو لا يزال يفتعل الغضب :

– لسة بيجردوا.

وسكت.

وقال محمد يحاول أن يخرج توفيق عن صمته :

– عرفت آخر خبر ؟

والتفت إليه توفيق قائلا كأنه لا يهتم :

– إيه.

وقال محمد وابتسامته الحلوة تملأ وجهه :

– حلمى عايز يتجوز.

والتفت توفيق بكل جسمه إلى حلمى وقال فى حماس :

– صحيح يا حلمى ؟

وقال حلمى مبتسما :

– عندك عروسة.

وقال توفيق فى حماس أكبر :

– عندى.

ثم سكت مرة واحدة وقال وهو يلوى عنقه ناحية الشارع.

- لأ.. ماعنديش.

وقال حلمي :

- بلاش تقل بأه.. مين هي ؟

وقال توفيق وهو يهز كتفه :

- مافيش حد قدامي دلوقت.. ومالك مستعجل على الجواز قوى كدة ؟

وقال حلمي :

- غرت من محمد.

وقال توفيق وهو يبتسم ابتسامة قاسية :

- ولا علشان الجماعة اتجوزوا.

وتجهم وجه حلمي.. ونظر إليه محمد في اشفاق.. ثم نظر إلى توفيق في عتاب.. وقام واقفا، وقال :

- أنا ماشي بأه.

وقام حلمي واقفا هو الآخر، قائلا :

- خدني معاك.

ونظر محمد إلى حلمي ثم إلى توفيق، وقال وهو يخطو فوق رصيف المقهى :

- لأ.. خليك إنت علشان تدفع الحساب.. الدور عليك.

ورفع توفيق عينيه إلى حلمي كأنه يبتهل إليه ألا يغضب منه.

ونظر إليهما محمد نظرة أخيرة وابتسامته الحلوة الواسعة تضمهما ثم دفع حلمي في رفق فسقط على كرسيه.. وانطلق يخطو فوق ساقية الطويلتين وخصلة من شعره ساقطة فوق جبينه.

●●●

إنتهى محمد من تمثيل دوره وخرج من المسرح، فوجد سناء تنتظره خلف الكواليس.. جالسة على مقعد.. يداها في حجرها.. ونظرة حزينة مستسلمة في عينيها الملونتين.. وانحنى محمد أمامها في حركة تمثيلية كأنه لا يزال مستمرا في تمثيل دوره، وقال في صوت مفخم :

- سيدتى الكونتسة.. دعى أناملى تلمس أناملك.. وامنحينى شرف تقبيل هذه اليد التى وضعت فيها قلبى، وحياتى.

ورفعت له سناء يدها وهى تقول وبين شفتيها ابتسامة صغيرة:

- سيدى الكونت.. وحشتنى موت.

وضحك محمد ضحكة كبيرة ترن بطفولته ثم جذب سناء من يدها، وجرى بها نحو غرفته التى يبدل فيها ثيابه، تحت المسرح.. ووقف يزيل الأصباغ من على وجهه وهو يغنى لحنا من ألحان الأوبرا.. وجلست سناء على مقعد خلفه تنظر إلى وجهه المنعكس فى المرآة وبين شفتيها ابتسامة حزينة.. ثم قالت فى صوت خفيض وإحدى يديها تفرك فى الأخرى.

- أقول لك حاجة يا محمد.

وارتفع صوت محمد بالغناء.

واستطردت سناء كأنها لا تسمع غناءه :

- بس ما تزعلش.

واستمر محمد يغنى.

وقامت سناء من على مقعدها، واقتربت منه، ووضعت يدها فوق كتفه وقالت كأنها تعتذر له :

- أنا سبت الفرقة بتاعتى.

ونظر إليها محمد بعينيه الضاحكتين وقال :

- ليه.. مش عجباكى.

وقالت سناء وهى تتنهد :

- لأ.. أصلى سرحت وأنا بامثل. وماكنتش أول مرة باسرح فيها.. وصاحب الفرقة طردنى.

وقال محمد :

- سرحت فى إيه ؟

وقالت سناء :

- مش ده المهم.. المهم إنى سبت الفرقة.

- وقال محمد :

- عارف.. بس سرحتى فى إيه ؟
وقالت سناء وهى تبتسم ابتسامة صغيرة :
- فيك.. يظهر إنى مابقتش أعرف أمثل إلا معاك.
وقال محمد فى مرح :
- خلاص.. مثلى معايا.
قالت :
- فين ؟
قال :
- فى بيتنا.
وارتخت عينا سناء وتكورت شفتاها كأنها على وشك البكاء.. ثم قالت وهى لا تنظر إليه :
- إنت عارف يعنى إيه سبت الفرقة.
قال :
- يعنى إيه ؟
قالت :
- يعنى مش حاخد ماهية.. يعنى مش حاأقدر أدفع أجرة البنسيون.. يعنى مش حالاقى آكل.
ونظر إليها محمد كأنه لا يصدقها.. ثم عادت ابتسامته سريعا إلى شفتيه وقال :
- سيبك يا شيخة.. ربنا يدبرها.
وقالت سناء وقد انبثقت دموعها من عينيها :
- مافيش فايدة.. عمرك ماحتحل لى مشكلة.
والتفت إليها محمد وأخذها بين ذراعيه فى حنان رقيق، وقال وهو يهزها كأنه يناغى طفلة :
- مافيش حاجة اسمها مشكلة.. فيه ناس عايشين سعدا.. وناس مش عارفين يعيشوا سعدا.. واحنا طول ما احنا مع بعض.. سعدا.
ثم ضغطها إلى صدره، وأنام خده على خدها.. ثم ضحك وهو يبعدها عنه قائلا :

- فين الضحكة الكبيرة.

ومدت سناء يدها تمسح على خدها.. ونظر محمد فى عينيها واستطرد قائلا :

- فين الضحكة الكبيرة.

وابتسمت سناء.

وقال محمد :

- لأ.. دى مش كبيرة.. عايز أشوف أسنانك.

واتسعت ابتسامة سناء.

وقال محمد :

- أنا مش شايف سنان.. أنا شايف صفين لولى.. إنتى يلزمك جواهرجى مش حكيم أسنان.

وقالت سناء وهى تضحك :

- مرسيه يا أستاذ عبدالوهاب.

وعاد محمد إلى المرآة يزيل بقية الأصباغ من على وجهه، ويبدل ثياب التمثيل، وتحركت سناء، وقد أفاقت من يأسها، وبدأت تطوف بالحجرة، وتعبث بما فيها. ثم قالت كأنها تتم حديثا كان بينها وبين نفسها :

- على كل حال صادق بيه وعدنى، إنه حايشغلنى هنا فى الفرقة.

وقال محمد وهو ينتهى من ارتداء ثيابه :

- تبقى عال دى.

وقالت سناء :

- هو مستنينا فى الكونتيننتال.

وقال محمد :

- مين ده.

وقالت سناء :

- صادق بيه.

ولم يرد محمد.. وضع ذراعه فى ذراعها، وخرج بها من المسرح، وهو يقول :

- تعرفى أنا نفسى فى إيه.. نفسى أجرى.. نفسى أتنطط.. نفسى أتشعبط.. نفسى أتشعبط فى الأوتوبيس من ورا.

وخرجا إلى شارع محمد فريد، وانحرف بها ناحية ميدان المحطة.. وقالت سناء وهى تقاومه :

- مش حانروح لصادق بيه ؟

وقال :

- لأ.. أصل صادق بيه يبقى جميل لما نشوفه صدفة.. كل صدفة أجمل من ميعاد.

قالت وهى تشده حتى يقف :

- لكن ده مستنينا.

قال وهو يضحك :

- ذنبه على جنبه.

وقالت سناء وكلماتها تقطر غيظا :

- وحايوصلنا بعربيته لغاية المطرية.

وقال وهو يجذبها ضاحكا :

- حانركب عربية أكبر من عربيته، عشر مرات.. حانركب أتوبيس بحاله.

وكانت سناء تعلم أنها تستطيع أن تتركه وتذهب إلى صادق بيه.. فلا يهتم.. وكانت تعلم أنه لو مر صادق بيه الآن بسيارته لركب فيها محمد دون أن يهتم أيضا.. ودون أن يفقد شيئا من مرحه.. ولكنها منذ تركها محمد أمس أمام المقهى، وذهب إلى بيت عائلته، قررت بينها وبين نفسها ألا تنتظر أن يتغير منه شىء بعد الزواج.. على الأقل ليس الآن.. وليس لمجرد الزواج.. ولكنها لم تفقد الأمل أبدا فى أن يتغير.. فى أن ينزل من سماء خياله، ليستقرا معا على الأرض.. ليبنيا معا بيتا.. وعائلة.. ومستقبلا.. لم تفقد الأمل فى أن يصبح الطفل رجلا.. رجلا يحميها وتهدأ

بجانبه.. وقد تعذبت كثيرا خلال هذه الساعات التى قضتها وهى تحس بأن زواجها لم يكن إلا كذبة كبيرة.. أقرب إلى عمليات السطو.. تعذبت لأنها تحب محمد.. لا تريد أن تكذب عليه، ولا أن تسطو على سعادته.. وهى تعلم أنه يحبها.. أنه يحبها قطعا.. كل ما هنالك أن حبه لا يريد أن ينزل على الأرض.. لا يريد أن يكبر ويصبح حبا مسئولا.

واستسلمت سناء لمحمد.. وسارت بجانبه فى شارع محمد فريد.. وقامته الرشيقة مرفوعة فوق ساقيه الطويلتين.. ورأسه الجميل يتلفت كأنه ينظر إلى العالم من السماء.. وسناء تتسلقه بعينيها بين الحين والحين كأنها تريد فى كل خطوة أن تطمئن على طفلها الكبير.

ودخلا «بارا» صادفاه فى الطريق.. ووقف محمد أمام البار، وقفزت سناء جالسة على مقعد من المقاعد المرتفعة.

وجاء صاحب البار..رجل يونانى مستدير.. كل شىء فيه مستدير.. وقال وهو يبتسم ابتسامة كبيرة :

– أخلا محمد بيه.

ورفع محمد ذراعه إلى أعلى يحيى صاحب البار على الطريقة الرومانية القديمة، وقال فى لهجة خطابية :

– سلام على أهل أثينا.. سلام للقائد العظيم بابا دوبلو.. ادينى واحد ويسكى.

وضحك صاحب البار.. وعاد بكأس الويسكى، وطبق به قطع خيار، وطبق آخر به بعض حبات الفول النابت المسلوق.

وأخذ محمد يشرب ويتحدث مع صاحب البار وهو يقوم بدور أحد زعماء أثينا القديمة، يرحب بعودة القائدة بابا دوبلو منتصرا.. وسناء جالسة بجانبه تأكل قطع الخيار وحبات الفول، فى صمت كأنها تخشى أن تلفت انتباه محمد إليها حتى لا يشركها فى التمثيلية.

وانتهى محمد من كأسه، ورفع ذراعه قائلا :

- لك المجد أيها القائد العظيم.

ثم خرج من البار وسناء تجرى وراءه.

وانحرفا إلى شارع إبراهيم باشا.. ووقف محمد أمام بائع كفتة مشوية.. وقالت سناء فى توسل :

- بلاش يا محمد.. إحنا عندنا فى البيت جبنة بيضا، نعملها بالزيت والقوطة زى مابتحبها.. ونشترى رغيف عيش سخن.

وابتسم محمد ابتسامة حلوة كبيرة وأشار إلى بائع الكفتة بأصبعيه، قائلا :

- اتنين ساندويتش.

وسكتت سناء.

وسارت بجانب محمد فى الشارع.. وكل منهما يقطم فى ساندويتش الكفتة.

ووصلا إلى ميدان المحطة، وركبا الأتوبيس المتجه إلى المطرية.. وقالت سناء وهى تمسح شفتيها بمنديلها بعد أن انتهت من أكل الساندويتش :

- تعرف يا محمد إنك لسة ماعرفتنيش بأختك، ولا بحد من عيلتك.

قالتها فى لهجة مفتعلة البساطة.. تحاول أن تخفى تحتها ما ترمى إليه، وعيناها بعيدتان عنه حتى لا يفضحاها.

وقال محمد فى سذاجة :

- ليه ؟

وقالت سناء وهى تبتسم له :

- ليه إيه.. إنت ناسى إننا اتجوزنا.. وإنى بقيت من العيلة.

قال محمد :

- آه.. صحيح.

ثم ضحك ضحكة كبيرة مرحة.

وقالت سناء وصوتها يتخلل ضحكته :

- بتضحك ليه ؟

وقال محمد :

- باتصور لو كنت أنا وإنتى، زى أختى وجوزها الأستاذ عبدالعظيم عبدالله المحامى.. كان بأه شكلنا إيه.

ثم مرة واحدة تجهم وجهه، وقال فى صوت غليظ :

- اسمعى يا فاطمة.. البنت الخدامة دى لازم تنطرد حالا.. من النهاردة.

وقالت سناء وحيرة تمثيلية على وجهها :

- ليه بس يا عبدالله.. دى شايلة البيت شيل.. وحاطة خالد فى عنيها:

وقال محمد وهو يمثل دور الأستاذ عبدالله :

- لأ.. حطة السفرجية بتوع الجيران فى عنيها.. وأنا جاى النهاردة شفتها واقفة مع اتنين سفرجية، وسايبة خالد بيلعب لوحده.. افرضى جت عربية داسته.. افرضى واحد ماشى، راح خاطفه.. افرضى إنه وقع ورجله اتكسرت.. افرضى...

وصرخت سناء :

- بعد الشر يا خويا.. ماتقولش كدة يا عبدالله.

وقال محمد :

- البنت لازم تخرج حالا.. هيه.. الشمام اللى باعته النهاردة طلع كويس.

وردت عليه سناء وهى تخفى ضحكتها فى صدرها.. إنها لن تستطيع أبدا أن تصل إلى مستواه وقدرته فى تقمص الشخصيات.. لن تستطيع أن ترتفع إلى مستوى خياله ! خصوصا بعد أن تزوجته.

ونزلا من الأتوبيس.

ووقفا على حافة الشارع العمومى ينظران من بعيد إلى بيتهما الصغير الملقى بين الحقول.

وفتح محمد صدره، وملأه بهواء الليل المشبع برائحة الزرع، وقال وابتسامة حلوة هادئة بين شفتيه، كأنه يشكر الله على نعمته.

- أنا نفسى أطير.. نفسى أبقى عصفورة.. وأطير.. أفضل طول عمرى طاير.. وأغنى.

وقالت سناء وهى تنظر إليه فى حب :

– وأنا أطير وياك.. واغنى معاك، وجذبها من يدها وجرى بها فى الحقل.. ثم وقفا يلهثان بجانب شجرة الجميز القريبة من بيتهما.

وقال محمد :

– أنا حاطلع فوق.. فوق.. مع العصافير.. وانتى معايا.

وهم أن يحمل سناء ليضعها فوق جذع الشجرة.. ولكنها أفلتت منه.. وجرت منه.. وجرى وراءها.. ودخلت فى حقل البرسيم.. تجرى.. ويجرى وراءها.. ثم سقطت أعياء على الأرض.. وهى تضحك.. وأنفاسها اللاهثة تضحك معها.. وسقط فوقها.. والتقت عيناه وعيناها.. وذابت ضحكاتهما فى ابتسامة.. ثم اختفت ابتسامتهما خلف قبلة.

وشفتاه وشفتاها مع خيالهما.

وجسده وجسدها مع شفاهما.

وذابا.

وأعواد البرسيم تظللهما.

●●●

وقالت سناء وهى تسير بجانبه وهما عائدان إلى بيتهما.. ويدها فى يده.. ورأسها على كتفه.. وهدوء جميل يسرى فى جسديهما.

– حاتعرفنى بأختك يا محمد.

وقال وهو يميل بشفتيه يقبلها فوق جبينها :

– حاضر.

قالت كأنها تتنهد :

– إمتى.

قال والابتسامة الهادئة تكسو وجهه :

– بكرة.

ودخلا البيت.

وتركا الباب وراءهما مفتوحا كعادتهما.

٩

فتحت سناء عينيها فى الصباح، والتفتت إلى محمد وهو راقد بجانبها، وابتسمت ابتسامة واسعة تقطر حنانا كأنها رأت نور الشمس فى وجهه.. ثم تسللت من جانبه وهى مرتديه جاكتة بيجامته، وشعرها مهدل على كتفيها، ونظرتها لا تزال كسولة فى عينيها كأنها لا تزال تهيم مع النوم.. وأخذت تطوف بأنحاء البيت فى خطوات متراخية.. وتنظر حولها وتبتسم.. إنه بيتها.. ولكن ابتسامتها لم تبق طويلا.. بدأت تنكمش من فوق شفتيها.. وبدأت تنظر حولها فى زهق.. وترى فى كل ركن شيئا لا تحبه.. إن بياض الجدار متساقط.. ولوح الزجاج فى الدولاب مكسور.. وهذا المقعد تنقصه رجل.. إنها لا تحس بأن هذا البيت بيتها.. لا تحس بأنها تملكه.. لو كانت تملكه لما كان بهذه الفوضى.. ولا تدرى لماذا لا تحس بأنها تملك هذا البيت؟ ربما لأنها لا تحس بأنها تملك محمد.. إنها عندما تملك رجلا تملك بيتا، وعندما لا تملك رجلا لا تملك بيتا.. إن الرجل هو البيت، وليس البيت هو الرجل.. وهى لا تملك رجلا.. إنها تملك فقط حفنة من الخيال.. حفنة من الهواء.. ويوم تحس بأن هذا الخيال الذى تزوجته أصبح رجلا، فربما أحست بأنها تملك هذا البيت.

ووقفت أمام تمثال الإله بوذا.. ونظرت إليه بغيظ.. إنها تكره هذا التمثال.. تكره بوذا.. وهى لا تعرف شيئا عن بوذا ولا عن تعاليمه، ولكنها تكرهه.. تحس بأن بينه وبين محمد شيئا لا تدريه.. تحس

بأن بوذا يعرف محمد أكثر مما تعرفه، تحس بأن له تأثيرا عليه أكبر من تأثيرها.. إن محمد يقف أمام بوذا طويلا وترى فى عينيه كلاما لا تفهمه.. كأنه يسأله.. كأنه يتلقى منه الوحى.. يتلقى منه أوامر.. وهى تكره بوذا.. تكرهه.. تكره هذه القطعة الملونة من الخزف الصامت.. ورفعت يدها كأنها تهم بأن ترفع التمثال وتحطمه على الأرض.. ثم أنزلت يدها.. وأخرجت لبوذا لسانها كأنها تغيظه وتتوعده.

وعادت تطوف بأنحاء البيت.. وحديث سريع يدور فى عقلها.. يجب أن تحس بأن هذا البيت بيتها.. يجب أن تحمل إليه كل ما تملكه.. وهى لا تملك إلا ملابسها، والمصحف القديم الذى ورثته عن أبيها.. كيف لم تأت بملابسها إلى البيت حتى الآن.. إن محمد لم يطلب منها أن تأتى بها.. ولكن لماذا تنتظر حتى يطلب منها محمد.. لقد تزوجته منذ يومين وأصبح هذا البيت بيتها، وكان يجب أن تأتى بملابسها منذ اليوم الأول.. كان يجب أن تترك البنسيون الذى تقيم فيه.. وتنتقل إلى منزل الزوجية.. وابتسمت عندما سمعت نفسها تردد كلمة «منزل الزوجية».. إن محمد لم يحس أبدا بأنه أصبح له منزل زوجية.. ولو سمع هذا التعبير، لضحك.. وربما خاف.

ولكن الغلطة غلطتها.. هى التى استسلمت لمحمد، وعاشت معه هذه الحياة المفككة، يومين بعد أن تزوجته.. وأحست بالندم لغلطتها.. وضغطت بأسنانها على شفتها السفلى كأنها تجمع إرادتها لتنفيذ خطتها.. إنها لن تعود إلى التمثيل.. ليس الآن.. الآن هى فى حاجة إلى أن ترتب حياتها كزوجة.. وهى لن تستطيع أن ترتب حياتها، إلا إذا رتبت حياة محمد.. إلا إذا أنزلته من السماء التى يعيش فيها، وعودته على أن يمشى على الأرض.. وعلمته تحمل مسئوليتها.. إن الرجل لا يلتصق بالمرأة إلا إذا حمل مسئوليتها.. إلا إذا أحس فى كل يوم بأنها فى حاجة إليه.. وستشعر محمد بحاجتها إليه.. وتشعره بمسئوليتها.. وهو قادر على تحمل هذه المسئولية.. إنه يكسب من التمثيل.. ويستطيع أن

يكسب أكثر، لو تعود أن يطالب بحقه.. ثم إن له دخلا خاصا.

وابتسمت ابتسامة ملأت قلبها.. إنه سيقدمها اليوم إلى أخته.. إلى عائلته.. وبدأت تتصور نفسها فى زيارة أخته.. وتتصور أخته فى زيارتها.. والحديث حلو لذيذ بلا معنى.. حديث عائلات.. وتلفتت سريعا حولها كأنها تريد أن تعد البيت بسرعة، ليكون لائقا باستقبال أخت محمد.. ثم استطردت فى خيالها.. تتصور البيت وقد أصبح جديدا.. كل شىء مرصوص فيه بحساب.. هنا مقعد كبير يجلس عليه محمد ويطل على الحقل.. وهنا «البار».. ستشترى «بارا» صغيرا.. محمد لا يمكن أن يستغنى عن البار.. وهى تحبه أكثر كلما شرب أكثر.. وستجلس فى انتظار محمد كل ليلة إلى أن يعود بعد إنتهاء المسرح.. ورجف قلبها بسرعة.. لا.. إنها لا تستطيع أن تجلس هنا وتنتظره.. قد لا يعود.. يجب أن تعود نفسها على أن تذهب كل ليلة إلى المسرح، وتعود به.. على الأقل فى الشهور الأولى.

وأفاقت من خيالها على صوت محمد يصيح :

– سناء.. سناء.

وأسرعت إليه.

وألقت نفسها بين ذراعيه المفتوحتين لها.

وعاشت فى قبلاته.. قبلات كثيرة سريعة تغطى كل وجهها.. ثم أفلتت من ذراعيه.. وجرت.. وجرى وراءها فى الحجرة يحاول أن يلحق بها.. وقفزت فوق السرير.. ورفعت المخدة وقذفته بها.. والتقط المخدة وقذفها بها ثم قفز وراءها وأمسكها.. [illegible] يقبلها فى كل مكان من وجهها.

وهمست خلال قبلاته :

– تعرف حافطرك إيه النهاردة ؟

قال وهو لا يزال يقبلها :

– شفايفك.

قالت وهى تضحك :

- لأ.. بيض بالزبدة.

وأفلتت منه مـرة ثانية وقامت تخلع جـاكتة الـبيجـاما، وترتدى ثوبها، قائلة :

- قوم هات من الحاج مدبولى البيض والزبدة.

وقام محمد وهو يغنى كلامـا من خياله، وخرج يبحث عن الحاج مدبولى.. بينما وقفت سناء تمشط شعرها.

وعاد محـمد يحمل أربع بيضــات، وقطعة من الزبد فى طبق من الحديد الملون، وقال ضاحكا :

- الفراخ بتسلم عليكى قوى.. وبتقولك إنهـا متأسفة.. ماقدرتش تبيض إلا دول.

وضـحكت سناء، وحـملت البيض والزبـد، ودخلت إلى المطبخ، بينمـا دخل محـمد إلى الحـمام، ووقف تحت الدش.. ورفع صـوته بالغناء حتى ملأ صوته البيت، وانطلق من الشبابيك.

وتناولا افطارهما، وهما يضحكان مع كل لقمة.

وارتدى محمد ثيابه.

والتفت إلى سناء قائلا :

- إنت مش نازلة ؟

وقالت سناء وعيناها الملونتان تضحكان :

- لأ.. حاأقعد أوضب البيت.

ونظر إليها فى دهشة ساذجة وقال كأنه لا يصدق :

- حاتقعدى فى البيت طول النهار ؟

وقالت مبتسمة :

- أيوه.. مش بيتى يا محمد.

وهز محمد كتفيه بلا مبالاه، ثم انحنى وقبلها فوق وجنتها، وهم أن يخرج من الباب، وهو يقول :

- أشوف وشك بخير.

وقالت سناء وهى تعطيه أعز ابتسامتها :

- ماتنساش يا محمد.

وقال فى سذاجة :

- مانساش إيه ؟

قالت :

- ماتنساش اللى اتفقنا عليه امبارح.

قال فى بساطة :

- مش فاكر.

قالت فى عتاب :

- اخص عليك يا محـمد.. مش فاكر إنك قلت لى إنك حـاتعرفنى بأختك.

قال :

- آه.. يا شيخـة.. سيبك منها.. إنتى فاكـرة إن أختى زيى كدة.. دى حاجة تانية خالص.

وقالت سناء وقد ارتفع العناد فى عينيها :

- معلهش.. لكن لازم تعرفنى بيها.

ونظر إليها محمد وابتسامته معلقة بين شفتيه، ثم قال وهو يمد يده ويداعب خصلة من شعرها واقعة فوق عينيها :

- حاضر.

ثم خرج وهو يصفر بشفتيه، والمرح فى عينيه.

ولكن صـفيـره بدأ يخفت.. والمـرح فى عينيـه بدأ يخبـو.. وبدأ يحس بشىء ثقـيل يحمله فوق كـتفيـه.. وعقله بدأ يئـز.. إنه يعرف لماذا تريد منه سناء أن يقدمها لأخته.. إنه ليس أبله ولا غبيا.. ولكنه ليس مقتنعـا بأنها يجب أن تعرف أخته.. لماذا تريد أن تقـحم أخته فى حياتهما.. لماذا تريد أن تغير حياته.. لماذا لا تكتفى بالدنيا التى تعيشـها.. لماذا تريد أن توسع دائرة هذه الدينا وتدخل فيـها أناسا آخرين.. لماذا يصـر الناس على أن يعيشوا جمـاعات.. عائلات؟ فى حين أنه يمكن أن يـكونوا سعداء، كـمجرد زوجـين.. رجل وامرأة.. وباقى الناس أشياء تتـحرك أمامهما، ويتـفرجان عليها، ويبتـسمان لها، ولا يدخلانها فى حياتهما.. ثم إن سناء ألقت عليه رغبتها كأنها

تحمله مسئولية.. كأنها تكلفه بعمل.. وهو يكره أن يكون مسئولا.. ويكره أن يتعمد القيام بعمل ما.. لو أن سناء قابلت أخته صدفة، لما اعترض.. ولما أحس بهذا كله.. لو أن كلا منهما سعت إلى الأخرى دون تدخل منها، لما أعترض.. ولكن هذه المهمة التى تكلفه بها سناء، تشعره بأنه موظف.. تشعره كأنه يحمل شيئا ثقيلا على كتفيه.

والأزيز فى رأسه يشتد.. وهو يكره هذا الأزيز.. لا يحتمله.

وارتفع الحزن فى عينيه.. حزن حقيقى.. حزن على نفسه.. كأنه طفل يهم بالبكاء.

وبدأ يقاوم حزنه.

يقاوم بكل أعصابه، وبكل ما يتحمله عن جلد.

وبدأ يصفر من جديد.. ثم رفع صوته بالغناء.. ثم جرى على ساق واحدة كأنه طفل يلعب الحجلة.. وهو يغنى لحنا من ألحان الأوبريت.. وارتفع صوت صفيره.. وصوت غنائه.. ثم انطلقت فى خياله قصة جديدة.. وسكت عن الصفير.. وسكت عن الغناء.. إنه قائد فرقة من الفدائيين فى بورسعيد أيام العدوان.. وتصور نفسه يتسلل ليلقى قنبلة فى معسكر الجيش الإنجليزى.. وهو يزحف على بطنه بين الخيام.. ثم يقف على قدميه ويلقى القنبلة على مخزن الذخيرة.. ويحدث الانفجار.. انفجار شديد، يصم أذنيه.. وينكفىء على وجهه.. ثم يزحف على بطنه مرة ثانية.. ولكن جندى بريطانى ضبطه.. فقام على قدميه.. ولكمه فى وجهه فوقع الجندى على الأرض.. ثم أخرج خنجره وطعنه فى صدره.. وسال دم الجندى.. إنه يرى دمه.. يراه فى خياله كأنه يراه حقيقة.

وهو يمشى صامتا، يعيش بكل ما فيه فى القصة التى انطلقت فى خياله.. وركب الأتوبيس وهو لا يزال يعيش فى خياله.. ثم نزل من الاتوبيس وسار حتى مسرح فرقة النهضة وهو لا يزال يكافح الإنجليز فى بورسعيد.

والتقى به زميله الممثل على علوان على باب المسرح.. وصاح به :

- محمد.

واستدار محمد بغتة، وقد صوب أصبعه إليه كأنه يحمل فى يده مسدسا وصرخ فيه :

- ارفع.

ورفع علوان ذراعيه وهو يضحك.. إنه يعرف محمد.. كلهم يعرفونه.. وقال وهو لا يزال رافعا ذراعيه :

- لو سبتنى حاقولك خبر كويس.

وأفاق محمد من خياله، وقال وهو يسحب أصبعه من أمام وجه علوان، كأنه يسحب مسدسه :

- قول.

وقال علوان :

- مفيش بروفة النهاردة.

وهز محمد كتفيه بلا مبالاه.. لم يفرح، ولم يغضب.. ولم تصغر ابتسامته ولم تكبر.. بروفة أو لا بروفة.. لا شىء يهم.

ولم يسأل علوان عن السر فى إلغاء البروفة، ولكنه تأبط ذراعه وسار به نحو المقهى المجاور للمسرح.. يتحادثان.. فى لا شىء.. مجرد كلمات ونكات.. إن محمد لا يستطيع أن يستمر فى موضوع واحد .. بل لا يستطيع أن يجعل من كلامه موضوعا، إنه فقط يعبر بلسانه عن خيال بعيد غير مرتبط بالأرض.

وفجأة وجد محمد موضوع سناء وأخته يقفز مرة ثانية إلى رأسه.. وعاد يحس بشىء يئز ويطن فى أذنيه.. وشىء ثقيل فوق كتفيه، يزداد ثقلا حتى يحس به على صدره.. وقفزت أمام عينيه صور سناء.. ليس كما تعود أن يراها.. إنه يراها فى خياله ووجهها قاس، وعيناها مخيفتان.. وأصبعها ممتدة أمام عينيه.. وتأمره.. تأمره.. عرفنى بأختك.. غير حياتك.. إفعل ما آمرك به.. وشعر بنوع من الخوف.. الخوف من سناء.. ولم يكن يخاف أن يعرفها بأخته.. ولكنه كان يخاف احساسه بالمسئولية.. إحساسه بأنه مكلف بأن يؤدى عملا معينا.. إن كل عمل يؤديه ينبثق من نفسه.. أعماله كلها

أشبـه بالنزوات.. لا يتعمـدها، ولكنه يندفع فى أدائها تلقائيـا.. حتى التمـثيل لا يشـعر بأنه مكلف به، ولكنه مندفع فـيه تلقائـيا.. بحكم هوايته.. بـحكم طبيعـته.. ولكن الآن يشـعر بأنه مكلف بعـمل ليس منبثقا من نفسه.. غيره الذى كلفه بهذا العمل.. ولا يهم أن يكون هذا العـمل كـبيـرا أم صـغيـرا.. ولا يهم أنه يسـتطيع أن يقـوم به، أو لا يستطيع.. المـهم هو إحساسه بالتكليف.. إحسـاسه بأنه مطلوب منه شىء.. إحساسه بأن غيره يحاول أن يسيطر عليه.

وكل ذلك لأن سناء كلفته بأن يقدمها إلى أخته.

وشعر بأنه فى حـاجة إلى كل قوته ليسـتطيع أن يهرب من هذا الأزيز الذى يطن فى أذنيـه.. وهذا الحمل الثـقيل الذى يحـمله فوق كتفيه، وفوق صدره.. يهرب إلى خياله.. إلى قصة من القصص التى تنطلق فى عقله ويعيش فيها بكل كيانه.. ولكنه أحس لأول مرة بأنه يتعمـد الهروب.. أحس لأول مرة بأنه خرج من دنيـاه الخاصة التى كان يـعيش فيـها، ويحـاول أن يعود إليـها.. لقـد كانت هذه الدنـيا الخاصـة هى دنياه الطبيعـية.. لا يتعمـدها.. ولكنه الآن يحس بدنيا أخرى تحاول أن تجذبه إليها.. ويحـس بأنه فى حاجة إلى المقاومة إلى الهرب.

وصفق للجرسون وطلب زجاجة من البيرة.

إنه فى حاجة إلى أن يشرب ليستطـيع أن يقاوم أكثر.. ليستطيع أن يرتقى سلم خياله.

حتى احساسه بحاجته إلى الشرب، جديد عليه.. لقد كان يشرب دون أن يحس بحاجته إلى الشرب.. دون أن يتعمد الشرب.. يشرب بلا تعمـد. ولكنه الآن يحس بهذه الحـاجة.. وشعـوره يقلقه.. يزيده إحســاسا بأنه فى دوامة هائلة تكاد تبـتلعه.. ويزيده إحســاسا بأن أشياء جديدة كـثيرة تحدث فى حياته دون أن يكون لـه ذنب فيها.. تحدث دون إرادته.. ورغم مقاومته.. تحدث فى نفسه.

وشرب زجاجة البيرة.

وشرب زجاجة ثانية.

ثم قام من المقهى والساعة حوالى الثانية بعد الظهر، وسار إلى شارع ٢٣ يوليو وهو يحاول أن يغنى.. أن يصفر.. أن يتخيل قصة.. إنه رمسيس الثانى فى طريقه لمقابلة الحيثيين.. وشد قامته، ووضع فى عينيه نظرات جادة حازمة، وسار فى خطوات بطيئة قوية.. خطوات ملك.. خطوات فرعون.. وصور من حربه مع الحيثيين تتوالى فى رأسه.. ولكنه يشعر بأن جانبا من عقله لا يشاركه خياله.. لأول مرة أيضا يحس بهذا الإحساس.. يحس بأنه ليس مندمجا بكل عقله، وكل روحه، مع خياله.. وهو إحساس يضايقه.. هذا الجانب الصغير من عقله الذى لايستطيع أن يطويه فى خياله، يضايقه.. يكفى أن تبقى قطعة صغيرة منه واعية بالحياة.. ليتضايق.

وركب الأوتوبيس حتى العباسية.

وسار حتى بيت العائلة، وهو يبتسم لنفسه كأنه يحاول أن يسترضيها.. أو يحاول أن يضحك على نفسه.. وفى عينيه نظرات مسكينة متوسلة، كأنه يحاول بها أن يتوسل إلى نفسه، ويستعطفها، أن تهدأ.. أن تتركه فى حاله.

وصعد مباشرة إلى الدور الثانى حيث تقيم أخته وزوجها الأستاذ عبدالعظيم عبدالله المحامى.. وابنتهما نعمت، وابنهما الصغير خالد.

وكانت العائلة تهم بأن تلتف حول مائدة الغداء.

واستقبلوه جميعا مهللين.

ونظر إليهم والحب يملأ عينيه.. إنه يحبهم جميعا.. واتسعت ابتسامته الحلوة حتى ملأت وجهه كله.. ابتسامة صادقة تطل من تحت خصلة شعره المدلاة على جبينه.. وعاد المرح يرقص فى عينيه.. وطاف على أخته يقبلها من كلتا وجنتيها.. ثم قبل زوجها الأستاذ عبدالعظيم عبدالله المحامى، على خده، وهو يقول ضاحكا :

- إزى صحة القانون.

ثم احتضن نعمت إلى صدره وقبلها قبلات كثيرة فى كل

وجهها.. ثم أخذ خالد بين يديه ورفعه فوق رأسه وأخذ يطوحه فى الهواء وهو يضحك.

وقالت أخته فاطمة وهى تنظر إليه فى حنان :

– اتأخرت ليه يا محمد.. إحنا متنا من الجوع.

وصرخت نعمت وهى تشير إلى ساقها :

– خالى.. شوف.. خالد عورنى فى رجلى.. حدفنى بقزازة الكوكا.. وجت فى رجلى.. ونزل الدم.

وقال محمد وهو يقلد اللهجة الجادة :

– لازم عملتى حاجة.. أصل خالد راجل كبير.. ولازم ياخد باله منك.

وقال خالد :

– أصلها أكلت الشيكولاتة بتاعتى.

وقال الأستاذ عبدالعظيم عبدالله المحامى :

– شوف لنا تذكرتين يوم الخميس الجاى.. أصلى عازم واحد صاحبى معجب بيك جدا.

وقال محمد، وضحكته لا تزال تملأ وجهه :

– حاضر.

وكان الأستاذ عبدالعظيم متعودا على أن يطلب تذاكر لدخول المسرح من محمد، وكان يعتقد أن محمد يحصل على هذه التذاكر مجانا باعتباره ممثلا فى الفرقة.. وكان محمد يتركه على اعتقاده.. ولكنه لم يكن يحصل على التذاكر مجانا.. كان من الأسهل عليه أن يشتريها من الشباك، على أن يطلبها من مدير الفرقة.

وجلس محمد على المقعد المخصص له حول المائدة بين أفراد العائلة.. وجرى الحديث بينهم رائقا حلوا بلا معنى.. حديث عائلات.. ومحمد يملأ الحديث بروحه الصافية الخفيفة، وضحكاته.. وقد ابتعدت عنه مشكلته.. لم يعد يفكر فى سناء ولا فيما طلبته منه.. ابتعد جدا.. نسى كل شىء.. لم يعد شىء يهم.

وقبل أن ينتهى من تناول الفاكهة، نظر محمد إلى أخته، وقال

فى مرح، وصوته يضج برنين صوت الأطفال :

- معاكى خمسة جنيه يا أختى.

ونظرت إليه أخته فاطمة، وقالت كأنها تعودت أن تدلله :

- إنت سحبت كتير الشهر ده يا محمد.. إنت ساحب لغاية دلوقت عشرين جنيه.. يعنى تبقى سالف من الشهر الجاى خمسة جنيه.

وقال محمد فى بساطة ودون أن يتعمد شيئا :

- معلهش.. أصلى اتجوزت.

واتسعت عينا أخته كأنها لا تصدقه.. وقفز عنق الأستاذ عبدالعظيم إلى الأمام وقد جحظت عيناه.

وقالت أخته فاطمة، وقد انكمشت ابتسامتها :

- بتقول إيه يا محمد !!

وقال محمد فى بساطة :

- إتجوزت.

وفجأة تذكر أنه مكلف بأن يقدم زوجته إلى أخته، وعاد يحس بهذا الشىء الثقيل يقع على كتفيه، ويحس بابتسامته تكاد تسقط من فوق شفتيه.

وقالت أخته وعيناها تزدادان اتساعا :

- إنت بتتكلم جد.

وقال محمد مازحا وهو يحاول أن يحتفظ بابتسامته :

- طبعا.. إنتى عارفة إنى طول عمرى جد.

وقال الأستاذ عبدالعظيم، وعنقه ممدود إلى الأمام وعيناه جاحظتان :

- اتجوزت إزاى.

وقال محمد وهو يفتعل لهجة جدية يخفى تحتها ابتسامته :

- شوف يا سيدى .. الشيخ عبد التواب مأذون المطرية حضر.. وفتح الدفتر بتاعه.. وحط ايدى فى ايدها.. و.. وقاطعته أخته قائلة :

- مش كنت تقول لنا يا محمد.. ده معقول إن أخويا يتجوز من غير ما أعرف.

وقال محمد ضاحكا :

- أصلي اتجوزت فجأة.. حادثة.

وقالت أخته وهي ترفع حاجبيها في استسلام :

- واتجوزت مين؟

وقال محمد في بساطة :

- سناء.

وقال الأستاذ عبدالعظيم وهو يكاد يفقد أعصابه :

- سناء مين ؟

وقال محمد بلا مبالاه :

- ممثلة.. كنت أعرفها.

وانكمش وجه أخته كأنها أصيبت بمغص مفاجيء، والتفتت إلى زوجها كأنها تستغيث به.. وأرخى الأستاذ عبدالعظيم عينيه، وطأطأ رأسه، وأخذ يزوم كأنه حيوان جريح.

وصاحت الصغيرة نعمت :

- مش حانشوف العروسة يا خالي ؟

ونظر محمد إلى أخته وقال وابتسامة مترددة على شفتيه :

- بالحق.. سناء عايزة تيجي تزورك.

وسكتت أخته، وشفتاها مقلوبتان في قرف.

وعادت الصغيرة نعمت تصيح :

- إمتى يا خالي.. إمتى طنط سناء حاتيجي تزورنا؟

ورفع الأستاذ عبد العظيم رأسه ونظر إلى ابنته في غضب وقال في صوت آمر مخيف :

- نعمت.. قومي ادخلي أردتك.

ثم التفت إلى ابنه خالد واستطرد :

- وإنت كمان.. قوم على أودتك.

وقامت نعمت وخالد إلى غرفتهما في صمت .

والتفت محمد وراءهما وهو يصيح فى مرح ولهفة :
– فين البوسة.
ووقفت نعمت وخالد ونظرا إليه، ثم نظرا إلى والدهما.. وجريا إلى غرفتهما دون أن يجرؤ أحدهما على الاقتراب من محمد لتقبيله.
وعلت الدهشة وجه محمد، ثم نظر إلى الأستاذ عبدالعظيم، وقال ضاحكا وهو يهم بالقيام :
– مادام العيال قاموا.. أقوم أنا كمان.. أصلى أنا كمان من العيال.
ونظر إليه الأستاذ عبدالعظيم فى جد، وقال فى صوت يحشرجه انفعاله :
– أرجوك يا محمد.. أقعد شوية.
ونظر إليه محمد فى بلاهة، ثم جلس قائلا :
– خير.
وقال الأستاذ عبدالعظيم فى لهجة المحامى الذى يشرح قضيته:
– شوف.. إنت من حقك تعمل اللى إنت عايزه.. من حقك تمثل.. ومن حقك تتجوز ممثلة كمان.. و..
وشهقت أخته كأنها تهم بالبكاء.
والتفت إليها الأستاذ عبدالعظيم، كأنه يأمرها بالسكوت، ثم استطرد فى نفس لهجته :
– إنما من حقى أنا كمان إنى أعيش حسب اقتناعى.. ومن حقى إنى أحدد الناس اللى تدخل بيتى.. وأنا موش موافق إن الست اللى اتجوزتها تدخل بيتى.
ونظر إليه محمد فى بلاهة، وقال :
ـ ليه ؟
وقلب الأستاذ عبدالعظيم شفتيه امتعاضا من كل هذه السذاجة، وقال :
– مسألة مبادىء.. أنا ماباقولش لا سمح الله إنها ست بطالة.. لأ.. أبدا.. إنما المسألة مسألة مبادىء.

وقالت أخته وهي تخبط على صدرها :
- آدى اللى كنت خايفة منه.. وكانت المرحومة ماما خايفة منه.
وقال محمد :
- كانت ماما خايفة من إيه ؟
وقالت فاطمة في غل صريح :
- خايفة إنك تتجوز واحدة من الممثلات اللى بيتلموا عليك.. إنت.. إنت يا محمد يا أخويا.. تتجوز ممثلة.. ليه.. أمال مين اللى يتجوز بنات الناس.. إنت فاكر نفسك ممثل.. إنت من عيلة.
وابتسم محمد ابتسامته الحلوة وقال في بساطة :
- إنتى مش عايزة تشوفى سناء ؟
وقالت أخته كأنها تصرخ :
- لأ.
والتفت محمد إلى الأستاذ عبدالعظيم وقال بنفس البساطة :
- ولا إنت ؟
وقال عبدالعظيم في لهجة الأستاذ :
- أنا يشرفنى إنى أشوفها.. بس مش هنا.. مش في بيتى.. أنا عندى أولاد.. و..
وقاطعه محمد وهو يهب واقفا :
- يبقى خلاص.. الموضوع انتهى.. السلام عليكم.
وخرج بخطوات سريعة.
وأجهشت أخته بالبكاء.
وصوت بكائها يجرى وراء أذنى محمد.
ونزل محمد إلى شقته في الدور الأول.. وبدأ يخلع ثيابه، وهو يغنى.. ولكن عقله مشغول عن غنائه.. إنه يغنى بشفتيه فقط.. وعقله سارح.. ليس سارحا في أخته وزوجها، ولكنه سارح في سناء.. إنها ستقابله.. وتسأله.. وتحاسبه.. وهو لا يطيق أن يحاسبه أحد.. لا يطيق مجرد الإحساس بأنه معرض للحساب.. وهو يعلم أنه كان يستطيع أن يناقش أخته وزوجها.. كان يستطيع أن يصر على أن

يستقبلا زوجته.. ولكن ماذا يهم إذا استقبلاها أو لم يستقبلاها.. لا شيء يهم.

وهز كتفيه بلا مبالاه.

ثم ابتسم ابتسامة كبيرة.. لعل سناء تقتنع هى الأخرى بأن لا شيء يهم.. لعلها نسيت كل شيء.

ورفع صوته أكثر بالغناء.

ثم دخل فراشه لينام.

ولكنه لا يستطيع أن ينام.. لأول مرة يشعر بالأرق عندما ينام بعد الغداء.. إنه ينام دائما عندما يضع رأسه على الوسادة.. إنه لا ينام كثيرا، ولكنه عندما يضع رأسه على الوسادة ينام.. لماذا لا ينام اليوم؟

وعذبه أرقه.

وصدره يضيق.. يحس بأنه يريد أن يجرى.. يجرى كثيرا وإلى بعيد.. يهرب.. يهرب من أشياء ثقيلة يحس بها فوق كتفيه، وفوق صدره.. وفى معصميه.. قيود.. قيود تربطه إلى عالم لم يعش فيه.. إنه لا يستطيع أن يطير كالعصفور. لا يستطيع أن يجرى كالغزال.. لا يستطيع أن يتفتح كالوردة.

وقام من الفراش دون أن ينام.

واستحم تحت الدش.. وهو يسلم وجهه ورأسه للماء كأنه يحاول أن يغسل هذه الأحاسيس الجديدة الدخيلة على حياته.

وارتدى ثيابه وخرج.

ولم يذهب إلى مقهى عرابى كعادته ليلتقى بصديقيه حلمى وتوفيق.. إنه يريد أن يمشى.. سيمشى قليلا ثم يعود إلى المقهى.. ولكنه مشى طويلا.. خرج من بيته وسار فى شارع أحمد سعيد الذى يشق صحراء العباسية.. ثم انحرف إلى قرافة الخفير. وإلى الدراسة.. وسيدنا الحسين.. ولا يستطيع أن يقف.. يمشى.. ويمشى.. كأنه يسابق أفكاره.. وخياله يصفو حينا فيحمله إلى قصة من القصص التى يعيش فيها.. ولكنه لا يلبث أن يفيق من القصة

ويحس بنفسه يهوى على الأرض.. كأنه يقع من فوق عمارة الأموبيليا، ويخيل إليه أنه يسمع صوت ارتطام جسده بالأرض.. بالواقع.. بسناء.

ووقف أمام مسجد الحسين يقرأ الفاتحة.. قرأها فى إيمان عميق.. وأضاءت عيناه بنور إيمانه.. وازدادت ابتسامته الصغيرة طيبة وحلاوة.. إنه لا يطلب شيئا من الله.. ولا يستغيث به.. ولكنه يحاول أن يرتفع إليه بخياله.

ودخل مقهى الفيشاوى وجلس يشرب فنجان قهوة.. وحيدا.. هادئا.. ملتفا بإيمانه.. يعيش مع الله فى خياله.

ثم قام.. وعاد يمشى.. عاودته حاجته إلى المشى.. مشى فى شارع الأزهر.. إلى العتبة الخضراء.. إلى شارع ٢٦ يوليو.. إلى شارع محمد فريد.. ودخل بار الكورسال.. أول بار صادفه فى الطريق.. وطلب كأسا من الويسكى.. شربه بسرعة.. كأنه يطفىء به جمرات فى صدره.. وكأسا أخرى.. وثالثة.

إن الخمر تزيده رقة.

وهو يشعر برقته كلها تعود إليه.

ويشعر بخياله كله صافيا.

ويرتفع على سلم خياله.. ويرتفع.. ويرتفع.. ولا يسقط على الأرض.. إنه فوق.. فوق.

وخرج من «البار» وهو يغنى أغنية من تأليفه سبق أن لحنها بنفسه على وزن لحن الفالس :

أنا عندى مبدأ من زمان.
دايما أكون هايص فرحان.
أبص هنا، وأبص هنا.
ألقى الهنا طول السنة.
حياتى إنى أعيش.
والدنيا سرور فى سرور.
ياما قلت وقلت.

صـــــــحـــــــــيت أو نـمـت.
يا واد ســيــبك، بـكرة حــاتمـــوت.
العـمـر قصـيــر، قـضيـه فى ســرور.

وذهب إلى المسرح وابتسـامتـه الكبيـرة الحلوة تملأ وجــهه.. وعيناه تضحكان لكل شىء حولـه.. تضحكان للناس.. وللسيارات.. وللفوانيس.. وللدكاكين.. ولماسحى الأحذية.. ولباعة اليانصيب.. إن كل شىء جميل.. الجمال ينطلق من نفسه ويكسو كل شىء حوله.

ودخل المســرح وهو يضم كل زملائه وزمـيلاته فى ضـحكته.. يقبلهم كلهم.. ويضحك.. ويضحكون له.. ونفســه شفافة، تطير على أجنحة من خياله فى سماء ضاحكة كلها حب.

ومثل دوره.. وهو فى قمة فنه.

والأيدى تضج بالتصفيق.

وهو لا يشعر بالتصفيق إلا أنه نغم جميل.

●●●

وخرج من المسرح بعد انتهاء التمثيل.

وسناء تنتظره فى المقهى المجاور، وما كادت تراه حتى صاحت بكل حبها :

– محمد.. محمد.

وانطلق إليها مـحمد، وحملها بين ذراعـيه، ورفعها إلى شفـتيه، وأخذ يقبلهــا.. قبلات كثـيرة حلوة.. ورواد المقهى ينظرون إليـهما ويضـحكون فى سعادة.. وسناء تصيح وهى تضحك :

– كفاية يا محمد.. نزلنى بأه.

وأنزلهـا مـحـمـد وأمسكهـا من يدها وشـدها وراءه يطوف على زمــلائه فى المـقهـى يداعبـهم، ويضـحك لهم.. ثم خـرج بهـا إلى الشارع.. ومشى.

وسناء تجرى بجـانبه لتلحق بخطواته الواسعـة.. ثم قالت وهى تلهث :

– حانروح فين يا محمد ؟

وقال وصدره مفتوح ليضم الدنيا كلها :
– حانرقص.. حانغنى.. حانشرب.. حانسمع مزيكة.
وسارت بجانبه وابتسامتها ترقص وتغنى فوق شفتيها.. وهو يصفر بشفتيه مارشا عسكريا يساعده أكثر على توسيع خطواته.
وقالت سناء وهى ترفع رأسها إليه :
– اتفقت مع أختك ؟
واستمر محمد فى صفيره دون أن يسمعها.
وعادت تقول وهى ترفع صوتها ليصل إليه من خلال صفيره :
– اتفقت مع أختك يا محمد ؟
ونظر إليها من فوق قامته الطويلة، وقال فى سذاجة كسذاجة الأطفال :
– اتفقت معاها على إيه ؟
قالت :
– زى ما قلت لك الصبح.. إوعى تكون نسيت.
وقال محمد وهو يعود وينظر أمامه :
– لأ مانستش.. قلت لها.. ومارضيتش.
وقالت سناء وابتسامتها تنكمش بين شفتيها :
– مارضيتش بايه ؟
وقال محمد وهو مستمر فى سيره، دون أن يشعر بقسوته :
– مارضيتش إنك تزوريها.
ثم عاد يصفر بشفتيه.
ونزعت سناء يدها من يده، وقد اكتسى وجهها بحمرة غاضبة، وقالت وصدرها يتهدج :
– مارضيتش إزاى ؟ هى مش عارفة إننا اتجوزنا ؟
ووقف محمد ينظر إليها وابتسامته متجمدة فوق شفتيه، وقال :
– عارفة.. إنما مارضيتش.
وصرخت سناء :
– وسكت لها.. إزاى تسكت لها.. دى إهانة.. إهانة لى ولك.

وقال محمد ببساطة :

– إهانة ليه.. هى مش عايزة. وهى حرة.. وإنتى حرة.. وأنا حر.. كلنا أحرار.

وعادت سناء تصرخ :

– هى مش حرة.. هى لازم تعترف بجوازنا.. لازم تعترف بى كمراتك.. أنا مش أقل منها.. ومش أقل منك.

ونظر محمد إلى وجه سناء الغاضب.. وإلى عينيها المنطلقتين بالسخط الثائر.. وإلى أسنانها البارزة فوق شفتيها.. وإلى صدرها المتهدج بالغيظ.. وشعر برأسه يئز.. والأزيز يملأ أذنيه.. وشعر بهذا الشىء الثقيل يقع على كتفيه.. ويزحف على صدره.

وخاف.

لم يخف من سناء.

ولكنه يخاف من هذا الشىء الثقيل.

وأدار ظهره لسناء بسرعة.. ومشى.. مشى بخطوات أسرع وأوسع من خطواته.. كأنه يهرب.

إنه لا يهرب من سناء.

ولكنه يهرب من هذا الشىء.

ووقفت سناء مذهولة.. إنها تعرفه.. إنه سيختفى عن عينيها بعد ثوان.. ولن تستطيع أن تلحق به.

وقفزت الدموع إلى عينيها.. دموع اختلط فيها غيظها، بسخطها، بحيرتها، بضعفها، بعنادها.. بحبها.

وشعرت بنفسها تجرى وراءه وهى تصيح :

– محمد.. محمد.. أنا معييش فلوس ارجع البيت.

ولم يسمعها محمد.. ولكنه التفت وراءه.. ورآها مندفعة إليه.. فاشتد خوفه.. الخوف يملكه كله.. فجرى.. جرى فعلا وسط الشارع.. ثم أخذ يجرى بكل قوته وراء أوتوبيس، وتعلق به.

ووقفت سناء تنظر إليه من بعيد، ثم انفجرت بالبكاء.

بكاء حاد له نشيج.

والتف حولها فريق من المارة، يتمتعون بمشاهدة امرأة تبكى.

وأزاحت دموعهـا بأصبعها بسرعـة.. وكتمت نشيجـها.. ورفعت رأسها.. ثم اخترقت حلقة الناس التى التفت حولها.. وسارت.

سارت مرفوعة الرأس.

لا تدرى إلى أين؟

والدموع المكبوتة.. دموع الغيظ.. تمزق جفونها.

إنها ستجن.

ويجب أن تيأس قبل أن تجن فعلا.. تيأس من محمد.. إنه لن يتغير أبدا.. ولن تستطيع أن تغيره.. لن تستطيع أبدا أن تجعل منه رجلا مسئولا.. وهى لن تكون أبدا زوجة كبقية الزوجات، لها بيت، ولها رجل مسئول عنها وعن البيت.. ومن الخير لها أن تيأس.. أن تقبل نصيبها كما هو.. أو تترك محمد وترسم حياتها بعيدا عنه.

وتذكرت قرارها الذى اتخذته فى الصباح.. أن تكافح حتى تجعل من محمد رجلا.. وأن تجعل من بيت المطرية بيتها.

ولم يهن عليها حلمها.

لم يهن عليها أن تيأس بهذه السرعة..

وبدأت تراجع نفسها.

لقد تعجلت.. وأخطأت بتعجلها.. لو أنها فكرت قليلا لكانت قررت أن تترك موضوع لقائها بأخت محمد إلى الصباح.. إلى غد.. فهى تعلم أن محمد عندما يشرب، وعندما ينطلق فى الليل، يكون معلقا بخياله.. لا يطيق شيئا يشده إلى الأرض.. ولا يطيق نقاشا.. ولا يطيق حديثا جادا.

لقد أخطأت.

وخفف إحساسها بالخطأ من حدة غيظها.

ولكنها عادت وتذكرت أنه ليس معها نقود.. لقد خرجت فى المساء من بيت المطرية ومعها خمسة عشر قرشا.. وركبت الأتوبيس.. درجة أولى.. واشترت سندويتشا واحدا، وزجاجة كوكاكولا.. فطارت الخمسة عشر قرشا.. وكانت معتمدة على لقائها

بمحمد.. زوجها.. الرجل المسئول عنها.. ولكن زوجها طار هو الآخر.. تركها بلا نقود.. ولا مليم.

وعاودها الغيظ.

غيظ يحرق عينيها، ويهرى صدرها.

وتمهلت في خطواتها، تفكر أين تذهب.. هل تذهب إلى إحدى زميلاتها وتبيت عندها، وتقترض منها في الصباح.. هل تعود إلى البنسيون الذى تقيم فيه ؟

لا.

ستذهب إلى صادق بيه.

وأحست بشىء يشكها في جنبها وهى تفكر في الذهاب إلى صادق بيه.. إنها تعلم أنها في حالة ضعف، وهى لم تتعود أن تواجه صادق بيه وهى في حالة ضعف.. إنها تشعر دائما بأنها في حاجة إلى كل قوتها وكل شخصيتها عندما تواجه صادق بيه.. عندما تواجه هذه الأحاسيس التى ترسب في أعماقه.. أحاسيس الرغبة واللهفة إلى متع الحياة، التى حاول أن يخفيها وراء مظهره المحترم، والتى تكشفها من خلال لمعة عينيه، ولمسات أصابعه.

ورغم ذلك فهى مدفوعة بغيظها إلى الذهاب إلى صادق بيه، كان الغيظ يدفعها إلى تحطيم شىء في نفسها.. شىء جميل ثمين.

وهى تشعر بأنها في حالتها هذه محتاجة إلى نوع خاص من الاهتمام.. اهتمام أكبر من اهتمام زميلاتها بها.. اهتمام كاهتمام صادق بيه.

وسارت في اتجاه شارع ٢٣ يوليو، ثم انحرفت إلى ميدان الأوبرا.. وخطواتها عنيدة طائشة، وبقايا الدموع في عينيها.. ودخلت فندق الكونتننتال، واتجهت إلى البهو الكبير حيث تعود صادق بيه أن يجلس مع أصدقائه.. ووقفت تبحث عنه بعينيها.

ولمحها صادق بيه.. ونظر إليها في دهشة.. ثم ترك أصدقاءه وقام إليها مسرعا.. وصافحته وابتسامة مهزوزة بين شفتيها.. وقال في صوته الوقور والحنان المتعمد يطل من عينيه :

- أمال فين محمد ؟

قالت كأنها تتنهد :

- مش معايا.

والتفت إلى ناحية أصدقائه، ثم عاد إليها بعينيه، وقال :

- طيب اسبقينى على العربية.. حادفع الحساب وأحصلك حالا.

ونظرت إليه سناء فى تردد.. إنها تحس بما يدور فى عقله، إنه لا يريد أن يراها أصدقاؤه معه.. وحدها.. لقد تعودت أن تجلس مع أصدقائه عندما تكون مع محمد.. ولكنه لا يريد أن يقدمها إلى أصدقائه وهى وحدها.. لا يريد أن ينسبها لنفسه.. إنه يضحى بها فى سبيل مظهره الكاذب.. مظهر الرجل المحترم الوقور.

وأحست بإهانة.

أحست بأن محمد - رغم كل شىء - قادر على أن يحميها من هذه الإهانات.. مجرد وجوده بجانبها كاف لحمايتها.. ليس هو الذى يحميها.. ولكن اعتراف الناس بهما.. صورتهما أمام الناس.. إنها من غير محمد صورة مهزوزة.

ونظرت إلى صادق بيه وفى عينيها الملونتين نظرة ساخرة.. واستدارت وسارت خارجة من الفندق، وهى تفكر فى أن تعدل عن لقاء صادق بيه.. أن تحتقره.. وتعود إلى زميلاتها الممثلات.. لعلهن لا زلن متجمعات فى المقهى المجاور للمسرح.

ولكنها وقفت أمام الفندق.. وعاودها الإحساس بالحيرة.. والضياع.. والغيظ.. الغيظ يحرق عينيها، ويهرى صدرها.

وفجأة.. وفى عناد أقوى من منطقها.. اتجهت إلى سيارة صادق بيه الواقفة أمام الفندق.

ونظر إليها سائق السيارة فى إهمال.

وقالت له سناء وهى تنظر إليه بعينين مترددتين، والخجل يزحف على وجنتيها :

- صادق بيه.. جاى دلوقت.

وفتح لها السائق الباب، دون أن يعتدل فى وقفته.. ودون أن

يرد عليها.. كأنه يعتبرها من هذا النوع من النساء.

وجلست فى السيارة وهى تأكل شفتيها بأسنانها.. والغيظ يستبد بها.. والإحساس بالمهانة يمزق رئتيها.

وجاء صادق بيه، ودلف إلى داخل السيارة بسرعة كأنه يخشى أن يراه أحد، وقال فى عجلة :

- سوق يا أسطى.

وسارت السيارة.

والتفت صادق بيه إلى سناء وقد اطمأن إلى أنهما مختبئان فى ظلام الشارع عن الناس.. وقال وقد عاد الحنان إلى عينيه، وعاد الوقار الهادىء إلى صوته :

- إيه الحكاية.. محمد راح فين ؟

وقالت وهى تبتعد عنه فى ركن السيارة، ولا تزال ساهمة فى أحاسيسها :

- جرى.

وقال صادق بيه :

- جرى إزاى.

قالت وهى لا تنظر إليه :

- سابنى فى وسط الشارع.. وجرى.. واتشعبط فى الأتوبيس.

ومد صادق بيه ذراعه وربت بكفه على فخذها.. وقال فى صوته الهادىء :

- على كل حال إنتى عارفة محمد كويس.. محمد إنسان مش طبيعى.. إنسان شاذ.. وتصرفاته كلها غصب عنه.. وإنتى الوحيدة اللى تقدرى تفهميه.. وإنتى الوحيدة اللى تقدرى تستحمليه.

ولم تحس سناء بكفه التى لامست فخذها.. وانهمرت دموعها مرة واحدة.. دموعها كلها.. دموع الغيظ والضياع.. وقالت والنشيج يمزق كلماتها :

- أنا ماباقتش قادرة أستحمله.. ومش قادرة أفهم حاجة.. مش فاهمة إذا كنا متجوزين ولا مش متجوزين.. مش فاهمة إذا كان

بيحبنى ولا مابيحبنيش.. مش فاهمة إذا كنت عايشة ولا ميتة.

واقترب منها صادق بيه، وأحاط كتفيها بذراعه، وهو يقول :

– بس يا سناء.. إنتى طول عمرك قوية.

وأسقطت سناء رأسها فوق صدره.. وانهارت كلها.. وبكت أكثر.. دموع أكثر.. والنشيج يهزها كلها.

وصادق بيه يحتضنها إلى صدره.. ويضغط عليها بذراعه أكثر.. وأصابعه تتحسس كتفها العارية.. وشفتاه فوق شعرها.. ويردد :

– خليكى عاقلة يا سناء.. أنا واثق إن محمد بيحبك.. وتنبهت سناء فجأة إلى أنها فى أحضان صادق بيه.. وأحست بذراعه تضغطها إليه.. وأصابعه تتحسس كتفها.. وأنفاسه تنصب فوق رأسها.. فابتعدت عنه بسرعة.. وقذفت نفسها فى ركن العربة.. وقالت فى عناد كبير :

– أنا عايزة أروح.

واستعاد صادق بيه وقاره بسرعة، وقال فى صوته المحترم الهادىء :

– مش نروح نتعشى فى حتة، لغاية ما تهدى.

وقالت سناء وهى تقضم أظافرها :

– لأ.. لازم أروح.. دلوقت.

وهز صادق بيه كتفه، ثم مال إلى الأمام، وأمر السائق بأن يتجه إلى شارع رمسيس.. إنه يعلم أن سناء تقيم فى بنسيون بشارع رمسيس.

وظلت صامتة.

وبقايا الدموع تحرق عينيها.

وقبل أن تقف السيارة أمام العمارة التى تضم البنسيون، قالت سناء فجأة :

– أنا عايزة أروح المطرية.

ونظر إليها صادق بيه فى دهشة، وقال

– هو محمد هناك ؟

وقالت سناء في حدة :

- ما أعرفش.. مايهمنيش إذا كان هناك ولا مش هناك.. ده بيتي.

وقال صادق بيه وقد ظهر على وجهه الامتعاض، كأنه لم يكن يحسب حساب هذا المشوار الطويل :

- بس بدل ما تقعدي هناك لوحدك و...

وقاطعته سناء في عناد أكبر :

- لازم أبات هناك.. ده بيتي.

وابتسم صادق بيه ابتسامة الرجل الصبور، الخبير بالصبر، وقال في هدوء :

- لكي حق.

ثم أمر السائق بأن يستمر في طريقه إلى المطرية.. وابتعد عن سناء واستراح في ركن السيارة استعدادا للمشوار الطويل.. وبدأ يحدث سناء حديثا هادئا فيه حنان الأب، وحب الأخ الكبير.. وبدأت سناء تروي له كل ما حدث.. بصراحة.. دون أن تخفي عنه شيئا حتى أحاسيسها الداخلية.. وهو يستمع حينا، ثم يعود ويتكلم هذا الكلام الهادئ، كأنه يدلك به أعصابها.

ووصلا إلى بيت المطرية.

ووقفت السيارة على حافة الطريق العمومي.. ونظرت سناء إلى البيت الملقى وسط ظلام الحقل.. وخافت.. انطلق الخوف في كل عصب منها.

وهم صادق بيه بالنزول من السيارة والتفتت إليه سناء بسرعة وهي تجذبه من ذراعه جذبة خفيفة، وقالت في رجاء :

- خليك إنت يا صادق بيه.

وقال وهو ينظر إليها في دهشة :

- أوصلك.

قالت كأنها تتوسل :

- علشان خاطري.. بلاش.

قال :

- دى الدنيا ضلمة كحل.

قالت :

- معلهش... أنا ماباخفش من الضلمة.

ثم ابتسمت ابتسامة مسكينة وقالت :

- وكمان لازم أتعود أوصل بيتى لوحدى.

وسكت صادق بيه وهو يبتسم لها فى استسلام.

واستطردت قائلة :

- تصبح على خير.

وقال صادق بيه :

- تصبحى على خير.. أنا حافضل واقف هنا لغاية ما توصلى البيت.

وقالت وهى تنزل من السيارة :

- متشكرة.

ووقفت على حافة الحقل تنظر فى الظلام.. وتشد أنفاسها كأنها تستجمع شجاعتها.. ثم نزلت إلى الحقل تسير على حافة القناية الضيقة.. والخوف يملأ قلبها.. وظلال شجرة الجميز تقف أمامها كأنها عفريت أسود.. وتركز عينيها فيها، وتدقق النظر لتتأكد إنه ليس عفريتا، إنما مجرد ظل الشجرة.. وأعواد البرسيم تلامس ساقيها.. فتشعر بها كأنها ثعابين لزجة تحاول أن تلتف حول ساقيها.. ونقنقة الضفادع وصرير صراصير الليل تملأ أذنيها كأنها صرخات مرعبة تزفها إلى عالم مخيف.. والظلام يتكتل أمامها.. كتلة وراء كتلة.. وتمد ذراعيها أمامها كأنها تزيح كتل الظلام من أمامها.. وتصطدم قدمها بقطعة من الطين.. فتقف.. ثم تقفز.. لعله ثعبان آخر.. وتهتز أعواد البرسيم.. لعل ذئبا مختبئا فيها.. وقلبها يسقط.. ويسقط.. حتى يصل إلى قدميها.. والرعب يملأ صدرها.. وعيناها مفتوحتان إلى آخرهما.. وصرخة فى حلقها.. وكل شىء ظلام.. النور يارب.. النور.. كأنها لم تر النور أبدا فى حياتها.

ووصلت إلى البيت.

دخلت بسرعة ملهوفة كأنها تفر من عدو.

وأضاءت النور.. وتلفتت حولها فى نظرات سريعة مرتعدة.. كأنها كانت تنتظر أن يواجهها لص بسكين.

وأغلقت الباب وراءها بقوة، وبحثت عن ترباس له تتربسه به.. ليس للباب ترباس.

وأتت بالمقعد الكبير ووضعته خلف الباب.

ثم فكرت بسرعة.. ورفعت المقعد بعيدا عن الباب.. ثم دفعت المائدة الخشبية الكبيرة، دفعتها بكل ما فيها من قوة، ووضعتها خلف الباب.

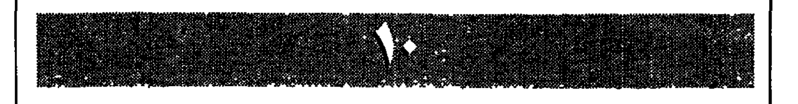
ثم ألقت نفسها على المقعد، وهى تلهث.

والنور مضاء.

وهى خائفة.

خائفة.

خائفة من بيتها.



كـان قد مـضى ثلاثة أسابيع على تأمـيم شركـة الانشاءات المعـمارية، التى يعمل فيـها توفيق.. ورغم ذلك لم يحـاول توفـيق أن يطـلب مـقـابلة المـهندس محمـود فكرى العضو المنتدب الجـديد للشركة.. إنه أذكى من أن ينضم إلـى مواكب الـمهنـئيـن المهـللين.. أذكى من أن يكون مجرد واحد فى طابور طويل.. لذلك اكتفى بأن صافح العضو المنتـدب عندمـا مر على مـكاتب موظفـى الشركـة ليـشكرهـم على تهنئـتهم له بمناسـبـة تعيينه.. وصافـحه فى أدب ولكن فى وقـار أيضا، دون مغالاة فى مظهر أدبه.

وكان هناك سبب آخر يدعو توفيق إلى هذا التـحفظ فى استقبال العضو المنتـدب، وهو أنه كان مقربا إلى صاحب الشـركة السابق.. وكان موضـع ثقته.. وكان يعهـد إليه بالإشراف على أهم مشروعات الشركـة.. وكان يمـيزه على زمـلائه فى العلاوات والمـكافآت.. إن مرتبه وصل إلى خمسة وستين جنيها فى خلال عامين، فى حين أن مرتب زمـيله الذى عين معه ـ وفـى الوقت نفسه ـ لا يزال خمـسة وثلاثين جنيها.. ولـم يكن توفيق أيامها يهـمه حسد زملائه وحقدهم عليه.. كان يكفيه دائما احتفـاظه بثقة صاحب العمل، حتى لو احتفظ بهذه الثقة على حساب زملائه.. وكـان مقتنعا بينه وبين نفسه بأنه نال هذه الثقـة، ونال هذه العلاوات، نتـيجة مـجهوده.. صـحيح أن نصف مـجهوده كان يصرفه فى التـقرب الشـخصى لصاحب العمل.. ولكن النصف الآخـر كـان أكبـر من مجـهـود أى موظف آخـر فى

الشركة.. إنه رجل شغال.. إنه لم يتقدم فى عمله عن طريق النفاق كما يقول زملاؤه.. إن ما يسميه زملاؤه نفاقا يسميه هو «تفاهم شخصى».. وهو نوع من التفاهم يجب أن يوجد دائما بين المرءوس ورئيسه.. لمصلحة الرئيس.. ولمصلحة المرءوس.. والمصلحتان لا تنفصلان أبدا عن مصلحة العمل.. ليس هناك صاحب شركة يقبل أن يجامل أحد مرءوسيه على حساب مصلحة العمل.. فمصلحة العمل، هى الربح.. هى المكسب.. وأصحاب الشركة هم ممثلو الربح.. المكسب.. قد يجامل أحدهم موظفا من موظفيه، ويميزه على باقى زملائه، ويسخو عليه.. ولكن كل ذلك فى حدود ربحه ومكسبه.. أى فى حدود مصلحة العمل.

وهذا التفاهم الشخصى الذى يسميه زملاؤه نفاقا يحتاج إلى ذكاء خاص.. إلى موهبة.. وإلى جهد كبير.. جهد فى اختيار كلماتك.. وجهد فى انتقاء الموضوعات التى تتحدث فيها.. وجهد فى تكوين الرأى الذى تقوله.. لا رأيك.. بل الرأى الذى يرضى صاحب العمل.. لقد كان صاحب الشركة يسأل توفيق عن أى موضوع فيعطيه دائما الرأى الذى يرضيه.. حتى لو كان موضوعا خارج دائرة العمل.. لقد سأله مرة عن رأيه فى هند رستم وهدى سلطان، وأيهما تعجبه أكثر؟ وبسرعة بدأ عقل توفيق يدور بسرعة مليون لفة فى الساعة.. وبدأ يزن ذوق صاحب العمل.. ويستعرض المناسبات التى لمحه فيها يتبع امرأة بعينيه.. ثم بسرعة قال:

– هند رستم..

وضحك يومها صاحب الشركة ضحكة كبيرة مرحة، وقال:

– يا سلام على ذوقك يا توفيق زى ذوقى تمام..

ويومها وافق صاحب العمل على الاقتراح الذى تقدم به توفيق لتنظيم العمل.

هذا الجهد الذى يبذله توفيق فى سبيل التفاهم الشخصى مع رئيسه لا يمكن أن يكون جهدا بسيطا.. إنه موهبة.. إنه ذكاء.. ولو كان الأمر بسيطا لنجح كل زملائه فيما نجح فيه.. ولكنه جهد

أكبر من ذكائهم.. لذلك يسمونه نفاقا.

إلى أن أممت الشركة..

وأحس توفيق بنظرات الشماتة تمزق وجهه.. أحس بزملائه يمرون أمامه وهم يتنفسون فى راحة كأنهم تخلصوا منه إلى الأبد.. كأن كابوسا يجثم على صدورهم وانزاح.. ثم علم أن أكثرمن مذكرة قدمت ضده إلى العضو المنتدب.. أقلها تتهمه بأنه كان جاسوسا لصاحب الشركة عليهم، وأنه كان يختلس أموال الشركة.. و.. و.. تهم كثيرة كاذبة.. فتوقيق لم يكن جاسوسا.. بالعكس كان يحمى زملاءه من الشكاوى الكيدية التى يقدمها بعضهم فى بعض، ويطلعه عليها صاحب العمل.. ولم يكن مختلسا، إنه أذكى من أن يختلس.

وقابل توفيق كل ذلك فى هدوء.. لم يحاول أن يتقرب إلى العضو المنتدب حتى لا يرتاب فيه بعد أن قرأ كل هذه المذكرات التى قدمت ضده.

وازداد هدوءه عندما علم بأن كل موظفى الشركة قدموا مذكرات بعضهم ضد بعض.. إن الحجرة التى تجاور حجرته فيها ثلاثة موظفين.. مر عليهم خمس سنوات وهم يجلسون فى حجرة واحدة.. والثلاثة تجمعهم صداقة عائلية.. كل منهم يدعو عائلة الآخر إلى بيته.. ورغم ذلك ففى الأسبوع الأول بعد التأميم قدم كل منهم مذكرة ضد الآخر.

ولن يستطيع العضو المنتدب بعد ذلك أن يصدق ما يقال عن توفيق إلا إذا صدق ما قيل عن كل الموظفين.. ولن يستطيع أن يقرر إقصاء توفيق إلا إذا قرر إقصاء كل الموظفين.

الوحيد الذى لم يقدم مذكرات ضد زملائه، هو توفيق نفسه.

لا لأنه أحسنهم خلقا.. ولا لأنه أرهفهم ضميرا.

بل لأنه أذكاهم.. وذكاؤه يدله على أن المذكرات التى تقدم فى هذا الوقت بالذات.. وبعد التأميم مباشرة.. لا ينظر إليها نظرة جدية.. وأن المذكرة التى تقدم بين مائة مذكرة مماثلة.. تفقد قيمتها.

وقضى توفيق هذه الأسابيع الثلاثة وهو يجمع كل ما يستطيعه من معلومات عن العضو المنتدب.. عرف أنه عضو فى النادى الأهلى.. وعرف أصدقاءه.. وعرف أنه يحب سماع أم كلثوم.. وعرف أنه زوج ابنة عبدالله جوهر.. وتذكر أن شقيق زوجته، فهمى جوهر كان زميلا له فى المدرسة الثانوية.. معلومات كثيرة.. قد تبدو تافهة.. ولكن توفيق كان يحرص على جمعها. ويفرح بها.

وفى الوقت نفسه بدأ توفيق يستعد للإجابة عن كل الأسئلة المتعلقة بعمله والتى قد يوجهها إليه العضوالمنتدب.. ويعد المشروعات الجديدة التى يمكن أن يقرها العضو المنتدب ويفرح بها.. إنه يعلم أن كل رئيس جديد يهمه أن يحصل على مشروع جديد أو اقتراح جديد، تنفذه الشركة، وينسبه لنفسه، ويعلن عنه فى الصحف، حتى يثبت جدارته بمنصبه الجديد.. وسيقدم توفيق أكثر من مشروع.. ولا يهمه أن ينسب العضو المنتدب هذه المشروعات لنفسه.. كل ما يهمه أن يستفيد منها معه.

وبدأ توفيق خطة العمل..

أولا وطد صداقته بسكرتير العضو المنتدب.. وهو موظف قديم فى الشركة.. وعن طريقه كان يعلم بالمذكرات التى تقدم للعضو المنتدب.. ويعلم بمقابلاته للموظفين.. ويعلم بمن يزوره من خارج الشركة.

ثم سأل عن فهمى جوهر.. وعلم أنه تخرج فى كلية التجارة، واشتغل محاسبا.. وأنه لا يزال يقيم مع عائلته فى بيتهم القديم بالعباسية.. وأن له أختا أخرى لم تتزوج بعد.

وبدأ يمر أمام بيت فهمى فى الأوقات التى يخرج فيها الناس عادة من بيوتهم أو يعودون إليها.. ولم يكن يمر من أمام البيت بحيث يلفت النظر إليه.. أبدا.. كل ما هنالك أنه غير طريقه إلى محطة الأتوبيس بحيث يمر من أمام بيت فهمى..

والتقى بفهمى.. وازيك يا فهمى.. والله زمان.. ده إحنا مابنشفكش أبدا.. فاكر الأستاذ عبدالعليم مدرس الجغرافيا.. وازى عمى عبدالله بيه.

واتفق مع فهمي على أن يلتقيا في جروبي، وسأله بلا تعمد:
- وإزى أختك فريدة.. لازم كبرت دلوقت.
وقال فهمي وهو سعيد بصحبة زميل الدراسة:
- واتجوزت..
وصرخ توفيق:
ـ مش معقول.. دى أصغر مننا بكتير.. اتجوزت حد من العباسية؟
وقال فهمي:
- لأ .. اتجوزت مهندس.. بس أكبر منك شوية.. المهندس محمود فكرى.
وقال توفيق ضاحكا:
- مش معقول.. ده اتعين عضو منتدب في الشركة بتاعتنا.
وقال فهمي:
- ده صحيح.. إنت قلت لى إنك فى شركة الإنشاءات.
وقال توفيق:
- بيقولوا عليه راجل مخيف.. إنما ما أقدرش أحكم عليه.. لسة مابانش.
وقال فهمي في تباه:
- ده راجل يعجبك.. عيبه إنه دوغرى.
ولم يكن توفيق يرمي من وراء كل ذلك أن يطلب من فهمي أن يتوسط له لدى زوج أخته.. ليحميه.. أو ليمنحه علاوة.. لا.. إنه أذكى من ذلك.. كل ما كان يرمي إليه هو إيجاد صلة شخصية بينه وبين العضو المنتدب حتى يسهل التفاهم بينهما.
وبعد أن مرت الأسابيع الثلاثة، قرر توفيق أنه يجب أن يطلب مقابلة العضو المنتدب.
وحدد له السكرتير موعد المقابلة.. ودخل توفيق إلى المهندس محمود فكرى وهو يحمل تحت إبطه دوسيها منتفخا بالأوراق.. وقام العضو المنتدب يصافحه بيد باردة، ووجه متجهم.. ثم جلس

وأخذ يقلب أوراقا أمامه وقال فى صوت جاف:

- يظهر إنك موظف نشيط.. شايف إنك أخدت علاوتين فى سنة واحدة.

وقال توفيق فى هدوء:

ـ فعلا ..

ورفع المهندس محمود فكرى عينين ثاقبتين إليه، ثم قال وهو يعود وينظر إلى الأوراق التى أمامه:

- بقية زملاءك ما أخدوش نفس العلاوات..

وقال توفيق فى هدوء أكثر:

- ده صحيح..

وعاد محمود فكرى ينظر إلى توفيق بعينيه الثاقبتين، وقال:

- يظهر إنك كنت موضع ثقة عبد الكريم بيه صاحب الشركة.

وقال توفيق بجرأة:

- كنت استحق ثقته..

وعلت الدهشة وجه العضو المنتدب وقال مبتسما:

- ليه ؟

وقال توفيق وهو يرخى عينيه فى تواضع:

- لأن المشروعات اللى قدمتها، اتنفذت كلها وحققت أرباحا للشركة.

وقال العضو المنتدب:

- كدة .. إنت يظهر واثق من نفسك قوى..

وقال توفيق:

ـ أبدا.. وأنا طلبت مقابلة سيادتك علشان أعرض مشروع أنا مش واثق فيه كل الثقة.. مشروع رفض عبدالكريم بيه إنه ينفذه.. ورغم كدة مش قادر أشيله من دماغى.

وظهر الاهتمام على وجه العضو المنتدب، ومد عنقه إلى الأمام كأنه يريد أن يضع رأسه بين أوراق الدوسيه الذى يحمله توفيق، وقال فى لهفة:

- مشروع إيه؟
وقال توفيق فى هدوء:
- مشروع بناء شقق وتمليكها للسكان..
واستراح العضو المنتدب فى مقعده وقال فى وقار:
- الفكرة معروفة.. بس التفاصيل.
وبدأ توفيق يفتح الدوسيه الذى يحمله وقال فى حماس مفتعل:
- التفاصيل كلها موجودة.. والفكرة إن شركتنا لازم يكون لها دور فى بناء المجتمع الاشتراكي.. دلوقت مابقاش فيه شغل كتير مع الأفراد.. ومش كفاية إن الشركة تعتمد على أعمالها مع الحكومة.. والطريق المفتوح قدامنا هو طريق الجمعيات التعاونية.. والهيئات.. لكن الجمعيات والهيئات ماعندهاش فلوس تمول بيها المشاريع الكبيرة.. زى مشروع بناء عمارات وتمليكها للسكان.. وما عندهاش ناس تفهم فى إدارة المشروعات دى.. لكن الشركة بتاعتنا تقدر تعمل كل ده.. تقدر تنفذ المشروعات الكبيرة لحساب الجمعيات.. نقابة الأطباء مثلا.. تقدر تاخد أرض من الحكومة أرض برخص التراب وتدفع ثمنها بالتقسيط.. واحنا نقوم ببناء العمارات، على حسابنا ونحصل التمن من السكان عن طريق هيئة النقابة.. والبنوك مستعدة تمول المشروع ده.. والنقابة قبلت فعلا المشروع.
وقال العضو المنتدب وهو مبهور بحماس توفيق:
- إنت متأكد إن البنك مستعد يمول المشروع؟
وقال توفيق فى ثقة:
- أنا عرضت المشروع فعلا على مدير بنك إسكندرية ووافق عليه مبدئيا.
وقال محمود فكرى:
- والجمعيات التعاونية.. ممكن تدخل فى مشروع زى ده؟
وقال توفيق بسرعة:
- طبعا .. أنا اتصلت بنقيب الأطباء، وعرضت عليه إنه يأسس جمعية تعاونية من أعضاء النقابة تقوم معانا بالمشروع .. ووافق.

وأشـرق وجه المـهندس مـحمـود فكرى، وقـال وهو ينظر إلى توفيق فى إعجاب:

– إنت يظهر عليك شاطر صحيح..

وأرخى توفيق عينيه تواضعا..

وأمال العضو المنتدب، ظهره على مسند مقعده.. وسرحت عيناه وهو يتخيل صورته منشورة فى جريدة الأهرام تحت عنوان ضخم: «شركة الإنشاءات المعمارية تساهم فى بناء المجتمع الاشتراكى ـ المهندس محمود فكرى يضع أسس المدينة الاشتراكية».

ومسح محمود فكرى شفتيه بلسانه كأنه يتذوق طعم المجد.. ثم قال:

– الواقع أنا فكرت فى المشروع ده كتيـر.. ودرسته من الناحية الاقتصادية.. واعـتقد إني حاألف لجنة لمراجعتـه واستكماله.. سيب لى الدوسـيـه ده أقـراه، يمكن أسـتعـين بيـه فى المـشـروع اللى حاعرضه على اللجنة بعد تكوينها.

وابتسم توفيق ابتسامة تقطر ذكـاء، يعلن بها إنه فهم ما يقصده السـيد العـضو المنتـدب.. يفهم إن شـرط تنفيـذ المشـروع هو أن ينسب إلى العضو المنتدب.. ثم قام من على مـقعده بسرعة ووضع الدوسيه أمام العضو المنتدب، وقـال والابتسامة تملأ وجهه وترفع شاربه الصغير وتلصقه بأنفه:

– اتفضل يا أفندم .. أنا واثق أن الشـركة تقدر تعمل كتـير للبلد بفضل سيادتك.

وهز العضو المنتدب رأسه فى وقـار، وفتح الدوسيه وبدأ يقلب فى أوراقـه، ثم فجـأة رفع رأسه ونـظر إلى توفيق فى شك، وقـال وهو يعود ويتكىء على حافة مكتبه:

– إنما قـوللي.. عبدالكريم بيـه صاحب الشركـة السابق.. رفض المشروع ده ليه؟

وقال توفيق وكانه أعد الإجابة من زمان:

– لأنه مـا بيحـققش ربح كـفاية.. الشـركة زمـان.. أقصد قـبل

التأميم.. كانت بتشترط إن الربح مايقلش عن أربعين فى الماية.. وده كتير.. كتير قوى.. هى اتأممت من شوية..

وامتعض المهندس محمود فكرى، وتهدل وجهه كأنه صدم بخيبة كبيرة، ثم قال فى صوت يائس:

- الاشتراكية مش معناها إننا مانحققش ربح.. بالعكس لازم نحقق ربح أكبر من اللى كانت الإدارة القديمة بتحققه.. وأنا مصمم إن الميزانية الجديدة تكون أكبر من ميزانية السنة اللى فاتت مرتين.

وتلعثم توفيق.. إنه لم يعتقد أن الاشتراكية تسعى إلى تحقيق الأرباح.. وهو لا يعارض فى أن تحقق الإدارة الاشتراكية ما تشاء من الأرباح.. ولكنه فقط لم يعد نفسه لهذه الإجابة.. وارتج لسانه، وقال وعقله يدور بسرعة مليون لفة فى الساعة:

- لكن يا أفندم .. أصل .. و..

وقاطعه العضو المنتدب قائلا:

- كل الفرق إن الأرباح كانت بتروح فى الأول لجيوب أصحاب الشركات.. النهاردة بتروح للشعب.. للبلد..

وقال توفيق وقد استقر ذكاؤه فى عينيه:

- على كل حال الربح موجود يا أفندم.. المشروع ده ممكن يحقق الربح اللى تحدده الشركة.. يعنى نحسب المصاريف وفوائد البنك، وبعد كدة نحط نسبة الربح اللى سيادتك تقدرها.

وتنحنح توفيق واستطرد وهو ينظر فى وجه العضو المنتدب كأنه يختبره:

- ودايما بعد اتمام العملية بيتضح إن صافى الربح أكبر من الربح المقدر.

ولم يحاول المهندس محمود فكرى أن يفهم ما يقصده توفيق.. ولم يحاول أن يحسب الفرق بين صافى الربح والربح المقدر.. ولكنه عاد يقول فى عناد:

- أمال صاحب الشركة السابق رفض المشروع ليه.. ده اللى عاوز أفهمه..

وقال توفيق بسرعة:

– لأنه ماكنش مؤمن بالتعاون.. وما كانش بيثق فى التعامل مع الجمعيات التعاونية.. ولأنه فى السنين الأخيرة ماكانش بيدخل إلا فى العمليات السريعة اللى بتحقق ربح كبير..كان بيرفض المشروعات الطويلة الأجل.. لأنه كان خايف من التأميم.. كان عايز يلم فلوسه أول بأول.

واستراح وجه المهندس محمود فكرى، وعادت إليه ابتسامته، وقال فى وقار:

– معقول .. معقول.. الجماعة دول ما كانش وراهم هم إلا تهريب فلوسهم.. إحنا لسة بندور ورا الراجل ده مش عارفين ودا فلوسه فين.

وقال توفيق:

– يا أفندم المشروع ده حايحقق خير كبير للبلد وللشركة .. ومش ممكن حد ينفذه إلا سيادتك.. سمعتك الهندسية، وسمعتك الإدارية كفيلة بنجاحك، طبعا لو سيادتك اقتنعت بيه..

وقال المهندس محمود فكرى وهو يميل بظهره على مسند مقعده:

ـ أنا مقتنع بيه من ناحية المبدأ.. وزى ما قلت لك أنا فكرت فيه كتير.. من زمان.

وقال توفيق وهو يحنى رأسه وابتسامته تطل من تحت شاربه الصغير:

– طبعا يا أفندم .. طبعا..

وسرح المهندس محمود فكرى بعينيه، وعاد يرى صورته منشورة فى جريدة الأهرام تحت عنوان كبير «شركة الإنشاءات المعمارية تساهم فى بناء المجتمع الاشتراكى ـ المهندس محمود فكرى يضع أسس المدينة الاشتراكية».

وعاد توفيق يقول بصوته اللزج:

– أستأذن أنا يا أفندم..

وقال المـهندس محمـود فكرى وهو يقوم ويصـافح توفيق فى حرارة:

– طيب اتفضل إنت يا توفيق.. وأنا حابعت لك أول ما انتهى من دراسة المشروع. وإذا تألفت لجنة حاخدك فيها.

وقال توفيق وهو يصافح العضو المنتدب وقلبه يقفز من الفرح:

– المهم رأى سيادتك..

ثم استدار ليـخرج من الباب.. وقبل أن يخـرج، قال له المهندس محمود فكرى وهو ينظر إليه فى إعجاب:

– إنت تعرف فهمى جوهر؟

وقال توفيق وابتسامته تسيل على وجهه:

– ده صـديقى جـدا يا افندم.. من حـتـة واحدة، ومن مـدرسـة واحدة.. كان لسة معايا أول امبارح.

وقال المهندس محمود فكرى وابتسامته تكبر عن الأول:

– ده يبـقى أخـو مراتـي.. طبعـا عـارف.. وأنا باأقـول لك لأنه امبارح كـان عندنا فى البيت، وجاب سيـرتك.. واللى خلانى قدرتك إنك ماطلبتش منه إنه يعرفك بى.

وقال توفيق:

– يا أفندم إحنا كلنا نعرف سيادتك.. ما اعتقدش إن فيه مهندس محتاج لتوصية عند سيادتك.

وهز محمود فكرى رأسه كـأنه يوافق على كلامه، ثم عاد يجلس على مقعده.

وخرج توفيق وهو يكاد يقفز فى مشيته من الفرح:

لقد نجحت خطته

كل خطوة أدت به إلى الهدف الذى حدده لها..

والمشروع الذى قدمه العضو المنتـدب سينفذ.. وسيعين عضوا فى اللجنة التى تقـره.. وهو مشـروع ناجح فعـلا.. وكل تفاصـيله درسـهـا توفـيق دراسـة كـاملة.. كل مـاأغـفـله توفـيق هو أن هذا المشروع ليس مشـروعه.. ليس هو الذى فكر فيه.. وليس هو الذى

أعد بياناتـه.. إنما هو مشروع عبـدالكريم بيه صاحب الشـركة قبل التأميم.. هو الذى فكر فيه.. وهـو الذى أعد بياناته.. وأشرك توفيق معه ليســاعده فيه، وأوصاه بأن يحتفظ بـه سرا إلى حين البدء فى تنفـيـذه، حتى لا تستـولى عليـه شـركة أخـرى.. وهو.. صـاحب الشـركة.. الذى أرسـل توفيق إلى بنـك الإسكندرية ليـفاوضـه فى تمويل المشروع.. وهو الذى أرسله إلى نقابة الأطباء.

ولم يكن صاحب الشـركة قبل التـأميم قد وضع هذا المـشروع إيمانا منه بالاشـتراكية.. لقد وضـعه كنوع من التفكيـر الانتهازى، واستغلالا للمبادىء الجديدة فى الحصول على أرباح أكثر.

وقد احتفظ توفيق بأوراق هذا المشـروع سرا، وصبر عليها بعد التـأميم، إلى أن وجـد الفـرصة لعـرضهـا على العـضو المنتـدب.. لحسابه.

إن المشروع الذى كان يستطيع صـاحب الشركة أن ينفذه كنوع من الانتهازية، يستطيع العضو المنتـدب بعد التأميم أن ينفذه كدليل على الإيمـان بالاشتـراكـية.. إن المـشـاريع دائما واحـدة.. والذى يختلف، هو الدافع إلى تنفيذها.. البعض ينفذها ليجنى ربحا خاصا.. والبعض ينفذها ليحقق ربحا عاما.

وإذا كـان المشـروع قـد نفذ فى أيام الانتـهـازية، كان توفـيق سيستفيد منه.

وإذا كان سينفذ فى أيام الإيمـان الاشتراكى، فتوفيق سيسـتفيد أيضـا.

والمشروع فى كلتا الحالتين مشروع نافع.

كل مـا هنالك أن توفـيق إنســان ذكي.. يسـتطيع أن يسـتخـدم ذكاءه فى الاستفادة من المشاريع الناجحة.

وجلس توفيق إلى مكتبه وهويهنىء نفسه على ذكائه.

وفجـأة دق جرس الـتليفـون بجانبـه.. وسمع عـامل التليفـون بالشركة يقول له:

– عبد الكريم بيه طالب سيادتك..

واصفر وجه توفيق، وصاح فى عامل التليفون:
- وقلت له إنى موجود؟
وقال عامل التليفون:
- أيوه .. هو سأل عن سيادتك قبل كدة، قلت له إنك فى مكتب العضو المنتدب.
ودار عقل توفيق بسرعة مليون لفة فى الساعة.. ولم يكن يفكر فى عبدالكريم بيه صاحب الشركة السابق، ولكنه كان يفكر فى عامل التليفون.. إنه يعلم أن عامل التليفون يتسمع على جميع مكالمات الشركة.. ويشاع عنه أنه يكتب تقارير بما يسمعه ويقدمها للمخابرات.. وربما كان يقدم نسخة منها للعضو المنتدب.. فماذا يفعل؟ هل يطلب من عامل التليفون أن يقول لعبدالكريم بيه إنه غير موجود؟ ولكنه قد يثير بذلك ريبة عامل التليفون أكثر، وقد يعتقد أنه على صلة بعبدالكريم بيه خارج الشركة.
وبسرعة قال لعامل التليفون:
- خليه يكلمنى..
وحول عامل التليفون المكالمة إليه، ولم يسمع توفيق صوت إغلاق الخط بين العامل وبين المكالمة الخارجية، فتأكد أنه يتسمع على المكالمة..وقال فى برود وهو يتلقى صوت عبدالكريم بيه:
- أيوه يا أفندم..
وقال عبدالكريم بيه فى صوت متهالك:
- توفيق .. إزيك..
وقال توفيق وهو أشد برودا:
- كويس..
وقال عبدالكريم بيه وصوته أكثر تهالكا:
- وإزى حال الشركة؟
وقال توفيق:
- كويسة ، الحمد لله.
ثم اكتشف أن هذه العبارة لا تكفى، فاستطرد كأنه يتعمد إسماع

عامل التليفون:

– الشركة فى تقدم.. كل حاجة دلوقتى ماشية عدل..

وسكت عبد الكريم بيه برهة،كأنه يبتلع الإهانة، ثم قال فى صوت مسكين:

– أنا والله عايز منك خدمة يا توفيق.. إنت عارف إن عربيتى كنت كاتبها باسم الشركة.. إنما فى الواقع هى كانت عربية خصوصية.. وكانت مراتى وولادى بيستعملوها.. وماكتبتهاش باسم الشركة إلا علشان خاطر تدخل فى الحسابات، زى ما كل الشركات كانت بتعمل.. المهم إنها دخلت فى التأميم.. وأنا محتاج لها، على الأقل لغاية ما أنظم حالتى وأقدر اشترى عربية جديدة.. وعايزك تكلم فكرى بيه العضو المنتدب.. يمكن يوافق إنه يبعت العربية لمدة تلات أو أربع أسابيع.. أنا الحقيقة فكرت إنى أكلمه بنفسى.. إنما لقيتها تقيلة شوية.. ممكن تكلمه إنت.. و..

وقاطعه توفيق بصوت كالسكين البارد:

– والله ده مش من اختصاصى..

وسكت عبد الكريم بيه برهة كأنه يبتلع الإهانة الثانية، ثم قال فى صوت يبدو فيه المعاناة الشديدة لضبط أعصابه:

– المسألة مش عايزة اختصاص يا توفيق يا بنى.. دى مسألة إنسانية.

وقال توفيق ووجهه متجهم:

ـ آسف .. ما أقدرش أتدخل فى مسائل زى دي.. الدنيا مابقتش فوضى زى زمان..

وقال عبد الكريم بيه فى استسلام متخاذل:

– طيب يا ابنى.. أنا آسف..

ووضع سماعة التليفون..

وقال توفيق وهو لا يزال ممسكا بسماعة التليفون حتى يسمعه عامل التليفون:

– إيه البلاوى دى..

ثم ألقى سماعة التليفون فى قوة وغيظ..

وبقى غيظه لحظات.. ثم انفرجت أسارير وجهه.. والتمعت فى عينيه فرحته بنفسه، وعاد يهنىء نفسه على ذكائه.

ولقد اعتمد طوال حياته على هذا الذكاء..

ذكاء مجرد.. لا يرتبط بمبدأ، ولا يرتبط بعاطفة.. لا يرتبط بشىء.. ذكاء ليس له حدود إلا مصلحته الشخصية.. وأهم ميزة هذا الذكاء إنه يستطيع دائما أن يحدد ما يريد، ثم يرسم الخطة للوصول إلى ما يريد.. ولم يكن ذكاء توفيق يدفعه إلى الآمال الكبيرة مرة واحدة.. لم يكن يضيع وقته فى أحلام بعيدة.. كان يحصر ذكاءه دائما فى الخطوة التالية.. فإذا ما انتهى منها عاش ذكاؤه يتلفت حوله باحثا عن فرصة أخرى ينتهزها ليخطو خطوة أخرى.. وهو دائما يستطيع أن يتجه بخطواته فى أى اتجاه.. ويغير كل شىء فيه مع تغيير اتجاه خطواته.. يغير مبادئه.. ويغير أصدقاءه.. ويغير عواطفه.

ولم يكن لتوفيق عواطف..

لم يكن يحس بشىء اسمه الحب..

الحب فى نظره تعبير معناه، الحاجة إلى امرأة.. أى امرأة.. تعبير مهذب.. وهوعادة لا يستعمل التعابير المهذبة..

وكان يدهش فعلا عندما يرى صديقه حلمى يتعذب لأنه يحب تحية.. لماذا يتعذب؟ ولماذا يقبل العذاب على نفسه؟ وإذا كانت تحية تعذبه.. فهناك ألف امرأة أخرى غير تحية يستطيع أن يذهب إليهن.. وكان كل ما يتصوره عن أسباب تعلق حلمى بتحية، إنها امرأة سهلة.. مطلقة.. لا تكلفه شيئا.. ثم عندما آمن بعذاب حلمى، اعتقد بأن كل ما فى الأمر إنه إنسان طيب.. أو على الأصح، مغفل، وأن تحية ضحكت عليه.

وتوفيق كان يجد دائما امرأة، عندما يريد امرأة.. وقد بدأ يعانى حاجته إلى المرأة منذ تفتح شبابه.. وعلم أن فريقا من أصدقائه يذهبون إلى نساء محترفات.. ولكن هذا النوع من النساء يكلف

غـاليا.. يكلف عـشرين قـرشـا.. وهو لا يملك عشـرين قرشـا.. إن مصـروفه لا يتجـاوز العشرة قـروش فى الأسبـوع.. وتلفت حوله يبحث بذكائه عن امرأة.. فوجد بهية.. خادمتهم.. إنها قبيحة.. عامود من العظام.. ولكنها امرأة.. وبدأ يـطاردها بذكائه.. ودله ذكاؤه على أن يضـربها.. وضـربها بعـد أن اختـلق سببـا لضـربها.. ثم أخـذ يضربها كل يوم.. وأمه تبتسم وتقول فى تراخ:

- كفاية يا توفيق.. حرام عليك..

وبهية أصبـحت تراه فيركبها الرعب.. تخـاف من صفعاته.. إلى أن كان يـوم خلا البيـت إلا منهمـا.. خرج أبوه وأمـه ومعهـم أخوه الصغير.. وجلس على حافة فراشه، وصرخ بأعلى صوته:

- يابت يا بهية .. تعالى هنا..

ووقفت بهية ملتصقة بباب الغرفة وقالت وهى ترتعش:

- نعم يا سيدى..

وقال توفيق بلهجة آمرة:

- قربى هنا.. ما تخافيش مش حاضربك..

واهتزت بهية دون أن تتحرك من مكانها..

وصرخ توفيق بأعلى صوته:

- باأقولك قربى هنا..

وخطت بهـية خطوة واحـدة.. ومد توفيـق يده وجذبها إلـيه فى عنف.. وهو يصرخ:

- قربى.. جاتك البلا..

ثم طرحها على الفراش.. ورفع الثوب عن ساقيها..

وحاولت بهية أن تقاوم.. فرفع يده كأنه يهم بأن يصفعها..

وأغمضت بهية عينيها.

واستسلمت..

وهنأ توفيق نفـسه على ذكائه.. لقد أصـبحت له امرأة.. دون أن يدفع قرشا واحدا.

وذهب إلى المدرسـة فى اليوم التالى وهو يتعـالى على زملائه،

بينه وبين نفسه. ويعتبرهم جميعا مغفلين.. ولكنه كان أذكى من أن يطلعهم على سره.. حتى صديقيه محمد وحلمى، لم يطلعهما على السر.

وقد خرجت بهية من خدمة العائلة، وجاءت خادمة ثانية، ثم خرجت الثانية وجاءت الثالثة. .واستطاع توفيق أن يأخذ من كل منهن ما يريد.. ما يحتاج إليه شبابه.. أصبح متخصصا فى اجتذاب الخادمات.

ولم يكن مفرطا متهالكا.. إنما كان يأخذ فقط ما يشعر بأنه فى حاجة إليه.

ولم يكن يستنكف ما يفعله.. لم يكن يحس بالتأفف من الخادمات.. إن ما يأخذه منهن هو نفس ما يريده من أى امرأة أخرى مهما علا مركزها.

ودائما يشعر بأن زملاءه الآخرين مغفلون.

خصوصا زملاءه الذين يشتغلون بالسياسة.. فلم يكن يعقل أبدا فكرة اشتراكه فى مظاهرة، ليضرب البوليس، ويضربه البوليس.. لماذا.. ليه؟ من أجل النحاس باشا.. من أجل الدستور.. إنه لا يستفيد شيئا من النحاس باشا.. ولا من الدستور.. وهو يريد أن يستفيد.. إن كل خطوة فى الحياة.. كل حركة.. لا تعنى شيئا إلا أن يستفيد منها صاحبها.. أن يكسب شيئا.. الحياة كلها معركة فى سبيل المكسب.. ملايين الناس يتحركون لأن كلا منهم يريد شيئا يكسبه.. يكسبه لنفسه لا لغيره.. وهو لن يكسب شيئا إذا اشترك فى مظاهرة.. وأجدى عليه أن ينتهز فرصة خروج زملائه فى المظاهرة ليستفيد من مدرسيه.. فيذهب إليهم ويسألهم فيما يصعب عليه من دروسه.. ويتعمد أن يراه ناظر المدرسة حتى يعلم أنه طالب مستقيم، لا يشاغب، ولا يشتغل بالسياسة.

ولكنه لم يكن يعادى الطلبة الذين يشتغلون بالسياسة.. بالعكس كان يتعمد مصاحبتهم، وكان طريقه إليهم هو صداقته لحلمى، الثائر دائما، المتحمس دائما.. ولم يكن مخلصا فى صداقته للطلبة

المشتغلين بالسياسة كان فى قرارة نفسه يحتقرهم.. ولكنه كان مخلصا فى صداقته لحلمى.. كما كان مخلصا فى صداقته لمحمد.. الصديقان اللذان نشآ معه، وصحبهما طوال عمره.. ربما لأن صداقته بهما لم تكلفه أبدا شيئا.. ولم يصطدم بهما أبدا فى سبيل كسب يريده.. ولأن اختلافه عنهما كان يشعره بشخصيته أكثر.. وكان فى أحيان كثيرة يشعر بنفسه كأنه مسئول عنهما.. عن جنونهما.. جنون حلمى فى اشتغاله بالمسائل الوطنية.. وجنون محمد فى حياته الخيالية.. وكان كلاهما يحتمل إحساسه بمسئولياته عنهما.. رغم أنهما لا يعتمدان عليه.. وكلاهما يحتمل تباهيه بالمكاسب الصغيرة التى يحصل عليها من مدرسيه فى المدرسة، أو خارج المدرسة.

وربما ورث توفيق هذه الفلسفة في الحياة ـ فلسفة المكسب ـ عن والده.. كان والده تاجرا في شارع الموسكي يمتلك دكاكين لبيع الأقمشة.. وقد مرت عليه سنوات كسب فيها كثيرا. وسنوات كسدت فيها تجارته.. وكان توفيق يرى أرقام المكسب والخسارة على وجه أبيه بمجرد دخوله البيت.. كان وجه أبيه دفترا تجاريا مفتوحا، يقرأ فيه أرقاما كل يوم.. فإذا تحدث الدفتر.. لا يتحدث إلا عن الأرقام.. عن المكسب والخسارة.. وكان يتابع أباه فى تهالكه على التقرب من الناس.. ليس كل الناس.. بل الناس الذين يملكون قوة الشراء.. وكانت علاقة العائلة كلها بأهل الحي، هى علاقة تاجر بزبائنه.. حتى أمه كانت لا تتودد إلى سيدة من سيدات الحى، إلا لأنها زبونة.. ووالده يعود كل يوم محملا بقطع القماش التى طلبها سكان الحي.. ويدور توفيق على البيوت يوزع قطع القماش على أصحابها.. وهو يبتسم.. نفس الابتسامة التى علمها له أبوه.. أو اقتبسها من أبيه.. ويعود بالنقود، ويعطيها لأبيه.. فيأخذها وهو يتأفف، صارخا:

– بعد النهاردة اللى عايز يشترى، يبقى ييجى الدكان.. أنا مش تاجر بِخُرْج!

ولكنه يراه فى الصباح يحتضن جاره الذى باع له.. ويراه فى المساء يعود دائما فى سيارة أجرة حاملا ما يطلبه زبائن الحى.

وقد كان مفروضا أن يرث توفيق مهنة أبيه.. المهنة التى تعتمد على المبدأ الوحيد الذى يؤمن به.. المكسب.. وقضى من عمره سنوات وهو يعد نفسه فعلا لدخول كلية التجارة.. بل إنه فكر ألا يدخل الجامعة إطلاقا، ويشترك مع أبيه فى تجارته بمجرد أن ينتهى من دراسته الثانوية.. إنه يستطيع بذلك أن يوفر خمس سنوات من عمره يستغلها فى المكسب بدل أن يضيعها فى العلم.. ولكن أباه أصر.. وأصر أكثر على أن يلتحق بكلية الهندسة.. كان أبوه يريد أن يتخلص من عقدة تعذبه..عقدة كل تاجر.. إنه تاجر.. والناس زبائن.. إنه ينحنى، وهم يتكبرون.. إن يده هى السفلى.. هى التى تأخذ.. ويدهم هى العليا، هى التى تعطى.. وهو يريد أن يرى ابنه زبونا، يريد أن يراه يدخل دكاكين الناس متكبرا متغطرسا.. يريد أن يرى يده هى العليا.. هى التى تعطى.. يريد أن يرى فيه كل ما كان يحبه لنفسه.

ودخل توفيق كلية الهندسة..

أبوه أصر على أن يلحقه بكلية الهندسة.. إنه ليس أقل من صديقيه حلمى ومحمد.. رغم أن أباه تاجر، وأبا حلمى وأبا محمد.. من طبقة الزبائن.

وقضى توفيق أيامه فى كلية الهندسة كما قضاها فى المدرسة الثانوية.. نفس مبادئه.. وهذه المبادىء تتسع كل يوم، وتفسح أمامه مجالات أوسع للحياة.. ويزداد قدرة على وضع خططه على ضوئها.. ويزداد قدرة على فلسفة هذه المبادىء بحيث يستطيع أن يجد لها منطقا يقنع به نفسه.

لقد ثارت أيامها معركة القنال الأولى.. انطلق الشباب وحده، يريد أن يلقى بالإنجليز فى البحر.. بلا سلاح سوى حماسه.. بلا خطة سوى اندفاع عاطفته.. ووقف توفيق ينظر إلى كل هذا الذى يحدث فى امتعاض.. فى قرف.. هؤلاء الأغبياء.. لماذا يريدون طرد

الإنجليز؟ إنهم يصرفون في مصر عشرة ملايين جنيه كل سنة.. عشرة ملايين جنيه تذهب إلى العمال الذين يشتغلون في المعسكرات.. وإلى التجار الذين يوردون لهم الأطعمة.. وإلى الفلاحين الذين يزرعون هذه الأطعمة.. عشرة ملايين جنيه تذهب إلى جيوب المصريين.. فلماذا يريدون طردهم.. لماذا يرفضون كل هذه الملايين من الجنيهات.. ثم كيف يستطيعون طردهم، وهم بغير سلاح؟

واستراح توفيق إلى هذا المنطق.. وترك صديقه حلمي ينضم إلى كتائب الفدائيين وحده.. ويتهمه بالغباء.

وقامت ثورة ٢٣ يوليو.. وتلقاها توفيق بفلسفته.. فلسفة المكسب.. لم يحاول أن يسأل نفسه عن مبادىء الثورة، ولا عن أهدافها.. إنما بدأ يبحث لنفسه عن مكان فيها.. أو مكان بالقرب منها.. واكتشف أن اثنين من قادة الثورة، يسكنان حي العباسية.. وبدأ يحصي الضباط الذين يعرفهم من أهالي الحي.. وبدأ هو وأبوه يتقربان إلى كل ضابط يسكن بجانبهم.. وأمه تزور عائلات الضباط.. ثم اكتشف أن اليوزباشي عادل فوزي هو ابن خالة الأستاذ شكري عبدالرحيم الذي تزوج مرفت ابنة عم والدته.. أي أن بينه وبين الثورة نسب.

وقد ورث توفيق عن والده موهبة تتبع أنساب العائلات.. إن عقله يحمل خطوطا عجيبة تجمع بين عائلات العباسية.. وكل خط فيها يقوده إلى الشخص الذي يريد التقرب إليه.. إنه - كأبيه - يستغل موهبة تتبع الأنساب في تسهيل أعماله.. في المكسب.

ولذلك فرح توفيق عندما اكتشف أن بينه وبين أحد الضباط نسب.. وكل ضابط في نظره يمثل الحكم.. يمثل النفوذ الجديد.. وفرح أكثر عندما وجد أن كثيرا من الضباط يسكنون حي العباسية، وبعضهم من زبائن والده.. إن حكام العهد السابق لم يكن منهم من يقيم في العباسية، ولم يكن منهم زبائن لوالده، ولم يكن بينه وبين واحد منهم نسب.

واستراح توفيق للثورة..

وأعد نفسه للحياة فى ظلها.. والكسب منها..

حادث واحد كان جديدا فى حياة توفيق، حدث له وهو فى كلية الهندسة.

لقد أحب..

أحب بطريقته الخاصة..

أحب فوزية الطالبة بكلية الحقوق.. رآها وهى خارجة من الكلية.. ونظر إلى ساقيها الملفوفتين.. وإلى جسدها المحشور فى الثوب الضيق.. وإلى شفتيها المكتنزتين.. وسار وراءها.. ووقف بجانبها على محطة الترام.. ثم أصبح ينتظرها كل يوم، ويسير وراءها ويقف بجانبها على محطة الترام.. وابتسمت.. ابتسمت بعد أيام طويلة شقيت فيها عيناه من حدة ما فيهما من لهفة.. وقال يرد على ابتسامتها:

- أظن لو ركبنا من الميدان يبقى أحسن.. نقدر نلاقى مطارح.

وسارت إلى ميدان الجيزة دون أن ترد عليه.. وسار بجانبها يحادثها.. وردت بكلمة قصيرة.. ثم ردت حديثه كله..

وأصبحت تنتظره هى الأخرى..

ولكنها لا تعطيه شيئا.. إنها تذهب معه إلى حديقة الأورمان.. وإلى حديقة الحيوانات.. وإلى حديقة الأسماك.. وذهبت معه مرتين إلى السينما فى حفلة صباحية.

ولكنها لا تعطيه شيئا..

لقد سمحت له مرة بأن يقبلها فى حديقة الأسماك.

ولا شىء أكثر..

وحاول أن يقنعها أن تذهب معه إلى شقة أحد أصدقائه.. ليسمعا أسطوانات.. ولكنها رفضت.. وحاول أن يصطحبها إلى بيته ليعرفها بأخته.. وكان ينوى فعلا أن يأخذها إلى البيت، رغم أن ليس له أخت.. ولكنها رفضت.

وكلما رفضت، اشتدت حدة لهفته عليها.

إنه يريدها..
يريدها هى بالذات.
هل هذا هو الحب؟
لا يدرى.
ولكنه يريدها هى بالذات.. ليس كما يريد الخادمة التى فى بيتهم، وليس كما يريد أى امرأة أخرى.
هل يعرض عليها الزواج؟
وهل يستطيع الزواج وهو طالب؟
وهل تقبل أن تنتظره إلى أن يتخرج؟ وهل ترضى أن تعطيه ما يريد خلال فترة الانتظار؟
ولم يطل تفكير توفيق فى الزواج، فقد اختفت فوزية فجأة.. اختفت أياما طويلة.. ثم رآها تسير فى شارع الجامعة مع شاب.. عرف فيما بعد أنه زميل لها فى كلية الحقوق.. وكان شابا طويلا عريضا تضيق سترته فوق عضلات كتفيه وذراعيه.
ولم يستطع توفيق أن يفعل شيئا.. إنه يراها كل يوم مع هذا الشاب.. ولا يستطيع أن يفعل شيئا.. ويتعذب.. إنه يحس بأنه خسر صفقة.. ويحسب خسارته بالمليم.. الأيام التى دفع فيها ثمن تذاكر السينما.. والمرات التى دفع فيها أجر سيارات الأجرة.. وزجاجات الكوكاكولا التى شرباها.. ويتعذب بإحساسه بالخسارة.. ويشتد عذابه عندما يحس بلهفته عليها.. باشتهائه لها.
وجرى وراءها يوما عندما رآها تسير وحدها، وما كاد يقترب منها، حتى صرخت:
– ابعد عنى من فضلك.. أنا ما اعرفكش..
ورأى الشرر فى عينيها.. إنها قادرة على أن تثير حوله فضيحة. وابتعد..
إن التاجر الناصح يترك الصفقة الخاسرة قبل أن تقضى عليه..
وترك الصفقة الخاسرة.. وقلبه مشروخ.. وقد زاد شرخ قلبه من حدة ذكائه. ومن حرصه على قياس كل خطوة من خطواته..

وعاش بعدها مكتفيا بالخادمات، وينظر إلى بنات الجامعة من بعيد.
إلى أن تخرج، واشتغل مهندسا فى شركة الإنشاءات المعمارية.. وفي العام الأول كلف بالإشراف على تنفيذ عملية فى دمنهور.. وعرض عليه أحد المقاولين من الباطن عشرة جنيهات نظير إغفاله مراقبة مواد البناء.. تماما كما حدث لزميله حلمى.. ولكنه كان أذكى من حلمى.. هذا المغفل.. إنه لم يرفض العشرة جنيهات بل أخذها.. ثم ذهب لمقابلة عبد الكريم بيه صاحب الشركة.. وكانت المرة الأولى التى يقابله فيها.. وقال له فى أدب وقور، وهو يضع العشرة جنيهات أمامه:

- الحاج عبدالرحمن مقاول البياض.. عرض علىّ المبلغ ده.. وماعرفتش أتصرف إزاى.. خفت أرفضه فيزعل خصوصا إنى أعرف إنه مقاول كويس، وقايم بالعملية كويس، وبيقف بنفسه على الرجالة بتاعته، وبيوفر على الشركة وقت طويل.. علشان كدة مارضيتش أزعله.. وقلت إن أحسن طريقة إنى آجى وأسلم المبلغ لسيادتك.

ونظر إليه عبد الكريم بعينين ضيقتين كأنه يبحث فيه عن حقيقته.. ثم انفرجت أساريره.. وأخذ يسأل توفيق عن تفاصيل العملية.. وأخبار زملائه المهندسين الذين يشتركون معه فيها.. وتوفيق يجيب إجابات محددة سليمة، كأنه يحفظ المشروع كله عن ظهر قلب.

وقبل أن تنتهى المقابلة، مد عبدالكريم بيه يده بالعشرة جنيهات، قائلا وهو يبتسم ابتسامة كبيرة:

- اعتبر دول مكافأة منى على مجهودك.

وأخذ توفيق العشرة جنيهات.

وكانت هذه هى بداية العلاقة الطويلة المتينة بينه وبين عبدالكريم بيه.. وقد دخل جيبه كثير من عشرات الجنيهات.. ولكنه لم يكن مسفا.. لم يكن يذل نفسه.. كان فقط يترك كل مقاول يفهم أنه يمكنه أن يعطيه عشرة جنيهات.. وكان حريصا دائما على أن

يطلع عبدالكريم بيه بكل عشرة جنيهات تصله.. ووثق به عبدالكريم بيه، إلى حد أن أصبح يكلفه بأن يتولى هو دفع العشرة جنيهات للموظفين الحكوميين الذين يسهلون للشركة أعمالها.

وتقدم توفيق فى عمله.. وسبق زملاءه فى مرتبه.

وبدأ يتعمد الظهور فى المجتمعات التى تضم أصحاب الشركات.. كان يذهب إلى سميراميس.. وإلى شبرد.. ويتردد على نادى الجزيرة دون أن يكون عضوا فيه.. واستطاع أن يصادق الكثيرين من أصحاب الشركات والمديرين، وأعضاء مجالس الإدارة.

ويتقدم فى عمله.

وصاحب الشركة يزداد ثقة به.

ودخله يرتفع.

ودعاه عبدالكريم بيه إلى بيته أكثر من مرة ليستكملا بحث مشاريع الشركة.. وهناك رأى ابنته مونى.. منيرة..

هل يتزوج مونى؟

إنه لم ينظر إلى ساقيها.. ولا إلى جسدها.. ولا إلى شفتيها. ولكنه نظر إلى أبيها.

وفكر طويلا فى أن يتقدم لخطبة مونى.

وقرر فعلا أن يخطو هذه الخطوة.. خطوة نحو الثروة.. نحو النفوذ.. نحو طبقة أرقى.

ولكن ..

الحمد لله..

لقد جاء التأميم قبل أن يتورط..

إنه رجل محظوظ..

●●●

وقام توفيق من على مكتبه وهو لا يزال يهنيء نفسه على ذكائه.. غارقا فى إحساسه بهذا الذكاء.. سعيدا به.. ثم ذهب إلى مكتب سكرتير العضو المنتدب، كعادته قبل أن يغادر الشركة..

وقـال وابتسـامـته الكبـيرة تـرفع شاربه وتلصـقـه بأنفه..وخـداه متوردان من فرط السعادة:

- مين عند البيه يا عبدالسلام؟

وتلفت عبد السلام حوله.. ونـظر إلى الباب الذى أمامه.. ثم مال على توفيق يهمس وعيناه متسعتان:

- الصاغ رفعت..

وبحركـة تلقائية تلفت توفـيق كما تلفت عبـد السلام.. وتلاشت ابتسامته في تعابير الاهتمام التى كست وجهه..وقال هامسا:

- مين الصاغ رفعت؟

وقال عـبد السلام ، فى صــوت خفيض وهو يقـرب شفتـيه من أذنى توفيق:

- مخابرات..

ونظر توفيق بسرعة ناحية بـاب العضو المنتدب.. كأن يدا قوية لوت عنقه.. وعيناه مبهورتان.. وقلبه يدق.

١١

ذهب توفيق إلى مقهى عرابى مبكرا، وجلس فى انتظار صديقيه محمد وحلمى.. وذكاؤه يلمع فى عينيه.. وانفعاله يصبغ وجنتيه.. وعقله يدور بسرعة مليون لفة فى الساعة، ويشغله عن ملاحقة جرسون المقهى بشتائمة، وعن تتبع الحياة التى تجرى أمامه فى الشارع.. عيناه لا تريان إلا ما فى داخل عقله.

وفى داخل عقله تنتصب صورة الصاغ رفعت، ضابط المخابرات.

لقد ظل فى الشركة منتظرا بجانب مكتب السكرتير حتى رأى الصاغ رفعت يخرج من غرفة العضو المنتدب.. وهب واقفا فى داخله شىء يرتعش، وعلى شفتيه ابتسامة بلهاء، ويده التى يصافح بها تتصبب عرقا كأن لعابها يسيل تلهفا على مصافحة ضابط المخابرات.. ولكن الصاغ رفعت لم يصافحه، إنما رفع أصبعيه إلى جانب رأسه يحييه ويحيى السكرتير من بعيد ثم خرج.. وتوفيق ينظر خلفه.. لقد كان يتصور ضباط المخابرات طوالا عراضا.. قساة الوجه، تحيط بهم ريح الشك والاتهام.. ولكن الصاغ رفعت ليس كذلك.. إنه شاب.. ربما فى الثامنة والعشرين أو فى الثلاثين.. أنيق.. مبتسم الوجه.. عيناه هادئتان.

ومن ساعتها وتوفيق يفكر فى الوصول إلى الصاغ رفعت.

إنه لو وصل إليه لاستطاع أن يستولى على الشركة كلها.

كيف يستطيع أن يصل إليه؟

كيف يستطيع أن يتصل بالمخابرات ويكون أحد رجالها؟

إنه يسمع أن عامل التليفون مخابرات.. ويسمع أن اثنين من زملائه في الشركة.. مخابرات.. ولكنه لم يكن أبدا متأكدا مما يسمعه فإنه هو نفسه أشيع عنه يوما ما أنه مخابرات.. وهو لم يكن أبدا مخابرات.. وكان قد اتخذ بينه وبين نفسه قرارا، حتى يرتاح من هذه الاشاعات.. وهو أن يعتبر كل زملائه في الشركة مخابرات.. ويتصرف معهم وأمامهم على أنهم مخابرات.. يحاسب على كل كلمة.. وعلى كل ما يبدو من تصرفاته.. وفي الوقت نفسه كان يترك كل زملائه يعتقدون أنه مخابرات، إذا أرادوا.. فهذا يمنحه أهمية وخطورة بينهم.. بل إنه كان يعتقد أن صاحب الشركة نفسه.. عبدالكريم بيه.. مخابرات.. وكان عبدالكريم بيه يقول له أحيانا «سيب الموضوع ده لغاية ما أتصل بالجماعة».. وكان يعتقد أن «الجماعة» هم المخابرات.. ولكن يظهر إنه كان مخطئا.. فلو أن عبدالكريم بيه، مخابرات، لما أممت الشركة.. أو ربما كان الاتصال بالمخابرات لا يكفي سببا للاعفاء من التأميم.

ولكن.. ورغم كل هذه الحيرة.. فلا شك أن هناك مخابرات.. ولا شك أن هناك أناسا، مخابرات.. فكيف يستطيع أن يكون واحدا من هؤلاء الناس.. كيف يستطيع أن يكون مخابرات.. إن الفرصة الوحيدة أمامه هي الوصول إلى الصاغ رفعت.

وعقله يدور بسرعة مليون لفة في الساعة.

وتوقف عقله عن الدوران عندما رأى حلمي مقبلا عليه، وابتسم في راحة، كأن رؤية حلمي قد أراحته فعلا.

وتقدم حلمي، وهو يبدو شاحبا.. عيناه مكدودتان.. ونظراته حزينة في استسلام.. وشفتاه منفرجتان انفراجة خفيفة كأنه لا يقوى على التقاط أنفاسه.. وجلس كأنه يلقي بنفسه على المقعد.. كأنه شاخ.. وقال وهو يبتسم لتوفيق ابتسامة مسكينة :

– أخبارك إيه يا توفيق ؟

وقال توفيق وهو ينظر إليه في شفقة :

- إنت مالك يا حلمى ؟
وهز حلمى كتفيه وقال وهو يفك أزرار سترته :
- قرفان.
وقال توفيق :
- قرفان من إيه ؟
وقال حلمى والمرارة تملأ شفتيه :
- من كل حاجة.. من الشركة.. من الناس.. من نفسى.
وقال توفيق :
- إنت اللى تاعب نفسك.. يا أخى شوف الدنيا ماشية إزاى، وامشى معاها.
وسكت برهة ثم استطرد قائلا فى حذر :
- إنت عامل إيه مع تحية ؟
والتفت حلمى إليه بغتة، وفى عينيه لمعة غريبة، وقال فى حدة :
- بلاش الموضوع ده.
وقال توفيق وهو يكاد يصرخ :
- بلاش إزاى.. وأنا شايف حالتك بالشكل ده.
وقال حلمى وهو أشد حدة وإصرارا :
- لو اتكلمت فى الموضوع ده، حاأقوم من هنا.
ونظر إليه توفيق مليا كأنه يقيس مدى اصراره، ثم قال وهو يدير له ظهره ويعقد ذراعيه فوق صدره :
- بلاش.. مش حاتكلم.. خليك قاعد.
وطال الصمت بينهما.. وحلمى جالس فى استسلام حزين، تائه فى أفكاره.. وتوفيق يزفر أنفاسه فى ضيق، ثم التفت إلى الجرسون بغتة، وقال كأنه يطلق ضيقه فى وجهه :
- فين القهوة يا مغفل ؟
ثم استدار فى جلسته وواجه حلمى وقال كأنه لم يعد يطيق السكوت:
- إنت مش قلت إنك عايز تتجوز ؟ ماتتجوزتش ليه ؟ وقال حلمى فى سخرية مرة :

- مستنى لما تجيب لى العروسة.
وقال توفيق بسرعة :
- عندى العروسة.
ونظر إليه حلمى فى دهشة وقال :
- مين ؟
وقال توفيق فى حماس كأنه يكشف له عن كنز :
- أخت فهمى جوهر.
فضحك حلمى ضحكة كبيرة.. وقال من خلال ضحكته :
- علشان أبقى عديل العضو المنتدب بتاعكم.. لا ياعم.. يفتح الله.
وقال توفيق وهو يضرب حافة المائدة بعصبية :
- مش مهم عندى إنك تبقى عديل العضو المنتدب.. وأحب أقول لك إن العضو المنتدب وافق النهاردة على المشروع اللى قدمته له.. وحطنى فى اللجنة اللى حاتدرسه.. ومش محتاج لواسطة له.. وإنت عارف إنى عمرى ما أحتاج لوسايط.
وقال حلمى وهو لايزال يضحك :
- أمال عايز تجوزنى أخت مراته ليه ؟
وقال توفيق بحماس :
- لأنها بنت كويسة.. ومن عيلة كويسة.. عمر ما حد سمع عنها حاجة.
وقال حلمى وهو ينظر إليه ساخرا :
- طيب ما تتجوزها إنت.
وقال توفيق وهو يرفع عينيه إلى السماء :
- ياريت.. أنا ما أقدرش.
وقال حلمى :
- ما تقدرشى ليه.
وقال توفيق وهو ينظر إلى حلمى كأنه يتهمه بالغباء :
- لأن العضو المنتدب لو بقى عديلى مش حاأقدر أشتغل معاه..

يخاف يتهم بأنه بيجاملني.. والقانون يمنعه من أنه يديني علاوة، لأني قريبه.. يعني لو اتجوزت يبقى لازم أستقيل.

وقال حلمي في برود :

- علشان كدة، لازم أتجوزها أنا.

وقال توفيق في عصبية :

- فكر في الموضوع.. أنا بابص لمصلحتك، مش لمصلحتي.

وقال حلمي :

- حاضر.. حاافكر.

وانحنى كل منهما يرشف من فنجان القهوة الذي أتى به الجرسون.. ومرت بينهما فترة صمت أخرى، قضاها كل منهما في دنياه.

ثم قال توفيق وقد عاد هدوؤه :

- محمد بيتأخر قوي اليومين دول.

وقال حلمي :

- محمد اتغير.. من يوم ما اتجوز سناء وهو بيتغير.. وبيشرب أكتر من عادته، متهيألي إنه مش سعيد زي زمان.

وقال توفيق :

- ودي كانت جوازة دي.

وقال حلمي وهو ينظر أمامه كأنه يحادث نفسه :

- العيب مش في الجوازة.. العيب في محمد.

وقال توفيق كأنه يتحمس لصديقه :

- عيبه إيه محمد ؟

وقال حلمي في ثقة :

- ما يقدرش يحمل مسئولية الجواز.

وقال توفيق :

- ما هي سناء كانت عارفاه كويس.. وعارفة إنه ما يقدرش يحمل مسئولية الجواز.

وقال حلمي :

– سناء حبت محمد، وكل واحدة بتحب من حقها تفكر فى الجواز.. وتتجوز.
وقال توفيق :
– تعرف إنى كنت باحسد محمد على عيشته.
وقال حلمى :
– وأنا كمان.
وقال توفيق :
– على كل حال ماتخافش على محمد.. حايفضل طول عمره ضاربها صرمة ومش همه حاجة.. ده ما بيفكرش حتى فى الأكل.
ثم هب واقفا واستطرد قائلا:
– أنا قايم بأه.
وقال حلمى :
– استنى.. زمان محمد جاى.
وقال توفيق :
– ما أقدرش.. عندى ميعاد.
وابتسم حلمى قائلا :
– أنا عارف مع مين.
وقال توفيق :
– أيوه يا سيدى.. مع فهمى جوهر.. أنا مش عارف إنت زعلان ليه من فهمى جوهر.. مش كان صاحبك زى ما هو صاحبى ؟
وقال حلمى :
– أنا مش زعلان منه ولا منك.. أنا بس باغيظك.
وقال توفيق :
– متشكر.. أحب أقول لك إنى اتغظت فعلا.. السلام عليكم.
وابتسم حلمى وهو يرقب توفيق يبتعد عنه.. ثم رشف آخر رشفة فى فنجان القهوة.. ومال بظهره على مسند مقعده.. وعادت عيناه ترتخيان.. وشفتاه تنفرجان كأنه لا يستطيع أن يلتقط أنفاسه.. وقفزت إلى رأسه صورة تحية.. بكل ملامحها.. جسدها

الملفوف كشجرة الموز.. وعيناها الدافئتان.. وابتسامتها التى تبدو كشىء يكاد يقع منها دون أن تدرى.. ترى ماذا تفعل تحية الآن؟ لعلها مع زوجها فى زيارة، تجمع بقية صديقاتها.. ولعلها تتبادل معهن هذا الحديث الصامت.. كل رمشة عين كلمة.. وكل ابتسامة معنى.. وكل لفتة خطة.. ولعلها جالسة بجانب شاب من الضيوف، كما كانت تجلس بجانبه.. ولعلها تحادثه عن سوء حظها لأنها تزوجت رجلا عجوزا، رغم أنفها.

وخياله يستطرد به، ويتصور تفاصيل تؤلمه.. تجرحه.. ويحس بالدم يسيل من قلبه داخل صدره.

ثم فجأة تداخلت فى خياله صورة مدير الشركة التى يعمل بها مع صورة تحية.. لقد أثار مناقشة حادة مع المدير أمس.. لم تكن مناقشة، ولكنها كانت خناقة.. فقد اكتشف أن العطاء الذى تقدمت به الشركة فى مناقصة مشروع بناء مصنع النسيج، يحمل أسعارا أقل من الأسعار الحقيقية.. وإذا رسا العطاء على الشركة فمعنى هذا إفلاس الشركة.. ولم يستطع السكوت.. أحس بأن واجبه يحتم عليه أن ينبه المدير إلى هذا الخطأ.. إذا كان مجرد خطأ.. ودخل إلى المدير وسرد عليه اكتشافه فى حماس.. حماس للشركة.. فإذا المدير ينظر إليه فى برود، ويقول :

– طيب.. سيب لى الموضوع ده.

وقال حلمى وهو لا يزال مستطردا فى حماس :

– دى الظروف حاتتفتح بكرة.

وقال المدير :

– عارف.. سيب لى الموضوع.

وقال حلمى :

– لو العطاء رسى علينا معنى كدة أن الشركة تفلس.. ده إحنا مقدمين أسعار أقل من التسعيرة.

وصرخ المدير :

- يا سيدى.. ده مش من اختصاصك.. إنت مالك ومال العطاءات.

وقال حلمى :

- كل واحد هنا مسئول عن مصلحة الشركة.. ومش علشان العطاء يرسى علينا، نقوم نودى الشركة فى داهية.

وعاد المدير يصرخ :

- إنت مش مسئول عن الشركة.. أنا المسئول.. وصاحب الشركة مسئول.. وإنت مش مسئول.

وقال حلمى وعيناه تبرقان فى تحد :

- مافيش إلا فرض واحد للعطاء ده.. وهو إن المسئولين فى الشركة ناويين يغشوا فى التنفيذ، علشان يعوضوا فرق السعر..

وصرخ المدير وهو يضرب بقبضته على المكتب :

- إنت بتتهم الشركة.. طيب اتفضل إعمل اللى إنت عايزه.. بس أنا كمان حا أعمل اللى أنا عايزه.

ووقف حلمى أمام المدير وهو يحس بأن النار تشتعل فى رأسه.. لقد فكر ساعتها فى أن يضرب المدير.. يخنقه.. وأحس بيديه تكادان تندفعان فعلا إلى وجهه، وأحس بأنه فى حاجة إلى مجهود كبير، ليضبط أعصابه.

وخرج.

وبعد لحظات انتشر خبر خناقته مع المدير بين زملائه.. والتفوا حوله يلومونه على تهوره.. فأخذ يشرح لهم قصة العطاء، واحتمالات إفلاس الشركة إذا حاولت أن تنفذ المشروع بأمانة، واحتمالات قيام الشركة بالغش فى التنفيذ إذا حاولت أن تحقق لنفسها مكسبا.. واقتنع زملاؤه بكل كلامه.. إنهم لم يخفوا اقتناعهم.. ولكن.. واحنا مالنا يا سيدى.. و.. ماتحمقش نفسك كدة..

ثم انفضوا من حوله دون أن يفعلوا شيئا، أو يتخذوا قرارا.

وقد رسا المشروع على الشركة عندما فتحت العطاءات هذا الصباح.. كان عطاء شركته أقل العطاءات.

وهو لا يدرى ماذا يفعل؟
لا يدرى ماذا يفعل فى حياته العامة؟
ولا يدرى ماذا يفعل فى حياته الخاصة؟
الحقيقة تائهة منه فى كل مكان.
أو هو أضعف من الحقيقة.
أضعف من أن يتغلب على الفساد فى شركته.
وأضعف من أن يتغلب على الفساد فى حياته الخاصة.. إنه ضعيف.. ضعيف.
وكلمة ضعيف تتردد فى صدره، ويحس بمرارتها فوق لسانه.. وحاجباه الكثيفان معقدان فوق عينيه الواسعتين.. ونظراته تائهة فى الفضاء.. ولم يتنبه إلى محمد عندما وصل إلى المقهى إلا عندما رآه جالسا بجانبه، ينظر إليه فى دهشة.
وقال محمد وصوته يضج برنين صوت الأطفال :
- مالك.
وابتسم حلمى ابتسامة صغيرة مسكينة، وقال :
- ماليش.. إنت اتأخرت ليه ؟
وقال محمد بلا مبالاه :
- أنا اتأخرت ؟
وقال حلمى :
- أيوه اتأخرت.. وبقالك كام يوم بتتأخر.. وأيام مابتجيش خالص.
وقال محمد ضاحكا :
- يبقى لازم اتأخرت.. ولازم ماجيتش.
وقال حلمى وهو ينظر فى وجه محمد، بعينين متسائلتين، كأنه يسأله كيف يستطيع أن يتغلب على مشاكله.. ثم قال :
- اسمع يا محمد.. تسمح لى أكلمك جد.
وقال محمد وهو يتنحنح متخذا هيئة الناس الجادين :
- طبعا.. إنت عارف إنى طول عمرى راجل جد، وباحب الجد.

وقال حلمى :

- إنت بتعمل إيه لما تزعل مع سناء.

وقال محمد فورا :

- أنا عمرى ما أزعل مع سناء.

وقال حلمى :

- طيب بتعمل إيه لما سناء بتزعل منك.

وقال محمد فى مرح وعيناه تضحكان :

- باجرى.

وقال حلمى فى دهشة :

- بتجرى إزاى.

وقال محمد :

- باجرى.. ماتعرفش الناس بتجرى إزاى.

وقال حلمى :

- وبعدين.

وقال محمد :

- ولا حاجة.. بعدين الزعل بيروح.. ونرجع أنا وسناء زى ما كنا.

وقال حلمى :

- وافرض مارجعتوش.

ونظر إليه محمد فى حيرة كأنه لم يخطر على باله هذا الفرض، ثم قال فى صوت الأطفال :

- ضرورى نرجع.

ثم ضحك واستطرد قائلا :

- أصل الأرض كروية، مهما جريت ترجع مطرح ما كنت.

ونظر إليه حلمى وهو لا يدرى هل يشفق عليه أم يحسده.. ثم قرر بينه وبين نفسه ألا يستمر فى مناقشة محمد، أو محاولة التحدث إليه فى مشاكله.. حرام أن يزعجه فى دنياه.. حرام أن ينبهه إلى عذابه.. إنه يعرف أن شيئا جديدا يقلق محمد.. ولكن خير

ما يستطيعه هو أن يتركه يداوى قلقه بطريقته الخاصة.. بالجرى.

وقال حلمى وهو ينظر إلى محمد فى حب :

– إنت عارف إنى مارحتش المطرية من يوم ما اتجوزت.

وقال محمد بسرعة :

– تعال نبات هنا الليلة.

وضحك حلمى قائلا :

– إنت عايز سناء تموتنى.

ومرت سحابة غامقة على وجه محمد وتجهم وجهه الضاحك برهة عابرة، ولكنه طرد السحابة بسرعة، وعاد وجهه يضحك، وقال:

– طيب نروح نسهر هناك بكرة.. إيه رأيك.

وقال حلمى :

– موافق.

وقال محمد :

– وتقول لتوفيق.

وقال حلمى :

– ونقول لتوفيق.

وقال محمد وعيناه تزغردان من الفرحة :

– ونشرب ويسكى.

وقال حلمى :

– ونشرب ويسكى.. وأنا اللى أشوى اللحمة.

وقال محمد :

– زى زمان.

وقال حلمى :

– قول زى الشهر اللى فات.

وقال محمد ضاحكا :

– ما هو شهر، يعنى زمان.

ثم قام واقفا وقال :

- بكرة نتقابل هنا ونروح على المطرية.

وقال حلمى :

- بس لازم نقول لسناء الأول.

وقال محمد :

- لازم ليه.

وقال حلمى وهو يتعمد أن يجارى محمد فى منطقه :

- علشان تفرح.

وابتسم محمد قائلا :

- دى حاتفرح قوى.. أنا ماشى بأه.

وقال حلمى :

- خدنى معاك.

وقام حلمى بعد أن دفع الحساب، وركب الأوتوبيس مع محمد، ونزلا فى شارع ٢٣ يوليو.

ثم ترك صديقه يذهب إلى المسرح فى شارع محمد فريد، وسار هو متجها إلى شارع سليمان باشا.. وما كاد يسير وحده حتى أحس بأنفاسه تضيق، وقلبه يختنق.. لقد أصبح يخاف الوحدة.. يخاف أن يسير وحده.. ويخاف أن يعود إلى البيت وحده.. يخاف هذه الأفكار التى تدهمه وتعصر أعصابه كلما خلا بنفسه.. ورغم ذلك فهو يسعى دائما إلى الوحدة.. قدماه تقودانه رغم إرادته إلى بيته، ليبق فيه وحيدا.. يخرج من الشركة ويسرع إلى بيته.. ويخرج فى المساء إلى المقهى ولا يطيق أن يبقى طويلا كما تعود.. ولا يطيق أن يذهب إلى السينما، أو إلى حفلة من حفلات أصدقائه.. ويعود سريعا إلى البيت.

وهو يعلم لماذا تعود به قدماه إلى البيت؟

إنه ينتظر تحية.

ينتظرها رغم إرادته، ورغم كل ما صمم عليه.

وقد حاول كثيرا أن يقنع نفسه بأنه لا ينتظرها.. إنه فقط يبحث عن الهدوء ليجتر فيه عذابه حتى يبرأ منه.. ولكنه لا يستطيع أن

يقنع نفسه.. إنه فعلا ينتظرها.. ينتظرها منذ آخر مرة حادثته في التليفون.. ويذهب إلى البيت، يدفعه أمل كبير في أن تفاجئه بزيارتها كما فعلت مرة.. ويقضي وقته وهو يصنع لنفسه الصورة التي سيقابلها بها.. سينظر إليها غاضبا.. لا.. لن يقابلها غاضبا، قد تكتشف من وراء غضبه إنه لا يزال يحبها.. سيقابلها في برود.. باردا كالثلج.. وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة يحتقرها بها.. وسيكون قويا.. قويا جدا.. لن يستسلم لضعفه.. لن يستسلم لجسدها.. سيشعرها بأن هذا الجسد لا يساوي شيئا عنده.. كل ما كانت تساويه هو حبه لها.. وقد انتهى هذا الحب.

ومرت ثلاثة أسابيع دون أن تفاجئه تحية بزيارتها، ودون أن تتصل به في التليفون.. ولم يفقد الأمل.. إن ما يجننه هو أنه لم يفقد الأمل.. هذا الأمل هو سر عذابه.. لو استطاع أن ييأس، لارتاح.. ولكنه لا ييأس.. لا يزال يجري إلى البيت وفي صدره هذا الأمل، يحاول أن ينكره فلا يستطع.. ويسير في الشارع فيطلق عينيه داخل السيارات لعله يرى تحية.. لعله يضبطها مع زوجها.. ويدق جرس التليفون في مكتبه فينتفض من مكانه، ويمد يده إلى السماعة في لهفة، والصوت المسترخي.. صوت تحية.. يملأ أذنيه.. ولكنها ليست هي دائما ليست هي، وأكثر من ذلك.. لقد حاول أن يتصل بها.. لقد أمسك بدفتر التليفون وأخذ يبحث عن اسم زوجها.. وهو يحاول أن يقنع نفسه بأنه لا يبحث عنه ليتصل بتحية، إنما فقط ليكتشف شيئا جديدا عنها.. ولم يجد اسم زوجها..ربما كان اسمه يسبقه اسم آخر.. محمد.. أو محمود.. أو سيد.. وبحث عن كل هذه الأسماء.. فلم يجدها.. ربما يحتفظ برقم تليفونه سريا.. كل العجائز الذين يتزوجون بشابات يحتفظون بأرقام تليفونات سرية.. ويشعر بالغيظ لأنه لا يستطيع حتى أن يعرف رقم تليفونها.. وكان خلال كل ذلك ينتظر أن يدعوه زميله رحمي الذي التقى في بيته بتحية لأول مرة.. وفي كل صباح ينظر إليه بعينين متلهفتين لعل الدعوة تنطلق من شفتيه.. لعل تحية قد اتفقت مع زوجة رحمي على

أن تدبر لقاء بينهما فى حفلة من حفلاتها.. إنه يعلم أن هذه هى طريقة تحية وصديقاتها.. ولكن رحمى لم يدعه.. بل إنه لا يحدثه اطلاقا عن تحية.. كأنه لم يكن يعلم ما بينهما.

وحلمى يتعذب.. وكل ما يعزيه هو قدرته على تحمل كل هذا العذاب.. لم يعد يملك برهانا على قوته إلى أنه يستطيع أن يتعذب.

ووقف حلمى أمام باب العمارة، وتذكر أنه لم يشتر طعام عشائه.. لم يمر على الجزار، وبائع الخضر، كما تعود.. ولكن.. هل هو فى حاجة إلى عشاء.. هل يستطيع أن يأكل..

لا يظن..

وهز كتفيه بلا مبالاه، ووضع نفسه فى المصعد، وصعد إلى شقته فى أعلى العمارة.. ووقف أمام الباب يخرج سلسلة مفاتيحه، وهو يحس بأن شيئا غريبا حوله.. لم يحاول أن ينظر إلى عقب الباب ليرى خطا من النور ينطلق من تحته.. اكتفى بأن يكذب إحساسه، وفتح الباب.

ورآها أمامه.

تحية.

جالسة على الأريكة العريضة، ووجهها صامت حزين، ليس فيه ظل لابتسامة.

ووقف أمامها مشدوها.. عيناه متسعتان وحاجباه الكثيفان مرفوعان.. والباب لا يزال مفتوحا وراءه.. وانطلقت فى خياله كل الصور التى تخيلها لنفسه عندما يقابل تحية.. سيكون باردا.. باردا كالثلج.. ولكنه يحس بأنه أضعف من أن يكون باردا.. إن كل خلجة منه تريد أن تنطلق إلى تحية.. قلبه يكاد يمزق صدره وينطلق إليها.. ذراعاه تكادان تنفصلان عن كتفيه وتجريان إليها لتضماها.. ولكنه قاوم بكل إرادته.. بكل العذاب الذى تحمله خلال هذه الأسابيع الثلاثة.. وقاوم دهشته أيضا.. وبعد جهد، ارتاح حاجباه فوق عينيه.. والتفت يغلق الباب وراءه.

وتحية صامتة لا تتحرك من مكانها.

وعاد ينظر إليها مليا، دون أن يضع عينيه في عينيها، كأنه يخاف أن يقترب من منطقة الخطر.. وقال وهو يتظاهر بالبرود:

– إزيك.

ولم ترد عليه.. صامتة لا تتحرك.

وانحنى على الأرض يتظاهر بالتقاط كتاب، وقال وهو يضع الكتاب على مائدة الرسم :

– بقالك كتير هنا ؟

وتنهدت تحية وقالت كأنها تزفر أنفاسها :

– ساعة.

وسكت حلمى.. أخذ يعبث فى بعض الأسطوانات.. ثم وقف أمامها مستندا بظهره على الحائط.. دون أن يتكلم.. لا يريد أن يكون البادىء بالكلام، حتى لا يبدو ضعفه.

ورفعت تحية عينيها الدافئتين وركزتهما على وجهه، وقالت فى صوت خفيض حازم :

– إنت مستعد تتجوزنى ؟

وقفز حاجبا حلمى إلى أعلى حتى اصطدما بمقدمة شعره.. لقد كان ينتظر أى كلام، إلا هذا الكلام.. هل هى خطة جديدة انطلقت من عقل تحية.. من ذكاء الأنثى.. وقال وهو لا يزال فى دهشته :

– مش فاهم.

وقالت تحية وصوتها لا يزال خفيضا حازما :

– بأقولك مستعد تتجوزنى ؟

وقال حلمى وابتسامة ساخرة تتدلى على جانب شفتيه :

– إنتى مش اتجوزتى ؟

وقالت تحية :

– مش قادرة أكمل.

وقال حلمى كأنه يتشفى فيها :

– ليه ؟

وقالت تحية وهى تنظر إليه كأنها تلومه :

- إنت عارف إنى اتجوزت غصب عنى.

وقال حلمى وهو يضع يديه فى جيبى بنطلونه :

- إنتى متجوزتيش غصب عنك.. إنت قلتى إنك اتجوزتى علشان خاطر بنتك.

وقالت وهى تنظر إليه فى غضب، وصوتها يرتفع عن الأول:

- كنت غلطانة.. دلوقت عرفت إنه أحسن لبنتى إنها تعيش بعيد عنى، من إنها تعيش معايا وهى شايفانى بالحالة دى.

وقال حلمى كأنه يتلذذ بكلامها :

- حالة إيه ؟

قالت فى عصبية :

- حالة واحدة عايشة مع راجل مش طايقاه.

وسكت حلمى قليلا، وقال وشعور خبيث بالسعادة يطغى عليه :

- بس انتى لسة مافتش على جوازك شهر ونص.. وأنا من رأيى إنك تجربى كمان شوية.. الجواز والطلاق مش سهل للدرجة دى.

قالها وهو يحس بقسوته، ويحاول أن يستعيد بهذه القسوة قوته.

وصرخت تحية فى عصبية :

- حلمى.. ماتعذبنيش.. أنا سألتك سؤال، رد عليه.. مستعد تتجوزنى، ولا لأ ؟

وقال حلمى وهو ينظر إلى بوز حذائه :

- مش عارف يا تحية.. إنتى اللى عملتيه مش شوية.. ما أقدرش أقول لك دلوقت، أنا مستعد أعمل إيه.. ولا أقدر أعمل إيه.

ونظرت تحية فى وجهه برهة.. ثم مدت يدها تجذب إليها حقيبتها، وقالت وهى تبتسم فى مرارة :

- أنا كنت متأكدة إنك حاتقول كدة.

وهمت بالقيام.

وارتعشت رموش حلمى فوق نظرات مترددة تطل من عينيه.. إنها ستتركه.. ستذهب.. سيعود إلى عذابه.. لا.. لا تذهبى.. ليس

الآن.. أريحـينى أولا من عـذابى.. ولكن يجب أن يقـاوم.. يجب.. إنه لا يصدقـها.. لا يصـدق حرفـا مما تقـوله.. لتذهب.. ولكن.. لـعلها صـادقة.. لماذا لا يتزوجها.. ويرتاح؟

وظل ينظر إليها وهى تقوم من فوق الأريكة، ثم قال كأنه يمنعها من الخروج :

- إنتى عارفـة إنى سبق عـرضت عليكى إننا نتجـوز.. كان زمنا دلوقت متجوزين.

وقالت والمرارة لا تزال بين شفتيها :

- إنت طلبت إنك تتـجـوزنى صـحـيح.. إنمـا لو كنت وافـقت.. مـاكناش اتجوزنـا.. كان زمـانك بتـقول نفس الكلام الـلى بتقـوله دلوقت.

وقال حلمى كأنه يقسم بالله :

- ماتقوليش كدة يا تحية.

وقالت تحية وهى تتنهد :

- دى غلطتى.. أنا مسـبتش لنفسـى حـاجة تتجوزنى علشـانها.. إديتك كل حاجة من غير جواز.

وقال حلمى وهو يقترب منها كأنه يحاول أن يمنعها من الكلام :

- إحنا كنا بنحب بعض يا تحية.

وقالت وهى تنظر إليه فى سخرية :

- وعملنا إيه بالحب ؟

وقال :

- إنت اللى ضيعتيه.

وقالت :

- وإنت دلوقت اللى بترفضه.

قال محتجا فى عصبية وهو يضرب على المائدة بقبضته :

- الكلام ده مالوش لزمة يا تحيـة.. إنتى مش عارفة إنت عملتى فىّ إيه.. أنا مـاحستش إنـك اتجوزتى.. أنا حسـيت إنك خونتـينى.. خدعتينى.. ومن يومها وأنا باتعذب. مش عارف أعيش.

وتغيرت نظرة تحية.. أطل من عينيها حنان كبير.. واهتزت رموشها كأنها تمسح بها عذابه.. وانفرجت شفتاها عن ابتسامة صغيرة هادئة كأنها تحاول أن ترطب بها جرحه.

وأدار حلمى ظهره لها، وقال فى صوت يحشرجه انفعاله :

- تعرفى أنا بافكر فى إيه من يوم ما اتجوزتى.. بافكر إنى أتجوز أنا كمان.. توفيق بيدور لىّ على عروسة.

وشهقت تحية.. ضاعت نظرة الحنان من عينيها.. واختفت ابتسامتها.. وارتعشت يداها.. وارتعشت شفتاها.. وقالت فى صوت يرتعش :

- تتجوز ليه ؟

وقال وهو يعود ويلتفت إليها :

- زى إنتى ما اتجوزتى.

قالت وهى تنشب عينيها فى وجهه :

- إنت ناقصك إيه علشان تتجوز ؟

قال كأنه يتحداها :

- وإنتى كان ناقصك إيه يوم ما اتجوزتى ؟

قالت وكأنها تهم بالبكاء، وقد فاض غيظها :

- أنا مش زيك.. الست مش زى الراجل.. إنت أبوك ما بيضغطش عليك علشان تتجوز.. وتقدر تقعد طول عمرك عازب من غير الناس ما تتكلم عليك.

قال فى هدوء وهو ينظر إلى بوز حذائه :

- كنت عايز أتجوز علشان أنساكى.

قالت بسرعة وحدة :

- لو كان الجواز بينسى، كنتى قدرت أنساك.

قال :

- ماكنتش قادر أقاوم لوحدى.. أنا محتاج لحد جنبى يساعدنى.

وألقت تحية حقيبتها من يدها فوق الأريكة العريضة، وهى تقول فى غضب :

– جوزى ما ساعدنيش على إنى أقاومك.. جوزى كان بيفكرنى بيك أكتر.

وألقت نفسها جالسة فوق الأريكة كأنها لم تعد تستطيع الوقوف، وقالت وهى تضع رأسها فوق كفها :

– أنا ماكنتش فاكرة إنك تقدر تعمل فىّ كدة.

واستراحت نظرات حلمى فى عينيه، عندما رأى تحية تعود وتجلس.. اطمأن أنها لن تذهب.. واقترب منها.. اقترب كثيرا.. وقال وهو يطل عليها من فوق قامته :

– إنتى فى منتهى الأنانية.. تدى لنفسك كل الحقوق، ومش عايزة تدينى ولا حق.

ورفعت إليه وجهها وقالت ودموع صامتة تسيل فوق وجنتيها، وتبلل كلماتها :

– أنا ماكنتش أنانية.. أنا كنت فاكرة إنى باضحى بنفسى وبيك علشان خاطر بنتى.. إنما ماقدرتش أستحمل.

وجلس بجانبها وقلبه يجرى وراء دموعها، وهمس :

– تحية.

واستطردت :

– بقالى تلات أسابيع وأنا بافكر كل دقيقة إنى أضرب لك تليفون.. وبافكر فى كل يوم إنى أجيلك.. وكنت باقاوم.. تعذبت كتير.. وفى الآخر اكتشفت إن تضحيتى مش تضحية ولا حاجة.. إنما غلطة.. أنا غلطت فى حقك.. وفى حق بنتى.. وفى حق نفسى.

وقال وهو يضمها إلى صدره :

– فعلا.. إنتى غلطتى.

وقالت وهى تجهش بالبكاء وتلقى رأسها فوق كتفه :

– وجيتلك علشان تصلح غلطتى.. ألاقيك بتفكر تتجوز واحدة تانية.

وقال وشفتاه تطوفان فوق شعرها.. وأصابعه تمسح فوق ذراعها.. وذراعه الأخرى تمتد وتحيط خصرها :

– ماكنتش حا أقدر.. كنت حاتعذب زى إنتى ما اتعذبتى.
ورفعت إليه شفتيها المبللتين بدموعها، وقالت فى صوت ممزق:
– حلمى.. قولى إنك مس حاتسيبنى أبدا.
قال وقلبه يجرى كأنه يطير من قفص العذاب :
– عمرى.
ووضع خده على خدها، وضمها إليه فى قوة تكاد تعصرها، واستطرد هامسا :
– وإنتى.
وهمست :
– عمرى.. عمرى ما حاسيبك تانى.. عمرى ما حاأغلط تانى.
وبحثت شفتاه عن شفتيها.
عطشان.
عطشان إلى قبلاتها.
يغرق فيها عذابه الطويل.
ويشرب منها راحة قلبه.
ونزعت منه شفتيها كأنها تخاف عليه أن يشرق.. وهمست وهى تمسح خدها فى خده، وآهة صامتة تنطلق من بين شفتيها المنفرجتين :
– إنت خاين.. تقدر تبوس أى واحدة زى ما بتبوسنى.
وقال وابتسامة نشوانه ترقص فوق شفتيه :
– وإنتى.
وأبعدت وجهها عنه وقالت فى حدة كأنها تدافع عن نفسها :
– أنا عمرى ما بوست جوزى.
ونظر إليها وهو يحاول أن يصدقها وقال :
– مش معقول.
قالت فى صوت خجول :
– وحياتك عمرى مابوسته.. هو اللى كان بيبوسنى.. من يوم ما عرفتك عمرى مابوست حد غيرك.

وضغطها إلى صدره كأنه يشكرها.. وهمس قائلا :

– ما تتكلميش.. ما تحكيليش على حاجة.. سيبى قلبى يستريح على قلبك.

وقلبه يبتسم كأنه ينام بعد أرق طويل.

وشفتاه ترقدان بين شفتيها.

فى هدوء.

فى نشوة.

ثم بدأ الهدوء يتحرك.

وذاب كل ما فيه إلا إحساسه بشفتيها بين شفتيه.. وجسدها بين ذراعيه.. ونسى.. نسى عذابه.. ونسى أيامه.. ونسى مقاومته.. ونسى ضعفه.. إنه ليس ضعيفا.. إنه رجل يملك.. يملك حبيبته.

وأصابعه ترقد بين طيات شعرها.. وشفتاه تنحدران إلى عنقها.. ثم ترتفعان إلى أذنيها.. وهى مستسلمة.. عطر أنفاسها يلفه.. ويشد أعصابه.. كل أعصابه.

وابتعد عنها لحظة.. لحظة خاطفة، كانت كافية ليخلع سترته، ويفك رباط عنقه.. ثم عاد إليها.. وعيناه فيهما الشوق الطويل إلى عينيها الدافئتين.. وابتسامته فيها إصرار الحب.. الحب الذى يريد كل شىء.. ولا يتنازل عن شىء.. عاد إليها كأنه لم يحدث شىء.

لم تتركه.

ولم تتزوج.

ولم يمسها رجل آخر.

إنها هى هى.. لم ينقص منها شىء.. ولا تغير فيها شىء.. ليس على جسدها آثار بصمات.. وليس فى أنفاسها رائحة رجل آخر.. وليس بينه وبينها هذه الأيام الطويلة التى فرقت بينهما.

وهى تنظر إليه مبهورة الأنفاس، كأنها خائفة.

خائفة من كل هذا الحب.

خائفة من كل هذا الإصرار.

خائفة من كل هذا الذى يريده.

يا حبيبتى.
لا تخافى.
لقد عدنا.

●●●

وقامت تحية تمشط شعرها، وتساوى ثوبها.. وقد عادت كما رآها أول مرة.. جسدها ملفوف كشجرة الموز.. وفى عينيها نار هادئة تصهر وجنتيها.. وابتسامتها بين شفتيها كأنها شىء يكاد يسقط منها دون أن تدرى.

وانحنت تقبله قبلة سريعة فوق خده، وهمت بأن تفتح الباب لتخرج.. فقال كأنه يستوقفها :

– ما تكلمناش.. ما اتفقناش حانعمل إيه ؟

قالت وهى تقبله بابتسامتها :

– فى إيه ؟

قال :

– فى جوازنا.

واتسعت ابتسامتها وقالت :

– حاأقولك بكرة فى التليفون.

وخرجت.

وهو ينظر وراءها.. وسحابة من الشك تزحف على وجهه.



صحا حلمى من نومه نشطا، وعلى شفتيه ابتسامة كبيرة.. لأول مرة منذ ثلاثة أسابيع يستطيع أن ينام.

وقفز من فوق فراشه واتجه إلى الحمام وخطواته خفيفة على الأرض كأنه يرقص.. وصورة تحية تملأ قلبه.. ويحاول أن يستعيد كل كلمة، وكل لمسة جرت بينهما ليلة أمس.. ولكن ما لبثت صورة تحية أن اختفت من خياله.. واتجه كل عقله إلى التفكير فى مشكلته مع المدير.. ومع الشركة.. يجب أن يفعل شيئا.. يجب أن يخلص الشركة من هذا الغطاء الذى رسا عليها.. أو على الأقل يجب أن يحول دون قيام الشركة بتزييف المواد التى سيبنى بها المصنع، حتى ينقذ المصنع، وينقذ الشركة، وحتى يؤمن بنفسه كإنسان قوى يستطيع أن يحقق إيمانه.

ولكن كيف.. كيف يصنع كل ذلك.. وتعقد حاجباه الكثيفان، وانطبقت شفتاه كأنه يحاول أن يخنق حيرته.

وظل يفكر فى مشكلته مع الشركة حتى ارتدى ثيابه، وصنع لنفسه كوبا من الشاى.. وتناول افطارا خفيفا.. قطعة من الجبن فى قطعة من الخبز.. ثم فجأة تنبه إلى أنه لا يفكر فى تحية.. ربما كان الأجدى عليه أن يفكر فيها، ليريح عقله من مشكلته مع الشركة.. وحاول أن يحتفظ بصورة تحية فى عقله.. حاول أن يعود ويهيم فى كلماتها ولمساتها.. ولكن مستحيل.. إن تحية لم تعد مشكلة تستطيع أن تأخذ تفكيره.. كان يكفى أن تعود إليه، وتعلنه أنها

لا تزال محتفظة بحبه، حتى تنتهى مشكلتها.. وينتهى عذابه.. إن الإنسان لا يفكر فى حبه إلا إذا أصبح هذا الحب مشكلة.. أما إذا كان حبا رائقا هادئا، فالإنسان لا يفكر فيه مهما بلغ من التصاقه به.. إن حبه كذراعه لا يحس به إلا إذا جُرحَ، أو أصابته صدمة.. وأرقى مستويات الحب، هو الحب الذى تعيَش فيه ومعه، دون أن تفكر فيه.

واهتزت صورة تحية فى خياله، وحل محلها صورة مدير الشركة.. وعاد يفكر فى مشكلة عطاء بناء المصنع.. وخرج إلى الشارع وهو يدق الأرض بقدميه فى قوة.. والقوة تملأ صدره.. وتملأ عقله.. إنه يستطيع أن يفعل كل شىء وأى شىء.. وسيجد الطريق ليفعل ما يريد.

وتعجب حلمى من هذا الاحساس العارم بقوته.. لقد قضى ثلاثة أسابيع وهو يشك فى هذه القوة.. ثلاثة أسابيع كان يشك خلالها فى نفسه.. ثلاثة أسابيع ضاقت خلالها دنياه حتى أحس بنفسه تافها.. صغيرا.. لا يساوى شيئا إلا قدرته على تحمل عذابه.. فماذا جرى له؟ هل يكفى له أن تعود إليه تحية حتى تعود إليه قوته.. هل يستمد قوته من خطيئته معها؟

لا.. لا تقل خطيئة.

إنه حب.

حتى لو كان حبه قد اضطر تحت ضغط ظروفه أن يتخذ مظهر الخطيئة، فقد وعدته تحية بأن تتزوجه حتى تقضى على هذا المظهر.. وربما كانت معذورة فى زواجها من هذا الرجل الآخر، ربما كان هذا الزواج تجربة كان يجب أن تمر بها حتى تقتنع بأنها لا تستطيع أن تستغنى عن حبها مهما ضحت فى سبيله.. حتى لو ضحت بابنتها.. ثم أخيرا ما هى الخطيئة؟.. الخطيئة هى رأى الناس.. لا رأيه ولا رأى تحية.. إن الناس هم الذين ينظرون إلى الحب على أنه خطيئة.. إن العلاقة بين اثنين لا تعتمد فى تصويرها على مظهرها.. ولا على رأى الناس.. ولكنها تعتمد على حقيقة

احساس الاثنين.. على حقيقة حاجة كل منهما إلى الآخر.. واندفاع كل منهما نحو الآخر، وحقيقة احساسه واحساس تحية، هو الحب.. واندفاع كل منهما نحو الآخر، هو اندفاع الحب.

واتسعت ابتسامته وهو يجتر خواطره، وقلبه مرتاح في صدره.. وعاد يفكر في هدوء في مشكلة عطاء بناء مصنع النسيج.

ووصل إلى مقر الشركة، وصعد إلى مكتبه وهو يقفز درجات السلم، كل ثلاث درجات في قفزة.. وحيا زميله المهندس رحمى، في بشاشة كأنه يقبله من كلتا وجنتيه.. وقال رحمى وهو يضحك له :

- مالك فرحان كدة.. ورثت كام ؟

ونظر إليه حلمى مليا، وعلى وجهه حزم يظلل ابتسامته الضيقة، وقال :

- ماورثتش.. ومش فرحان.

وقال رحمى ضاحكا :

- بس إنت النهاردة مش زى كل يوم.. بقالك شهر تدخل مبوز وتخرج مبوز.. لازم حصل حاجة.

وقال حلمى .

- أخذت قرار.

وقال رحمى في دهشة ·

- قرار في إيه ؟.

وجلس حلمى إلى مكتبه واستند إليه بكلتا ذراعيه، ثم التفت إلى زميله وقال ونبرات صوته قوية قاطعة كأنه ينطق باسم المصير :

- قررت إني ما أسكتش على موضوع عطاء مصنع النسيج.

وشوح رحمى بيده، وقال

- يعنى حاتعمل إيه.

وقال حلمى :

- لسة ما أعرفش حاعمل إيه.. إنما لازم يكون فيه حل.

وقال حلمى :

- ماتبقاش مجنون.. ماتوديش نفسك فى داهية.

وقال حلمى ونبرات صوته تزداد قوة :

اسمع يا رحمى.. العطاء اللى مقدماه الشركة، معناه حاجة من الاتنين : لا الشركة تفلس.. ياتغش فى التنفيذ.. وأنا عارف إنها حاتغش فى التنفيذ.

وصرخ رحمى :

- وإنت مالك يا أخينا.. العطاء رسى علينا وخلاص.. وقبل ما يرسى علينا راجعه المهندسين اللى فى مؤسسة النسيج.. ونفس المهندسين دول هم اللى حايراقبوا التنفيذ.. يبقى إنت مالك؟

وقال حلمى فى عصبية :

- إنت عارف إزاى المهندسين اللى بتقول عليهم بيشتغلوا.. وعارف إزاى بيراقبوا التنفيذ.. و..

وقاطعه رحمى فى حدة :

- يعنى إنت نبى.. ملاك.. ما إنت مهندس إنت كمان.

وقال حلمى :

- أنا مهندس صحيح.. وإنت مهندس.. وفيه عشرات المهندسين اللى زينا.. لكن اللى زينا مش هم اللى حايراقبوا التنفيذ.. ولازم نعمل حاجة.

وقال رحمى ساخرا :

- نعمل إيه ؟.

وقال حلمى :

- نلم كل مهندسين الشركة ونفهمهم الموضوع، ونتفق كلنا على إننا نمنع أى غش فى التنفيذ، حتى لو كشفنا الشركة.. حتى لو استغنت الشركة عننا كلنا.. وطردتنا.. والشركة مش ممكن تطردنا كلنا.. لو عملت كدة.. تبقى فضيحة.

ونظر رحمى إلى حلمى فى دهشة مشوبة بالشفقة، وقال فى صوت متحسر :

- إنت مجنون.. إنت عارف الزملاء.. اللى حاتتفق معاهم،

حايعملوا إيه.. أول حاجة حايعملوها، إنهم حايبلغوا المدير بكل كلمة حاتقولها لهم.

وقال حلمى وهو يدق على المكتب بقبضة يده :

– ما يهمنيش.

واستطرد رحمى :

– والمدير يوديك فى داهية.

وقال حلمى في إصرار :

– ما يهمنيش إنى أروح فى داهية.. المهم إن البلد ما تروحش فى داهية.. ده مصنع يا رحمى.. عارف مصنع يعنى إيه.. يعنى مليون جنيه.. يعنى ألف عامل.. يعنى مستقبل.. مستقبل الناس كلهم.

وقال رحمى وهو يبتسم ساخرا :

– إنت بتفكرنى بأيام زمان.. أما كنا تلامذة.. وكنا نقف فى الحوش ونخطب.

وأطلت من عينى حلمى نظرة حازمة، أزاحت السخرية عن شفتى رحمى، وقال فى صوت عميق :

– أنا حا أحاول.. وما أقدرش أجبرك على إنك تشترك معايا.

ثم أمسك بسماعة التليفون، وقال فى هدوء :

– خلينى أكلم المهندس عبدالله.. من فضلك.

ثم خاطب المهندس عبدالله قائلا :

– صباح الخير.. ممكن تفوت علىّ شوية ؟

ووضع سماعة التليفون وعاد ورفعها، وطلب زميلا آخر.. وزميلا ثالثا.. حتى أبلغ دعوته إلى كل زملائه.

وجاء المهندس عبدالله متهلل الوجه قائلا :

– خير يا حلمى ؟

وقال حلمى :

– أقعد شوية.

وجلس عبدالله وهو ينظر فى وجه حلمى دهشا، ثم قال :

- تكونش حاتتجوز.. وناوى تعزمنا ؟
وقال حلمى وهو يبتسم ابتسامة صغيرة :
- دلوقت حاتعرف.
وتوافد الزملاء وكل منهم يلقى بتحية الصباح.. ونكتة.. وحلمى يستقبلهم بابتسامة جادة.. وبريق خاطف يلمع فى عينيه الواسعتين.
وسكت الزملاء أمام الابتسامة الجادة والبريق الخاطف.. وانتظروا برهة صامتين.. إلى أن قال حلمى، ونبرات صوته تخرج من بين شفتيه قوية حاسمة :
- أنا حبيت نتكلم مرة تانية فى موضوع عطاء مصنع النسيج.
وارتخت عيون الزملاء كأن أملهم قد خاب.. وتنهد بعضهم فى ضيق، والتوت شفاه البعض فى قرف.
واستطرد حلمى قائلا :
- طبعا انتم عارفين إن الأسعار اللى اتقدمت بيها الشركة أقل من سعر التكلفة.. والشركة مش مغفلة علشان تخسر فى عملية زى دى.. يبقى لازم عاملة حسابها على أنها تغش فى التنفيذ.. فى الإنشاءات.. ودى مسألة خطيرة، والحل الوحيد إننا كلنا نكشف أى محاولة للغش... و..
وقاطعه أحد الزملاء قائلا :
- ده كلام كبير يا حلمى.. مش معقول إنك تتهم الشركة فى عملية لسة ما ابتدتش.. ثم إن اتهامك مجرد استنتاج.. مافيش دليل.
وقال حلمى فى عصبية :
- أنا ما قلتش إن الشركة غشت.. إنما باقول إنها يمكن تغش.
وصاح زميل آخر :
- وكمان ما يصحش إنك تتهمنا بأننا ممكن نسكت على الغش.. استنى لما تلاقى واحد فينا صهين، ولا أخد رشوة.. وابقى اتكلم.
وصاح حلمى :
- أنا مابتهمكمش.. أنا باثق فيكم.. ولولا كدة ما كانتش كلمتكم.. و..

ودق جرس التليفون بجانب حلمى.. ورفع السماعة وقال كأنه يصرخ :

– آلو..

وسمع صوت تحية.. رائقا.. مسترخيا.. كأنها لا تزال فى نومها:

– صباح الخير..

وتردد قليلا ثم قال فى حزم وهو يتعمد أن يخاطبها على أنها رجل :

– اضرب لى بعدين.. أنا مشغول شوية.

وقالت تحية فى عتاب :

– بعد أد إيه ؟

وقال بسرعة :

– بعد نص ساعة.. مع السلامة.

وألقى سماعة التليفون.. والتفت إلى زملائه وقد اختفت صورة تحية من رأسه تماما.

وقال فى حماس :

– اللى عايز أقوله إنى مش مقتنع إن المدير هو المسئول لوحده.. ولا مجلس الإدارة.. إحنا اللى مسئولين. وإحنا اللى لازم نحمى الشركة.. ونحمى المصنع.

وقال زميل فى لهجة ساخرة :

– إحنا مش ممكن نكون مسئولين.. لو واحد منا حاول يعمل حاجة، يقدروا يشيلوه ويجيبوا مهندس تانى.. إنت مش فاكر المهندس فتحى اللى اتخانق مع مقاول النجارة، عملوا فيه إيه ؟

وقال حلمى وحماسه يشتد :

– علشان كدة لازم نكون يد واحدة.. لأنه ما يقدروش يطردونا كلنا.

وقال زميل :

– الكلام ده ما ينفعش.. إذا كان عندك حاجة، تقدر تبلغها للحكومة.

وصاح حلمى :

- أنا مش عـايز أبلغ الحـكومـة.. ومش من طبـيـعـتى إنى أبلغ الحكومة.. ومش مـقتنع إن دى مسئولـية الحكومة. دى مسئـوليتنا إحنا.. ودى كرامتنا إحنا.

وصاح زميل آخر :

- إيه دخل الكرامة دلوقت يا حلمى.. خليك عاقل.

ثم قام واقفا واستطرد قائلا :

- أنا راجع مكتبى.. الكلام ده كله مالوش لازمـة.. وما يصـحش يتقال.

وقام بقية الزمـلاء فجأة.. ومال أحدهم ناحيـة المهندس رحمى قائلا :

- حاتسهر فين النهاردة يا رحمى ؟

وقال رحمى ضاحكا :

- النهاردة ببيتى.

وحلمى ينظر إلى زملائه، وحاجباه معقـدان فوق عينيه، وشفتاه مزمومتان، ونظرات سخط هائل تملأ وجهه كله.

واقترب منه المهندس عبدالله قائلا :

- إنت لك حق فى كل الكلام اللى قلته.. إنما مش حـاتقدر تعمل حاجة.

وخرج وراءه بقية الزملاء.

ووضع حلمى رأسه بين يديه، كأنه يحاول أن يعصره.

وقال زميله رحمى وهو ينظر إليه ساخرا :

- تعرف وإنت بتتكلم كان كل واحـد بيفكر فى إيه ؟.. بيفكر فى ولاده.. وبيفكر ازاى يقنع المدير إنه عمره ما كان صاحبك.

ولم يرد عليـه حلمى.. سـمع صـوته ولم يلتـقط كلمـاته.. وهو غارق فى احســاس كبير بالوحـدة.. ويحس بأن كل هذه القوة التى تنبض فى أعصـابه، وكل هذه الثورة، لا تسـاوى شيئـا.. إنه قوى.. ولكن مـاذا تجـدى قـوته وهو وحـده؟ إنه لن يكون قـويا أبدا وهو

وحده.. لن يكون قويا إلا بالناس.. وقد أخطأ عندما اعتقد أنه يكفى أن يجعل من نفسه إنسانا قويا.. أخطأ عندما ضيع كل هذه السنوات وهو يربى نفسه.. لم يكن يكفى أبدا أن يربى نفسه.. كان يجب أن يربى مجموعة من الناس يذوب فيها، وتذوب فيه.. يفكر معها، وتفكر معه.. يتحرك معها وتتحرك معه.

وطافت صورة الناس فى خيال حلمى.. إنه يعرف الكثيرين.. والكثيرون يحبونه.. وقد يؤمنون به.. ولكنه غير مرتبطين به، وهو غير مرتبط بهم.. كزملائه المهندسين فى الشركة.. إنهم يحبونه، ولكنهم غير مرتبطين به.. ولهم العذر إذا تخلوا عنه فى ثورته.. وإذا تركوه وحده.. فلا يكفى أبدا أن يخرج عليهم بثورة حتى يؤيدوه فيها.. لو كان قد ارتبط بهم.. لو كان قد ضيع أيامه فى محاولة تقريب أفكاره من أفكارهم.. وتنظيم وحدة بينهم.. فربما كانوا جميعا يفكرون تفكيرا واحدا.. وربما كانت ثورته قد اندلعت فى صدورهم قبل أن تندلع فى صدره.. وربما كان العمل الجماعى الذى يدعو إليه قد قام به زملاؤه دون حاجة إلى دعوتهم إليه.

إنه نفس موقفه من الثورة ومن جمال عبدالناصر.

إنه يؤمن بالثورة.. ويؤمن بجمال عبدالناصر.. إيمانه بجمال يصل إلى حد الحب الشخصى.. ورغم ذلك فليس هناك خيط واحد يربطه بالثورة.. ولا بجمال.. وقد رفض أن يربط نفسه بأى منظمة من منظمات الثورة.. عاش فردا ثوريا، لا عضوا فى جماعة ثورية.. وكان يعتقد أن هذا يكفى.. يكفى أن يكون فردا قويا.. ولكن لا.. الفرد لا يستطيع أن يصل أبدا إلى حد القوة الثورية.. المجموع هو الذى يستطيع أن يصل.

وهو الآن يشعر بحاجته إلى الثورة.

وإلى جمال.

فى حاجة إليهما لينقذا معه قطعة من أرض الوطن.. لينقذوا مصنع النسيج.

ولكن.

ماذا يفعل؟

هل يكتب خطابا إلى جمال عبدالناصر ؟

إنه يكره كتابة مثل هذه الخطابات.. يحس كأنها نوع من الوشاية.. يحس بأنها وسيلة لا يلجأ إليها إلا الضعفاء.

لا.. لن يكتب خطابا إلى جمال عبدالناصر.

هل يلجأ إلى لجنة من لجان الاتحاد القومى، ويعرض عليها الموضوع، باعتبارها منظمة شعبية ثورية ؟

لا يدرى!

ولكنه يجب أن يفعل شيئا.. وهو لم يستنفد بعد كل الطرق التى يستطيع أن يسير فيها وحده.

وبسرعة.. أخرج من درج مكتبه ورقة.. وأخذ يكتب خطابا إلى رئيس مجلس إدارة الشركة، يطلب مقابلته لمناقشته فى موضوع عطاء مصنع النسيج.

وطوى الخطاب، ووضعه داخل ظرف، ثم نادى ساعى مكتبه، وطلب منه أن يوصل الخطاب إلى رئيس مجلس الإدارة.

ورفع زميله المهندس رحمى رأسه، وسأله فى دهشة :

- عايز إيه من رئيس مجلس الإدارة ؟.

وقال حلمى فى اختصار وقرف :

- عايز أقابله.

وقال رحمى وهو ينظر فى وجه حلمى متعجبا :

- يعنى فاكر إن رئيس مجلس الإدارة ماعندوش خبر بكل اللى بيحصل ؟

وقال حلمى :

- المهم إنى أعمل اللى علىّ، وأرضى ضميرى.

وقال رحمى :

- والنبى إنت مجنون.

ولم يرد عليه حلمى.. جلس صامتا والنار تشتعل فى رأسه، وتصهر وجهه :

وفجأة تذكر تحية.. ونظر فى ساعته.. لقد مضى أكثر من نصف ساعة، ولم تتكلم فى التليفون.. ونظر إلى التليفون فى حدة كأنه يأمره بأن يرن.. أن يتكلم.. ثم بدأ يشعر بالضيق.. ضيق يعصر صدره، ويمزق أنفاسه.. لماذا لم تتكلم تحية؟ إنه فى حاجة إليها الآن.. فى حاجة إليها لتثير فى نفسه هذه الثقة التى يستمد منها قوته.. ولكن.. حتى تحية ليست مربوطة به.. إنه لا يستطيع أن يجدها عندما يريدها.. لا يستطيع أن يلجأ إليها.. لا يستطيع أن يعرف أين هى؟ لا يستطيع أن يعرف ما يدور فى رأسها من أفكار.. ولا ما يخطر على قلبها من أحاسيس.

إنه وحيد.. وحيد.. وحيد فى ثورته.. ووحيد فى حبه.. وفراغ الوحدة.. يتسع أمامه.. ويتسع.. وكلما اتسع أحس بنفسه يصغر.. ويصغر.. إنه صغير.. ضعيف.

ودق جرس التليفون.

ومد يدا ترتعش باللهفة، ورفع سماعة التليفون يضغطها إلى أذنه فى شوق، وقلبه يقفز إلى حلقه.. وسمع صوت تحية مسترخيا كسولا كما هو، كأنها لم تقم بعد من فراشها.. وقال فى حدة وهو يحاول أن يسيطر على صوته، ويخفضه حتى لا يصل إلى أذنى زميله رحمى :

– اتأخرتى ليه ؟

وقالت تحية فى استرخاء :

– أبدا.. كنت ملخومة فى البيت.. إنت عامل إيه ؟

ورد بسرعة :

– حاشوفك إمتى ؟

وقالت تحية كأنها لا تحس بثورته :

– مش عارفة والله يا حلمى.

وقال حلمى وعصبيته تشتد :

– مش عارفة إزاى.. إحنا لازم ننهى موضوعنا بأى شكل.. أنا تعبت.

وقالت فى دلال :
- أصل عندنا ناس النهاردة على العشا.. ومش ممكن أقدر أخرج.
وقال وأنفاسه تملأ صدره :
- إذا كنتي ناوية تخرجي على طول.. يبقى مايهمكيش الناس.
وقالت :
- معلهش يا حلمي.. استحملنى شوية.. المسألة مش سهلة زى ما إنت فاكر.
وسكت حلمي قليلا، يحاول أن يستجمع كل عناده.. يجب أن يكون أقوى منها.. يجب أن يخفى عنها ضعفه.
وقال وهو يحاول أن يبدو لا مباليا :
- على كل حال أنا معزوم النهاردة على العشا.
وقالت تحية بسرعة، كأن كل أعصابها استيقظت :
- عند مين ؟
قال فى بساطة :
- عند محمد.
قالت :
- وتوفيق حايكون هناك ؟
قال :
- أظن كدة.. اشمعنى توفيق اللى بتسألى عليه ؟
قالت :
- أصلكم إنتم التلاتة دايما مع بعض.
قال :
- على كل حال.. اضربى لى تليفون بكرة.
وسكتت تحية قليلا، كأنها تفكر، ثم قالت :
- هو توفيق لسة بيدور لك على عروسة ؟
وضحك حلمي.. ضحكة مسحت عن قلبه كل همه.. وقال من خلال ضحكته :

- لسة..
وقالت تحية وخيوط من الغيظ تتخلل صوتها :
- ماحدش حايخرب علينا إلا توفيق ده.. أنا مبحبوش.
وقال حلمي وقد استعاد ثقته بنفسه :
- ماحدش يقدر يخرب علينا، إلا عمايلنا فى بعض.. وقالت تحية:
- خد بالك من نفسك يا حلمى.. وبكره حاحاول أشوفك.. باى.
وسكت حلمى برهة، كأنه يتمهلها قبل أن تذهب، ثم قال :
- مع السلامة.
ووضع سماعة التليفون.. وارتاح فى مقعده.. وارتاح معه قلبه.. وعاودته ثقته بنفسه.
ونظر إليه زميله المهندس رحمى، وقال مبتسما :
- دى حاجة جديدة؟
وقال حلمى :
- أبدا.
ثم فتح دوسيها أمامه يتشاغل بمراجعته، حتى لا يشجع زميله على الاستمرار فى حديثه.
ودخل ساعى المكتب فى خطوات مهرولة ووقف أمام حلمى وقال فى لهجة خطيرة :
- البيه رئيس مجلس الإدارة عايز سيادتك.
وارتسمت علامات الجد على وجه حلمى، وقام واقفا.
ورفع زميله رحمى رأسه إليه وفى عينيه نظرات مشفقة، كأنه يودعه قبل أن ينفذ فيه حكم الإعدام.. وقال :
- هو لحق قرأ الجواب ؟
وقال حلمى وهو يخرج من الغرفة :
- مش عارف.
وصاح رحمى وراءه :
- ماتتهورش يا حلمى.

ولم يسمعه حلمى، صعد فى خطوات سريعة إلى الدور العلوى حيث يقع مكتب رئيس مجلس الإدارة، وهو فى الوقت نفسه أكبر مساهم فى الشركة، أو على الأصح، صاحبها.

وأدخله السكرتير فورا.

ورأى حلمى مدير الشركة جالسا بجوار مكتب رئيس المجلس، فتردد قليلا عند الباب، كأنه صدم.. ثم تقدم وصافح رئيس المجلس، ثم صافح المدير.. والاثنان متجهما الوجه.

واعتدل رئيس المجلس فى مقعده، ومد رأسه الكبير إلى الأمام، وابتسم ابتسامة باهتة كأنه يكشف الستار عن الفصل الأول من المسرحية، وقال فى صوت بارد :

- بلغنى إنك كنت عامل اجتماع مع زملائك النهاردة.

وقال حلمى وهو لا يزال واقفا :

- فعلا.

ونظر رئيس المجلس إلى المدير، ثم عاد ونظر إلى حلمى، وقال مبتسما :

- اتفضل اقعد يا سيد حلمى.

وجلس حلمى، وعيناه مركزتان فى وجه المدير كأنه يراقبه.. واستطرد رئيس المجلس قائلا :

- طبعا أنا بلغنى كل الكلام اللى اتقال فى الاجتماع.. و..

وقاطعه حلمى قائلا :

- وأنا كان يهمنى إن الكلام يوصل لسيادتك.

ونظر إليه رئيس المجلس بعينين ضيقتين، وقال :

- وأنا كان يهمنى أكتر إنك تقول الكلام ده لى، قبل ما تقوله لزملائك.

وقال حلمى :

- أنا قلت نفس الكلام للسيد المدير من مدة يومين.

وتنهد رئيس المجلس كأنه يستعين بالصبر، وركن جسده العريض على مسند مقعده، وقال :

– أظن يا أستاذ حلمى إن المسائل الفنية الخاصة بالشركة، لا تناقش فى اجتماعات عامة.. والموضوع اللى بتتكلم فيه ده موضوع فنى.

وقال حلمى فى ثبات :

– ده موضوع خاص بمصلحة الشركة، ومصلحة البلد.

وقال رئيس المجلس وهو يبتسم فى مرارة :

– أنا يهمنى إنك تكون غيور على مصلحة الشركة، ومصلحة البلد.. بس الطريقة اللى اتبعتها لا تحقق مصلحة الشركة، ولا مصلحة البلد.. كان ممكن بكل بساطة إنك إذا ما اقتنعتش بكلام السيد المدير، تيجى تسألنى.. بدل ما تحاول تعمل مظاهرة فى الشركة.. ده عمل غير قانونى.

وقال حلمى :

– أنا مافكرتش فى القانون.

وسكت رئيس مجلس الإدارة برهة نظر خلالها المدير كأنه يستوحيه رأيه، ثم عاد والتفت إلى حلمى قائلا :

– نتكلم فى الموضوع.. ولو إن الموضوع مش من اختصاصك، لكن أنا راجل ديموقراطى، ويهمنى إن كل اللى بيشتغلوا معايا يكونوا مقتنعين بتصرفات الشركة.. إيه بأه اللى مش عاجبك فى عطاء مصنع النسيج ؟

وقال حلمى فى قوة :

– مش مسألة عاجبنى ولا مش عاجبنى.. مسألة منطق.. الشركة متقدمة بأسعار أقل من سعر التكلفة.. يبقى معنى كدة ياتخسر، ياتغش.. وأنا...

وقاطعه رئيس المجلس وهو يحاول أن يحتفظ بهدوئه :

– الأسعار اللى اتقدمت بيها الشركة هى نفس الأسعار اللى اتفقنا عليها مع الموردين.. اتفضل يا سيدى.. آدى عرض من شركة الحاج حسنين بتوريد رمل.. السعر اللى عرضه الحاج حسنين هو نفس السعر اللى اتقدمنا فيه فى المناقصة.

ولم ينظر حلمى إلى الدوسيه الذى فتحه أمامه رئيس المجلس، وقال فورا :

- أنا عارف.. إنما لو لاحظت سيادتك، تجد إن السعر اللى عرضه الحاج حسنين هو سعر تسليم السويس.. والمصنع حايتبنى فى مشتهر.. ولو أضفنا سعر النقل تبقى الشركة خسرانة.. خسرانة كتير.. وأنا اللى أعرفه إن الشركة مش ممكن تخسر.

واحتقن وجه رئيس المجلس وقال فى حدة وقد ارتفع صوته :

- يا أخى افرض إن الشركة عايزة تخسر.. عايزة تضحى بأموالها فى سبيل مشروع وطنى زى مشروع مصنع النسيج.. مش تبقى دى حاجة تستحق الشكر ؟

وقال حلمى فى هدوء :

- الشركة ماقالتش إنها بتضحى.. لو كانت عايزة تضحى صحيح كانت تقدمت بالأسعار الحقيقية، وبعدين أعلنت تنازلها.. وحددت المبلغ اللى حاتضحى بيه.. علشان ما يبقاش فيه مجال للشك.

وصرخ رئيس مجلس الإدارة :

- إنت بتتهم الشركة يا جدع إنت.. إنت عارف إنت بتقول إيه ؟ الكلام اللى إنت قلته ممكن يوديك النيابة.. و...

وقاطعه المدير قائلا وهو يبتسم ابتسامة لزجة :

- مافيش لازمة يا عرفان بيه.. المهندس حلمى ماقالش حاجة تستحق غضب سيادتك.

وكتم عرفان بيه صراخه، وسكت برهة إلى أن هدأت أنفاسه، ثم قال وهو يضع فى صوته رنة عتاب رقيق :

- شوف يا حلمى.. مافيش شركة اليومين دول تقدر تلعب.. ولا تغش.. العيون كلها مفتحة على كل الشركات.. والشركة اللى بتلعب بتتآمم على طول.. ودليل أمانة شركتنا وقيامها بدورها الوطنى إنها لسة ما تأممتش.. ولا فرضت عليها حراسة.

وقال حلمى ونبرات صوته قوية كأنه يصر على كل حرف ينطق به :

- التأميم مالوش دعوة بالأمانة.. التأميم مش عقاب.. ده تطبيق للاشتراكية.. الشركات اللى اتأممت ماكنتش كلها شركات فاسدة.

وتنحنح رئيس مجلس الإدارة، ومرت بعينيه سحابة من الغيظ والكمد، ثم عاد وضبط أعصابه وقال فى لهجة عتاب :

- على كل حال، أنا اللى زعلنى منك إنى أعرف عنك إنك مهندس كويس.. من أحسن مهندسين الشركة.. وكان كل اللى يهمنى إنه لما يكون عندك حاجة تيجى تقولها لى، أو تسألنى فيها.

وسكت حلمى،وهو ينظر فى وجه عرفان بيه، كأنه ينتظر منه أن يتم كلامه.

واستطرد عرفان بيه قائلا وهو يبتسم ابتسامة كبيرة لا معنى لها :

- وعلشان أثبت لك إنى لسة باثق فيك.. طلبت من السيد المدير إنه يبعتك قنا علشان تشرف بنفسك على مشروع الوحدات اللى بنبنيها هناك.. وتطمئن على أعمال الشركة.. وتطمنى معاك.

ونظر حلمى فى وجه رئيس المجلس فى قوة وتحد، وقال :

- أنا أفضل إنى أشترك فى الاشراف على مشروع مصنع النسيج.

ونظر رئيس المجلس إلى المدير الجالس بجانب مكتبه نظرة يأس، كأنه يعلنه بفشل المشروع، ثم نظر إلى حلمى، وقال فى صوت قرفان :

- وبعدين معاك يا حلمى.. ماتبقاش عنيد.. الشغلة اللى باعرضها عليك فيها علاوة كبيرة.

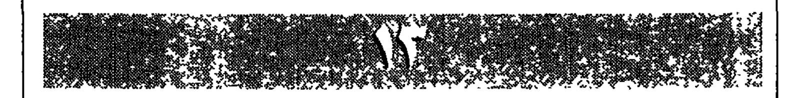
وقال حلمى فى إصرار :

- أنا مايهمنيش العلاوات.. المهم إنى أساعد الشركة.

وتنهد رئيس المجلس وقال وهو ينظر فى وجه حلمى كأنه يختبر قوته :

- إنت بتتكلم زى ما تكون لسة طالب.. على كل حال، اتفضل على مكتبك دلوقت.. ونبقى نتكلم مرة تانية.

ووقف حلمى قائلا :
– إحنا لسة ما تكلمناش فى موضوع العطاء.
وقال رئيس المجلس كأنه يزيحه من أمامه :
– حانتكلم كتير.. بس مش دلوقت.. فيه ناس مستنيين فى أودة السكرتير عندى مواعيد معاهم.. ناس مهمين.
وتردد حلمى.. لا يدرى ماذا يقول ولا ماذا يفعل.. ثم قال فى صوت أجش :
– متشكر.
واستدار نحو الباب، دون أن يمد يده لمصافحة رئيس مجلس الإدارة.
وقبل أن يخرج، سمع صوت المدير يقول له :
– إنت لسة شيوعى يا حلمى ؟
والتفت إليه حلمى وعيناه تبرقان فى غضب، وقال :
– إيه لازمة السؤال ده دلوقت ؟
وقال المدير وعلى شفتيه ابتسامة خبيثة :
– أبدا.. بس بعض أصدقائك اللى كانوا معاك فى المدرسة، قالوا لى إنك شيوعى.. حبيت أتأكد منك.
وقال حلمى وهو ينظر فى وجه المدير بكل عينيه الواسعتين :
– أنا كنت شيوعى لما كنت فى ثانوى.. إنما دلوقت مش شيوعى.. ولو كنت شيوعى لغاية دلوقت كنت قلت لك.. وكنت قلت للحكومة.. وإذا كنت فاكر إنك بتهددنى.. أحب أقول لك إنى ماباخفش، ومايهمنيش التهديد.
وابتسم المدير ابتسامة صفراء وقال :
– أنا بس كنت باسأل.
ثم أدار رأسه كأنه يتجنب عينى حلمى الغاضبتين.



ذهب حلمى فى المساء إلى مقهى عرابى وروى لصديقيه محمد وتوفيق كل ما جرى له فى الشركة التى يعمل فيها.. واستمع محمد إليه وعلى شفتيه ابتسامته الحلوة، وفى عينيه نظرات حالمة كأنه يستمع إلى قصة مثيرة يتلهف على نهايتها.. وصرخ توفيق بعد أن استمع إلى حلمى:

– إنت فاكر نفسك إيه يا أخى.. فاكر نفسك بطل.. زعيم.. إنت مهندس من بين ألف مهندس.. مالك إنت ومال عطاءات الشركة بتاعتك.. تحفر قبرك بإيدك يا حلمى..

وقال حلمى والمرارة فى شفتيه، ونظرة تحد فى عينيه:

– أنا مستعد أحفر قبرى بإيدى.. لكن مش مستعد أسكت..

ونظر إليه توفيق كأنه ينظر إلى مجنون:

– تعرف حايعملوا إيه.. الشركة حاتلفق لك تهمة شيوعية.. وتلاقى اسمك لسة مكتوب فى دفاتر الداخلية من أيام ما كنت شيوعى.. يعنى من عشر سنين فاتوا.. وبس يا حلو.. تخش المعتقل وإنت زى الجدع..

وقال حلمى فى إصرار:

– أنا عارف إن المدير ناوى يعمل كدة.. إنما البلد مش سايبة.. ولو كنت شيوعى، ولا لى نشاط شيوعى، ماكانتش الداخلية سابتنى لغاية دلوقت.

وقال توفيق:

– اسمع كلامى يا حلمى..

وقال حلمى:

- لا.. مش حاسمع كلامك..

وقال محمد ضاحكا:

- ولا أنا حاسمع كلامك..

وسكت توفيق قليلا، ثم لمعت عيناه فجأة وقال لحلمى فى حماس:

- تعرف إيه اللى تقدر تعمله..

وقال حلمى فى اهتمام:

- إيه ؟

قال توفيق فى حماس أكبر:

- تبلغ المخابرات..

ونظر حلمى فى وجهه بدهشة كأنه فوجىء، ثم تغلب على دهشته، وقال وهو يهز كتفيه:

- ما عرفش حد فى المخابرات.. وما أظنش دى شغلة المخابرات..

وقال توفيق محتجا:

- أمال شغلة مين.. ناس حايرتكبوا جريمة.. يبقى لازم تبلغ الحكومة.. والحكومة يعنى المخابرات..

وقال حلمى:

- أنا مش عايز أبلغ عن حد.. أنا باعتبر إن دى مسئوليتنا إحنا.. مسئولية المهندسين:

وقال توفيق فى فرح:

- بلاش تبلغ إنت.. سيب الحكاية دى علىّ أنا..

والتمع وجه توفيق، واتسعت ابتسامته، كأنه عثر على صيد ثمين.. ونظر إليه حلمى فى استخفاف صامت دون أن يعلق بشىء، كأنه لم يعد يهمه شىء.

ثم قام الأصدقاء الثلاثة، وساروا على أقدامهم إلى شارع الجيش، وركبوا الأوتوبيس إلى بيت محمد فى المطرية، ليسهروا هناك كما اتفقوا أمس.

وحلمى سارح بعقله بعيدا عن ضحكات محمد، ومناقشات توفيق.. وكلمة مدير الشركة تتردد فى أذنه.. هل أنت شيوعى؟ هل انت شيوعى؟ انه يعرف لماذا سأله المدير هذا السؤال.. انه تهديد فى صيغة سؤال.. وانطلقت فى خياله صورة قاتمة.. تخيل رجال البوليس يطرقون عليه باب بيته.. ويقبضون عليه.. ويسحبونه إلى الداخلية.. ويقف هناك أمام الضابط المختص، ويجيب عن أسئلته.. عشرات من الأسئلة.. وسيجيب بصراحة.. سيقول لهم إنه كان شيوعيا فى صغره.. وكان من حقه أن يكون شيوعيا.. وأن يكون من الإخوان المسلمين..كان من حقه أن يتحرك فى أى اتجاه حتى لو كان اتجاها خاطئا.. إن الذين يتحركون خير من الذين يقفون جامدين بلا حراك.. الذين يحاولون البحث عن مذهب، عن فهم للحياة التى تحيط بهم، خير من الذين لا يحاولون الفهم.. وقد كان الناس أيامها يبحثون عن مبادئهم بأنفسهم.. كل واحد يبحث عن مذهبه.. لم تكن هناك قيادة يمكن الإيمان بها.. لم يكن فى تلك الأيام قائد يستطيع أن يكتسب ثقة الشعب واحترامه، ويجذب الشعب وراءه فى طريق الأمل.. وسيقتنع ضابط البوليس بكل ذلك.. ويطلق سراحه.. ويعتذر له عن الخطأ الذى وقعوا فيه نتيجة وشاية المدير به.

ولكن..

لنفرض أنهم لم يحققوا معه.. لم يسألوه.. إنما ألقوا به فى السجن، وتركوه أياما، أو شهورا.. دون أن يسألوا عنه.. وهو لا يخاف السجن.. ولكنه لا يريد أن يسجن لمجرد وشاية.. أن يسجن بلا سبب.. وهو يسمع عن ناس اعتقلوا أو دخلوا السجن، بلا سؤال.. وقد يكون ما سمعه مجرد إشاعات كاذبة.. وقد يكون حقيقة.. ماذا يفعل إذا حدث ودخل السجن.. بلا سبب؟

ووصلوا إلى بيت محمد، وصافح حلمى سناء دون أن ينظر فى وجهها.. دون أن يلاحظ عينيها المكدودتين، رغم لمعة الفرح بلقائه.. ولم يلاحظ وجهها الباهت قليلا.. ولم يلاحظ أن ابتسامتها

الكبيرة تهتز فوق شفتيها. كأن شفتيها لا تحتملان الابتسام.

لقد قرر أن يدعو نفسه عند محمد، خصيصا ليسأل سناء عن حال صديقه بعد الزواج.. عن هذا الشذوذ الذى بدأ يلاحظه عليه.

ولكنه نسى كل شيء..

والتفوا حول المائدة العتيقة يشربون البيرة، ويأكلون الفول الأخضر الذى جمعته سناء من الحقل المجاور.

ومحمد يلقى نكاته ويمثل خياله..

وتوفيق يتباهى بمعلوماته عن كل شيء.. وينظر إلى سناء بين الحين والآخر.. نظرة ليس فيها كثير من الاحترام، وفيها كثير من الاتهام.. كأنه لا يزال يتهمها بأنها ضحكت على صديقه محمد وتزوجته.

وسناء تدور حولهم.. تشرب من كأسها.. ثم تقوم إلى المطبخ.. ثم تعود لتعد لهم طبقا من الجبن.. وتحاول أن تضحك.. وأن تخدم ثلاثتهم.. تحاول أن تكون ست بيت.. إنها المرة الأولى التى يأتى فيها حلمى وتوفيق بعد أن تزوجت محمد.. وقد كانوا يأتون قبل أن تتزوج.. لم تكن أيامها ست بيت.. كانت حبيبة محمد.. وهناك فرق كبير.. إنها تعلم هذا الفرق.. وتحس به.. الفرق بين ست البيت، والعشيقة، إنه الفرق بين النور والظلام! الفرق بين الكلام والهمس.. الفرق بين النظرة الهادئة المحترمة، والنظرة المرتعشة الرخيصة.

ولم تكن سناء تحب توفيق.. طول عمرها لم تحبه.. وتتقزز منه.. تحس به يسيل على أعصابها كالزيت البارد.. ودائما تتساءل كيف يطيق محمد صداقة مثل هذا الإنسان.. وكيف يمكن أن يجمع بينهما حديث واحد، أو جلسة واحدة.. ولكنها كانت تحب حلمى.. كانت تشعر به كإنسان محترم.. يحترمها.. ويحترم نفسه.. وكانت تحس باحترامه لحبها لمحمد.. واحترامه لزواجها منه.. وكانت كثيرا ما تفكر فى الالتجاء إليه كلما أتعبها محمد.. ولكنها كانت تجبن عن الالتجاء إليه.. كان احترامه لها واحترامها له يقف بينهما كحاجز من الزهر الجميل، تخاف أن تتعداه حتى لا تنثر مشاكلها

على الزهور فتضيع جمالها.. ولكنها اليوم تشعر أكثر من أى يوم آخر بحاجتها إليه.. هناك أشياء لا تستطيع أن تصرح بها لمحمد.. ولا تحب أن تسأل فيها صديقها صادق بيه.. ولكنها تستطيع أن تقولها لحلمى ليساعدها فيها.. حلمى هو الإنسان الذى تستطيع أن تلجأ إليه اليوم.

ولكن حلمى يبدو مهموما..سارحا.. وهو يقتصد فى مجاملتها إلى حد كبير.. لعل هناك شيئا يقلقه.

وحلمى يضحك كصدى لضحكات زميليه، دون أن يحس بطعم الضحك، ويشرب دون أن يحس بطعم الشرب.. ودون أن تؤثر فيه الكئوس الكثيرة التى شربها.

واقترح محمد وتوفيق أن يبدأوا فى إعداد العشاء.

وصاح محمد:

- يا أسطى حلمى.. اتفضل على المطبخ..

وابتسم حلمى وقام واقفا وهو يحاول أن ينفض أفكاره من رأسه، وقال:

- حاثبت لكم إنى أسطى صحيح.

ودخل حلمى المطبخ وسناء تجرى وراءه.

وبدأ الاثنان يعدان معدات الشواء.. وحلمى يشعل وابور الجاز، وسناء تعد قطع اللحم.. وفى لفتة التقت عيونهما.. ولاحظ حلمى العينين المكدودتين.. واللون الباهت.. والابتسامة المهزوزة.. وتذكر أنه جاء ليسأل عن حال صديقه.. تذكر أن هناك مشكلة أخرى غير مشكلته.

وابتسم لسناء ابتسامة حانية، ثم أدار رأسه عنها وقال وهو يضع قطع اللحم فوق النار:

- عاملة إيه يا سناء..

وقالت سناء وعيناها مرخيتان:

- ولا حاجة..

وقال وهو يحاول أن يبدو مرحا:

– يا ترى محمد أثبت أنه ينفع زوج؟
وقالت في بساطة:
– لأ..
ورفع رأسه إليها ونظر إليها في دهشة، وقابلته بعينين حزينتين فيهما عذاب كبير.. وأدار حلمي رأسه بسرعة كأنه يخشى أن يواجه كل هذا العذاب، ثم قال وهو يحاول أن يحتفظ بلهجة المرح في صوته:
ـ أنا ملاحظ إنه بدأ يتغير..
وقالت سناء :
– ماتغيرش.. وتعبان لأنه مش قادر يتغير
وقال حلمي وحاجباه معقدان فوق عينيه :
– مش فاهم.
وتركت سناء السكين التي كانت في يدها والتفتت إلى حلمي بكل جسمها قائلة :
– محمد ماحسش إننا اتجوزنا.. ومش عايز يحس.. مش عايز يحس بمسئولية بيت.. ولا بمسئوليتي.. لسة بيقابلني زي ما كنا بنتقابل زمان.. ولسة باجري وراه زي ما كنت باجري وراه.. تعرف إنه لغاية دلوقت محمد ما طلبش ماهية من الفرقة.. ولغاية دلوقت مش عارفة أعيش.. مش عارفة أعمل ميزانية للبيت.. يوم ما يكون معاه فلوس يصرف زي ما يكون مليونير ويوم ما يكون ما معهش فلوس أبعت أستلف شوية فول وحتة جبنة من الحاج مدبولي.. ومحمد ولا هو حاسس.. وإذا كلمته ولا طلبت منه حاجة، يتجنن. يجري.. يعمل الحركات اللي إنت عارفها.
وقال حلمي وقلبه تعصره الشفقة عليها :
– بس انتي عارفة إن محمد طول عمره كدة.. وإنتي حبتيه وهو كدة.. ومش معقول يتغير بالسرعة دي.
وقالت سناء بحدة :
– اشمعني أنا اتغيرت.. ما أنا كنت زيه.. وكانت باحب عيشته.. إنما بعد ما اتجوزت حسيت إن بقالي بيت، وإني مسئولة عن البيت

ده.. حسيت إن حلاوة الدنيا مش فى الخيال بس إنما الواقع كمان له حلاوة.. حلاوة البيت.. حلاوة العائلة.. حلاوة الاستقرار.

وقال حلمى :

– واقع محمد هو خياله.

وقالت سناء وهى تكاد تبكى :

– ده ما بيحاولش.. ما بيحاولش يعرف حاجة، ولا يسأل عن حاجة.. متهيالى لو رجع يوم ولقى راجل تانى فى البيت، مش حايسأل.

وقال حلمى :

– يمكن.. إنما أنا عارف إنك مش ممكن تعملى كدة.

وقالت سناء والدموع فى عينيها :

– أنا مابافكرش أعمل كدة.. أنا سبت شغلى علشان خاطر يبقى لى بيت وراجل.. لقيت البيت، ومش لاقية الراجل.. وحاتجنن.

وربت حلمى على كتف سناء، وقال فى حنان :

– استحملى يا سناء.. وطول ما إنتى بتحبيه حا تستحملى :

وقالت وهى تنشج :

– أنا خلاص.. مابقتش عارفة إذا كنت باحبه ولا لأ.

وقال حلمى وهو يبتسم :

– أنا عارف إنك لسة بتحبيه.. بس كان فيه حاجة مش لازم تعمليها.

ورفعت سناء أهدابها المخضلة بالدموع وقالت :

– إيه.. أنا عملت إيه ؟

وقال حلمى :

– ماكانش لازم تسيبى شغلك.. اللى تعيش مع محمد لازم تعتمد على نفسها.

وهزت سناء كتفيها وقالت :

– مش مهم الشغل.. أنا أقدر اشتغل فى أى وقت.. إنما فيه حاجة أهم.. و...

وسكتت..

وقال حلمى :

- إيه هو الأهم ؟

وترددت سناء قليلا ثم قالت :

- احلف إنك مش حاتقول لمحمد.

وابتسم حلمى ابتسامة صغيرة يخفى بها تردده وقال :

- مش أعرف الأول.

وقالت سناء :

- لأ.. أحلف الأول.

وقال حلمى :

- حلفت.

وسكتت سناء قليلا وهى تنظر فى عينيه، ثم أحنت رأسها وقالت فى صوت أشبه بالهمس :

- أنا حامل.

واتسعت عينا حلمى وقال فى دهشة :

- مش معقول.

ورفعت سناء عينيها إليه وفيهما نظرة عتاب، على دهشته.. وسكتت.

واستطرد حلمى قائلا :

- ومش عايزة تقولى لمحمد ليه ؟

وقالت سناء :

- خايفة.

قال :

- خايفة من إيه ؟

قالت :

- خايفة يجرى.

وفكر حلمى قليلا ثم قال :

- لأ.. مش حايجرى.. حايفرح.. لأنه مش حايقدر المسئولية.. زى ما اتجوزك.. اتجوزك ببساطة لأنه ما حسش بمسئولية الجواز.

وقالت سناء فى رجاء :
- معلهش يا حلمى.. سيبنى أنا أقول له بطريقتى.. إنت حلفت.
وقال حلمى وهو يعود وينظر إليها فى اشفاق :
- حاضر.
وفجأة دخل محمد وتوفيق.. تتقدمهما ضحكات صاخبة، وصاح محمد وهو يمثل دور الجرسون البلدى :
- واحد كستليته مشوى لمحمد.. بس صلحه.
ثم مد أصابعه والتقط قطعة من الشواء من فوق النار، وهو يصيح :
- اللذيذ السخن.
ومد توفيق أصابعه والتقط قطعة من الشواء، وهو يقول لحلمى:
- يعنى لو كنت فتحت مطعم مش كان بأه أحسن.
وقال حلمى وهو يضحك ضحكة صغيرة :
- كان زمانى عامل أزمة مع وزير التموين.
والتف الأربعة يأكلون الشواء من فوق النار، ويشربون كئوس البيرة.. وحلمى ينظر بين الحين والحين فى وجه محمد، ويسائل نفسه.. هل يصلح هذا الإنسان ليكون أبا؟ ثم ينظر إلى سناء فى اشفاق.

●●●

فى اليوم التالى ذهب توفيق إلى مكتبه فى الشركة، وكل عصب فيه ينبض بالفرحة والحماس.
وما كاد يجلس على مكتبه حتى اتصل بالأستاذ عبدالسلام سكرتير العضو المنتدب، وصاح وفرحته فوق لسانه :
- صباح الخير يا عبدالسلام.. قول لى وحياتك الصاغ رفعت وصل.
وقال عبدالسلام :
- صباح النور يا باشمهندس.. خير.. عايز الصاغ رفعت فى إيه؟
وقال توفيق :

- والله واحد صاحبه مبلغني رسالة له.. أول ما ييجي إديني خبر، وحياتك.

وقال عبدالسلام :

- حاضر يا سيدى.. من عيني يا باشمهندس.

ووضع توفيق سماعة التليفون، وسرح بخياله وراء الصاغ رفعت ضابط المخابرات الذى يتردد على الشركة.. لقد وجد الوسيلة التى يستطيع بها أن يتقرب إلى الصاغ رفعت.. بل إلى جهاز المخابرات كله.. سيعطيهم قصة تثير كل اهتمامهم وكل حماسهم.. ربما عينوه بعد ذلك فى المخابرات.. ربما استطاعوا أن يجعلوا منه مديرا للشركة.. أو ربما عضوا فى مجلس الإدارة.

ومرت الساعات، وتوفيق يحلم.

وفى الساعة الواحدة أبلغه عبدالسلام أن الصاغ رفعت وصل، وإنه دخل إلى مكتب العضو المنتدب.

وقفز توفيق من فوق مكتبه، وذهب إلى مكتب عبدالسلام وجلس بجانبه فى انتظار أن يخرج الصاغ رفعت.

ومرت ساعة وهو لا يمل الانتظار.. وعبدالسلام يلح عليه أن يطلعه على سر لهفته فى مقابلة الصاغ رفعت، ثم قال له :

- إوعى تكون منهم وأنا مش دارى.

وقال توفيق :

- ياريت يا شيخ.. إنما كل اللى حصل إن واحد صاحبى عرف إن الصاغ رفعت بييجى هنا فطلب منى أن أقول له يتصل بيه.. لأنه مش عارف يتصل بيه.

ونظر عبدالسلام إلى توفيق فى شك ثم قال :

- مصدق يا باشمهندس.

وأخيرا خرج الصاغ رفعت من مكتب العضو المنتدب.

وقفز توفيق واقفا ويده التى يصافح بها تتصبب عرقا، كأن لعابها يسيل لهفة.. ثم تقدم إلى ضابط المخابرات وقال وهو يمد يده العرقانة :

- أنا المهندس توفيق نظمى.

وابتسم الصاغ رفعت ابتسامة هادئة وقال :
- تشرفنا.. أنا باسمع عنك كتير.. السيد العضو المنتدب بيشكر فيك قوى.
وقال توفيق فى أدب مصطنع :
- متشكر يا أفندم.. بس والله أنا كنت عايز سيادتك فى كلمة خصوصية.
وقال الصاغ رفعت بابتسامته الهادئة :
- خير .
وقال توفيق :
- تسمح تقعد فى مكتبى شوية ؟
ونظر إليه ضابط المخابرات كأنه يقرأ ما وراء جبهته، ثم قال :
- مافيش مانع.
وسار الاثنان إلى المكتب.. وقدم توفيق له مقعدا، ولم يجلس فى مكانه خلف المكتب، بل جلس فى مقعد آخر بجانب رفعت، ثم قال فى أدب :
- والله أنا عندى معلومات أعتقد أنها خطيرة، ومش عارف أعمل بيها إيه، ولا أبلغها لمين.. قلت أستشير سيادتك.
وعاد الصاغ رفعت ينظر إليه فى تمعن، ثم قال :
- معلومات خاصة بالشركة بتاعتنا ؟
وقال توفيق :
- لأ.. خاصة بالشركة الهندسية الكبرى.. لى زميل هناك أطلعنى على معلومات خطيرة.
وسكت رفعت قليلا ثم قال ورنة التعالى فى صوته :
- إنت عارف إن كل واحد فينا مختص بعمل معين.. وأنا مختص بالشركة دى.. إنما معنديش مانع أسمع كلامك.
وبدأ توفيق يروى كل ما سمعه من حلمى عن مناقصة مشروع بناء مصنع النسيج، ووجه الصاغ رفعت يكسوه الاهتمام.. ويتزايد اهتمامه كلما استطرد توفيق فى روايته.. ثم قال :
- دى معلومات خطيرة.. وأعتقد إننا لازم نتخذ إجراء سريع..

بس أرجوك ما تقولش لحد إنك بلغتنى حاجة.
وقال توفيق فى حماس :
– مش ممكن أبدا.
وقال رفعت :
– وعايزك تتصل بصديقك وتجيب منه كل المستندات اللى يقدر يحصل عليها.. وتلمها لى شخصيا.
وقال توفيق :
– حاضر.. الليلة حاتصل بيه.
وابتسم الصاغ رفعت وقال :
– إنت بتؤدى للبلد خدمة كبيرة.
ثم تنحنح، واستطرد قائلا وهو ينظر فى وجه توفيق :
– وعايز منك خدمة تانية.. برضه للبلد.. أنا عارف إنك فى قسم المشروعات.. وإحنا ناويين نبنى أربع فيلات لوكس لاستعمالها فى أعمال خاصة بالدولة.. حايسكن فيها ناس مهمين.. عايزك تحسب لى تكاليف بناء الفيلات دى.. على مساحة ألف متر.. كل فيلا دورين، وثلاث أود نوم.. تحسب التكاليف من غير أرباح.. يعنى يدوبك التكاليف.
وقال توفيق وعيناه تلمعان بالفرح :
– حاضر.. دى حاجة بسيطة.
وقال رفعت :
– بس برضه مش عايز حد يعرف إنى كلفتك بالمهمة دى.. ولا حتى السيد العضو المنتدب.. أنا بافضل إنه يكون الاتصال بينا مباشر وشخصى.
وقال توفيق وابتسامته الكبيرة ترفع شاربه وتلصقه بأنفه:
– تأكد يا أفندم إن ما حدش حا ياخد خبر أبدا.
ومد رفعت يده وربت على ساق توفيق، ثم قام واقفا وصافحه، قائلا :
– أنا معتمد عليك.
وخرج، وتوفيق ينظر خلفه مبهورا.

لقد أصبح.. مخابرات.

ولم يكن يعتقد أن الأمر يمكن أن يتم بهذه السهولة.. ولكنه الحظ.. فلولا الزوبعة التى أثارها حلمى فى شركته حول مشروع بناء مصنع النسيج لما وجد شيئا يتقدم به إلى المخابرات. إن الحظ يسير دائما فى ركابه.

وجرى توفيق إلى التليفون وطلب صديقه حلمى. وقال له فى حماس:

– الموضوع اتحل.

وقال حلمى فى برود :

– موضوع إيه ؟

وقال توفيق كأنه يتهم صديقه بالغباء :

– موضوع المناقصة.. ومش حاأقدر أقول لك على كل حاجة دلوقت.. استنانى عندك، أنا جاى لك حالا.

وخرج من مقر الشركة، وركب سيارة أجرة، وأمر السائق بأن يتجه به إلى الإسعاف.. وهو يتعجل كل دقيقة تمر به.. إنه فى حاجة إلى كل دقيقة.. حتى يلبى طلبات المخابرات.

ودخل إلى صديقه حلمى فى مكتبه.

وتأفف عندما وجد أن حلمى معه زميل آخر يشاركه نفس الغرفة.. إن حلمى لا يستطيع أن يكبر أبدا.. لا يستطيع أن يجعل لنفسه أهمية ومركزا يعطيه الحق فى أن ينفرد بغرفة وحده، كما استطاع هو أن يفعل.

وهمس فى أذن صديقه :

– إنت مش خلصت شغلك ؟

وقال حلمى وهو ينظر فى وجه صديقه متسائلا :

– تقريبا.

وقال توفيق :

– طيب قوم نتغدى سوا، وحاحكيلك كل حاجة فى السكة.

وخرج الصديقان يسيران فى شارع ٢٣ يوليو متجهين إلى مطعم «الأونيون» ومال توفيق على أذن حلمى بعد أن جلسا إلى المائدة، وهمس :

- خلاص.. مشكلتك اتحلت.
وعقد توفيق حاجبيه العريضين وقال :
- إزاى ؟
وقال توفيق في مباهاة :
- بلغت المخابرات.
ونظر حلمي في وجه صديقه ثم ابتسم ابتسامة ساخرة وقال :
- والله يا أخي أنا متهيألى إن المخابرات دى أسطورة.. ولا فزورة.. حاجة بنسمع عنها ولا نشوفهاش.
وقال توفيق وهو يخفض من صوته :
- ماتبقاش مجنون.. إنت عندك شك في إن فيه مخابرات ؟ دى هيئة رسمية معترف بيها.
وقال حلمي :
- يعنى بلغت مين في المخابرات ؟
وقال توفيق بسرعة :
- واحد مهم.
وقال حلمي بحدة :
- يعنى مين.. اسمه إيه !؟
وقال توفيق :
- ما أقدرش أقولك.. ماعنديش اذن إنى أصرخ باسمه.
وقال حلمي :
- بلاش.. عنك ما قلت.
وقال توفيق :
- بس فيه حاجة لازم تعملها.
وقال حلمي في زهق :
- إيه ؟
قال توفيق :
- تجيب صورة من كل مستندات المناقصة.
وقال حلمي ساخرا :
- وأديهم لمين؟

وقال توفيق :
- ليّ أنا.
وقال حلمى وهو لا يزال يسخر :
- وإنت تديهم لمين ؟
وقال توفيق وعيناه تضجان بالغيظ :
- للمخابرات.
وعاد حلمى يقول :
- مين فى المخابرات ؟
وضرب توفيق على المائدة بقبضته وقال كأنه يصرخ صراخا مكتوما :
- إنت حاتجننى يا أخى.. قلت ما أقدرش أقول لك. إنت فاكر إن المسألة لعب.
وقال حلمى فى حزم :
- وأنا ما أقدرش أودى مستندات لواحد ما أعرفوش.. مجهول.. ما يمكن نصاب وبيضحك عليك.
وقال توفيق وهو لا يزال محتدا :
- إنت فاكرنى هفية.. عيل صغير.. أنا إذا ماكنتش متأكد من اللى باعمله ما اعملش حاجة.
وقال حلمى فى هدوء :
- وأنا ما أقدرش أتعاون مع واحد مجهول.. مع وهم.. مع سراب.
وسكت توفيق وهو ينظر إلى صديقه فى غيظ.. ثم قال وهو يدس الشوكة فى طبق المكرونة الاسباجتى التى أتى بها الجرسون:
- حاضر يا سى حلمى.. أنا حاثبت لك إنه لا وهم ولا سراب.. بس لازم استأذن أولا.. واعذرنى إذا كنت باخبى عليك.. دى مسائل كبيرة.
واكتفى حلمى بابتسامة صغيرة.. وبدأ يأكل.. وعقله سارح.

●●●

وخرج الصديقان من مطعم الأونيون، واتجه توفيق إلى بيته فى العباسية.. وسار حلمى فى شارع سليمان باشا يفكر فى قصة المخابرات التى رواها له توفيق.. لماذا يحتاج إلى مخابرات.. لماذا يحتاج الناس إلى المخابرات.. لماذا لا يتجمع الناس ليحلوا مشاكلهم بصراحة؟ إن المفسدين لا يستطيعون الإفساد إلا إذا وجدوا أناسا يساعدونهم على إفسادهم، أو على الأقل يسكتوا عليهم.. فلماذا يسكت الناس.. لماذا يجبنون عن حماية مبادئهم وأخلاقهم خوفا من ضياع رزقهم؟ إن الناس أقوى من هؤلاء المفسدين.. إن مجموع العمال والموظفين فى أى مصنع.. فى أى مكان.. أقوى من المدير.. وأقوى من رئيس مجلس الإدارة.. وأقوى من أعضاء المجلس.. فلماذا يخافون.. لماذا لا يتجمعون ويتحدون ليكونوا القوة التى تحمى إنتاج المصنع ومصالح البلد.. لماذا يستطيعون أن يتجمعوا فى حفلة ولا يستطيعون أن يتجمعوا فى عمل كبير؟ إنها الفردية.. الأنانية الفردية، التى تنتهى بالجبن.. والخوف.. والجشع.. والضياع.. ثم إذا أصابتهم مصيبة.. بحثوا عن المخابرات.. عن الحكومة.

ووصل حلمى إلى باب العمارة التى يسكن فيها.. وما كاد يضع قدمه على أول سلمة حتى تذكر تحية.. وتذكر عذابه بها طوال هذا الصباح.. لقد وعدته أن تحادثه فى التليفون.. ولكنها لم تحدث.. ظل طوال يومه وسراب من الرنين يملأ أذنيه.. وعيناه معلقتان فوق التليفون.. ولكنها لم تتكلم.. إنا حائرة فيها.. لا يستطيع أن يفهمها.. لا يستطيع أن يمسك بها.. كلما خيل إليه أنها بين يديه، رآها بعيدة.. بعيدة.. كأنه لن يصل إليها أبدا.

ولكن.

ربما كانت تنتظره الآن فى الشقة.

وصعد به المصعد، وقلبه يصعد إلى حلقه.



مضى شهر وأزمة حلمى تشتد.. أزمة كل حياته.. أزمة إحساسه بأنه دائما فى الوسط.. لا هو كبير ولا هو صغير.. لا هو يستطيع أن يحمل ثورته ويسير بها، ولا هو يستطيع أن يتنازل عنها.. لا هو يستطيع أن يملك تحية ولا أن يستغنى عنها.. لا يستطيع أن يهرب من إحساسه بالخطيئة.. ولا يستطيع أن يعيش بلا خطيئة.. لا يستطيع أن يستسلم لضعفه، ولا يستطيع أن يؤمن بقوته.

وقد زارته تحية خلال هذين الأسبوعين مرتين.. لا.. ثلاثا.. وحادثته فى التليفون خمس مرات.. لا.. سبع مرات.. ولكنها كانت دائما تزوره بلا موعد.. فجأة.. يعود إلى البيت فيجدها.. وكان يعود كل يوم مبكرا، لعله يجدها.. لا يذهب إلى السينما.. ولا يسهر مع أصدقائه.. إنه دائما فى البيت، لعلها تأتى.

وكانت تحادثه فى التليفون بلا موعد أيضا.. إنها تحادثه فى الوقت الذى ييأس فيه من حديثها.. وتصمت عنه فى [illegible] لهفته إليها.. وكان يصرخ فيها :

– ماتكلمتيش ليه امبارح ؟

فترد بصوتها المسترخى البرىء :

– ما أقدرتش يا حلمى.. وحياتك ما أقدرتش.. إنت عارف جوزى.

ويصدقها.

لا لأنها صادقة.. إنه يعلم إنها ليست صادقة.. كل عصب فيه

ينبئه بأنهـا ليست صادقة.. ولكنه يصدقها لأنـه يريد أن يصدقها.. يريد أن يرتاح.

وكان يسألها واللهفة تمزق قلبه :

- حاشوفك إمتى ؟

فترد فى دلال :

- مش عارفة يا حلمى.

فيصرخ :

- لازم أشوفك النهاردة.

فتقول كأنها تبكى :

- ياريت يا حلمى.. إنت عارف إنى عايزة أشوفك كل يوم.

ويعود يصرخ :

- لازم تعـرفى إن ليّ حق عليكى.. حـقى عليكى أكـبـر من حق جوزك.. وإنتى بتقولى إنك حاتسيبيه وتتجوزينى.. مستنية ايه.؟!

وتقول بصوتها الذى يبدو صادقا :

- المســألة مش سهلة يا حلمى.. تفتكر إنـه يرضـى يطلقنى كدة بالساهل.

ويصرخ، وهو يحاول أن يكتم صراخه، فيخرج صوته مبحوحا:

- المـهم.. لغاية مـا يطلقك لازم نشوف بعض أكـتر مـن كدة.. ولازم أشوفك النهاردة.. ماتتعبنيش يا تحية.

وترد كأنها تربت على خد طفل صغير :

- حا أحاول يا حلمى.. حا أعمل كل جهدى.

وتضع السماعة.

وتتركه حائرا.. يعصره الألم.. ويشق صدره إحساسه بضعفه.. إنها لا تريد أبدا أن تقول، لا.. ولا تريد أن تقول، نعم.. كل ما تريده هو أن تتركه معلقا من أذنيه فى الهواء، تؤرجحه كلما شاءت.

وهو يعلم أن الشىء الـوحيـد الذى يثـيـرها هو خوفـهـا من أن يتزوج.. إنها لا تريده أن يتزوج، لا لأنها تريد أن تتزوجه هى، ولكن فقط ليـبقى ملكا لهـا.. ورغم ذلك فهو لا يجـيد تهديدها بمـشروع

زواجه.. إنه لا يجيد الكذب.. وهو يحس بأنها بدأت تكشف كذبه.. بدأت تستهين بتهديده.. ربما لأنها ترى ما في داخل نفسه.. ترى إنه يحبها وأنه لا يستطيع أن يتزوج غيرها.

ويقرر أن ييأس منها.. يقرر أن يتركها.. ولكنه يتعذب.. يعيش وفي صدره صاروخ من نار.. ولا يستطيع أن يجذب أذنيه بعيدا عن التليفون، لعلها تتكلم.. ولا يستطيع إلا أن يعود إلى البيت مبكرا، لعله يجدها.

ولكنه يجب أن ييأس منها.

يجب أن يتركها.

يجب أن يتخلص من ضعفه.

ويمتلىء صدره بصراخ، كأنه صراخ أسد جريح.

وأزمته في الشركة تشتد أيضا.. كل حركة الشركة تدور حول تنفيذ عطاء بناء مصنع النسيج.. كل زملائه المهندسين يعملون في تنفيذ المشروع الكبير.. والمدير يدور بينهم كالنحلة يتعجلهم، ويشرف على عملهم.. ويشتغلون ساعات اضافية، ويأخذون عليها أجرا إضافيا.. حركة.. حركة نشطة تقفز فوق كل مكتب.. ما عدا مكتبه.. إن الشركة أبعدته عن كل ما يتعلق بالمشروع.. لا تريد أن تعهد إليه بعمل.. ويجلس صامتا يرى الرسومات والأرقام تطوف أمام عينيه، ويعلم أنها تحمل جريمة الغش.. يعلم أن أمامه خيانة تعد في حق بلده.. ولا يستطيع أن يفعل شيئا.. لا يدري ماذا يفعل؟ وزملاؤه المهندسون يتحاشونه حينما يمرون به ويطلقون تحية فاترة، دون أن يجرؤ واحد منهم على أن يجلس ليتحدث إليه.. كأنه مريض يخشون عدواه.. ولكنه يعذرهم.. إنهم يخافون المدير.. ولم يفقد ثقته فيهم.. إنه واثق أنهم سينضمون إليه في اللحظة الأخيرة.. سيقفون بجانبه.. ولعلهم إلى الآن لم ينتبهوا بعد إلى خطورة الجريمة التي تستغلهم الشركة في ارتكابها.. لعلهم يعتبرونه مشروعا آخر من مئات المشاريع التي قاموا بتنفيذها.. قد يكون فيه بعض الغش، وقليل من الرشوة.. مما لا يؤثر على سلامة

المشروع.
وينظر إليهم ويبتسم ابتسامة فيها ثقة، وفيها مرارة.
وفجأة.
تلقى حلمى خطابا من مدير الشركة، يكلفه فيه بالسفر فورا إلى قنا للاشراف على تنفيذ بناء الوحدة المجمعة هناك.
وثار حلمى.
إنه يعلم أن القصد من هذا التكليف هو ابعاده عن مركز الشركة حتى لا يتتبع أنباء مشروع بناء مصنع النسيج.
وهو لم يتلكأ أبدا فى تنفيذ أمر من أوامر الشركة.. ولا يهمه أن يعمل فى قنا أو أسوان أو فى جهنم.. ولكن هل يخضع لهذا الإبعاد المتعمد.
لا.
لن يخضع.
وبسرعة.. ونار التحدى تشعل رأسه.. أمسك بالقلم وكتب:
«السيد مدير عام شركة القاهرة للمباني.
«بعد التحية..
«وصلني الآن خطاب سيادتكم الخاص بتكليفي بالسفر إلى
«قنا للإشراف على تنفيذ مباني الوحدة المجمعة هناك، وبما أنه
«سبق أن دار بيني وبين سيادتكم حديث حول مشروع بناء
« مصنع النسيج، انتهى إلى خلاف صريح بيننا، كما سبق أن
«عرضت الأمر على السيد رئيس مجلس الإدارة، وانتهيت أيضا
«إلى خلاف معه، فإني أشعر بان تكليفي بالسفر إلى قنا هو
«مجرد إبعاد لي، خصوصا أن لنا زميلا يشرف على مباني
«الوحدة هناك منذ مدة مما لا يقتضي تكليفي بالعمل نفسه.
«لذلك فإني أعتذر عن تنفيذ أمر السفر إلى قنا، وأرجو ـ كما
«سبق أن طلبت من سيادتكم ـ أن تعهدوا إليّ بالمشاركة في
«تنفيذ مشروع مصنع النسيج، نظرا لموقفي السابق منه.. و..
وقاطعه زميله المهندس رحمي وهو ينظر إليه في دهشة :

– بتكتب إيه ؟

وقال حلمى فى حدة :

– مش مسافر قنا.

وقال رحمى وهو ينظر إليه فى اشفاق :

– ما تقدرش.. إنت عارف معنى كدة إيه.. معناه إنك تبقى ممتنع عن العمل.. والقـانون يدى الشركة الحق فى إنها ترفـدك، ومن غير مكافأة كمان.

وقال حلمى وهو يتم خطابه :

– يرفدونى.. ومش عايز مكافأة.

وطوى الخطاب ووضعه فى ظرف، وضـغط على الجرس ينادى ساعى المكتب، ورحـمى ينظر إليه بعينيـن واسعتين.. ثم قـال كأنه يرجوه :

– طيب اسمع، بدل مـا تبعت جـواب، قوم قابل المـدير وحاول تتفاهم معاه، يمكن تقدر تقنعه.

وقال حلمى وعيناه تضيئان بشعاع التحدى :

– لأ.. مش حا أقابله.

وناول الخطاب للساعى.

وسكت رحمى وهو يهز رأسه، كأنه يرى زميله يذبح نفسه.

وقـام حلمى وخـرج وهو يدق الأرض بقـدمـه كـأنه يدق رأس المدير بكعب حذائه.

●●●

وفى المـساء ذهب حلمى إلى مـقـهى عرابى ليـقابل صـديقيـه، والتفت إلى توفيق قائلا فى تهكم مر :

– يظهر إن المخابرات بتاعتك نفوذها كبير قوى.

ونظر إليه توفيق فى دهشة، وقال :

– ليه ؟

وقال حلمى وابتسامته تشق وجهه، كثقب قناع من العناد :

– لأنى حاترفد.

وشهق توفيق قائلا :

- حاتترفد إزاى ؟

وبدأ حلمى يروى القصة كلها لتوفيق.. وتوفيق صامت عيناه تدوران بين جفنيه كأنه يبحث فى وجه صديقه عن منفذ له.. ثم قال:

- إنت اللى الحق عليك.. مارضتش تقدم المستندات اللى طلبتها منك المخابرات.. لو كنت قدمتها كان زمانك إنت اللى بترفد المدير.

وقال حلمى فى مرارة :

- وعلشان ما قدمتش المستندات، أقوم أترفد.. إنما تأكد إنى لو اترفدت برضه مش حاسكت.

وقال محمد فى صوته الذى يحمل رنين صوت الأطفال :

- لو اترفدت يبقى أحسن.. أنا شايفك مش مبسوط فى الشركة دى.

وردد حلمى فى إصرار قوى :

- إنما مش حاسكت.

وسكت توفيق، وهو تائه فى أفكاره.. لقد حاول فعلا أن يساعد صديقه وعرض على الصاغ رفعت ضابط المخابرات الذى يتردد على شركته، أن يقابل حلمى ليقنعه بتقديم المستندات.. ولكن الصاغ رفعت رفض أن يقابل حلمى.. وقال لتوفيق وهو يبتسم :

- ده باين عليه إنسان متعب ويحب يعمل شوشرة.. سيبك منه.. وعلى كل حال ما دام الواقعة دى حصلت فى شركة تانية تبقى مش من اختصاصى.

ولم يلح عليه توفيق أكثر من ذلك.

خاف أن يلح.

وهو يحاول دائما أن يكون حذرا مع الصاغ رفعت، حتى لا يثير شكوكه.. شكوك المخابرات.. وقد أفلح فى اكتساب ثقة المخابرات إلى حد كبير.. ودفع ثمن هذه الثقة من تعبة وذكائه ولباقته.. لقد قدم كل المعلومات التى طلبت منه فى دقة وأمانة.. وسهر

أسبوعين، كل ليلة حتى الواحدة صباحا إلى أن أعد مشروع تكاليف بناء الأربع فيللات التى طلبتها المخابرات لتسكنها شخصيات كبيرة.. وحرص على أن يضع التكاليف الحقيقية وأضاف إليها ستة فى المائة فقط.. وقد فوجىء عندما قدم المشروع للصاغ رفعت بأن قال له :

– أنا شايف التكاليف برضه كتيرة يا باشمهندس.. مش ممكن تختصرها شوية.

وشرح توفيق الأساس الذى احتسب عليه التكاليف، ولكن الصاغ رفعت عاد يقول له :

– أمال فين همتك يا باشمهندس.. إحنا معتمدين عليك.

وقال توفيق بسرعة :

– طبعا يا أفندم.. التكاليف ممكن تنخفض عن كدة..

وبدأ توفيق فعلا يعدل فى مشروعه ويخفض التكاليف.. وخفضها تحت إلحاح الصاغ رفعت إلى أكثر من خمسة عشر فى المائة.. أى أن الشركة لو نفذت هذا المشروع بهذه التكاليف ستكون خسارتها حوالى تسعة فى المائة.

ولكن ماذا يهم؟ إن الشركة ملك الحكومة.. والفيللات ستبنيها الحكومة.. أى أن الجيب واحد.. والمال واحد.

ولم يدهش توفيق لطلبات الصاغ رفعت.. فلم يكن موضوع بناء الفيلات هو كل ما يستحق الدهشة، لقد عين فى الشركة أربعة سعاة، وفهم توفيق أنهم عينوا بناء على طلب الصاغ رفعت.. وعين رجل آخر فى وظيفة وكيل حسابات الشركة.. وأثار تعيينه كل الموظفين فهو لا يحمل إلا شهادة التجارة المتوسطة، فى حين أن مرءوسيه يحملون بكالوريوس التجارة.. وعرف توفيق أيضا أن المخابرات هى التى طلبت تعيينه.

وتوفيق لا يدهش.. إنه يكتم دهشته وتهكمه فى صدره.. ويعوم مع التيار.. وقد أوصله التيار إلى ترقية كبيرة.

همس فى أذنه الصاغ رفعت يوما :

– حاتسمع خبر كويس قريب.

وبعد يومين استدعاه العضو المنتدب المهندس محمود فكرى، وقال وعلى فمه ضحكة كبيرة :

– أنا أهنيك مرة تانية على المشروع بتاعك يا باشمهندس.. وأعتقد إنك تستحق الترقية.. ومجلس الإدارة وافق على تعيينك رئيس قسم المشروعات.. دى فيها علاوة عشرين جنيه.

وكاد توفيق يبكى من الفرحة.

الفرحة بذكائه.

وقد اعتقد عندما كلمه العضو المنتدب أن ترقيته كانت جزءا على مشروع بناء الفيلات الذى قدمه للمخابرات، ولكنه اكتشف بلباقته أن العضو المنتدب لا يزال يجهل كل شىء عن مشروع الفيلات، وأنه كان يقصد فى حديثه المشروع الآخر.. مشروع بناء المساكن التعاونية.

أما أين ذهب مشروع الفيللات، فهو لا يدرى.

لا أحد حدثه عنه.. ولا يجد له أثرا فى الشركة.. وهو نفسه متكتم أخباره، كما طلب منه الصاغ رفعت.

المهم أنه نال ترقية وعلاوة.

لماذا لا يفعل صديقه حلمى مثله ؟

لماذا ؟

إنه لا ينقصه الذكاء.

ولكنه مجنون.. إنه يظن أنه يستطيع أن يصلح الدنيا.. إنه يصدق الثورة.

والتفت توفيق إلى حلمى وهما جالسان فى المقهى، وقال بصوت يائس :

– أنا من رأيى إنك تروح تكلم رئيس مجلس الإدارة، وتتفاهم معاه.

وقال حلمى فى هدوء :

– لا.

وقال توفيق كأنه يرجوه :
- لأ ليه بس ؟
وقال حلمى :
- لأن مش مهم عندى إنى أفضل فى الشركة.. إنما المهم إن عملية مصنع النسيج ماتكملش.. لو كنت عايز أقعد فى الشركة ماكنتش عملت كل ده.
وقال توفيق :
- وبعد ما تترفد حاتعمل إيه؟. حاتشتغل فين ؟.
وقال حلمى :
- فى أى حتة.
وقال توفيق :
- ما تنساش إنك اترفدت قبل كدة مرة.. والشركات بتتصل ببعض.. وحايتعرف عنك إنك مشاغب.. ومش حاتلاقى شركة تشغلك.
وقال حلمى فى ثقة :
- حالاقى.
وقال محمد بصوته الرفيع :
- حلمى مهندس كويس، والمهندس الكويس يلاقى شغل فى كل حتة :
وعاد حلمى يقول :
- إنما مش حاشتغل.. ومش حادور على شغل.. إلا بعد ما أخلص من فضح عملية مصنع النسيج.
وقال توفيق فى عصبية :
- إنت عليك عفريت اسمه مصنع النسيج.. يا أخى ما تسيب الحاجات دى لأصحابها.
وقال حلمى بسرعة :
- إحنا أصحابها.
وقال توفيق متهكما :

- إنت بتصـدق الكلام اللى بتقـرأه فى الجرايد.. البـلد لسة زى ما هى، مافيش حاجة اتغيرت.

وقال حلمى :

- أنا مصدق الكلام من قبل ما أقرأه فى الجرايد.. باأصدقه لأنى مؤمن بيـه.. وتأكد إن البلد اتغيـرت.. وإذا ما كانتش اتغيـرت يبقى لازم تتغير.

وقال توفيق وهو أشد تهكما :

- وإنت اللى حاتغيرها.. مش كدة ؟

وقال حلمى :

- كلنا.

وضحك توفيق ساخرا، وقال :

- كلنا مـين بأه.. آدى إحنا التـلاتة قاعـدين مع بعض.. مـحمـد ضارب الدنـيا صرمـة.. وأنا مش مقـتنع بالكلام اللى إنت بتـقوله.. يبقى إذا كـانوا تلاتة مش قادرين يتـفقوا مع بـعض.. مش قادرين يعملوا عـمل واحد.. حاتقدر تلاقـى ماية ولا ألف يتفقـوا.. وتفضل تقول «كلنا».. اسـمع كلامى يا حلمى مـافيش حاجـة اسمـها كلنا.. النهاردة كل واحد بيفكر فى نفسه وبس.. و...

وقاطعه حلمى محتدا :

- إنت عمرك ما قـدرت تفهمنى.. وطول عمرنا مخـتلفين.. يبقى مافيش لازمة للكلام ده.. أنا مش طالب منك حاجة، ولا حتى رأيك.

وسكت توفيق وهو يهز كتفيه بلا مبالاه.

والتفـت حلمى إلى محـمد وسأله، وهو يـتعمـد تغيـير مـجرى الحديث :

- إزى سناء يا محمد ؟

وقال محمد ضاحكا :

- كويسة.. بس مابتضبحكش كتير زى الأول.

وقال حلمى وهو ينظر إليه كأنه ابنه المدلل :

- فيه أخبار جديدة ؟

وقال محمد فى دهشة :

– لأ.. بتسأل ليه ؟

وقال حلمى :

– أصلك بتقول إنها ما بتضحكش كتير.

وعاد محمد يضحك ضحكته المنطلقة وقال :

– أصل سناء ست مدبرة.. بتخزن الضحك !

وضحك حلمى وهو ينظر فى وجه محمد ويتساءل مرة ثانية.. هل يستطيع أن يكون أبا.. وابتسم ابتسامة صغيرة وهو يتذكر الكلام الذى قالته له سناء.. وهز رأسه فى تعجب.. ربما كانت مشكلة سناء هى نفس مشكلته.. سناء حامل وتنتظر مولودا وهى تخشى ألا يستطيع محمد أن يحمل مسئولية ابنه.. لا يستطيع أن يكون أبا.. وهى حائرة لا تدرى ماذا تفعل لو وضعت وليدها ثم بحثت عن أبيه فوجدته يجرى منها.. إنها نفس مشكلته.. إنه هو أيضا حامل.. حامل لمشروع مصنع النسيج.. وهو يبحث عن شخص مسئول يحمى هذا المشروع، ويصونه، ويخاف أن يولد المشروع، فينهار. إن مشكلته ومشكلة سناء، وربما مشكلة كل الدنيا، هى البحث عن المسئولين..المسئولين الحقيقيين.. وسناء لا تستطيع أن تعتبر زوجها محمد مسئولا لأنه إنسان لا مبال.. وهو لا يستطيع أن يعتبر زملاءه المهندسين مسئولين لأنهم أيضا لا مبالين.. يسيرون وهم يهزون أكتافهم.. كأن الدنيا ليست دنياهم.

ولكن.. لا.

لا يمكن أن يكون كل الناس لا مبالين.

لا يمكن أن يكون هو وحده، الذى يحمل إليهم.. لابد أن هناك الكثيرين.. آلافا.. ملايين.. ثائرين مثله.. يحملون الهم مثله.

وانصرف الزملاء الثلاثة من المقهى.

وسار حلمى عائدا إلى البيت، وهو يشعر بأنه إنسان قوى.. إن التحدى.. تحدى الشركة.. وتحدى الحصار المفروض عليه.. أشعل فيه كل قوته.

ووقف أمام العمارة.. وقبل أن يدخل.. قفز إلى ذهنه سؤال فيه رنة التحدى :

لماذا يعود إلى البيت مبكرا؟

لينتظر تحية ؟

لا.. لن ينتظرها..

وعاد فى طريقه.. ودخل سينما مترو.

وشاهد الفيلم بنصف عقل.. والنصف الآخر يجرى فى الظلام وراء مشكلته.

وخرج من السينما، ودخل محل الاكسلسيور وتناول قطعا من الساندوتش.. ثم سار بخطوات بطيئة إلى بيته، وهو يتساءل.. هل ترفده الشركة فعلا؟.. هل تجرؤ على رفده ؟ ويستعرض احتمالات الرفد، واحتمالات الإبقاء عليه.. ولا يخرج بشىء.

ودخل شقته.. وفاجأته رائحة العطر الذى يسرى فى أعصابه.. ويملأ كل حياته.

لقد كانت تحية هنا.

ودار بعينيه فوق الأريكة، والمقاعد، كأنه يبحث عن ظل تركته خلفها.. ووقعت عيناه على ورقة كبيرة مثبتة بدبوس فوق مائدة الرسم.. فالتقطها بلهفة.. وقرأ بعينين واسعتين.

«انتظرتك أكثر من ساعة.. كنت فين يا حلمى.. أحبك».

ولم يكن هناك إمضاء.

ولم يكن فى حاجة إلى إمضاء.. إن تحية وضعت إمضاءها على عينيه اللتين يقرأ بهما رسالتها.

وابتسم ابتسامة ساخرة، والورقة بين يديه.

ثم تجهم وجهه وتعقد حاجباه، وتشنجت أصابعه فوق الورقة، وأخذ يضغطها بقوة كأنه يخنق كل حرف فيها.. ثم أخذ يمزقها بكلتا يديه، كأنه يمزق تحية.. يمزق أيامه معها.. يمزق عذابه بها.

إنه لا يريدها.

لا يريدها.

وذهب حلمى إلى مـقر الشركـة فى اليوم التـالى، وبريق العناد ينطلق من عينيه المكدودتين.

وجلس إلى مكتـبه، وزمـيله المهـندس رحمى ينظر إليـه نظرات متـسائلة، كـأن فى حلقة كلمـة لا يستطيع أن ينطق بهـا.. وزملاؤه المـهندسون يمـرون به يحيـونه تحيـة الصبـاح، ثم يقف كل منهم أمامه متـرددا كأنه يهم أن يناقشه ولكنه يعدل.. ويبتـعد.. إن قصة الخطاب الذى أرسله إلى رئيس مـجلس الإدارة قد انتشـرت بينهم.. وكلهم يتناقشـون فى نتائجها.. ويتساءلون.. هل يرفد حلمى ؟.

وفى السـاعـة الحادية عـشـرة دخل سـاعى المـدير إلى حلمى وسلمه خطابا.

وقـفـز رأس المـهـندس رحـمى وهو ينظر إلى الـخطاب فى يد حلمى، كأن رأسه انخلع من عنقه.

وفـتح حلمى الخطاب فى هدوء مـصطنع يحاول أن يسـيطر به على رعشـة أصابعه.. وقـرأ السطور بسرعـة.. ثم ابتسم ابتسـامة صغيرة.. وأراح ظهره على مسند مقعده ثم قال كأنه يتنهد :

– الحمد لله.. اترفدت.

وصاح المهندس رحمى فى غيظ :

– أما ولاد كلب صحيح !

ونظر إليه حلـمى فى دهشة مخلوطة بالفـرحة.. كـأنه سمع منه كلمة تهنئة لم يكن ينتظرها.. ثم قال وابتسامته تملأ قلبه :

– إنت ماكنتش عارف إنهم ولاد كلب إلا دلوقتى ؟

وبدأ زملاء حلمى يتوافدون على مكتبه.. كلهم ساخطون.. والألم فى عيونهم كأنهم كلهم قد رفدوا مع حلمى.

وصاح المهندس مصطفى :

– اسمع يا حلمى.. إنت تـلازم تقدم حالا شكوى للنقـابة.. وقال حلمى ووجهه يضحك :

– الرفد قانونى.. والنقابة مش حاتقدر تعمل حاجة، إلا إذا غيرت موقفى وسافرت قنا.. وأنا مش مستعد أغير موقفى.

وقال المهندس عبدالله :

– إحنا نلم بعض ونطلب مقابلة رئيس مجلس الإدارة، ونكلمه في الموضوع.

وقال حلمي :

– مافيش فايدة.. أنا عارف إنهم مصممين على رأيهم.. وحايقول لكم اشتكوا في النقابة.

وقال زميل ثالث :

– يعني مافيش فايدة، يعني نسيبك تترفد وإحنا ساكتين ؟

وقال حلمي :

– المهم مش أنا.. المهم إن بناء مصنع النسيج ما يتنفذش بالطريقة اللي عايزاها الشركة.

وقال المهندس رحمي :

– هو حد حاسس باللي الشركة بتعمله.. وإنت عارف.. المهندس اللي مايمشيش زي ما هم عايزين يترفد.. ولا على الأقل يبعدوه عن المشروع.

وسكت حلمي، ثم قال وهو يضع خطاب الرفد في جيبه ويقوم واقفا :

– أنا كل اللي باطلبه إني أفضل على اتصال بيكم.

وقال المهندس مصطفى :

– احنا حانقول لك الأخبار أول بأول.

وبدأ حلمي يصافح زملاءه واحدا واحدا.. وهو يردد في صوت مبحوح.. متشكر.. متشكر.. وخرج من الشركة ووجهه تشع فيه الفرحة.. وصدره ممتلىء بالقوة.. إنه لم يشعر أبدا بالقوة كما يحس بها الآن.

وزملاؤه ينظرون خلفه، وفي عيونهم ألم، كأنهم جميعا قد رفدوا معه.

١٥

مضت ثلاثة شـهور وسناء حامل.. تحـمل سرها في بطنها، وتحت جلدها، دون أن تطلع عليه محمد.. وأعصابها تتلوى.. وتخاف على جنينها من أعصابها. يخيل إليـها أن كل عرق فيـها حبل يلتف حـول أملها ويحاول أن يخنقـه.. إنها في حاجة إلى الراحة.. والاطمـئنان.. حتى تهدأ أعصـابها وتستطيع أن تواجه بـها هذه التغيرات الكـثيرة التي تهب عليهـا.. ليست تغييـرات في جسمها فـحسب.. ولكن كل شيء فيـها يتغـير.. إنهـا تكبر.. كل شيء فيـها يكبـر.. لا.. إنها تولد من جـديد.. هي التي على وشك أن تولد وليس جنينهـا.. تولد مع الأمل الذي عاشت فيه طويلا.. وقد عـاشت طوال عمرها وهي تحس بأنها أم.. كانت أمـا لأبيها، تحتـمله احتمال الأم.. وكـانت تصنع العرائس من الخـرق المهلهلة، وتمـثل معـها دور الأم.. وكـانت تفرح عنـدما تحمل ابن جـارتها وتضمه إلى صـدرها كأنها تحاول أن ترضـعه، وهي لا تزال في الثانية عشـرة.. وكانت قوة احتمالهـا التي أعانتها على الحـياة مـغلفة دائمـا بالحنان.. حنان كـبيـر ينطلق من قلبهـا ويرسم هذه الابتسامة الهادئة على شفتيها.. حنان الأم.

وهي على وشك أن تصبح أما.

أم فعلا.

بحق وحقيق.

وسيكون لهـا أخيرا شيء تملكـه.. إنها لم تملك شيـئا أبدا طوال حياتها.. لم تملك أباها.. ولم تملك زوجهـا.. ولكنها ستملك وليدها..

إنها صنعته بنفسها.. من أنفاسها.. من دمها.. من خفقات قلبها.. صنعته بكل أيامها.. وكل دقائقها.. وهى تحس بأنها تصنعه.. تحس به يكبر فى بطنها يوما بعد يوم.. تحس كأنها تكاد تراه داخل بطنها.. ترى ملامحه وهى تتكون.. ترى ذراعيه وهما تنبتان.. تراه جالسا هادئا سعيدا محتميا فى داخلها.

هل يكون ولدا ؟

ياريت.

هل تكون بنتا ؟

ياريت.

ولكنها متأكدة أنه سيكون ولدا.. إحساس عميق فى داخلها ينبئها بأنه ولد.. كأن الجنين أسر إليها بسره.

وهى تريده أن يكون ولدا.. رجلا.. لقد تمنت طوال حياتها أن يكون لها رجل.. ولقد فشلت فى أن تصنع من أبيها رجلها.. وفشلت فى أن تصنع من زوجها رجلها.. ولكنها لن تفشل فى أن تجعل من ابنها رجلها.

يارب.. أعطنى ولدا.

ثم تشعر بالخوف، كأنها تطلب من الله أكثر مما تستحق، فتهمس فى تراجع.. اللى يجيبه ربنا كويس.

ثم تعود وتشعر بخوف أكبر.. خوف يقتلع كيانها كله.. ماذا سيكون مصير وليدها؟ إنها لا تستطيع أن تعتمد على أبيه.. وأبوه لا يشعر بالدنيا.. ولا يشعر بها.. إنه لم يلحظ حتى هذه التغييرات التى تحدث لها.. لم يلحظ بطنها الذى بدأ ينتفخ.. لم يلحظ نهديها اللذين بدآ يثقلان.. لم يلحظ وجهها الذى بدأ يزداد استدارة.. لم يلحظ البصمات السوداء التى تركها الأرق تحت عينيها.. لم يلحظ شيئا.. ولن يلاحظ شيئا.. إنه لا يزال يعاملها ويحس بها كما كانت قبل أن يتزوجها.. فتاة صغيرة خفيفة جميلة تجرى معه وتشاركه فى تمثيل القصص التى يصورها له خياله.. ولا يزال يعيش نفس حياته.. يوما بيوم.. لا تستطيع أبدا أن ترى الغد.. لا تدرى هل

ستجده غدا، أم لن تجده.. لا تدرى هل سيكون معه نقود أم سيكون مفلسا.. لا تدرى هل ستأكل أم ستجوع؟

كيف تخرج ابنها إلى هذه الحياة؟

وكيف تنشئه فيها؟

مستحيل..

وبدأت تفكر فى اجهاض نفسها.. وشعرت بأعصابها كلها ترتعد.. شعرت بدمائها كلها تنزف منها، كأنها ذبحت نفسها.. إنها لن تقتله.. لن تقتل الجنين، ولكنها ستقتل نفسها.. ستقتل أملها.. ستقتل كل شىء تحبه فى نفسها.

ولكن.

ربما كان هذا فى صالح ولدها.. ربما كان واجبها أن تضحى بأملها، بغدها، بأجمل ما فى عواطفها، حتى لا يولد ابنها الآن.. الآن وقبل أن تطمئن إلى أنه سيفتح عينيه ويجد أباه بجانبه.. يرعاه، ويحنو عليه، ويحمل مسئوليته.. إنها لن تضحى بولدها عندما تجهضه.. ولكنها ستضحى بنفسها من أجله.

ولكن، لا.. لن تجهض نفسها.. حرام.. هذه جريمة.. وهى لا تريد أن تبدأ أولى انطلاقات أمومتها بجريمة.. ثم إنها تحبه.. تحبه قبل أن تراه بعينيها فكيف تقتل حبيبها؟ لن تقتله.. سيعيش.. وسيكبر.. وسيكون رجلها.. ستستغنى به عن كل الرجال.. ستهب نفسها له.. ستترهب فى حبه.. لن يكون فى حياتها رجل آخر، حتى ولا محمد.

ومحمد لا يشعر بشىء من حيرتها.. ولا من عذابها.. إنه يزداد انطلاقا فى دنياه الخاصة التى يصورها له خياله.. وأصبح يخرج ولا يعود إلا بعد يوم أو يومين.. ويعود كأنه لم يفعل شيئا.. كأنه ليس زوجا غاب عن زوجته.. ضاحكا.. مرحا.. يقبل الدنيا بعينيه.. وقد أعجزها الحمل عن ملاحقته، والجرى وراءه.. لم تعد تستطيع أن تذهب لتنتظره فى المسرح إلى أن ينتهى.. ولم تعد تستطيع أن تجرى معه فى الشوارع وتمثل خياله، وتغنى كما يغنى.. لقد كبرت الآن.. كبرت منذ أن حملت.. وأصبحت فى حاجة إلى شىء آخر غير

هذه الحياة التى يحياها محمد.. وهى لم تعد تحس بنفس الإحساس عندما يغيب عنها.. إنها تريد أن يعـود.. ولكنها لا تشعر بأنها تريده أن يعـود إليهـا، ولكنهـا تريده أن يعود إلى بـيتـه، وإلى طفله الذى تحمله فى بطنها.. لا تريده أن يعود كـحبيب، ولكنها تريده أن يعود كزوج.. ربـما لم تعـد تحبـه.. لا.. إنها تحـبه.. ولكنه نوع آخـر من الحب.. حب له عقل.. حب يفكر.. وحب محمد لا يزال كما هو.. ليس له عقل، ولا يفكر.

وقد أطلعت حلمى على حيرتها عندمـا جاء يوما إلى المسرح مع محمد.. وقالت له أيضا إنهـا تفكر فى اجهاض نفسها.. ولكن حلمى متفـائل.. إنه يثق فى صديقه مـحمد.. أو لعله يثق فى الحيـاة كلها.. وقد حـذرها من اجهاض نفسـها.. وكل ما أوصـاها به هو أن تعود إلى العـمل.. أن تلتحق باحـدى الفرق التـمثيليـة، حتى تسـتطيع أن تضمن جانبا من الحياة أكثر استقرارا من حياة محمد.

وهى تثق فى كـلام حلمى.. وتؤمن به.. إنهـا أحيـانا تتـمنى لو كانت قـد أحبتـه بدلا من محمـد.. وتزوجته.. لو كـانت قد تزوجت حلمى لوجدت بجـانبها رجلا.. ولوجـدت الاستقرار.. ولمـا جزعت على حياة ابنها.. وتعذبت.

وحاولت أن تطمـئن إلى نصيحة حلمى.. ولكنهـا لم تطمئن.. إن حلمى مهما بلغ من حكمته لن يشـعر بمشاعر الأم.. لن يستطيع أن يقدر مـدى لهفتهـا على جنينها وخوفهـا عليه.. إنه يدلى بنصيـحته وهو واقف بعـيـدا.. كناقـد يشـاهد إحـدى المسـرحـيـات.. ولكنه لا يشترك فى التمثيل، ولا يحس باحساس الممثلين، ولا يقدر مدى الجهد الذى يعانونه.

ولجـأت فى حيـرتها إلى صـادق بيـه.. قالت أكـثر مـما قـالت لحلمى.. تفـاصـيل أكثـر.. فـقد تـعودت أن تطلع صـادق بيـه على مشاكلها، من قبل أن تتزوج، ومن قبل أن تعرف حلمى .

وأطل عليهـا صادق بيـه بهذا الوقار الهـادىء الذى يملأ عـينيه، وقال :

– أنا من رأيي تعملى عملية.

وشهقت.

– مش ممكن.. إنت مش عارف لو عملت عملية حايحصل لىّ إيه؟. مش حا أقدر أعيش بعد كدة.. أنا عمرى ما اتمنيت حاجة إلا إنى أخلف.. أبقى أم.

وقال صادق بيه وابتسامته مرتاحة بين شفتيه :

– ما إنتى حاتبقى أم طبعا.. بس مش دلوقت.. إنتى لسة صغيرة، ومحمد صغير.. لو خلفتم دلوقت، حاتلخموا نفسكم، وحاتلخموا شبابكم.. إنتم دلوقت تلعبوا وتشتغلوا وبعدين.. بعد ما تبنوا مستقبلكم تقدروا تخلفوا.. تخلفوا عشرة مش واحد بس.. وتكونوا فى الوقت ده فهمتوا بعض أكتر.. وعشتم مع بعض أكتر.. ويتربى ابنكم فى بيت هادىء مستقر.. ده أنا.. مع إن أبويا الله يرحمه كان غنى.. ماخلفتش إلا بعد ما اتجوزت بتلات سنين.

وقالت سناء فى عصبية :

– الكلام ده كان قبل ما أحبل.. إنما دلوقت خلاص.

وقال صادق بيه دون أن يهتز هدوؤه :

– إنتى مش أول واحدة حاتعملى العملية دى يا سناء.. الستات كلهم بيعملوها.. حتى اللى يقدروا يربوا أولادهم.. دى عملية سهلة خالص.. زى خلع الضرس.

وتأففت سناء وقالت فى غيظ :

– أنا مش حاخلع ضرسى.. ومن فضلك ماتقولش على ابنى إنه ضرس.. العملية دى جريمة.. وأنا مش مستعدة أقتل ابنى.

وقال صادق بيه فى تراجع :

– اللى تشوفيه يا سناء.. أنا قلت لك الكلام ده، لأنى كان لازم أقول لك رأيي بصراحة.. وفيه حاجة لازم تتقى فيها دايما.. وفى كل لحظة.. وهو إنى جنبك.. ابنك مش حايكون ابن محمد بس، حايكون ابنى أنا كمان.. وأنا مسئول عنه زى أبوه.. إنتى عارفة أد إيه أنا باحب محمد.. وباعزك.

وسكتت سناء.

إنها تعلم أن صادق بيه سيقف فعلا بجانبها.. تعلم أنها تستطيع دائما أن تطلب منه ما تريد.. ولكنها تعلم أيضا، أنها لن تستطيع أن تلجأ إليه إلا وهى قوية.. وقد استطاعت حتى الآن أن تحتفظ به كصديق.. صديق فقط.. واستطاعت أن تحتفظ باحترامه لها.. لأنها كانت دائما قوية.. ولأنه كان يحس دائما بقوتها.. قوة شخصيتها.. ولأنها كانت دائما تعلم سر هذه اللمعة التى تبرق فى عينيه.. وكان يعلم أنها تعلم.. أما إذا ذهبت إليه وهى ضعيفة، فلن تأمن صداقته.. ولن تحتفظ باحترامه.. سيستغل ضعفها.. وربما اضطرها الضعف إلى الاستسلام.

وهى حائرة مى كل ذلك.

حائرة بين كلام حلمى وكلام صادق.

وحائرة مع نفسها.

ورغم كل هذه الحيرة، فقد كانت تعلم أنها يجب أن تطلع محمد على سرها.. يجب أن تعلنه بأنه على وشك أن يصبح أبا.. وهى خائفة.. ليست خائفة من محمد.. ولكنها خائفة من حياتها معه بعد ابلاغه.. خائفة ألا يتغير منه شىء بعد أن يعلم، ولا تستطيع أن تغير منه شيئا.

وكان يوم.

وعاد محمد إلى البيت بعد منتصف الليل بكثير.. مرحا.. ضاحكا.. رقيقا.. وأعطاها كل حبه.. كان يدللها كطفلة.. ويضمها كرجل.. وخيل إليها فى تلك الليلة أنه لا يمثل.. لا يعيش فى خياله.. ولكنه اكتشف واقعه، وعاش فيه.

ونام بجانبها كالطفل الكبير.

وقررت، وهى تنظر فى وجهه البرىء، أن تبلغه بالنبأ الضخم.

ولم تنم بقية الليل.

ظلت تعد الكلمات التى تقولها له.. وتعد الابتسامة التى ستضعها على شفتيها.. وتحتار.. هل تبلغه بالنبأ وهى خجلة، مرخاة العينين،

مختبئة فى صدره.. أم تبلغه له بـبساطة كأن شيئا لا يهم حدث فى حـياتهـا.. كـأن كل ما حـدث هو قـصة جـديدة من القـصص التى يمثلانها معا.. كأنها لم تتعذب طوال هذه الشهور الثلاث.. ثم تتخيل وقع الخبر عليه.. تتخيله حينمـا يضحك ويطير من الفرح.. وتتخيله حينما يهز كتفيه بلا مبالاه.. ثم تتخيله غاضبا، متجهما، يفكر فى أن يطلب منها اجهاض نفسها. ولكنهـا استبعدت الصورة الأخيرة.. إن محمد ليس من طبيعـته أن يغضب إلى هذا الحد.. كل ما يستطيع أن يصل إليه هو اللامبالاه.. أو يجرى منها.. ووقـع قلبها عندما تخيلته يجرى منها لمجرد أنها حملت منه.

وفتح محمد عينيه فى الصباح.

ورآها محنيـة فوقـه تنظر إليه بكل وجهـها.. فابـتسم ابتسـامة كبيـرة مشرقة كـأنه يزيح الستار عن ضوء الشـمس.. وجذبها إلى صدره وهو يهمس :

– سناء يا حبيبتى.

ثم أخذ يقـبلها فى كل مكان من وجـههـا وأصابعه منـدسة بين طيات شعرها.. وعاد يهمس وصوته نائم كأنه آت من حلم :

– دى أول مرة تصحى قبلى.

وقالت سناء وهى تلصق شفتيها على خده :

– كنت مستنياك لما تصحى.

قال :

– وماصحتنيش ليه ؟

قالت :

– ماهنتش علىّ.

وضـمهـا إلى صـدره فى قوة، وعـاد يقـبلهـا فى كل مكان من وجهها.

وهمست وهى تبعد وجهها عن شفتيه :

– كفاية يا محمد.. فيه حاجة عايزة أقولها لك.

قال وهو لا يزال يقبلها :

– إيه ؟
قالت :
– أقول لك ؟
قال وهو ينظر إليها وابتسامته تملأ وجهه :
– قولى.
قالت :
– طيب خبى عنيك.
قال وهو يضحك :
– هو أنا باسمعك بعنيه ؟
قالت :
– لأ.. خبى عنيك.. مش حاقدر أتكلم طول ما إنت بتبص لى.
وأغمض محمد عينيه كأنه يخفيهما فى ابتسامته.
وقربت سناء شفتيها من أذنيه، وهمست فى صوت خفيض وبسرعة :
– أنا حامل.
وفتح محمد عينيه وقال :
– ماسمعتش.
وتنهدت سناء كأنها تندم على الجهد الضائع الذى بذلته، ثم قالت وهى تبتسم ابتسامة صغيرة :
– طيب غمض تانى.
وأغمض محمد عينيه فى استسلام.
وعادت سناء تنحنى على أذنه، وهمست وهى تضغط على كل حرف :
– أنا.. حامل.
وفتح محمد عينيه وقال والدهشة تنطلق فى كل وجهه :
– مش معقول.
وبحركة لا إرادية اتجهت عيناه إلى بطنها، ووضع يده عليها، وقال :

- صحيح يا سناء ؟
وقالت فى حياء :
- صحيح يا محمد.
وقفز واقفا فوق السرير، وهو يصيح :
- برافو.
وقالت سناء وضحكتها تملأ قلبها :
- برافو عليّ.. مش كدة.
وقال محمد فى فرح :
- لأ.. برافو عليّ أنا.
وقالت سناء وهى تقبله بعينيها :
- إنت عارف معنى كدة إيه.. معناها إنك حاتبقى أب.
وشد محمد قامته واتخذ مظهر الرجل الوقور وقال :
- طبعا.. طبعا.
ثم نزل من فوق السرير، ورفع سبابته أمام بطن سناء، وقال فى لهجة الأب :
- عيب يا ولد.. أقعد كويس.. ماتتعبش ماما.
وضحكت سناء.. واستطرد محمد والمرح يملأ عينيه :
- سمع الكلام ؟
وقالت سناء :
- ده بيخاف منك موت.
وقال محمد :
- ورينى كدة.
وانحنى يضع أذنه على بطن سناء، ثم قال :
- ده ولد مؤدب خالص.
وعادت سناء تضحك ثم نظرت فى وجه محمد وقالت :
- إحنا لازم نبتدى نحوش من دلوقت ماتنساش إن إحنا حانبقى تلاتة.
ونظر إليها محمد فى دهشة كأنه فوجىء، ثم قال وهو لا يزال

يمثل دور الأب :

- ضروري.. التحويش ده مهم قوي.

وقالت سناء كأنها تحلم :

- أنا عايزة أعمل له أحسن حاجة.. كل حاجة حلوة حا أعملها له.. و...

وقاطعها محمد قائلا في مرح :

- إحنا لازم نحتفل بيه.. قومي البسي.. ونروح نقول لكل الناس.

وقام الاثنان يغتسلان ويرتديان ثيابهما.. وسناء فرحة لم تكن تعتقد أن محمد سيقابل النبأ بكل هذه الفرحة.. إنها تعتقد أنه أحب ابنه قبل أن يراه.. أحبه بمجرد أن علم أنه في بطنها.. وسيتغير محمد.. سيصبح أبا.. سيصبح إنسانا مسئولا.. ربما لم يكن في حاجة إلى الإحساس بمسئوليته نحو نفسه.. ولا بمسئوليته نحو زوجته وبيته.. ولكنه سيحس بمسئوليته نحو ابنه. وستشده هذه المسئولية إلى الواقع.. إلى الحياة التي يحياها كل الناس.

وركبا الأوتوبيس في طريقهما إلى مسرح النهضة.. ومحمد لا يزال يمثل دور الأب الوقور.. وجهه جاد.. ويتكلم في صوت غليظ.. ويحاول أن يحصر الحوار في موضوع الأولاد.. ويشده خياله إلى أن يصل إلى المدرسة التي سيتعلم فيها ابنه.. والجامعة.. و.. و.. وكل ذلك وهو يمثل.. ولكنه طوال الوقت يحس بجانب من عقله يتمرد عليه.. ويحس بهذا الشيء الثقيل يعود ويزحف على صدره.. ويخيل إليه أنه لا يستطيع أن يندمج في دور الأب الذي يمثله.. إنه دور ثقيل.

ووصلا إلى مسرح النهضة. وتقدم الممثل أحمد علوي يصافح محمداً، فمد له يده في تعال مفتعل وقال :

- سلم عليّ باحترام جدا.. أكتر من كل يوم.

وقال علوي :

- ليه ؟

وقال محمد وهو يتخذ مظهر العظمة :
- لأنى حابقى أب بعد ست شهور.
وصاح علوى :
- مبروك يا أب.
ثم التفت إلى سناء يهز يدها يصافحها، ويصيح :
- مبروك يا أم.
وانتشر الخبر بين أفراد الفرقة، وتجمعوا حول محمد وسناء صائحين مهنئين، والتفتت الممثلة فردوس شوقى إلى سناء وهمست لها فى غيظ :
- مش كنتى تستنى شوية.
وصاح محمد :
- كلكم تاكلوا بسبوسة.
ثم جرى إلى بائع البسبوسة الذى يقف بجانب مدخل المسرح، وحمل من فوق عربته صينية البسبوسة كلها، وعاد بها.
وانطلق الجزع فى عينى سناء وقالت :
- محمد.. إحنا مش اتفقنا إننا نحوش ؟
ولم يسمعها محمد.. وضع صينية البسبوسة فوق مائدة من موائد المقهى المجاور وتجمع حولها كل ممثلى وممثلات الفرقة يلتهمونها بأصابعهم.
وسناء تنظر إليهم كأنها تخنقهم بعينيها.
واقترب بائع البسبوسة من محمد بعد أن انتهت الوليمة، وهمس:
- الحساب اتنين جنيه ونص يا أستاذ.
ووضع محمد يده فى جيبه وناول البائع حسابه.
ووجه سناء محتقن من الغيظ، والدموع معلقة بين أهدابها.
إن محمد لم يتغير.. كل هذه الفرحة التى انطلقت منه عندما علم أنه على وشك أن يصبح أبا، لم تغير شيئا منه.. ربما لن يتغير أبدا..
وانتظرت سناء إلى أن انتهى محمد من البروفة، وعاد إليها.

وسألته وهما يسيران فى شارع محمد فريد :

- معانا كام يا محمد ؟

ووضع محمد يده فى جيبه، وأخرج ما فيه من نقود، ثم قال فى مرح :

- معانا خمسة وعشرين قرش.

وهزت سناء كتفيها، وقالت ساخرة :

- كويسين.

●●●

وبدأت سناء تثور على محمد.. لم تعد تستطيع أن تسكت.. لم تعد تستطيع أن تحتمل.. لقد كانت تسكت على ضياع حقوقها.. ولكنها لا تستطيع أن تسكت على ضياع حقوق جنينها.. إنها تريد أن تصنع له دنيا غير دنياها.. دنيا هادئة مستقرة.. تريد أن تصنع له أرضا صلبة يقف عليها.. ليست هذه الأرض المهزوزة التى تقف عليها هى.

وبدأت تلح على محمد.. وتصر على إلحاحها.. لم تعد ترحمه.. لم تعد تشفق عليه.. لم تعد تعتبره طفلا كبيرا.. لم تعد تستطيع أن تقنع نفسها بأنه فنان وأن للفنان حقوقا فوق حقوق البشر.. إنه ليس طفلا.. إنه رجل ويجب أن يكون رجلا.. وإذا كان فنانا فهو أيضا إنسان.. يجب أن يتحمل مسئولية الإنسان.. إنسان له واقع لا يستطيع أن يفر منه أو يتجاهله.. واقع يحتم عليه أن يحمل الحياة ويسير بها.

وهى تريده أن يعود إلى البيت، كما يعود بقية الأزواج.. وتريده أن يضع للبيت ميزانية كما يحدث فى كل البيوت.. تريده أن يحدد لها مصروفا خاصا.. ويحدد مبلغا توفره استعدادا لاستقبال الطفل.. وتريده أن يتفق مع مدير الفرقة على مرتب ثابت.. ويتفق مع أخته على إيراد ثابت من تركة أبيه.. ثم يجب أن تعترف أخته بزواجهما.

ومحمد يواجه كل هذه الثورة بالاستسلام حينا.. والحزن فى

عينيه.. وحينا يجرى منها.. ولكنه يعود.. يعود ليقبل الطفل الذى فى بطنها.. يقبله فى حنان صادق.. ثم يعد سناء بأن يلبى كل طلباتها.. ولكنه لا يستطيع.. لا يستطيع أن يعيش فى الواقع.. إن الواقع بالنسبة له سجن ضيق يحطم ضلوعه ويكتم أنفاسه.. فيعود وينطلق مع خياله.. ولكن خياله لم يعد حرا كما كان.. لم يعد جريئا لاهيا كما كان.. إنه معلق فى الهواء لا يمشي على الأرض ولا يحلق في السماء.. حائر.. معذب.. ابتسامته المرحة تضيق.. وعيناه الضاحكتان تذبلان.. ويشرب.. يشرب كثيرا.. لقد بدأ يشرب فى النهار أيضا.. لعله يسترد خياله.. أو لعله يطيق الواقع.. حتى فنه بدأ يذبل.. إنه يقف على المسرح فتنتابه نوبات شرود.. لحظات ينسى فيها أنه علي المسرح.. وينسى فيها كلمات الدور الذى يقوم به.. ويشعر بهذه اللحظات.. فينتابه هلع.. يحس بأن روحه تنسلت منه.. يحس بأنه يفقد كيانه.. فيخرج من فوق المسرح.. ويجرى.. يجرى ليشرب.. ويشرب أكثر.

وصرخت سناء وقد عاد إليها مخمورا مفلسا :

– إنت مابتحسش.. إنت مش راجل.. إنت حاتجننى.. خلاص.. أنا مش طايقاك.

ومحمد ينظر إليها صامتا، والأسى الذليل يملأ عينيه.

وصرخت سناء :

– أنا باكرهك.. باكرهك.

ثم رفعت وسادة السرير، وقذفته بها.. فى غل.. فى غيظ.

وتلقى محمد الوسادة على وجهه صامتا.. ثم ابتسم ابتسامة صغيرة حزينة لم ترها على وجهه من قبل أبدا.. ونظر إلى بطنها.. نظر إلى بطنها طويلا، نظرة حزينة حانية كأنه يودع ابنه الوداع الأخير.. وخرج.

ولم يعد.

اختفى.

إنه لا يذهب إلى المسرح.

ولا يذهب إلى بيته فى العباسية.
ولا يتردد على المقهى.
لا أحد يدرى أين ذهب؟
وحلمى وتوفيق يبحثان عنه.. ولا يجدانه.. وأخته وزوجها يبحثان عنه.. وسناء تبكى وحدها فى البيت الموحش البعيد، الذى لم تشعر أبدا أنه بيتها.. وحلمى يتردد عليها ليطمئنها.. ويشد فى صبرها.. ويترك لها نقودا قليلة يقترضها من توفيق.
ومضى أسبوع.
وقامت سناء فى الصباح، وعلى وجهها أمارات حزم أكيد، وجمعت ثيابها القليلة.. وخرجت من البيت.. وبطنها يتقدمها وفى عينيها دموع، والجنين يرفصها فى بطنها، كأنه يبكى معها.. أو يبكى لها.
وذهبت إلى البنسيون الذى كانت تقيم فيه قبل أن تتزوج.
وقبل أن تدخل، اتجهت إلى بائع السجائر المجاور، ورفعت.. سماعة التليفون وطلبت رقم صادق بيه.

١٦

ذهب حلمى ليزور سناء فى البنسيون الذى انتقلت إليه.. يسير مهموما حاملا الدنيا كلها فوق رأسه.. يحاول أن يقنع نفسه بألا يحمل كل هذا الهم.. أن يلقى الدنيا من فوق رأسه ويسير منطلقا لاهيا.. ولكنه لا يستطيع.. ولا يدرى لماذا لا يستطيع.. لماذا لا يبالى.. لماذا لا يترك الدنيا تسير بلا إرادة؟ على الأقل بلا إرادته هو.. وهى لابد ستسير بدونه.. وسيعيش الناس، يأكلون ويشربون ويتعذبون ويسعدون، ويمرضون ويموتون.. يسيرون فى الحياة.. لن يتوقفوا عن السير أبدا.. فلماذا يتعب نفسه.. ولماذا يحمل نفسه كل هذه المسئوليات.. هل خلق هكذا.. هل خلق الناس بعضهم يحمل الهم، وبعضهم معفى من الهموم.. بعضهم يصارع الحياة، وبعضهم يتفرج على المصارعة من بعيد، ويسمع بها كما يسمع نشرة الأخبار فى الراديو ؟ لا.. لا يمكن أن يولد إنسان وهو معفى من مسئولية الحياة... ليس فى البشر كلهم من لا يحمل الهم.. كل ما هنالك أن هناك أناسا يحملون هما صغيرا.. وآخرين يحملون هما كبيرا.. ولكن.. لا، أيضا.. إن الهم دائما واحد.. ليس هناك هم صغير وهم كبير.. كل الهموم كبيرة.. وصاحب الهم الصغير يعتقد أن همه كبير.. ويسير به كأنه هم كبير.. كل ما هنالك أن هناك أناسا يعجزون عن حمل همومهم.. فيلقون بها.. يستسلمون لها.. يهربون من حلبة المصارعة.. أن محمد مثلا، مهما غالى فى التحليق بعيدا عن الأرض، لابد أنه يشعر بالأرض.. ويشعر بمسئولية السير على

الأرض.. ويعلم أنه لا يستطيع أن يسير فى السماء.. ولكنه أعجز من أن يسير على الأرض.. ويشعر بعجزه.. فيفر.. يهرب.. يجرى.. والذين يبقون يواجهون هموم، وهموم الأرض هم الأقوياء، وهو قوي ويشعر بأنه قوى.. ولأنه يشعر بقوته فهو قادر على حمل الهموم.. يحس بكتفيه تتسعان لحمل هموم الناس كلهم.

إنه قوى.

نعم.. قوى.

وليس ما يعذبه أنه لا يؤمن بقوته.. ولكن ما يعذبه أنه لا يدرى أين يوجه قوته.. كيف يستغلها.. كيف يحل بها مشاكله.. لا يدرى كيف يحل مشكلة حياته، ومشكلة الحياة من حوله؟ إن ما يعذبه هو حيرته.

أين الطريق؟

أين الحقيقة؟

إنه لم يكتشفهما بعد.. لم يكتشف الطريق، ولم يكتشف الحقيقة.. كل هذا الذى يحدث حوله.. كل هذه الثورة التى قلبت وجه مصر.. وكل هذه الأمواج الجديدة التى وصلت إلى شواطئه.. وكل هذا الكلام الذى يقرأه.. كل هذا.. ولم يكتشف الطريق.. ولا الحقيقة.

ووصل إلى البنسيون.. وفتحت له الباب سيدة سمينة، ملغمطة الوجه بالمساحيق.. فى عينيها تحد وقح.. وعلى وجهها قسوة.. ترتدى «روبا» أزرق عليه رسوم يابانية، وترفع كمه لتبدو من تحته أساورها الذهب.. ونظرت إليه كأنها تزنه.. وسألها عن سناء، فابتسمت ابتسامة ساخرة، ورفعت أحد حاجبيها، كأنها تصفعه به.. ثم اتجهت إلى باب مطل على الصالة، ونقرت عليه، وهى تقول فى خلاعة ممجوجة :

– يا مدام.. يا سناء.

وفتحت سناء الباب، وعيناها تتساءلان، واستطردت صاحبة البنسيون قائلة :

– واحد.

ونظرت سناء إلى حلمى وابتسمت ابتسامة كبيرة، وخرجت إليه وهى ترتدى قميص النوم ومن فوقه الروب ديشامبر، وبطنها الحامل يتقدمها، وهمست فى فرحة صادقة :

- أهلا حلمى.

ثم جذبته من يده ودخلت به غرفتها وأغلقت الباب خلفهما.

ونظر حلمى حوله كأنه دخل فى عالم غريب عليه، سرير من الحديد.. وفى أحد الأركان دولاب قديم فى صدره مرآة صغيرة.. ومائدة صغيرة.. ومقعد من القش.. وثياب ملقاة فوق حافة السرير.. ثم نظر إلى سناء.. وارتفعت الحيرة فى عينيه.. حيرة كبيرة لدرجة أنه خشى أن تلمحها سناء، فأخفى عينيه عنها، وسحابة من الارتباك تغطى وجهه.

خيل إليه أنها ليست سناء التى يعرفها.

ليست سناء التى أحبها محمد.

وليست سناء التى كانت تقيم فى بيت المطرية.

إنها تبدو كأنها شاخت.. تبدو كأنها فى الثلاثين من عمرها، وليست فى عمر التاسعة عشرة.. هذه النظرة الصافية اختفت من عينيها.. هذه الابتسامة الرقيقة التى كانت تطل من عينيها، أصبحت جافة فيها جرأة جارحة.. مشيتها ولفتاتها أصبح فيهما إهمال وتراخ.. كأنها لم يعد يهمها شىء.. كأنها لم تعد سناء.

هل تغيرت سناء فعلا، أم يكفى أن يتغير الجو الذى يحيط بها، حتى يخيل إليه أنها تغيرت.. ربما كان ريح البنسيون ومنظر هذه المرأة التى فتحت له الباب، هما اللذان جعلاه يعتقد أن سناء تغيرت.

وعاد ينظر إليها وهو يجلس على المقعد القش، وسحابة الارتباك لا تزال تغطى وجهه، ثم قال وهو يبتسم لها ابتسامة مهزوزة :

- أخبارك إيه ؟

قالت وهى تجلس على حافة السرير وتنظر إلى قدميها :

- ولا حاجة.. زى ما أنا.

وقال فى لهفة :

- ما اشتغلتيش ؟

قالت :

- أبدا.. لبست كورسيه علشان أخبى بيه بطنى، ورحت مع صادق بيه، وقابلت مدير الفرقة.. وبص لى من فوق لتحت.. وقال لصادق بيه إن الأحسن أستنى شوية قبل ما أشتغل.

وضحكت سناء فى هستيرية، ثم قالت :

- الحقيقة كان شكلى زى الشوال.

ولم يضحك حلمى.. صمت برهة ثم قال وهو لا ينظر إليها :

- إنتى بتشوفى صادق بيه كتير ؟

وتنهدت سناء وقالت فى صوت خافت :

- أيوه.

وانطلق الغيظ فى صدر حلمى، وازدرد وجهه.. إنه يكره صادق بيه.. يكرهه منذ رآه أول مرة مع محمد.. وقد حاول كثيرا أن يطمئن إليه.. ولكنه لم يستطع.. إنه لا يستطيع أن يثق فى هذا النوع البراق من الناس. كل شىء فيه يبرق كأنه مدهون بدهان لامع.

وسكت حلمى.

ونظرت إليه سناء، وقالت كأنها اكتشفت ما فى رأسه :

- أنا باشوفه باعتباره صديق محمد.

ورفع حلمى عينين غاضبتين وقال فى حدة :

- اللى زى صادق ده مش ممكن يكون صديق لحد.. عمره ما كان صديق لمحمد.. كان بيتفرج عليه بس.. كان بيسليه.. وعمره ما حايكون صديق لك.

وقالت سناء ورأسها فوق صدرها :

- يعنى كنت عايزنى أعمل إيه؟ أنا خلاص بقيت واحدة واقعية.. وصادق بيه يقدر يخدمنى.. وأنا محتاجة له.

وقال حلمى محتدا وهو يحاول أن يسيطر على صوته حتى لا يخرج خارج الغرفة :

- يعنى إيه واقعية.. كل الناس واقعيين.. الستات بتوع الأرصفة اللى بيقفوا تحت الفوانيس، فاكرين نفسهم إنهم واقعيين.. لو سألت واحدة منهم حاتقول لك إنها واقعية.. بدل ما تتعب نفسها وتتضحك على الرجالة.. بتعاملهم بصراحة.. الحرامى فاكر فى نفسه إنه واقعى، بدل ما يتعب طول النهار علشان يكسب عشرين قرش، يبقى واقعى ويروح يسرق خمسين جنيه.. مش مهم الواحد يبقى واقعى.. إنما المهم إنه يختار الواقع اللى يعيش فيه.. شيخ الجامع اختار الواقع اللى بيعيش فيه.. الحرامى برضه اختار الواقع اللى بيعيش فيه.

وقالت سناء وقد أحمر وجهها ولمعت عيناها :

- أنا مش واقفة على رصيف.. ولا حرامية.. ما تقولش عليّ كدة من فضلك.. أنا واحدة استحملت كتير لغاية جوزى ما جرى منى.. هرب.. عايزنى أعمل إيه.. أموت من الجوع.. أنا وابنى اللى فى بطنى ؟

وقال حلمى وهو ينظر إليها باشفاق

- أنا كنت دايما واقف جنبك يا سناء.. مش علشان خاطر محمد بس، علشان خاطرك إنتى كمان.. يمكن علشان خاطرك أكتر من خاطر محمد.. أنا طول عمرى معجب بيكى.. معجب بقوتك.. بشخصيتك.

وقالت سناء وطبقة من الدموع تلمع فى عينيها :

- أنا ماغلطتش يا حلمى.. صدقنى ما غلطتش.. أنا عارفة صادق بيه كويس.. وما يقدرش ياخد منى حاجة.. اطمئن.

وقال حلمى بحنان :

- أنا عايز أطمئن عليكى دايما.. مش علشان خاطر محمد.. علشان خاطر ابنك.. وإنتى مسئولة عن نفسك كأم، أكتر ما إنتى مسئولة عن نفسك كزوجة.

ومرت بينهما فترة صمت قصيرة، كأن كلا منهما يستعيد قواه.. ثم قالت سناء وهى تتنهد :

– مافيش أخبار عن محمد ؟

وقال حلمى مبتسما :

– فيه ناس شافوه فى اسكندرية.

وقالت دون أن تفرح :

– ما قالش حايرجع إمتى ؟

وقال حلمى وهو يحاول أن يواسيها بابتسامته :

– لأ.

قالت فى سخط :

– أنا عايزاه يرجع علشان حاجة واحدة بس.. علشان يطلقنى.

وقال حلمى وقلبه على لسانه :

– ماتقوليش كدة يا سناء.. أنا واثق إن محمد حايرجع متغير.. إنسان تانى.. أنا عارف الأزمة اللى بيمر بيها.. وضرورى حاتفوت.

وقالت سناء فى إصرار :

– مش ممكن.. مش ممكن محمد يتغير أبدا.. دى مش أزمة، دى طبيعته كدة.

وقال حلمى :

– كل اللى باطلبه منك، إنك ما تخديش قرار دلوقت.. ماتفكريش فى الطلاق إلا لما يرجع محمد وتشوفيه، وتقعدى معاه.

وقالت سناء وهى تهز كتفها وبين شفتيها ابتسامة ساخرة:

– أنا بافكر فى كل دقيقة.. مابفكرش فى محمد.. إنما بافكر فى نفسى.. فى مستقبلى.

وقال حلمى :

– ما هو لازم تفكرى، بس ما تخديش قرار.

وسكتت سناء والابتسامة الساخرة لا تزال بين شفتيها.. ووقف حلمى لينصرف، وقال وهو يصافحها :

– أنا دايما معاكى يا سناء، أرجوكى أى حاجة إنتى عايزاها تتصلى بى.

وقالت سناء كأنها تتشبث به :

- ماتخليك شوية.

قال :

- أصل عندى شغل.

وقالت سناء فى لهفة :

- لقيت شغل ؟

- قال ضاحكا :

- لسة.. إنما برضه عندى شغل.

●●●

وخرج حلمى من البنسيون وهو مقبوض الصدر.. إنه لن يستطيع أن يفعل شيئا لسناء.. لن يستطيع أن ينقذها من صادق بيه.. ولن يستطيع أن ينقذها من هذا البنسيون.. ولن يستطيع أن يغير من محمد ليجعله زوجا صالحا لها.. ولن يستطيع أن يضمن لها مستقبل ابنها.. كل ما يستطيع أن يفعله هو أن ينصحها.. كلام.. كلام يملأ به أذنيها.. ولن ينفعها هذا الكلام.. لن ينقذها.. إنها وحدها التى تستطيع أن تنقذ نفسها.. أو تهدم نفسها.. هى التى ستخوض المعركة.. وحدها.. ومعها عقلها وإرادتها.

وأسرع فى خطاه كأنه يهرب من عجزه.. ويدق الأرض بقدميه كأنه ينفض عن نفسه مسئوليته عن سناء.

إن أمامه عملا.. عملا كبيرا، وهو فى حاجة إلى كل عقله إلى كل انتباهه.

ومنذ أن رفد حلمى من الشركة، وهو لا يحاول أن يبحث عن عمل آخر.. إنه يعيش بما ادخره وعلى العشرة جنيهات التى يأخذها من أمه كل شهر.. ثم يعطى كل نشاطه لمحاربة الشركة التى كان فيها والتى تتولى بناء مصنع النسيج.. وكان يتردد كل يوم على زملائه المهندسين فى الشركة.. يقابلهم فى بيوتهم.. وفى المقاهى التى يترددون عليها.. ويتصل بهم فى التليفون.. ويجمع منهم أخبار المشروع.

الأخبار كلها تدل على نية الشركة للغش فى التنفيذ.. كلها تؤيد

وجهة نظره.. كلها تثبت أن الشركة تقدمت بعطاء مخفض لبناء المصنع، على أساس أن تعوض أرباحها أثناء العمل بالغش فى التنفيذ.

إلى أن سمع من المهندسين أن الشركة قد وضعت الأساسات على عمق ستة أمتار بدلا من ثمانية.

إن هذا الفرق وحده معناه أن تعوض الشركة كل خسائرها من قيمة العطاء.

ومعناه أن ينهدم المصنع بعد بنائه.

وكان هذا الغش واضحا.. كل المهندسين يعرفونه.. ورغم ذلك فقد سكت عليه مهندس مؤسسة النسيج المكلف بمراقبة التنفيذ.. سكت.. وقبض.

وأسرع حلمى وطلب مقابلة رئيس مجلس إدارة مؤسسة النسيج، وانتظر أسبوعا كاملا إلى أن استطاع مقابلته.. وأبلغه فى حماس بكل تفاصيل الجريمة التى ترتكب.. ولكن رئيس مجلس المؤسسة لم يتحمس مثل حماسه.. إنما قال فى هدوء :

– وسيادتك مهندس فى الشركة ؟

وقال حلمى فى انفعال :

– لأ.. كنت.

وابتسم رئيس مجلس الإدارة فى راحة، لأنه اكتشف أن لا شيء يهم.. ثم قال فى برود :

– على كل حال تقدر سيادتك تقدم مذكرة بالموضوع ده، وإحنا نحقق فيها.

وقال حلمى وهو لا يزال منفعلا :

– أنا اترفدت من الشركة.. لأنى حاولت اعترض على العطاء اللى قدمته.. وأنا جاى النهاردة لسيادتك لأنه يهمنى انقاذ المصنع.. المصنع ده مش ملك شخص.. ولا ملك شركة.. لكن ملك مؤسسة عامة.. يعنى ملك الناس كلهم.. و..

وقاطعه رئيس مجلس الإدارة قائلا :

- مفهوم.. مفهوم.. أنا مبسوط من غيرتك وحماسك.. ابقى قدم مذكرة.

وخرج حلمي يومها وهو يائس.. إن رئيس مجلس الإدارة يعتقد أنه حاقد على الشركة لأنها رفدته.. ولن يحاول أن يتحقق من كلامه، حتى لو قدم له مذكرة.

ورغم ذلك كتب المذكرة.. وسلمها بيده إلى السكرتير.. ولم يحدث شيء.

ظل العمل يسير في المصنع كما هو.

وهو لا يستطيع أن يفعل شيئا.. لن يستطيع أن يوقف هذه الآلة الضخمة التي تدور لتبني جريمة.. تدور لتقتل مستقبلنا كله.

وأبلغه زملاؤه المهندسون، أن الشركة تقيم أعمدة الخرسانة بأربعة أسياخ من الحديد، بدلا من ستة كما يحتم تصميم المصنع.

مش معقول.

هذه جرأة.

إن هذا المصنع لن يستطيع أن يصمد أياما بعد أن يتم بناؤه.

ودار كالمجنون يبحث عن الطريق.. يبحث عن باب الحقيقة.

الاتحاد القومي.

نعم سيذهب إلى الاتحاد القومي.. ليست مهمته انقاذ المصانع من غش شركات المقاولة هي مهمته وحده ولكنها مهمة الملايين الذين يضمهم الاتحاد القومي.

سيضع كل ما عنده أمام لجنة الاتحاد القومي.. ويترك اللجنة تتصل بالمسئولين.. ويرتاح.. ويريح ضميره.

وحدد موعدا لمقابلة رئيس اللجنة.

إنه يعرفه.. يعرفه من زمان.. محام كبير كان شابا من شباب حزب الوفد قبل الثورة.. وكان متحمسا في وطنيته.. كان جريئا.. يكتب في الصحف.. ويهاجم الملك.. وينادي الشعب للثورة.. وقامت الثورة.. ولم تكن الثورة وفديه، ولكن الأستاذ عبدالعليم عبدالعال تحمس لها.. وكان أحد رجال هيئة التحرير.. ثم رشح نفسه في

انتخابات الاتحاد القومي ، ونجح.
ونظر حلمي إلى ساعته.. ثم أسرع في سيره، ليلحق موعده مع الأستاذ عبدالعليم عبدالعال.
ووصل حلمي إلى مقر لجنة الاتحاد القومي.. شقة في عمارة كبيرة.. بضعة مقاعد خيزران منتشرة في الصالة الخارجية.. وأحد السعاة جالس على مقعد منها وقد أمال رأسه فوق يده كأنه على وشك النوم.. ولا أحد آخر.. هدوء عجيب، تملأه رائحة الصابون الذي مسح به البلاط في الصباح.
ووقف حلمي أمام الساعي، وقال وهو ينظر في وجهه كأنه ينهره :
– الأستاذ عبدالعال موجود.
ورفع الساعي عينين كسولتين يبحلق بهما في وجهه، واستطرد حلمي قائلا :
– أنا عندي معاه ميعاد.
وأشار الساعي بإهمال إلى باب مكتب رئيس اللجنة، وقال دون أن يتحرك من مكانه :
– اتفضل.
وألقى حلمي نظرة أخيرة على الساعي ملؤها السخط، وتقدم يطرق الباب الذي أشار إليه، وسمع من ورائه صوتا أجش يصيح :
– خش.
ودخل حلمي.. وقام الأستاذ عبدالعال من وراء مكتبه، مادا له يده.. رجل سمين.. كل شيء فيه سمين.. صدره.. كرشه.. كتفيه.. وجهه.. ويصيح مهللا :
– أهلا.. أهلا بالباشمهندس.
ورد حلمي في أدب :
– أهلا بيك يا افندم.
وقال الأستاذ عبدالعال وهو يقدم له مقعدا يجلس إليه :
– يعني ماحدش بيشوفك يا باشمهندس.. مع إنك من شبان

المنطقة. وأنا أعرف عنك إنك شاب متحمس ووطنى.
وقال حلمى ببساطة :
- والله يا أفندم، أنا فكرت كتير إنى أحضر اجتماعات اللجنة.. إنما ما كنتش عارف إيه اللى أقدر أعمله.
وقال الأستاذ عبدالعال فى حماس :
- إزاى ده.. إحنا كل اعتمادنا على الشبان اللى زيكم.. إنتم اللى لازم تحملوا المسئولية، وتعملوا كل حاجة.. وإحنا عندنا مشاريع كتيرة.. طبعا سمعت عن مشروع النظافة.. ده نجح نجاح كبير.. ومشروع المرور.. إحنا قررنا إن أهل الدايرة يشتركوا مع البوليس فى تنظيم المرور، فكرة مدهشة مش كدة ؟.. سمعت الخطبة بتاعتى اللى ألقيتها الجمعة اللى فاتت ؟
وقال حلمى دون أن يرتبك :
- لا والله يا افندم.. للأسف.
وقلب الأستاذ عبدالعال شفتيه امتعاضا، وقال فى صوت خافت:
- كان لازم تسمعها.
ثم رفع رأسه واستطرد وهو يسترد ابتسامته وحماسه المفتعل:
- المهم إننا عايزينك معانا.. وأنا عايز أعتمد عليك.. البلد محتاجة للشبان اللى زيكم.. وقدامنا سنين طويلة لغاية ما نقدر نصلحها.. ومش حانصلح حاجة إلا إذا كلنا اشتغلنا.
وقال حلمى وهو يعتدل فى مقعده :
- والله يا أفندم أنا جاى لك فى موضوع أعتقد إنه من صميم عمل الاتحاد القومى.. المفروض إن الاتحاد القومى هيئة رقابية شعبية.. يعنى أى فساد أو جريمة ترتكب فى حق البلد.. يبقى من حق الاتحاد القومى إنه يتدخل فيها.
ولمعت عينا الأستاذ عبدالعال، وقرب رأسه من حلمى، وهو يقول ولعابه يسيل مع كلماته :
- مظبوط.. مظبوط.. إيه الموضوع ؟
وبدأ حلمى يروى قصة المصنع.

وبدأ الأستاذ عبدالعليم يستمع فى إصغاء وحماس.. ويهز رأسه متعجبا بين الحين والحين.. ثم بدأ حماسه يهفت.. والملل يتسرب إلى عينيه.. ويبدو كأنه على وشك أن يتثاءب.

وقدم له حلمى صورة من المذكرة التى قدمها إلى رئيس مجلس إدارة مؤسسة النسيج.. نظر فيها الأستاذ عبدالعال بعينيه الملولتين، وقلب ورقة من أوراقها، ثم وضعها أمامه على المكتب، وقال فى تراخ :

– هو مين رئيس الشركة ؟

وقال حلمى بسرعة :

– المهندس عبدالكريم بليغ.

– وانفتحت عينا الأستاذ عبدالعليم على آخرهما، وقال :

– مش معقول.. ده عضو معانا فى اللجنة.. من أنشط أعضاء الاتحاد القومى.. ولسة متبرع بخمسميت جنيه لمشروع العيادة الخارجية.. لا.. اطمئن يا باشمهندس.. أنا حاحل الموضوع ده مع المهندس عبدالكريم.

وقال حلمى ودماؤه تثور فى عروقه :

– مش ممكن الموضوع يتحل معاه.. ده هو المتهم الأول.. وقال الأستاذ عبدالعال وهو يحاول أن يهدىء من ثورة حلمى :

– ماتقولش كدة يا باشمهندس.. أنا متأكد إنك لو قعدت مع عبدالكريم بيه، حايقنعك بكل حاجة.. ده راجل سمعته كويسة.. عصامى.. خدم البلد كتير لازم فيه تفاصيل فى المشروع إنت مش عارفها.

وقال حلمى وهو يدق على مكتب عبدالعال بقبضة يده :

– أنا عارف كل التفاصيل.. وسبق اتناقشت فيها مع رئيس مجلس الإدارة نفسه.. أنا اللى باطالب بيه إن المسئولين يتدخلوا ويعملوا تحقيق.

وقال الأستاذ عبدالعال :

– تأكد إن المسئولين عارفين كل حاجة قبل ما تعرفها.. وتأكد

إنك غلطان، وأنا جاكلم عبدالكريم بيه، وتأكد إنى حاوصل معاه لحل.. وأقدر من دلوقت أعدك بأنك حاترجع تشتغل فى الشركة.

وقفز حلمى واقفا، وقد ازدرد وجهه وبرقت عيناه، وصرخ:

– أنا مش جاى هنا علشان تتوسط لى فى إنى أرجع الشركة.. أنا جاى علشان أنقذ المصنع.. علشان أمنع جريمة غش.. علشان البلد تتطهر من اللى زى عبدالكريم وغير عبدالكريم.

ورفع إليه الأستاذ عبدالعال عينين باردتين، وقال :

– وبعدين معاك بأه.. المسائل ما تنحلش بالزعيق يا باشمهندس.. على كل حال سيب لى الموضوع.. وأنا أعدك بأن كل اللى ممكن يتعمل، حاعمله.

وقال حلمى فى عصبية :

– أنا عايز الموضوع يتعرض على اللجنة وتاخد فيه قرار.

وقال عبد العال مبتسما :

– طبعا.. ما أنا قلت لك إن عبدالكريم بيه عضو فى اللجنة.. يعنى لما أكلم عبدالكريم كأنى باكلم اللجنة.

ونظر إليه حلمى وهو واقف وعيناه تنطلقان بالسخط.. ثم قال فى صوت مبحوح :

– متشكر.. السلام عليكم.

وقال عبدالعال :

– أرجوك تفوت علىّ بعد يومين.

ولم يرد عليه حلمى.

خرج وصفق الباب وراءه بعنف. ولم يلتفت إلى الساعى الذى لا يزال جالسا على مقعده، ورأسه فوق يده.. ولم يحتمل أن ينتظر المصعد لينزل به.. نزل على قدميه.. والدنيا حمراء أمام عينيه.. تشتعل نارا.. ودماؤه تغلى فى عروقه.. ورأسه ملتهب.. وأصابعه متكومة فى قبضته كأنه يستعد ليلكم بها أحدا.. وهو يريد أن يلكم أحدا.. أى أحد.. يريد أن يضرب.. أن يقتل.. أن يحطم. يحطم هذه الجدران الضيقة التى تلتف حوله وتكاد تطبق على صدره.

أين الثورة؟
أين جمال عبدالناصر؟
أين الباب؟
وتلفت حوله وهو يسير بخطواته الغاضبة كأنه يبحث بين الناس عن الثورة.. عن جمال عبدالناصر.. عن الباب الذى يستطيع أن يخرج منه إلى الطريق.. إلى الحقيقة.. ولكن الناس جامدون.. ليس فيهم ثورة.. وليس بينهم جمال عبدالناصر.. وليس بينهم باب.. الناس جدران باردة تحيط بها وتقترب منه شيئا فشيئا، لتخنقه.
وقفز إلى ذهنه خاطر.
المخابرات.
هل الطريق الوحيد هو المخابرات ؟
هل المخابرات هى باب الثورة ؟
ربما.
ولكن لماذا ؟
لماذا يكون باب الثورة، بابا خفيا ؟
لا يهم.
المهم أن هناك بابا.. وليس الآن وقت المناقشة.
وأسرع فى خطاه.. وحاجباه الكثيفان معقودان فوق عينيه الواسعتين وشفتاه الرفيعتان مزمومتان فى حزم.. فى غيظ.
ووصل إلى مقهى عرابى.. ولمح توفيق جالسا إلى مائدتهم المعتادة، فانحرف نحوه، وجلس بجانبه متجهما.. دمه يغلى.. ووجهه مزرود.
وقال توفيق وهو ينظر إليه فى جزع :
– مالك.. حصل إيه ؟
وشد حلمى نفسا من صدره، ثم التفت إلى توفيق وقال فى عصبية :
– إنت لسة بتشوف صاحبك بتاع المخابرات ؟

وقال توفيق فى دهشة :

- الصاغ رفعت.. طبعا.

وقال حلمى وهو يميل بصدره فوق المائدة :

- أنا مستعد أبعت له المستندات اللى هو عايزها.. من غير ما قابله.. من غير ما أشوفه.

وابتسم توفيق وقال :

- ما كان من الأول يا حلمى.

وقال حلمى فى حدة :

- من الأول، من الآخر.. مش مهم.. المهم إنه يقدر يعمل حاجة.. تفتكر يقدر يعمل حاجة ؟

وتمايل توفيق برأسه متباهيا، وقال وعلى شفتيه ابتسامة مغرورة :

- إلا يعمل حاجة.. تعرف مين أقوى واحد النهاردة فى الشركة بتاعتنا؟ أنا.. تصدق إنى أنا أبقى أقوى واحد فى الشركة.. أقوى من العضو المنتدب.. وأقوى من رئيس مجلس الإدارة.. وأقوى من رئيس رئيسى.. الشركة كلها بترتعش لما أخش ولا أدخل.. أنا اللى كانوا بيقولوا علىّ جاسوس الصاحب الشركة القديم.. وتعرف أنا قوى ليه ؟. لأنى باشتغل مع الصاغ رفعت.. لأنى عرفت إنه هو الكل فى الكل.. فنطقنى.. دول ناس قادرين.. قادرين على كل شىء.

وقال حلمى فى حدة :

- أنا مش عايز حاجة لنفسى.. كل اللى أنا عايزه إن جريمة المصنع دى تقف قبل ما تتم.

وقال توفيق كأنه يهدىء حلمى :

- يوقفها ونص.. إنما قول لى.. إنت عملت إيه النهاردة ؟.. وإيه اللى مزعلك كدة ؟

وقال حلمى وهو يتنهد فى أسف :

- رحت الاتحاد القومى.

وقال توفيق في دهشة :

- رحت تعمل إيه ؟

وقال حلمي :

- قلت لهم على موضوع المصنع.

وقال توفيق :

- أما مجنون صحيح. بذمتك تقدر تقول لي الاتحاد القومي ده يطلع إيه ؟

وقال حلمي وهو ينظر أمامه ساهما :

- الناس.. الاتحاد القومي هو الناس.

وصاح توفيق وهو مغتاظ من سذاجة صديقه :

- ناس إيه يا حلمي.. الناس مالهومش دعوة.. اللي في الاتحاد القومي هم أصحاب الشركات، وأصحاب الأرض زي الأحزاب بتاعة زمان بالظبط.. ولما تروح تشكي مدير الشركة بتاعتكم للاتحاد القومي، يبقى كأنك بتشكي المدير للمدير.

وقال حلمي في يأس :

- لك حق.. إنما ده لازم يتغير.. وضروري حايتغير.. الثورة لسة عايشة.. ومش حاتسكت.

وقال توفيق في زهق :

- والنبي إنت عبيط.. يعني الثورة حاتخلق ناس من جديد ؟

وقال حلمي في إصرار :

- أيوه.. حاتخلق ناس من جديد.

وقال توفيق كأنه يحادث طفلا :

- طيب.. لغاية الناس ما يتخلقوا من جديد.. مش تخليك واقعي وتتعامل مع الناس الموجودين، وتمشي معاهم.

وقال حلمي في إصرار :

- لا.

وهز توفيق كتفيه، وأدار ظهره لحلمي، وسكت برهة.. ثم عاد والتفت إليه، وقال كأنه يتحداه :

– تحب أخش لك الاتحاد القومى، وأبقى رئيس لجنة كمان.. علشان أوريك البلد ماشية إزاى ؟

وقال حلمى بلا مبالاه :

– أنا عارف إنك تقدر توصل لأى حاجة.. إنما ده مايغيرش رأيى.

وقال توفيق فى سخط :

– شاطر.

ثم نظر إلى جرسون المقهى وصرخ فيه :

– هات واحد كوكاكولا قوام يا جدع.. بس تكون ساقعة.. اتحرك.

وطال بينهما الصمت.. إلى أن قال توفيق وهو يشرب كوب الكوكاكولا :

– مافيش أخبار جديدة من محمد ؟

وقال حلمى وهو غارق فى خواطره :

– لأ.

وقال توفيق :

– ما تيجى نسافر اسكندرية يوم الخميس الجاى.. ونرجعه معانا.

وقال حلمى :

– أحسن نسيبه لما يرجع لوحده.. محمد عنيد.. ولو حس إننا بنضغط عليه مش حايرجع.. إنما لو سبناه، ضرورى يرجع.

ثم قام حلمى واقفا، واستطرد قائلا :

– أنا ماشى بأه.. وبكرة حاجيب لك المستندات.

وقال توفيق وهو ينظر إلى حلمى فى إشفاق :

– ما تخليك قاعد.

وقال حلمى وهو يخطو نحو الشارع :

– لأ.

وركب الأوتوبيس، وهو غارق فى أفكاره.. ضلوعه منطبقة على

صـدره تكاد تخنق أنفاسـه.. وتنتـابه لحظات يأس.. من كل شيء.. من الثورة.. ومن نفـسه.. ومن الحقيـقة التى يبحث عنها.. ويـشعر بالضعف.. بالانهيار.. ولكنه يعود فى لحظات أخرى ويقاوم.. يقاوم يأسـه.. ويقاوم انهـيـاره.. لابد أن هناك طريقا.. وهـناك حقـيقـة.. وهناك بابا.. وهو قوى.. قوى.. كل ما يحتاج إليه مزيد من الصبر.. مزيد من العناد.

ونزل من الأوتوبيس وسـار فى شـارع سليـمـان باشـا، وهو لا يحس بالناس من حوله.. الدنـيا ليس فيهـا ناس.. فيها ضـباب.. ضباب كثيف، يتوه فيه.

وصعد إلى شقته وهو لا يفكر فى تحية كعادته.. إن يأسه شمل كل شيء حتى تحيـة.. وأمله اتسع كثيرا حتى لم تعد تحـية وحدها تبدو فيه.. إن أمله هو الحقيقة.. وتحية ليست الحقيقة.. إنها الزيف.

وفتح الباب.

ورآها.

تحية.

جـالسة على الأريكـة العريضـة، وابتـسامـتهـا تتـدلى من بين شفتيها، كأنها شيء يكاد يقع منها دون أن تدرى.

وانطلقت النار فى عـينى حلمى.. انطلق كـل يأسه وكل سـخطه، وصرخ فى وجه تحية :

– بتعملى إيه هنا.. إحنا مش حانخلص بأه ؟

وصفق الـباب وراءه فى عنف، وتقـدم نحوها وعـيناه متـقدتان بالغيظ، واستطرد صارخا :

– لازم تعـرفى إن مش مـن حـقك تيـجى هنا.. ولا تكـلمـينى.. ولا تعرفينى.. أنا خلاص مش عايزك.. فاهمة.. مش عايزك.

ونظرت إليه وأنوثتها تبـرق فى عينيها، كأن غضبه يدفـعها إليه أكثر وقالت كأنها تتوسل إليه :

– لكن أنا عايزاك يا حلمى.. ما أقدرش استغنى عنك.

وصرخ حلمى :

– عـايزاني على أسـاس إيه.. بأى حق تعوزيـني.. إنتى منحلة.. ماعندكيش مبادىء.. ماعندكيش كرامة.

وقالت تحية وجسدها الملفوف ينتفض فوق الأريكة :

– أنا بحبك يا حلمى.

وقال حلمى وهو يضرب على مائدة الرسم بقبضته فى عنف :

– إنتى مابتـحبنيش.. إنتى مـاتعرفيش الحب.. الـست اللى تقدر تنام مع اتنين رجـالة مش مـمكن تكون بتحـب واحد فـيهم، حـتى لو كانت متجوزة واحد منهم.

وقالت فى صوتها المسترخى :

– إنت عارف إنى عايزة أطلق.. و..

وقاطعها صارخا :

– لو كنت عايزة تطلقى، كنت اطلقتى من زمان.

وقالت فى عتاب :

– خليك عاقل يا حلمى.. إنت عارف إن الطلاق مش سهل.

وقال وهو يمزقها بعينيه :

– اشمعنى الخيانة سهلة.. ليه الخداع يبقى أسهل من الحقيقة.

وقالت فى جزع :

– حلمى.. ماتقولش خيانة ولا خداع.. أنا باحبك.

وصرخ :

– ماتقوليش الكـلمة دى تانى.. اللى بينا وبين بعض مش حب.. اللى بينـا حـاجـة غلط.. والغلط مش مـمكن يـعـيش.. كـانْ مـمكن يتصلح.. إنما دلوقت خلاص مش ممكن.. يعنى لو حتى اطلقتى مش ممكن حا أقابلك.

وقفـزت واقفة والغـضب يكسو وجهـها، ورفعت صـوتها على صوته صارخة :

– وكنت قبلتنى ليه بعد ما اتجوزت.. ضحكت علىّ ليه، وفهمتنى إنك مستعد تتجوزنى بعد ما أطلق.

وصرخ :

- كنت ضعيف.. كنت لسة مخدوع فيكى.. كنت مصدق إنك اتجوزتى غصب عنك.. نسيت مبادئى وبقيت منحل زيك.. إنما خلاص.. فقت.. حتى لو كنت متعذبة مع جوزك لازم تفضلى معاه.. وحتى لو كنتى بتحبينى لازم تسيبينى.

ونظرت إليه كأنها تهم بالصراخ، ولكنها كتمت صرختها، كأنها غيرت رأيها، ولمعت طبقة من الدموع فى عينيها، وقالت كأنها تبكى نفسها :

- لو ما كنتش شجعتنى من الأول.. يمكن كان زمانى نسيتك.. وكان زمانى مستحملة جوزى.

ونظر فى عينيها نظرات شك كأنه لا يصدق دموعها، وقال ساخرا :

- على كل حال ماحصلش حاجة.. لسة ما اطلقتيش.. تقدرى تبتدى من النهاردة.

قالت فى حدة :

- دلوقتى ما أقدرش.

وقال وهو يبتسم ابتسامة قاسية :

- اتعودت خلاص تعيشى مع اتنين.. مش كدة !!

ونظرت إليه بعينين جاحظتين كأنها تحاول أن تبتلع الإهانة.. ثم هدأت عيناها، واقتربت منه وهى تحاول أن تضع يديها على كتفيه. وقالت فى صوت ناعم متهافت :

- حلمى.. إنت مش زى عوايدك.. لازم فيه حاجة مزعلاك.

وأزاح يديها من فوق كتفيه فى قسوة وابتعد عنها كأنه يستعد لمواجهة نمرة، وصرخ :

- ماتلمسنيش.. الدور ده مش حاتقدرى تضحكى علىّ.. أنا كرهتك.. قرفان منك، ومن جسمك.

وابتسمت ابتسامة ساخرة متحدية، وقالت :

- وخايف كدة ليه ؟!

وقال بسرعة :

- مش خـايف.. إنمـا قـرفـان.. إنتـى دايمـا مـتـأكـدة إنك كل ما تلمسينى أضعف قدامك.. أضـعف قدام جسمك.. إنمـا خلاص.. ولو قربت خطوة واحدة خاضربك.. حاموتك من الضرب.

وتدلت ابتسامتها، وقالت وهى تقرب جسدها منه :

- أهون عليك يا حلمى ؟

وقبل أن يفكر، رفع كفه وصفعها.. صفعها بكل قوته.. كل ما فى ذراعه من حقد وغيظ سقط على صدغها.

واهتزت رقبتها كأن رأسها قد انخلع من فوقها، وصرخت:

- آى.

ولم يسمع صرختها.

لم يعد يراها.

كل ما يراه ضبابا أحمر، تتحرك فيه أشباح سوداء.

ورفع كفـه مرة ثانية وضربهـا على صدغهـا.. ثم لم يعد يدرى اين يضربها.. ولم يعد يحس بأنه يضـربها هى.. تحية.. إنه يضرب أناسا كثـيرين.. يضرب رئيس مجلس الإدارة.. كل رؤسـاء مجالس الإدارة.. ويضـرب المـدير.. كل المـديرين.. ويـضـرب رئيس لجنة الاتحاد القـومى.. كل رؤساء لجـان الاتحاد القـومى.. إنه ينفس عن كل غيظه.. كل حقده.. كل ضياعه وحيرته.

وسقطت تحية على الأرض، وهى تئن.. حـبست المفاجأة والألم صراخها.. وغطت رأسها ووجهها بذراعـها تحمى نفسـها.. وجسدها يتلوى على الأرض فى عنف تحـاول أن تتفادى ضـربات تحس بها قبل أن تقع عليها.

وسكت حلمى فجأة.

وكأنه أفاق من نوبة جنون.

ونظر إلى تحـيـة وهى ملقـاة على الأرض تحت قـدمـيـه كـأنه لا يصـدق عينيـه.. وهم أن ينحنى فـوقهـا.. ولكنه عدل وأدار لهـا ظهره، واستند بذراعه على الحائط وألقى برأسه فوق صدره، وتمتم فى صوت خفيض تمزقه أنفاسه اللاهثة.

ـ أنا آسف.

وأحست تحية بأن حلمى قد كف عن ضـربها.. فانفجرت تبكى.. بكاء خفيضا يهز كل جسدها.

وتركهـا حلمى تبكى فـترة، وهو يدق الحـائط بقبضـة يده.. ثم التفت إليها واقترب منها. وقال فى أسى :

– أنا آسف يا تحـية.. ماكنتش حـاسس أنا باعمل إيه.. وقـفزت واقفة، وقالت وهى تنظر إليه فى غضب تبلله دموعها :

– ابعد عنى.. كفاية كدة.

وبدأت تساوى ثوبهـا فى عصبـية.. وجذبت حقـيبتـها، ودخلت الحمام لتساوى شعرها أمام المرآة.. وأغلقت الباب وراءها بالمفتاح.

وجلس حلمى على الأريكة ووضع رأسه بين كـفيه، وفى صدره زوابع من أحاسيسه.. ولكن هناك شيـئا آخر فى صدره.. إنه يشعر بنوع غريب من الراحة.. إن جانبا منه مرتاح، ينظر إلى الزوابع التى تمر أمامه كأنه يتفرج عليها.. ويبتسم.

وغابت تحية فى الحمام.

وبدأ القلق يساور حلمى.. فقام جزعا، ونقر على باب الحمام.

ولم ترد تحية.

وخبط الباب بكل قبضته وهو يصرخ فى هلع :

– تحية.. تحية.

ولم ترد.

وبدأ يضرب الباب بكتفه يحـاول أن يكسره وعيناه ينطلق منهما رعب مجنون.

وفجأة فـتح الباب.. وكاد حلمى يقع داخل البـاب.. وبرزت تحية وقد سـاوت شعرها وأزاحت الدمـوع من عينيـها، وثبتت الأصـباغ فوق وجهها.. وقالت وهى تنظر إليه كأنها تصفعه بعينيها :

– أظن كنت فاكرنى انتحرت.. اطمئن.. الحمد لله اللى عرفتك على حقيقتك علشان ما انتحرتش علشانك.

وقال حلمى وهو يبتعد عنها :

- أنا آسف كمان مرة يا تحية.. ماكنتش أحب إن علاقتنا تنتهى بالشكل ده.

والتفتت إليه فى حدة عندما قال إن علاقتهما قد انتهت، ثم قالت فى تحد :

- أنا اللى نهيت كل اللى بينا.. مش إنت.

فقال فى أسى صادق :

- أنا عايزك تعرفى إنى لسة باحبك.. إنما حبنا غلط.. مش ممكن يستمر.. بيضعفنا.. ولازم نقاومه.. لو كنا قاومناه من زمان ماكناش وصلنا للدرجة دى.

ونظرت إليه وهى تهز كتفيها كأنها ليست مقتنعة بكلامه.. وقالت وهى تلوى شفتها :

- أنا مش محتاجة للمقاومة.. ماتفتكرش نفسك مهم للدرجة دى.. والكلام اللى إنت بتقوله ده.. بتقوله من غيظك.. لأنى مارضيتش أسيب جوزى واتجوزك.. ماتفتكرش نفسك صاحب مبادئ.. وأنا مش صعبان علىّ إلا إنى أشفقت عليك لغاية مابهدلتنى.

وابتسم حلمى كأنه يعرف لماذا تقول هذا الكلام.

وأغاظتها ابتسامته.. فاستدارت متجهة نحو الباب، قائلة فى عصبية :

- مع السلامة.

وقال قبل أن تخرج :

- أنا مش حاطلب منك مفتاح الشقة.. إنما أحب أقولك إنى حاغير قفل الباب.. وآسف اللى حاعمل كدة.. إنما مضطر.

ونظرت إليه تحية باحتقار.

وخرجت دون أن ترد عليه.

ودون أن تترك له مفتاح الباب.

●●●

ورقد حلمى على فراشه دون أن يخلع ثيابه، وأنفاسه تضج فى

صدره كأنه انتهى من مشوار طويل قطعه جريا.

إنه متأكد أن تحية لن تعود.

لا يمكن أن تعود بعد كل ما حدث.

وهو مصر على تغيير قفل الباب، حتى يحمى نفسه من ضعفها وضعفه.

وبحث عن الراحة فى صدره ليرتاح.. إن هذا هو ما كان يريده.. وقد قضى سنوات وهو يحاول.. يحاول أن يتخلص من تحية.. وقد تخلص منها، ومن حقه أن يرتاح.. وأن يشعر بالراحة.

ولكنه لا يشعر بالراحة.

إن صدره منقبض.

وهو يشعر بشىء كالندم.. ويلوم نفسه لأنه قطع كل الخيوط التى كان يمكن أن تربطه بتحية.. لقد كان يستطيع على الأقل أن يحتفظ بصداقتها.. كان يستطيع أن يكون إنسانا مهذبا.. وليس الذنب ذنبها إذا كان أضعف من أن يكون مهذبا، حتى يقطع الخيوط التى بينهما بالضرب.. ضرب امرأة!

ويحس بأن عضلاته تتقلص.

ومعدته تؤلمه.

ويغمض عينيه لينام.. فيزداد انقباض صدره.. ويمتلىء رأسه بالصورة السوداء.. صور كل حياته العنيفة الحائرة.. ويعود ويفتح عينيه ليهرب من خياله.. ويعود ويغلقهما.

وفتح عينيه فى الصباح، ووجد نفسه لا يزال بثيابه كاملة.. حتى رباط العنق لم ينزعه.

وقام بسرعة وخلع ثيابه.. وحلق ذقنه.. واستحم.. وتناول كوبا من الشاى.. ورأسه مشغول.. مشغول بأشياء كثيرة ولا يستطيع أن يركزه فى واحد منها.

وارتدى ثيابه مرة ثانية.. وبدأ يجمع من أدراجه المذكرات والمستندات الخاصة بعطاء بناء صفقة النسيج.

ونزل على السلم مسرعا، وهو لا يدرى لماذا يسرع؟ إنه يعلم أنه ليس فى حاجة إلى الإسراع.

ووقف مع عم سليمان بواب العمارة واتفق معه على تغيير قفل باب الشقة.

ثم سار فى شارع سليمان باشا مسرعا، متجها إلى مقر الشركة التى يعمل فيها توفيق.. وهو لا يزال يتعجب، لماذا يسرع؟

ودخل إلى مقر الشركة وهو ينظر فى وجوه المهندسين والموظفين والسعاة كأنه يتعجب، كيف يحتملون هذا الهدوء البارد، وكل هذه الأخطاء تقع من حولهم.

واتجه مباشرة إلى مكتب توفيق، ومد يده ليفتح الباب، فوقف الساعى فى وجهه، وهو يقول فى أدب :

– لو سمحت.. اتفضل عند السكرتير.

وابتسم حلمى بينه وبين نفسه.. إنها المرة الأولى التى يزور فيها توفيق بعد أن نال الترقية.. ولم يكن يعلم أنه قد أصبح له سكرتير.. يبدو أن توفيق أصبح الكل فى الكل فعلا، كما قال له..

واتجه إلى الباب الآخر وهو يهز رأسه متعجبا، وبين شفتيه ابتسامة ساخرة، يسخر بها من الدنيا، ومن نفسه.

ووقف أمام السكرتير فى أدب، وقال اسمه.

ونظر إليه السكرتير فى شك، وهو يقيسه من فوق لتحت، وقال:

– أقدر أعرف سبب المقابلة ؟

وقال حلمى وهو لا يزال محتفظا بابتسامته :

– عندى معاد.. لو سمحت قول له إنى هنا.

وعاد السكرتير ينظر إليه فى شك، ثم قام متكاسلا وفتح الباب الذى يفصل بينه وبين مكتب توفيق.. واختفى برهة خاطفة، ثم عاد ملهوفا وعلى شفتيه ابتسامة منافقة كبيرة، وقال فى احترام كبير :

– اتفضل يا افندم.

ودخل حلمى مبتسما، واستقبله توفيق فى وسط الغرفة، مهللا :

- أهلا حلمى.

وقال حلمى وهو يصافحه :

- مبروك.

وقال توفيق :

- على إيه ؟

وقال حلمى وابتسامة ساخرة على شفتيه :

- على السكرتير.

وقال توفيق ضاحكا :

- إنت لسة شفت حاجة.. الشركة قررت تدينى عربية.. حابتدى من بكرة أركبها.. وحفوت عليك بيها.

ثم نظر إليه نظرة جادة، واستطرد قائلا :

- إيه رأيك تشتغل معاى هنا يا حلمى.. أنا عارف إنك حاتتعبنى.. إنما عارف كمان إنك مهندس كويس.. عارف إنك أحسن واحد فينا.. ومستعد أستحمل متاعبك.

وقال حلمى هو يبتسم ابتسامة رقيقة كأنه يدلل بها توفيق:

- مش دلوقت.. أنا مابفكرش فى الشغل دلوقتى.. باعتبر نفسى فى أجازة.. لغاية ما أشوف حل مع مشاكلى ومع نفسى.

ومد يده بالظرف الذى يحمله، واستطرد قائلا :

- أنا جبت لك مستندات موضوع المصنع.

والتقط توفيق الظرف، وجلس إلى مكتبه وأخذ يفتحه ويخرج ما فيه من أوراق.. وجلس حلمى على المقعد العريض الموضوع بجانب المكتب.. وهو يدير عينيه حوله.. ويتساءل بينه وبين نفسه.. هل كان يجب أن يسلك سلوك توفيق حتى يكون له مثل هذا المكتب.. وسكرتير.. وسيارة.. وترقية.. وعلاوة ؟

ولم يشعر وهذا التساؤل يطوف به، بالحسد.. لم يحسد توفيق. ولم يشعر بالغيظ.. إنه ليس مغتاظا مما ناله توفيق.. ولكنه شعر بالأساس الخاطىء الذى تدور عليه الحياة.. وبدأ عقله يناقش هذا الأساس.. ويبحث عن طريق لتعديله.. طريق جديد يستطيع أن يسير فيه.

وأفاق من تأملاته وتوفيق يقول له :
- الصاغ رفعت حايندهش من المعلومات دى.. متهيأ لى المخابرات كلها حاتقف على رجل.
وقال حلمى فى هدوء :
- المهم إن حاجة تتعمل.
وقال توفيق مبتسما :
- واللى أعجب من المعلومات دى.. عنادك.. أنا مش عارف إنت إيه اللى حامقك للدرجة دى.. وحاشرك فى الموضوع ده؟
وقال حلمى مبتسما :
- مش مهم تعرف.. المهم.. حاتشوف الصاغ رفعت إمتى؟
وقال توفيق :
- حاشوفه النهاردة.. ولو إنه مشغول قوى.. عامل اجتماع مع العضو المنتدب من الصبح.
وقال حلمى فى حماس :
- لازم تفهمه إن الموضوع خطير.. ومحتاج لعمل سريع.. تصور إنهم بيحطوا فى بلاطة السقف تلات أسياخ حديد فى المتر الطولى.. بدل من خمسة.. يعنى لو السقف تم بالشكل ده حايقع من أول يوم.
وتوفيق سارح كأنه لا يسمع كلام حلمى، ثم قال فى صوت خفيض :
- أنا مش عارف إيه اللى غيب الصاغ رفعت عند العضو المنتدب لغاية دلوقتى.. متهيألى فيه حاجة كبيرة.
وقال حلمى :
- زى إيه ؟
وقال توفيق وهو لا يزال سارحا :
- مش عارف.. إنما لازم حا أعرف.
وفجأة دق جرس التليفون الداخلى الموضوع بجانب مكتب توفيق، بين تليفونين آخرين.

والتقط توفيق السماعـة بلهفة، وحلمى ينظر إليه فى تطلع، كأنه ينظر إلى إنسان غريب.

وقال توفيق فى سماعة التليفون :

– حاضر يا أفندم.. حالا.

ووضع سماعة التليفون، والتفت إلى حلمى قائلا :

– العـضـو المنـتـدب عـايزنى فى مكتـبـه.. مش قـلت لك إنهم مايقدروش يستغنوا عنى.

وقفز واقفا وهو يمد يده إلى حلمى قائلا فى عجلة :

– أشوفك بالليل على القهوة.

وقال حلمى وهو يصافحه :

– ويكون معاك أخبار كويسة.

وتوفيق :

– بإذن الله.

وشد حلمى من يده وخرج به من الباب الآخر الذى لا يؤدى إلى غـرفة السكرتيـر ثم هز يده مصـافـحا، واتجـه إلى مكتب العضـو المنتدب، وحلمى ينظر وراءه وعلى شفتيه ابتسامة عجيبة.

١٧

دخل توفيق إلى مكتب العضو المنتدب من الباب المباشر.. لقد أصبح الآن أكبر من أن يمر على مكتب السكرتير.

وكان المهندس محمود فكرى، العضو المنتدب جالسا وعلى وجهه أمارات جادة، وعلى مقعد مقابل يجلس الصاغ رفعت ضابط المخابرات، متجهم الوجه.. وفوق رأسيهما جو قاتم كئيب، كأن بينهما خلافا كبيرا.

وأحس توفيق بهذا الجو لمجرد دخوله.. وصافح الصاغ رفعت أولا.. ثم مد يده إلى المهندس محمود فكرى.

وقال محمود فكرى وهو يقوم نصف قومة من على مقعده، ويصافح توفيق بيد باردة :

– صباح الخير يا باشمهندس.. اتفضل.

وجلس توفيق فى مواجهة الصاغ رفعت.

ومرت على الثلاثة فترة صمت.. وعقل توفيق يدور بسرعة مليون لفة فى الساعة يحاول أن يكشف سر هذا الوجوم بين العضو المنتدب وضابط المخابرات.

وتنحنح المهندس محمود فكرى، وأسند ذراعيه فوق المكتب، ومد عنقه نحو توفيق وقال فى كلمات مرتبة :

– إحنا كنا بنتكلم أنا ورفعت بيه عن مشروع بناء أربع فيللات خصوصية.. طبعا عندك فكرة عن الموضوع ده.

والتفت توفيق بسرعة نحو الصاغ رفعت وفى عينيه تساؤل حاد.

ولمح العضو المنتدب التفاتة توفيق، فاستطرد قائلا :

- الصاغ رفعت هو اللى قال لك إنك إنت اللى قدمت له تكاليف المشروع.

وفتح توفيق فاه ليبتلع المفاجأة.. ثم قال فى صوت خفيض:

- أيوه يا أفندم.

وقال العضو المنتدب وهو يبتسم ابتسامة زائفة يحاول أن يخفى بها غضبه :

- كان المفروض إنى أعرف قبل كدة.

وعاد توفيق يلتفت إلى الصاغ رفعت كأنه يستنجد به.. والصاغ رفعت جالس متجهم ينظر إلى بوز حذائه.

وقال توفيق للعضو المنتدب وابتسامته اللزجة ترفع شاربه الصغير وتلصقه بأنفه :

- والله يا فكرى بك.. الصاغ رفعت طلب منى إعداد بحث عن تكاليف بناء أربع فيلات.. مجرد بحث.. وأعددت البحث وأنا ماعنديش فكرة عن المشروع.. وماكانش مفروض إنى حا آخد فيه قرار.. إنما مجرد بحث.. معلومات.. ويمكن علشان كدة، ما أستأذنتش سيادتك.

وهز العضو المنتدب رأسه موافقا وشفتاه مقلوبتان فى قرف، وقال :

- مش مهم.. المهم إنى درست الأسعار اللى إنت مسجلها.. فوجدت إنها أقل من التكاليف الفعلية بحوالى عشرين فى المائة.

وتلعثم توفيق، وعاد ينظر إلى الصاغ رفعت.

ورفع الصاغ رفعت رأسه، وقال ووجهه مزدرد :

- أنا قلت لسيادتك إنى أنا اللى طلبت من المهندس توفيق إنه يخفض التكاليف.

وقال توفيق كأن طاقة من النور فتحت فى عقله :

- الواقع إنى أدخلت فى حسابى امكانية الشركة بتاعتنا.. الشركة ممكن إنها تضحى فى مشروع، على أساس إنها تكسب من

مشـروع تانى.. ومادام موضوع الفـيللات ده مقدمه الصــاغ رفعت يبقى لازم موضوع متعلق بالمصلحــة العامة.. والشركة من واجبها إنها تساهم فى كل ما يخص المصلحة العامة.

ونظر الصــاغ رفعت إلى توفـيق نظرة اعجـاب، يهنئه بهـا على ذكائه.

وقال العضـو المنتدب وهو يشد أنفاسـه كأنه يحمل ثقلا كـبيرا على صدره :

– أنا فاهم الكلام ده كويس.. بس الأسعار دى حاتسبب للشركة خسارة أكثر من عشرة آلاف جنيـه.. وإحنا دلوقتى مؤسسة عامة.. يعنى ديوان المحاسـبة بيراجع علينا.. ولازم أعرض المـيزانية على مـجلس الإدارة.. وعـلى الوزير.. ولازم يبـقى عنـدى كـلام أقـوله وأفسر بيه الخسارة دى.. وأنا حققت كل الطلبات التى طلبها الصاغ رفعت لإيـمانى بالمـصلحة العـامة.. وقـدرت أمشيـها على مـجلس الإدارة.. إنما فى المـوضوع ده بالذات أنا محتاج إن الـصاغ رفعت يساعدنى.. يحمل معايا المسئولية.

ونظر الصاغ رفعت إليه فى غضب جرىء، وقال :

– يعنى إيه اللى بتطلبه سيادتك ؟

وقال العضو المنتدب فى رجاء :

– يعنى تدينى مثلا أمر مكتوب.

وقال الصاغ رفعت فى حدة :

– إنت عارف إن المخابرات ما بتديش أوامر مكتوبة.. إحنا شغلنا أكبر وأخطر من إنه يمشى بأوامر مكتوبة.

ونكس العضو المنـتدب رأسه فى يأس.. ثم عاد ورفعـه بسرعة كأنه اكتشف شيئا جديدا :

– هى الفـيللات دى حـاتتكتب باسم مـين.. مـين اللى حـايكون مالك.. الحكومة ؟!

وقال الـصـاغ رفـعت وهو يتنهد فى ضـيق كأنه يجـذب حبـال الصبر من صدره :

- لأ.. مافيش جهة رسمية حاتبان فى المشروع ده.. ومش معقول إننا نصرح بأسماء الشخصيات الكبيرة اللى حاتسكن فى البيوت دى.. إنما العملية حاتتم بأسماء ناس عاديين.. مش معروفين.

وعاد العضو المنتدب ينكس رأسه فى يأس، وهو يتمتم :

- دى مسئولية كبيرة.

وقال توفيق للعضو المنتدب بعد أن التفت إلى الصاغ رفعت كأنه يتفق معه على خطة :

- يا أفندم المهم هو الميزانية العامة للشركة.. وما دام الميزانية حاتطلع آخر السنة كسبانة تبقى التفاصيل ماتهمش.. حتى لو سجلنا فى الميزانية الأرقام الحقيقية، وثبت أن فيه مشروع سبب خسارة للشركة.. مش مهم.. مادام بقية المشاريع كسبانة.

وقال العضو المنتدب وهو يبتسم من تحت أسنانه :

- معقول.. كلام معقول جدا.

ثم التفت إلى الصاغ رفعت قائلا :

- مش ممكن نأجل المشروع ده شوية ؟

وقال الصاغ رفعت فى حدة :

- والله يا أفندم أنا بانقل أوامر.. والأوامر اللى عندى بتقول إن المشروع لازم ينفذ فورا.. وسيادتك حر التصرف.

وقال المهندس محمود فكرى بسرعة :

- خلاص.. إحنا كلنا لازم نتعاون فى تنفيذ الأوامر المتعلقة بالمصلحة العامة.. بكرة الصبح تفوت علىّ سيادتك تلاقى المشروع كله جاهز للتنفيذ.

وابتسم الصاغ رفعت ابتسامة لزجة، وبرقت عيناه كأنه مقامر يجمع أرباحه.. وقام واقفا، ومد يده يصافح العضو المنتدب، وهو يقول :

- إحنا متشكرين قوى.. وأنا عارف إننا بنتعبك كتير.

وقال العضو المنتدب وهو يقف مصافحا :

- إنتم بتتعبوا أكتر منا.

وقال توفيق وهو يقف بينهما وابتسامته السائلة تسيح على وجهه :

- أستأذن بأه يا أفندم ؟

ورد عليه العضو المنتدب :

- طيب يا باشمهندس.. وأرجوك إنك تشرف على المشروع ده بنفسك.. ابتدى جهز الشغل من دلوقت.

وقال توفيق وهو يجرى وراء الصاغ رفعت :

- حاضر يا أفندم.

ووقف العضو المنتدب المهندس محمود فكرى، ينظر خلفهما نظرات ملؤهما الشك والريبة.

ثم جلس على مقعده ووضع رأسه بين يديه وهو يبتسم :

- مش معقول.. مش معقول.. البلد حاتخرب بالشكل ده !

ثم رفع رأسه بغتة، ورفع سماعة التليفون الخصوصى، وأدار رقما، وقال فى صوت جرىء حازم، كأنه قرر شيئا كبيرا :

- من فضلك.. أقدر أعرف نمرة تليفون مدير المخابرات العامة ؟

وكتب الرقم على ورقة أمامه، ثم قال :

- متشكر.

ووضع سماعة التليفون، ومال بظهره على مسند مقعده يفكر.. فكر برهة قصيرة.. ثم عاد ورفع سماعة التليفون وأدار رقم مدير المخابرات العامة.

ولم يكن المهندس محمود فكرى العضو المنتدب لشركة الانشاءات، يشك فى أن المخابرات العامة قد أمرت ببناء هذه الفيللات الأربع.. ولم يكن يتردد بينه وبين نفسه فى تنفيذ هذا الأمر.. كل ما هنالك أنه كان يريد اقناع المسئولين فى المخابرات برفع الثمن، حتى لا يتسببوا فى خسارة جسيمة للشركة.. وعندما فشل فى إقناع الصاغ رفعت.. استعان بكل شجاعته وقرر الاتصال بمدير المخابرات العامة.

ولم يكن المهندس محمود فكرى يعرف مدير المخابرات.. ولم يره من قبل.. وكان يتصوره إنسانا غامضاً عابساً.. ينطلق الشك والحذر والذكاء من عينيه.. كان يتصور جهاز المخابرات كله كحشد من الضباب الكثيف الغامض يحلق فوق رؤوس البشر.

وارتعشت يده وهو ممسك بسماعة التليفون، عندما سمع صوت مدير المخابرات نفسه، يرد عليه فى بساطة.. كأنه إنسان عادى.. وقال فى صوت ترجفه أنفاسه اللاهثة :

– والله يا أفندم فيه موضوع خاص بالشركة بتاعتنا.. أعتقد إنه يهم سيادتك.. وفكرت أعرضه عليك.

وقال مدير المخابرات فى بساطة وبشاشة :

– تحت أمرك يا أفندم.. تحب تشرف فى مكتبى ؟

وبهت المهندس محمود فكرى لكل هذه البساطة.. وبهت أكثر لدعوته إلى مكتب مدير المخابرات.. ولكن.. ربما كانت هذه البساطة هى عنصر من عناصر الغموض.. وقال وصوته لا يزال يرتجف :

– إمتى يا أفندم ؟

وقال مدير المخابرات بسرعة كأنه ليس لديه عمل آخر :

– بكرة الساعة حداشر.

وقال المهندس محمود فكرى فى تردد :

– والله.. لو سمحت.. أقدر أعرف المكتب فين ؟

وقال مدير المخابرات :

– فى القبة.

وقال محمود فكرى، كأنه يدارى خجله من جهله، وقبل أن يعرف بقية العنوان :

– متشكر يا أفندم.

وسكت برهة ثم استطرد فى صوته المتردد :

– هو موضوع خاص بمشروع بناء الأربع فيللات.

وقال مدير المخابرات :

– والله ما عندى فكرة عن المشروع ده.

وقال محمود فكرى دهشا :

- المشروع اللى بلغه لنا الصاغ رفعت.

وقال مدير المخابرات :

- الصاغ مين ؟

وقال المهندس محمود فكرى :

- الصاغ رفعت يا أفندم.

وقال مدير المخابرات فى دهشة :

- والله مش فاكر الاسم ده دلوقت.. على كل حال بكرة نتكلم.

وقال المهندس محمود فكرى وهو يبتلع ريقه :

- حاضر يا أفندم.. متشكر.. متشكر جدا.

وأعاد سماعة التليفون إلى مكانها وهو واجم :

كيف لا يذكر مدير المخابرات اسم الصاغ رفعت ؟

الصاغ رفعت الذى يقيم الشركة ويقعدها.. وينهى ويأمر.. هل يمكن أن يكون صغيرا تافها بين رجال المخابرات إلى حد ألا يذكره مديره؟.. أم أن كل من فى المخابرات كبير وهام إلى حد أن المدير لم يعد يذكرهم بأسمائهم ؟.. أو.. ربما كانت هذه سياسة مرسومة يتبعها مدير المخابرات.. أن يتجاهل اسم مندوبه فى الشركة إلى أن يستدرج الموضوع حتى نهايته.. والمفروض أن الصاغ رفعت لا يزاول نشاطه فى الشركة بصفة رسمية.. أو على الأصح، بصفة مباشرة.. إنما يزاوله بصفة غير مباشرة.

وابتسم المهندس محمود فكرى عندما وصل إلى هذا الاستنتاج الأخير.. وهنأ نفسه على ذكائه.. ثم أفاق من وجومه مرة واحدة، وبدأ يجمع وثائق مشروع بناء الأربع فيللات.. ويرتبها.. ويعيد دراسة أرقامها.. ويسجل النقط التى سيثيرها أمام مدير المخابرات فى ورقة أمامه.. ثم ضغط الجرس مناديا سكرتيره، وكلفه بأن يأتى له بمزيد من البيانات.

وخرج من مكتبه وهو يحمل حقيبة أوراقه تحت إبطه، ويضغطها إلى صدره بقوة كأنه يخشى أن يخطفها أحد منه.

وقضى بقية يومه وليلته، وهو يرتب كلمات الحديث الذى سيدور بينه وبين مدير المخابرات.. ويرسم لنفسه الصورة التى سيقابله بها.. يرسم نفسه حينا فى صورة الرجل الخطير المتجهم الذى يؤدى واجبا خطيرا.. ويرسم لنفسه حينا آخر صورة الرجل المتواضع الحائر الذى يتفانى فى الخدمة، ويلبى الأمر مهما كان الأمر.. ويرسم نفسه حينا فى صورة الرجل البشوش الخفيف الذى يعرض مشكلته فى بساطة.. وهو يضحك.

ولم ينم.

وخرج فى الصباح وحقيبة أوراقه تحت إبطه يضمها فى قوة إلى صدره.. وركب سيارته.. سيارة الشركة.. وهم أن يأمر السائق بأن يتوجه إلى إدارة المخابرات.. ولكنه تردد.. ربما كان الأفضل ألا يعلم السائق أنه فى طريقه إلى المخابرات.

وأمر السائق بأن يتوجه إلى محل جروبى.. وهناك أمره بأن يسبقه بالسيارة إلى مقر الشركة... ثم قال كأنه خشى أن يشك السائق فيه :

– أنا حابقى اتمشاها.

ودخل جروبى فعلا.. وتلكأ قليلا حتى اطمأن إلى أن السائق قد ابتعد بالسيارة، ثم خرج، ونادى سيارة أجرة، وضع نفسه فيها، وقال للسائق فى لهفة :

– اطلع على القبة يا أسطى.

وطول الطريق وهو يتصور صورة مدير المخابرات الذى لم يره من قبل.. ويعيد ترتيب الكلمات التى سيقولها له.

ونزل من السيارة، ووقف ينظر إلى مبنى إدارة المخابرات من بعيد، وكل ما فى داخله يرتعش.. ورغم ذلك فالمبنى عادى بسيط، ليس فيه ما يثير الرعشة.. وحاول أن يقنع نفسه بالهدوء.. حاول أن يقنع نفسه بأن المخابرات ليست سوى إدارة أخرى من الإدارات الحكومية التى تعود أن يتردد عليها.

وتقدم نحو الباب وقلبه يدق مع وقع خطواته.

وأعطى اسمه لموظف الاستعلامات، وهو يتلفت حوله بعينين زائغتين.. لا شيء غريب.. لا شيء مثير.. سوى هذا الهدوء.. والنظافة.. الأرض تلمع.. والمقاعد ليست مغطاه بالتراب كما هى العادة فى الدور الحكومية الأخرى.. والوجوه التى تمر أمامه، وجوه عادية.. لا تبدو عليها الخطورة، ولا ينطلق منها الشك والحذر، كما كان يتصور.. ورغم ذلك فقلبه ساقط فى قدميه.. ولا يزال يحاول أن يقنع نفسه بأنه لا شيء خطير حوله.. لا شيء أكثر من أنه يزور احدى الهيئات الحكومية لأداء مهمة للشركة.

وتقدمه أحد السعاة إلى مكتب مدير المخابرات.

وقام مدير المخابرات يستقبله مرحبا فى بشاشة، وعلى شفتيه ابتسامة كبيرة.

ومد المهندس محمود فكرى يدا مرتعشة يصافحه بها، دون أن ينظر فى عينيه.. وجلس وعلى شفتيه ابتسامة بلهاء، يحاول أن يستعيد فى ذهنه الكلمات التى قضى الليل يرتبها.

وفجأة تذكر أن مكتب مدير المخابرات لابد أن يكون مجهزا بآلة تسجيل.. وأن كل كلمة يقولها ستسجل عليه.. وشعر كأن عشرات الميكرفونات مسلطة عليه.. ميكرفون فى قفاه.. وميكرفون تحت مقعده.. وهذه الساعة الموضوعة على المكتب لابد أنها ميكرفون.. واحتبس صوته، كأن فى زوره أيضا ميكرفون.

وسمع مدير المخابرات يقول له فى صوت منطلق :

– قهوة يا أفندم.. ولا حاجة ساقعة ؟ إحنا البوفيه بتاعنا بيعمل تمر هندى كويس.

ورفع المهندس محمود فكرى عينين ملؤهما الحذر، ثم قال فى صوت محبوس :

– آخز تمر هندى.. متشكر.

ومرت فترة صمت قصيرة.. ومدير المخابرت يبتسم ابتسامة مشجعة، كأنه يحس بما يدور فى خيال زائره.

وتنحنح محمود فكرى.. ثم بدأ يروى فى صوت متقطع تفاصيل

مشروع بناء الأربع فيللات.. وهو يؤكد فى كل مقطع استعداد الشركة للقيام بالمشروع فورا، وكل ما هنالك أنه يطالب بتعديل الأسعار بحيث ترتفع إلى مستوى التكاليف.

واستمع إليه مدير المخابرات فى هدوء وابتسامته لا تفتر من فوق شفتيه، ثم قال فى هدوء أيضا :

- إنت تعرف الصاغ رفعت كويس ؟

وقال المهندس محمود فكرى فى حماس :

- طبعا.. ده شاب فى منتهى الذكاء والنشاط.. ده فاهم كل حاجة فى الشركة.

ونظر إلى مدير المخابرات ليرى وقع كلامه فى عينيه، فرأى عينيه فاترتين ليس فيهما صدى لحماسه.. فنكس رأسه كأن عنقه ذاب من فوق كتفيه.

وقال مدير المخابرات فى هدوء :

- تعرفه من زمان ؟

وتردد محمود فكرى قليلا ثم قال :

- والله أعرفه بعد ما استلمت الشركة بأسبوع.. زارنى فى مكتبى، وعرفنى بنفسه وابتدينا نشتغل سوا.

وقال مدير المخابرات :

- عرفك بنفسه بأى صفة ؟

وقال محمود فكرى بسرعة :

- بصفته الرسمية.. ضابط مخابرات.. وفاكر إنه قدم بطاقته الشخصية.

وسكت مدير المخابرات برهة، ثم رفع عينيه إلى محمود فكرى، وقال فى هدوء جاد :

- أنا أحب أشرح لسيادتك مهمة إدارة المخابرات.. المخابرات هيئة رسمية.. جهاز من أجهزة الدولة.. زى بقية الأجهزة.. المخابرات مش هيئة سرية.. حتى لو كانت أعمالها لها صفة السرية.. إنما هى جهاز رسمى معروف.. ومهمتها المحافظة على

الأمن الخارى والأمن الداخلى، بالتعاون مع بقية الأجهزة.. يعنى أى موضـوع لا يمس الأمن مالناش دعـوة بيه.. ولما إدارة المـخابرات بتحتاج لأى إنـشاءات بتعلن عن مناقصة علنية زى مـا بيحصل فى أى جهاز تانى من أجهزة الدولة.. يعنى لو المخابرات احتاجت لبناء أربع فيللات.. بتـعلن عن مناقصة.. وبتـتعاقـد باسمها مع المـقاول المكلف بالبناء.. عقد مكتوب.. وما اعتـقدش إن سيادتك تعاقدت مع المخابرات على بناء الفيللات دى.

وقال المهندس محمود فكرى وعيناه متسعتان، وأنفاسه تلهث :

– الصاغ رفعت مـافهمنيش كدة.. ده أنا اترجيـته إنه يدينى أمر مكتوب علشان أبتدى أنفذ المشـروع وأنا متغطى.. مارضيش.. قال لى إن المخابرات ما بتشتغلش بأوامر مكتوبة.

وابتسم مدير المخابرات ابتسامة صغيرة فيها رثاء، وقال :

– الصاغ رفعت مش ضابط مخـابرات.. وما اعتقدش إنه ضابط خالص.

وفـتح المهندس مـحمـود فكرى فـمه كـالأبله.. وبدأت أنفاسـه تتهدج.. وقال فى لهاث :

– مش معقول.. مش معقول.

وقال مدير المخابرات وهو ينظر إليه فى اشفاق :

– آسف إنى أقـول لـك، إنك وقـعت فى يد نصـــاب.. وتهـاوى المهنـدس محمـود فكرى فى جلستـه.. وسقط رأسـه على صدره.. وعيناه جاحظتان كأنه مخنوق.. وعاد يردد :

– مش معقول.. مش معقول.

وقال مدير المخابرات :

– وللأسف إن دى مش أول حادثة من نوعها.. حصلت قبل كدة حـوادث كـتيـر.. والسـبب اللى بيخلى النصـابين يسـتـغلوا اسم المخابرات.. إن فيه ناس كتير مش فاهمين حقيقة العمل اللى بتقوم بيه المخابرات.

وقال المهندس محمود فكرى ولسانه ثقيل يترنح بين شدقيه كأنه أصيب بالشلل :

- بس أنا يا أفندم كنت متأكد إنه ضابط مخابرات.. كل واحد فى الشركة كان عارف إنه ضابط مخابرات.. أنا لغاية دلوقت مش مصدق إنه نصاب.. مش ممكن نصاب تصل بيه الجرأة للدرجة دى!!

وقال مدير المخابرات وهو لا يزال يبتسم :

- ممكن.. المهم طلب منك إيه تانى غير الأربع فيللات؟

ودخل أحد السعاة، يرتدى بدلة رمادية، يحمل صينية عليها كوب من شراب التمر هندى.. ومد المهندس محمود فكرى يدا مرتعشة تناول بها الكوب.. وارتعشت الكوب وهو يقربها من فمه، وتساقطت بعض قطرات الشراب على رباط عنقه.. ورشف رشفة صغيرة بلل بها شفتيه الجافتين.. ثم وضع الكوب المرتعشة على المائدة الصغيرة.. وأخرج منديله فى ارتباك، وأخذ يمسح رباط عنقه المبلل.. ثم أزاح بالمنديل قطرات العرق البارد المتصبب فوق جبينه وقال فى صوت مخنوق :

- ماطلبش حاجة.. شوية تعيينات.. وشوية علاوات لبعض الموظفين.

وسكت مدير المخابرات كأنه يفكر.

ورفع إليه محمود فكرى عينين خائفتين مرتعشتين، وقال :

- وإيه اللى يتعمل دلوقت؟

وقال مدير المخابرات :

- المفروض إننا نثبت عليه تهمة النصب.. سيادتك رايح الشركة دلوقت ؟

وقال محمود فكرى فى استخذاء :

- أيوه.

وقال مدير المخابرات :

- ومفروض حاتقابل اللى اسمه الصاغ رفعت إمتى ؟

وقال محمود فكرى وهو يزداد ضعفا :

– هو مستنيني دلوقت في مكتبي.

ورفع مدير المخابرات سماعة أحد التليفونات الموضوعة أمام مكتبه وقال في صوت خفيض :

– اتفضل.

وبعد لحظات دخل شاب أسمر طويل، وحيا مدير المخابرات تحية حاول ألا تبدو عسكرية.. وقدمه مدير المخابرات قائلا :

– اليوزباشي عبدالله كامل.

وضحك مستطردا :

– ضابط مخابرات بصحيح.

وقام المهندس محمود فكرى يصافح اليوزباشي عبدالله في ضعف، كأنه لا يستطيع أن يقف على قدميه، ثم عاد وألقى بنفسه على مقعده.

وقال مدير المخابرات :

– اليوزباشي عبدالله عنده كل التعليمات، وحايفهمها لسيادتك.

وقال اليوزباشي عبدالله :

– تسمح سيادتك تتفضل معايا في مكتبي ؟

ونظر إليه محمود فكرى في تردد، ثم عاد ينظر في وجه المدير، ثم قام متهالكا.. ومد يده يصافح المدير قائلا :

– أنا مش عارف أقول إيه.. إنما ربنا يستر.. ربنا يستر متشكر.. متشكر قوى.

وقال مدير المخابرات وهو يقف مصافحا ويبتسم ابتسامة كبيرة :

– دى مسألة بسيطة.. اطمئن.. وإحنا اللي متشكرين.

وخرج المهندس محمود فكرى مع اليوزباشي عبدالله كامل.

●●●

وغادر المهندس محمود فكرى مبنى إدارة المخابرات بصحبة اليوزباشي عبدالله كامل، بعد أن فهم الخطة التى وضعت لاثبات

جريمة النصب على الصاغ رفعت.. وركبا معا سيارة من سيارات المخابرات تحمل رقما مدنيا.. واتجها إلى مقر الشركة.

وطوال الطريق ومحمود فكرى يفكر بنصف عقله فى الخطة المتفق عليها، ويفكر بالنصف الآخر فى مصيره.

لقد كان ضحية نصاب.. ولكن.. هل هذا يعفيه من المسئولية؟

إن أقل ما سيقال عنه أنه مغفل.. وسيفقد هيبته أمام الوزير، وأمام كل المسئولين.. وقد يقررون عزله من منصبه، وتشريده فى الشوارع.. ويجد نفسه يعيش بلا عمل، فى فراغ قاتل.

وبدأ يثور بينه وبين نفسه.. يثور على كل الأوضاع التى تحيط به.. ويشعر بثورته تحرق عينيه، وتئز فى أذنيه.

ويشعر بأنه ضحية.

ليس ضحية نصاب.

ولكنه ضحية وهم كبير يسمى المخابرات.. وهم يطوف فوق رؤوس الناس كلهم.. الكبير والصغير.

من أين كان له أن يعرف أن المخابرت لا تتدخل فى أعمال الشركات إلى هذا الحد.. من أين كان له أن يعرف أن كل مهمة المخابرات هى حفظ الأمن الداخلى والخارجى.. من أين كان له أن يعرف أن هذا الاعتقاد الذى تمكن من عقول الناس كلهم.. ليس إلا مجرد وهم؟

ولماذا تركوا هذا الوهم يسيطر على عقول الناس ؟

لماذا لم تمتد يد لتزيحه، حتى تريح الناس، وتحميهم من الوقوع فى أيدى النصابين الذين يستغلون هذا الوهم فى ارتكاب جرائمهم ؟

واشتد به الغيظ.

وتمنى فى غيظه أن يستطيع الصاغ رفعت أن ينجو من التهمة الموجهة إليه.. أن يثبت أنه ليس نصابا.. أن ينجو من المخابرات.

أحس بأنه شريك للصاغ رفعت فى الجريمة.. متضامن معه فى المسئولية.. وأن كل ما سيصيب رفعت سيصيبه.

وقوى فى نفسه هذا الإحساس إلى حد أنه بدأ يفكر فى مساعدة رفعت على الهروب من الكمين الذى أعدته له المخابرات.. فكر أن يغمز له بعينه عندما يواجهه لينبهه إلى خطورة موقفه.. وتخيل أنه يستطيع أن يكتب له ورقة سرية يشرح له فيها كل ما حدث.

وفجأة التفت إلى اليوزباشى عبدالله كامل، الجالس بجانبه فى السيارة.. التفت بعينين خائفتين مذعورتين، كأنه خشى أن يكون اليوزباشى عبدالله قد قرأ أفكاره.. ثم تنهد فى يأس، واسترخى فى مقعده مستسلما، كأنه لم يعد يستطيع المقاومة.. لم يعد يستطيع إلا الإستسلام لما يمليه عليه واجبه.

ووصلا إلى مقر الشركة.

ونزل اليوزباشى عبدالله كامل من السيارة وهو يحمل فى يده حقيبة صغيرة، وسار بجانب محمود فكرى فى أدب جم كأنه يسير بجانب والده.

وبمجرد أن دخلا غرفة المكتب، فتح السكرتير الباب، وقال للمهندس محمود فكرى :

– الصاغ رفعت بيسأل عن سعادتك من الصبح.. هو منتظر فى مكتب المهندس توفيق.. أخليه يتفضل ؟

وقال محمود فكرى فى ضعف :

– استنى شوية.. ماتدخلش حد إلا لما أقول لك.

ونظر إليه السكرتير فى دهشة، ثم نظر إلى اليوزباشى عبدالله كامل.. وخرج.. وأغلق الباب وراءه.

وبسرعة فتح اليوزباشى عبدالله كامل حقيبته وأخرج جهاز تسجيل صغير، ركبه بسرعة فى أسفل حافة الكتب المواجه للمقعد الذى سيجلس عليه الصاغ رفعت.. وأخفى سلوكه بحيث لم يعد يظهر منها شىء.

واستغرقت هذه العملية خمس دقائق، رفع اليوزباشى عبدالله كامل رأسه بعدها وقال لمحمود فكرى :

– خليه يتفضل.

ثم اختار مقعدا بعيدا عن المكتب.

وضغط محمود فكرى على الجرس ينادى السكرتير، وقال له فى صوته الضعيف :

- قول للصاغ رفعت يتفضل.

ثم وضع رأسه بين يديه كأنه يهم بالبكاء، وهو يستعيد فى رأسه تفاصيل الخطة المتفق عليها.

وبعد لحظات دخل الصاغ رفعت.. مشدود القامة.. يسير فى خطى ثابتة مغرورة.. وابتسامته مرسومة على شفتيه.

وقف محمود فكرى يصافحه قائلا :

- آسف.. أنا اتأخرت شوية.

ثم أشار إلى اليوزباشى عبدالله وقدمه إلى الصاغ رفعت قائلا :

- ابن أخويا.. مدحت.

وصافح الصاغ رفعت اليوزباشى عبدالله، ثم جلس على المقعد الذى تعود أن يجلس عليه، وقال وهو ينظر فى وجه المهندس محمود فكرى :

- سيادتك مالك.. باين عليك مهموم قوى.

وقال محمود فكرى وهو يتنهد :

- والله أخويا تعبان قوى.. من الصبح وأنا عنده.. وللأسف اتضح إن عنده ذبحة صدرية.

وقال الصاغ رفعت :

- بالسلامة بإذن الله.

وقال محمود فكرى :

- أنا الحقيقة ماكنتش جاى الشركة النهاردة.. إنما جيت مخصوص علشان المشروع بتاعنا.. مشروع الأربع فيللات.

وقال الصاغ رفعت :

- أنا فهمت من المهندس توفيق إنهم ابتدوا فى التنفيذ.

وقال محمود فكرى :

- أنا برضه أحب أترجاك مرة تانية إن المخابرات تدينا أمر مكتوب.

وقال الصاع رفعت وهو يبتسم في ثقة :
- إنت عارف إن ده مش ممكن.. المخابرات ما بتشتغلش بأوامر مكتوبة.
وقال محمود فكري:
- إنت مش ضابط مخابرات !؟
ونظر إليه الصاغ رفعت فى دهشة وقال :
- طبعا.
وقال محمود فكرى :
- يبقى خلاص.. كفاية إنك إنت تدينى الأمر.. بس علشان تحمل معايا المسئولية.
وقال الصاغ رفعت :
- برضه.. مش ممكن.
وتنهد المهندس محمود فكرى وقال :
- أمرنا لله.. والعقود حاتنكتب باسم مين ؟
وقال الصاغ رفعت فرحا كأنه انتهى من مهمة :
- عقد حاينكتب باسم الحاج مدبولى عوضين.. والتانى باسم الأستاذ خليل شكرى.. والتالت باسم الست نظيرة فهيم.. والرابع باسم عمر عبدالشهيد.
وقال المهندس محمود فكرى :
- ودول كلهم ناس حقيقيين ؟
وقال الصاغ رفعت :
- طبعا.. حيوقعوا العقود بنفسهم.. إنما زى ما إنت عارف كلهم من رجالتنا.. مخابرات.
وهز المهندس محمود فكرى رأسه صامتا، ونكس عينيه، وأحنى رأسه.
واليوزباشى عبدالله كامل يتتبع الحديث، وهو يتظاهر بأنه يطل من النافذة.

وفجأة قام من مقعده، وتقدم إلى الصاغ رفعت، وقال فى لهجة مهذبة ولكنها حازمة :

– تسمح تتفضل معايا ؟

ونظر إليه الصاغ رفعت فى تعجب، وقال وهو لا يزال مبتسما :

– أتفضل فين ؟

وقال اليوزباشى عبدالله :

– نتكلم سوا شوية.

وقال رفعت وقد بدأ يشعر بالكمين الذى وقع فيه :

– مش فاهم.

وأخرج اليوزباشى عبدالله بطاقة من جيبه وقال فى هدوء :

– أنا اليوزباشى عبدالله كامل.. من المخابرات.

وهب رفعت واقفا على قدميه، وقد اكتسى وجهه بالذعر، وقال فى صوت عصبى مرتفع :

– أنا مش فاهم حاجة.. يعنى إيه.. ماتفهمونى.

ونظر إلى المهندس محمود فكرى كأنه يستغيث به.

ومحمود فكرى جالس.. رأسه منكس.. لا ينظر إليه.

وقال اليوزباشى عبدالله فى هدوء :

– أرجوك.. بلاش نعمل ضجة.. فيه عربية بوليس مستنية تحت.

وسقط رفعت على مقعده وهو يلهث.. عيناه زائغتان.

ورفع اليوزباشى عبدالله جهاز التسجيل أمامه.. ببساطة.. كأن ليس هناك شىء غريب قد حدث.. ورفعت ينظر إليه فى هلع.. وقد تقلص وجهه كقطعة من الاسفنج المضغوط.

وقال اليوزباشى عبدالله :

– اتفضل.

وقام رفعت متهالكا، والنظرات الزائغة فى عينيه.. وشفتاه ترتعشان.

ونظر إلى المهندس محمود فكرى.. وفتح فمه كأنه يهم بالكلام.. ثم لم يتكلم.

ومحمود فكرى جالس إلى مكتبه.. لا يتكلم.. لا يتحرك.. لا ينظر.. ورأسه منكس.

ووضع اليوزباشى عبدالله يده فى ذراع رفعت، وخرج به.

●●●

كان توفيق قد جاء مع رفعت، عندما استدعاه العضو المنتدب.. وانتظر فى حجرة السكرتير، إلى أن يدعوه العضو المنتدب هو الآخر، كما جرت العادة.

وانتظر طويلا.

وعرف من السكرتير أن هناك شخصا ثالثا جاء مع العضو المنتدب، لا يعرفه السكرتير، ولم يره من قبل.

وبدأ توفيق يتحرق شوقا لمعرفة ما يجرى فى غرفة العضو المنتدب.

وكلما طال انتظاره ازداد تحرقا.

وعقله يدور بسرعة مليون لفة فى الساعة، يحاول أن يستنتج ما يمكن أن يكون قد حدث.

وفجأة سمع صوت الباب المباشر لغرفة العضو المنتدب، يفتح. فخرج من غرفة السكرتير، ورأى رفعت خارجا وذراعه فى يد هذا الشخص الغريب.. ورأى وجه رفعت متقلصا، وعينيه زائغتين.

ولم يلتفت إليه رفعت.

لم يره.

وظل توفق يتتبعه وهو ينزل السلم مع هذا الشخص الغريب.. والدهشة تملأ عينيه.. وعقله كف عن الدوران.. تجمد.

ثم تحرك مرة واحدة، ودخل إلى غرفة العضو المنتدب، من بابها المباشر.. ونسى أن ينقر على الباب.

ورفع المهندس محمود فكرى رأسه المهموم، وما كاد يرى توفيق أمامه، حتى صرخ بأعلى صوته :

- من فضلك لما تحب تخش لى مرة ثانية، لازم تفوت على السكرتير.

وفوجيء توفيق.. وقال ولسانه يتعثر من المفاجأة :

– بس.. أصل.. حبيت أسأل سيادتك.

وصرخ محمود فكرى بأعلى صوته يقاطعه :

– اتفضل روح مكتبك دلوقت.. أنا مش فاضى.

وقال توفيق وهو يرتعش :

– بس.

وعاد العضو المنتدب يصرخ :

– باأقولك روح مكتبك.

وخرج توفيق بسرعة.. وهو يحس كأنه ضرب بالشلوت.

١٨

خرج توفيق من بيته فى المساء متجها إلى مقهى عرابى.. يسـير ورأسه من فرط ثـقله يكاد يسقط من فوق كتفـيه.. وعيناه زائغتان.. وشفتـاه تتحركان بلا صـوت، كأنه يحـادث نفســه.. وعـقله يدور بسرعـة مليون لفـة فى الساعة.. ولكن لا يســتطيع أن يسيطر على دورانه.. صور سـريعة تمر بخـياله دون أن يستطيع أن يتوقف عند واحدة منها.. كل كلمـة تبادلها مع الصاغ رفعت.. وكل منـاقشة دارت بينه وبين العضـو المنتدب.. وكل تقرير كـتبه بخط يده.. وكل مـحادثة تليفونية اشترك فيها.. صور وتفاصيل دقيقة عن كل ما جرى أمامه منذ أمـمت الشركـة، تتـابع فى ذهنه، ويحاول جـاهدا أن يلصـقها بعضها ببعض، ويحدد مـوقفه منها.. ولكنه لا يستطيع.. لا يستطيع أن يتمالك كل إرادته ليسيطر بها على ذهنه.

ورغم ذلك فهـو لم يفقد ثقته بـنفسه.. لقد مر قـبل ذلك بأزمات أكـبـر من هذه.. واستـطاع أن ينجـو.. استطاع دائـما أن يحـتـفظ بتوازنه.. بل إنه استطـاع أن يستفيد من الأزمـات التى مر بها، وأن يكسب منهـا.. وقد استـفاد من الأزمـة التى مـرت به عقب تأمـيم الشركة.. كسب من التأميم أكثر مما كان يكسب من صاحب الشركة قبل التأميم، رغم أنه كان ذراع صـاحب الشركة.. وسينجو من هذه الأزمة أيضا، ويكســب منها.. ما تخافش يا أبو توفيـق.. خليك جامد أمال.

وعلت شفتيه ابتسامة ساخرة مهمومة.. إن الدنيا للأذكياء.. وهو ذكى.. ذكى جدا.. فلماذا يخاف.. إن كل ما يحتاج إليه الآن هو الهدوء.. أن يضع أعصابه فى ثلاجة، حتى يستطيع أن يتصرف فى ثبات.

ووصل إلى المقهى، ورأى حلمى جالسا وحده.. فنظر إليه كأنه لا يراه.. وجلس بجانبه دون أن يحييه.. ثم رفع عينيه إلى صبى المقهى، وقال فى هدوء مهموم :

– قهوة يا حسنين.

ونظر إليه الصبى فى دهشة، كأنه يراه لأول مرة، وقال وهو يبتسم له :

– من عينى ياباشمهندس.

والتفت إليه حلمى وقال وهو ينظر إليه كأنه يحاول أن يقرأ وجهه :

– مال وشك مقلوب كدة ؟

وقال توفيق وهو يزفر أنفاسه :

– مصيبة.

وقال حلمى متسائلا :

– خير ؟

وقال توفيق وابتسامته الساخرة تسيح على شاربه :

– الراجل طلع نصاب.

وعاد حلمى يقول فى لهفة :

– الراجل مين ؟

ونظر توفيق إلى حلمى وقال كأنه يفاجئه :

– الصاغ رفعت.

واتسعت عينا حلمى وقال فى صوت مفجوع :

– نصاب إزاى ؟

وقال توفيق :

- مش مخابرات.

وقال حلمى بسرعة :

- أمال إيه ؟

وقال توفيق فى صوت حزين وهو يضرب كفا بكف على ساقه :

- ولا حاجة.. نصاب.. كان بياخد فلوس من الناس ويعينهم فى الشركة باسم المخابرات.. وراح اتفق مع ناس على إنه يبنى لهم فيللات بسعر التراب.. وحاول إنه يخلى الشركة تبنى الفيللات دى على أنها للمخابرات.

ووجم حلمى.

أحس بنفسه يغرق فى بحر من الضباب.

وعاد توفيق يقول فى صوته المتكسر :

- تعرف مين اللى كشفه ؟

وقال حلمى وهو ساهم :

- مين ؟

وقال توفيق فى سخرية منكسرة :

- العضو المنتدب.. تصور.. حضرته بغبائه راح يشتكى لمدير المخابرات من طلبات الصاغ رفعت.. فانكشفت الحكاية.

وقال حلمى فى صوت ضعيف :

- عمل طيب.

وارتفع صوت توفيق محتدا :

- طيب إزاى.. ده حايودى نفسه فى داهية.. إنت فاكر إنهم حايسيبوه فى الشركة، بعد ما طلع مغفل وسلم نفسه لواحد نصاب.. مش معقول.

وقال حلمى ساخرا :

- وإنت حايعملوا فيك إيه ؟

وقال توفيق وهو يضرب على المائدة بقبضته فى تصميم :

- ولا حاجة.. ما يقدروش يثبتوا على حاجة.. أنا لا كنت باخد

قرارات.. ولا كنت بامشي الشركة.. أنا مش مسئول.. العضو المنتدب عرفني بالصاغ رفعت على إنه ضابط مخابرات، وكنت باشتغل معاه في حدود وظيفتي.. أبقى ماخالفتش القانون.. ولا أنا مسئول.. المسئول هو العضو المنتدب.

وقال حلمي ساخرا :

– يعني حاتنفد من المصيبة.. زي كل مرة.

وقال توفيق كأنه يدافع عن نفسه :

– المرة دي، ماليش دعوة بحاجة أبدا.

ونظر إليه حلمي في رثاء كأنه يرى في وجهه صورة مشوهة للمجتمع كله.. وقال في قرف :

– إنت كنت أديته المستندات ؟

وقال توفيق وهو يتنهد :

– أيوه.

وقال حلمي ساخرا :

– وعمل بيهم إيه.. وداهم فين ؟

وقال توفيق وهو يدير وجهه عنه :

– ما أعرفش.

وسكت حلمي وهو يشعر بسكين تمزق في صدره.. سكين الندم.. يشعر كأن كرامته قد أهينت.. يشعر بأنه أضعف مما كان يعتقد.. يشعر بأنه مغفل كبير.. ولم يكن يفكر في مصير هذه المستندات التي أعطاها لتوفيق ليسلمها إلى الصاغ رفعت باعتباره ضابط مخابرات.. ولكنه كان يشعر بأنه أذل نفسه بلا سبب.. خرج عن إيمانه، وعن مبادئه، وانقاد لتوفيق.. لقد كان يؤمن بأن حل جميع المشاكل يجب أن يتم عن طريق الأبواب المفتوحة.. كان يؤمن بأن الثورة لا يمكن أن يكون لها باب سري.. بل هو دائما باب واضح يستقبل الشعب كله.. حتى المخابرات، لم يكن يؤمن بأنها باب سري.. إنه باب مفتوح يستطيع أن يلجأ إليه كل من يريد.. وأن

يدخله مرفوع الرأس، جهير الصوت.. ولكنه فى لحظة من لحظات يأسه، تخلى عن إيمانه.. تخلى عن وعيه الثورى.. وأسلم نفسه لتوفيق.. ليسلمه توفيق إلى نصاب، ينصب باسم المخابرات.. باسم الثورة.

والتفت إلى توفيق وقال كأنه يكمل حديثا يدور بينه وبين نفسه:

– أنا كنت مغفل اللى طاوعتك.

وقال توفيق بلا مبالاه :

– يا سيدى.. كلنا مغفلين.. المهم إنها جت سليمة.. باذن الله مش حايحصل لنا حاجة.

وقال حلمى محتدا :

– اللى حصل كفاية.. كفاية احساسى بأنى مغفل.. احساسى بأنى مشيت فى سكة غلط وأنا عارف إنها غلط.

وقال توفيق فى زهق :

– والنبى بلاش الخطب دلوقت يا حلمى.. أنا زهقان وطالع دينى.. ولازم تعرف إن الدنيا كدة.. نص البلد بيضحك على النص التانى.. والمهم الواحد يستفيد.. أنا كنت مغفل وصدقت إن رفعت ضابط مخابرات.. إنما استفدت من تغفيلى.. اترقيت وخدت علاوة.. لو كنت ناصح، وما صدقتش إن رفعت مخابرات، ماكنتش لا اترقيت ولا أخدت علاوة.. وأنا مش زعلان.. إنما زهقان.. زهقان لأنى حاضطر أبتدى أعمل لنفسى مركز فى الشركة من تانى.. وأنا عايزك تفكر زيى كدة.. علشان تستريح وتريح.

وقال حلمى فى حدة :

– أنا عمرى ما فكرت زيك.. ولا يمكن إنى أفكر زيك.. وأحب أقول لك، إنك لازم تخاف على نفسك.. نصاحتك مش حاتنفعك طول عمرك.. وأنا متأكد إنهم مش حايسيبوك.. حاتطير حضرتك. وحاتطير العلاوة والترقية.

وضحك توفيق ساخرا من حلمى وقال له فى تحد :

- أراهنك إنه مش حايحصل لى حاجة.. العضو المنتدب حاينشال، وطبعا قبل ما حاينشال مش حايقدر يتكلم عنى أى كلمة.. لأنه هو اللى كان بيصدر القرارات مش أنا.. وحاييجى عضو منتدب جديد.. والجديد ما يعرفش حاجة.. صدقنى.. وبكرة تشوف.

ونظر إليه حلمى فى قرف، وأدار له ظهره.. وسكت.

وسرح توفيق وراء عقله الذى يدور بسرعة مليون لفة فى الساعة.. إنه الآن يستطيع أن يتتبع عقله.. يستطيع أن يجمع التفاصيل الصغيرة ويصنع منها خيطا يصل به إلى ما يريد.. مناقشته مع حلمى، رطبت أعصابه، وأصبح قادرا أن يسيطر بارادته على عقله.

وبدأ يرسم الخطة التى سيطبقها ابتداء من الغد.. سيذهب إلى مكتبه فى الشركة ويبقى هادئا.. وسيختفى وراء مكتبه إلى أن تنتهى الزوبعة.. ولكن، لا.. إن هدوءه سيثير شماتة زملائه الموظفين، وسيعتبرونه شريكا لرفعت فى الجرائم التى ارتكبها، وسيتضامنون جميعا فى اتهامه أثناء التحقيق الذى ستجريه نيابة أمن الدولة.. لا.. لن يسكت.. ولن يختبىء.. إن الأفضل هو أن يتخذ لنفسه موقفا من الأزمة.

و برق ذكاؤه الحاد فى عينيه.. واتسعت ابتسامته فرفعت شاربه الصغير ولصقته بأنفه.. لقد اكتشف موضع خطواته التالية.. سيثير أزمة كبيرة فى الشركة.. وسيثيرها ضد العضو المنتدب نفسه.. وهو يعرف عشرات الأخطاء التى وقعت فى الشركة ويستطيع أن يستغلها ضد العضو المنتدب.. إنه يستطيع مثلا أن يثير موضوع تعيين موظف جديد يحمل شهادة التجارة المتوسطة وكيلا لقسم الحسابات للشركة.. ورئيسا لموظفين قدامى يحملون مؤهلات عالية.. وسيجمع الموظفين أولا ويحرضهم ضد تعيين هذا الموظف.. ثم سيذهب إلى العضو المنتدب باسم الموظفين ويطلب منه عزله، أو وضعه فى مكانه الذى يستحقه.. وسيرفض العضو

المنتـدب لأنه هو الذى أمضـى قـرار تعيينـه.. ويثور كل الموظـفين ضد العضو المنتدب وتتحول أنظارهم إليه.

واتسعت ابتسامة توفيق أكثر.. إنه سيخرج بطلا بعد هذه الأزمة التى يصنعها بذكـائه.. بطلا شعبيا.. ويجب أن يـكافأ على بطولته.. وسيكافئه العضو المنتدب الجديد.

وظل توفيق سـارحا وراء ذكائه.. سعـيدا به.. ثم فجأة انتـبهت عيناه على الطريق.. وقال كأنه لا يصدق :

– مش معقول.. مش ده محمد اللى جاى ؟!

والتفت حلمى، ثم صاح وهو يقف على قدميه :

– محمد.

ثم جرى إلى الشارع واحتضن محمد بين ذراعيه.

وقام توفـيق واندفع نحو محمـد، وأمسك بيده وأخـذ يهزها فى حرارة، وفرحة كبيرة صادقة تكسو وجهه كله، وقال كأنه يزغرد :

– ازيك يا محمد.. وحشتنا.. إيه الغيبة الطويلة دى ؟ ثم احتضنه بين ذراعيه هو الآخر، وقبله فوق كلتا وجنتيه.

ومحمـد مستسلم لترحيب صـديقيه وهو ساهم.. وعلى شفـتيه ابتسـامة كبيرة كـأنها قطعـة من وجهه.. ليس فـيهـا البريق الذى امتازت به.. وليس فيها المعنى الحلو.. كأنها أثر من ذكريات قديمة، تجمـد فوق شفتـيه.. وعيناه مكدودتان مطفأتان، تحـتهما بـصمات سوداء.. وجبينه يبدو أكثر اتساعا، كأن خصلات شعره الأمامية قد سقطت وتركت فيه فراغا.. إنه يبدو كـأنه كبر عشرة أعوام.. وبدلته مكرمشة.. متسخة.. ليس أنيقا كما كان.

وقال فى صوت متعب لا تزال فيه رنة صوت الأطفال :

– ازيكم.. وحشتونى.

ومرت لمعة سريعة فى عينيه كأنه استعاد ذكريات أيام حلوة.

ونظر حلمى وتوفـيق فى وجـه محـمد، ثم نـظر كل منهمـا إلى الآخر كأنه يسـتطلعه رأيه.. ثم سحبـا محمد من ذراعـيه وعادا إلى

مائدتهما.. وقال حلمى وهو يبتسم لمحمد فى حنان :
- انبسطت فى اسكندرية ؟
وقال محمد وهو سارح :
- قوى.
وقال توفيق دون أن يقدر حال محمد :
- إنت إيه اللى كان وداك اسكندرية ؟
والتفت إليه محمد ونظر إليه بعينين حائرتين كأنه فوجىء بأحد الألغاز، ثم هز كتفيه، وقال بلا مبالاه :
- ما أعرفش.. رحت وخلاص.
وعاد توفيق يقول فى قسوة غير متعمدة :
- وإيه اللى خلاك تغيب المدة دى كلها ؟
ونظر إليه محمد بابتسامته المعلقة فوق شفتيه، وقال :
- برضه ما أعرفش.
وقال توفيق :
- اسمع يا محمد.. إنت لازم تعقل بأه وتستقر.. مش ممكن تفضل بالشكل ده على طول.. صحيح إنك فنان.
بس.
وقاطعه حلمى قائلا :
- اسكت إنت يا توفيق.
ثم التفت إلى محمد قائلا فى حنان :
- جيت إمتى ؟
وقال محمد وهو سارح :
- النهاردة الضهر.
ثم نظر إلى حلمى بكل عينيه واستطرد قائلا وقد ارتفع صوته فجأة :
- سناء فين؟.. أنا رحت المطرية مالقيتهاش.
قالها كأنه طفل فقد أمه.

وقال حلمى فى هدوء :
- سناء رجعت البنسيون.
وقال محمد كأنه يحتج، وكأنه يهم بالبكاء :
- رجعت البنسيون ليه ؟
وقال حلمى كأنه يدلل الطفل الكبير :
- لازم خافت تقعد لوحدها فى المطرية.
وقال توفيق بقسوته التى لا يتعمدها :
- يا محمد خليك معقول.. يعنى كنت عايزها تقعد مستنياك لغاية ما ترجع ؟
ونظر إليه محمد كأنه لا يفهم ما يقصده.. ولم يرد عليه.. عاد والتفت إلى حلمى، وقال :
- تيجى معايا، نروح لها ؟
وقال حلمى ضاحكا :
- لأ.. أنا أوصلك لغاية هناك وأسيبك.. زمانكم واحشين بعض قوى.
ونظر إليه محمد كأنه يستغيث به وقال :
- لأ.. ماتسبنيش.
وقال حلمى فى حنان :
- أحسن تتقابلوا الأول لوحدكم.
ثم التفت إلى توفيق قائلا :
- قوم بينا يا توفيق نوصل محمد.
وقال توفيق :
- لأ.. أنا الليلة دى موضب سهرة كبيرة.. اتفقت مع البت نوسة نروح نسهر فى شقة عبدالعزيز.. باحتفل بالمصيبة اللى وقعت فى الشركة.. ولو كنت عاقل تيجى معايا.
وقال حلمى :
- احتفل لوحدك.. أنا مش متعود احتفل بالمصايب.

وشد محمد من ذراعه وقام به وهو يقول :

- نشوفك بكرة.

وقال محمد بصوته الرفيع :

- السلام عليكم يا توفيق.

●●●

وسار الاثنان فى طريقهما إلى محطة الأتوبيس.. صامتين.. ومحمد يسير بقدمين ثقيلتين.. لا يقفز كعادته.. ولا يفتح ساقيه الطويلتين على آخرهما وخياله متجمد فى رأسه.. لا يتحرك.. وكل ما يحس به هو الضياع.. ضياع كبير، فقد فيه كل سيطرة على نفسه.. لم يعد يستطيع أن يحدد أى شىء، أو يفهم أى شىء.. لم يعد يستطيع أن يواجه خطوته.. لم يعد يستطيع أن يقرر أين يذهب.. أين يتجه؟ بل إنه يحس كأنه فقد السيطرة على أعضاء جسمه.. إنه يحس بذراعه تتحرك تلقائيا دون أن يتعمد تحريكها.. ويحس بأن رقبته تهتز تلقائيا.. ويحس بأن شفتيه تتحركان وتتكلمان دون أن يقصد تحريكهما، ودون أن يعنى الكلام الذى يقوله.. وخياله ضاع منه.. لم يعد يستطيع أن يمسك هذا الخيال الذى كان يطير به فى عالم القصص التى يعيشها، بعيدا عن الواقع.. لقد فقد خياله.. ولم يجد واقعا يعيش فيه.

وقد عاش كل هذه المدة فى الاسكندرية.. وهو ضائع.. كان يذهب إلى أماكن كثيرة، دون أن يدرى لماذا ذهب إليها.. وكان يقابل أناسا كثيرين دون أن يدرى ما الذى جمعه بهم.. بل دون أن يعرفهم.. وكان يسير طويلا فى شوارع كثيرة، دون أن يختار الشوارع التى يسير فيها.. وكان يتكلم دون أن يفهم لكلامه معنى.. ويغنى أحيانا دون أن يدرى ما الذى دفعه إلى الغناء.. ويسكر.. يسكر كثيرا.. ووجد نفسه ذات صباح يقوم من نومه على يد عسكرى البوليس تهزه بقسوة وهو راقد فوق أريكة بإحدى الحدائق العامة.

وقلبه مقبوض دائما.

ولا يدرى لماذا يحس بهذا الألم فى قلبه؟

ويجرى.

يجرى من قلبه.

وصورة سناء تهتز أمام عينيه.

ويتعجب لماذا يتذكر سناء وهى بعيدة عنه؟ لم يحاول أن يعترف بأنه يحبها.. إنه يحبها كما يحب كل الناس.. فلماذا يتذكرها دائما، وهو يجرى منها.. إنه يعلم أنه يجرى منها.. فلماذا يزداد إحساسه بها كلما ابتعد عنها ؟

إنه لا يريد أن يفهم نفسه.. لا يريد أن يعترف بواقعه.. ولا يستطيع أن يرى أن فى هذا الواقع حبا كبيرا.. هو حبه لسناء.. إنه يخاف الواقع، ويخاف الحب.. هذا الرباط المشدود الذى يضغط على قلبه.

ويتعذب.

إنه يعلم أنه يتعذب.

ويعلم أنه لم يعد الشخص الذى تعود أن يكونه.. إنه لم يكن يتعذب أبدا من قبل.

ووجد نفسه يعود إلى القاهرة.. لم يتعمد العودة.. كما لم يتعمد السفر.. ولكنه وجد نفسه يركب القطار ويعود، ووجد نفسه ينزل من القطار ويذهب إلى بيت المطرية..

ودهش.. دهش فعلا.. عندما لم يجد سناء فى البيت.. كأنه هذه الشهور الطويلة لم تمر منذ تركها وجرى منها.. كأنه لم يتركها إلا منذ ساعة.. ولم يكن من حقها أن تترك البيت في هذه الساعة.. إن إحساسه بالزمن قد تلاشى أيضا.. لم يعد فيه أى شىء يحسب حساب أى شىء.. حتى الزمن.

ووصل إلى البنسيون الذى تقيم فيه سناء، وهو غارق فى إحساسه بالضياع، وصافحه حلمى عند باب العمارة وهو يبتسم له مشجعا :

- أسيبك أنا بأه.

وقال محمد وهو يتشبث بيده، وصوته الرفيع يرتعش :

- اطلع معايا يا حلمى.. علشان تسلم على سناء.

وقال حلمى وابتسامته لا تزال على شفتيه :

- لا.. حاتطلع لوحدك.

ونظر إليه محمد بعينين منكسرتين.. وسحب يده.. واستدار ليدخل العمارة وهو منكس الرأس.

وخطا نحوه حلمى واستوقفه قائلا :

- محمد.. حاول إنك تفهم سناء.. وحاول تعذرها.. وأنا حاستناك فى البيت.

ونظر إليه محمد فى ذهول.. واهتز رأسه اهتزازة لا معنى لها.. ثم جر ساقيه ودخل العمارة.. وصعد إلى البنسيون.. ووقف يضغط على جرس الباب بأصبع مرتعشة، وهو يسائل نفسه.. لماذا يطلب منه حلمى أن يفهم سناء.. ولماذا يطلب منه أن يعذرها.. لماذا يحاول الناس أن يفهم بعضهم بعضا.. ولماذا يحاولون أن يعذر بعضهم بعضا.. ما حاجته لأن يفهم إنسانا آخر.. لماذا لا تتركه الدنيا يعيش منطلقا، لا يكلف نفسه عناء فهم أحد، ولا يطلب من أحد أن يفهمه.. ولا يكلف نفسه التفكير فى عذر أحد، ولا يطلب من أحد أن يعذره.. لماذا يتشابك الناس بعضهم فى بعض إلى هذا الحد.. ولماذا يضع كل منهم يده على رقبة الآخر ويصرخ فى وجهه؟! إفعل كذا.. إفعل كيت.. لماذا.. لماذا.. لماذا تبدو الدنيا ثقيلة إلى هذا الحد.. ولماذا فعلت سناء كل هذا به.. لقد كنا سعداء.. كنا نضحك.. ونمرح.. ونمثل.. كنا عصفورين فوق فرع شجرة.. نغنى.. ونرقص.. لم يكن ينقصنا شىء.. فلماذا نتغير.. لماذا نخرج من دنيانا.. إلى دنيا، ثقيلة، تعيسة.. لماذا خرج آدم من الجنة.. لماذا؟؟ لماذا؟؟

وفتحت له صاحبة البنسيون.. ونظر فى وجهها السمين الملغمط

بالأصباغ، بعينين زائغتين لا يريانها، وقال فى صوت طفل :
- عايز سناء.
وضحكت المرأة ضحكة صارخة وهى تبحلق فى وجهه.. ثم استدارت وسارت إلى باب غرفة سناء، المطل على الصالة.. ونقرت عليه، وهى تقول فى صوت مائع :
- يا مدام سناء..ضيوف.
وسار وراءها محمد تلقائيا.. كأنه يسير فى نومه.
وفتحت سناء بابها.. وما كادت عيناها تصدمان بوجه المرأة صاحبة البنسيون، حتى لمحت وراءها وجه محمد.
وتفتح وجهها مرة واحدة كأنه أشرق، وهمست فى صوت تحشرجه المفاجأة :
- محمد !
ورفع محمد إليها رأسه ورموشه تهتز فوق عينيه كأنه يرى النور لأول مرة.. ثم جرى إليها واحتضنها بين ذراعيه وهو يهمس كأنه على وشك البكاء :
- سناء.. سناء.
وأسلمت سناء نفسها إليه.. صامتة.. مغمضة العينين.. وقلبها يدق.. وابتسامة حزينة راقدة بين شفتيها.. ثم تنبهت فجأة إلى أن صاحبة البنسيون، لا تزال واقفة بالباب.. ففتحت عينيها.. وأبعدت محمد عنها.. والتفتت إلى المرأة ورأتها تبتسم ابتسامة خليعة ذات معنى، كأنها ضبطتها متلبسة.. وقالت بسرعة :
- ده جوزى.. عن إذنك.
وأزاحت المرأة من وقفتها، وأغلقت وراءها الباب.. ثم عادت إلى محمد.. وحاول أن يأخذها مرة ثانية بين ذراعيه.. ولكنها ابتعدت عنه.. وجلست على حافة السرير وهى تقول فى صوت تحاول أن يخرج باردا :
- ازيك دلوقت يا محمد ؟

ووقف محمد ينظر إليها وقد عادت ابتسامته الكبيرة بكل ما فيها من بريق، وعادت عيناه تضحكان.. عاد كأنه لم يغب عنها طوال هذه المدة.. ونظر إلى بطنهـا المنتفخ إلى آخره.. واتسعت ابتسـامته. ثم اقتـرب منها وانحنى يقـبل بطنها.. ثم رفع وجـهه إليهـا يحاول أن يصل إلى شفتيها.. وهمس :

– وحشتينى.. وحشتينى قوى.

وأبعدته عنها فى رفق قبل أن يصل إلى شفتيها، وقال فى برود:

– وإنت كمان وحشتنى.

وقال محمد وهو يقف فى وسط الغرفة ويتلفت حوله، كأنه أفاق ووجد نفسه فى مكان غريب :

– أنا رحت المطرية أدور عليكى، مالقتكيش.

ثم التفت إليها وعيناه كلهما حب متوسل :

– إحنا لازم نرجـع المطرية.. نرجع دلـوقت.. نرجع زى الأول.. أنا تعبت يا سناء.. تعبت قوى.

وهزت سناء رأسها فى إصرار عصبى وقالت :

– مش ممكن.

وقال محمد كأنه يشـهق :

– مش ممكن ليه ؟

قالت :

– لأن مش ممكن نرجع زى الأول.. إحنا لازم نطلق يا محمد.

وبهت محـمد، كأن حجـرا ثقيلا وقع على رأســه.. نطلاق.. ماذا يعنى الطـلاق؟ إنه لم يـحس يومـا إنــه تزوج، حـتى يحس بمــعنى الطلاق.. إنه يحب.. يحب سناء.. فهل فى الحب طلاق.. هل يمكن أن يكتب ورقة ينزع بهـا الحب من قلبه.. وقد كـان ما بينه وبين سناء حيـاة كاملة.. فهل يمكن أن يخـنق هذه الحياة.. لمـاذا.. لماذا يضـع الناس حـيـاتهم فـى ورق مكتـوب.. ورقـة زواج.. وورقـة طلاق..

ما قيمة كل هذه الأوراق.. ماذا يساوى الإنسان نفسه، والإنسان ليس ورقة.. والحياة ليست ورقة؟!

ونظر إلى سناء ورأسه يدور وقال فى بلاهة طفل :

– يعنى إيه ؟

قالت وهى تنظر إليه فى اشفاق :

– يعنى نسيب بعض.

قال وفمه مفتوح :

– ليه ؟

قالت وهى تتنهد :

– لأننا ما ننفعش فى الجواز.. لأنك ما تستحملش الجواز.

قال فى بلاهة :

– إنما إنتى بتحبينى يا سناء.

قالت وهى تدير عينيها عنه :

– ما أعرفش إذا كنت لسة باحبك ولا لأ.

وسكت محمد وهو ينظر إليها فى دهشة وبلاهة.

وسكتت سناء.

سكتا طويلا.

ثم تمتم محمد قائلا كأنه مريض :

– عايزانى أعمل إيه دلوقت ؟

قالت :

– طلقنى.

وهز رأسه كأنه لا يفهم شيئا.. ثم قال كأنه تذكر شيئا :

– وابننا ؟

ورفعت إليه عينين حازمتين وقالت فى تحد :

– أنا اللى حاربيه.. ماتخافش عليه.

وعاد محمد وأحنى رأسه صامتا.. ثم رفع رأسه مرة ثانية، ونظر إليها كأنه ينظر إلى مخلوق عجيب.. وخطا نحو الباب ليخرج.

واستوقفته سناء قائلة :

– ما سألتنيش أنا عايشة إزاى ؟

وقال محمد كأنه فى غيبوبة :

– عايشة إزاى ؟

قالت وهى تبتسم كأنها تحاول أن تثيره :

– صادق بيه بيدينى كل شهر عشرين جنيه.. لغاية ما اشتغل وأبقى أردهم له.

وقال محمد وهو يهز كتفيه :

– كويس.

ثم خرج كأنه يسير فى غيبوبة.

وجرت وراءه سناء، قائلة وهى تنظر إليه فى جزع :

– حاشوفك إمتى ؟

والتفت إليها محمد وابتسامته متجمدة فوق شفتيه، وقال :

– ما أعرفش.. ما أعرفش حاجة.. مش عايز أعرف حاجة.

ثم جرى ينزل السلم.

ونظرت وراءه سناء وقلبها يدق، ثم أغلقت الباب، وجرت إلى غرفتها، وألقت بنفسها فوق السرير.. تبكى.

١٩

خرج محمد من البنسيون وهو يحاول أن يهرب من كل ما سمعه من سناء.. كل شيء فيه يحاول أن يهرب.. عقله يحاول الهرب.. إحساسه يحاول الهرب.. أذناه تحاولان الهرب من صدى كلمات سناء.. عيناه تحاولان الهرب من منظر بطنها المنتفخ. ولكنه يشعر بأنه فقد قدرته على الهرب.. إنه يحاول ولكنه لا يستطيع.. مشكلته تحاصره من كل جانب، كأنها جدران سميكة لا منفذ فيها.

ولأول مرة يشعر بأن عليه أن يواجه نفسه.

يواجه مشاكله.

ولكنه لا يستطيع.. لا يستطيع.. إنه لا يعرف نفسه حتى يواجهها، ولم يحاول من قبل أن يعرف نفسه.. ولا يعرف مشاكله أيضا.. لا يعرف أين موضع هذه المشاكل من حياته، ولا أين أسبابها؟

إن سناء تريد الطلاق.

ولكن الطلاق ليس مشكلته.. إنه لم يشعر يوما بأن ما بينه وبين سناء، هو زواج حتى ينفض بالطلاق.. إن كل ما كان يشعر به، وما يشعر به الآن هو أنه يريد سناء بجانبه.. يضحكان معا.. ويرقصان معا.. وسناء لا تريد أن تأتي إلى جانبه.. لا تريد أن تكون معه.. لماذا؟ لا يدرى.. إن ما يحيره أنه لا يدرى سبب كل ذلك.. لا يدرى لماذا تعقدت الحياة من حوله إلى هذا الحد؟

وحاول أن يغني وهو يسير في طريقه إلى بيت حلمي.. بدأ في الغناء بصوت خافت.. ولكن غناءه الخافت لم يساعده على الهرب

من أفكاره.. فبدأ يغنى بصوت عال.. يكاد صوته يصل إلى حد الصراخ.. والناس من حوله يلتفتون إليه فى دهشة، ويبتسمون فى سخرية، وعيونهم تتهمه بالجنون.. ولكنه لا يحس بالناس.. بل لا يحس بأن صوته قد ارتفع إلى حد الصراخ.. إن صوته يصل إلى أذنيه كأنه صوت إنسان آخر يسير بجانبه.. وأفكاره الحائرة لا تزال تزدحم فى رأسه.. لا يستطيع أن يتخلص منها.

وفجأة ارتفعت أمام عينيه صورة صادق بيه.

وخفت صوته دون أن يتعمد.

وبدأ يحلق بعينى خياله فى صورة صادق بيه.

لقد قالت له سناء إن صادق بيه يدفع لها عشرين جنيها فى الشهر.

لا شىء يهم فى هذا.

ولكن سناء قالت له هذا الكلام فى لهجة غريبة.. كأنها تحاول أن تغيظه.. كأنها تحاول أن تثير شيئا فيه.. وكأنه كان يجب أن يغتاظ.. وأن يثور.

لماذا ؟

لماذا يجب أن يغتاظ، وأن يثور ؟

إن صادق بيه صديقه.. وصادق بيه يدفع عشرين جنيها فى الشهر لسناء.. وسناء سترد له ما دفعه بعد أن تجد عملا.

فلماذا يغتاظ ؟

وفجأة اتسعت عيناه.. وارتعشت شفتاه.. وقفز إلى ذهنه خاطر آخر.

هل يعنى هذا أن هناك علاقة بين صادق بيه وسناء؟. علاقة يجب أن يغتاظ منها وأن يثور عليها ؟

مستحيل.

صادق بيه صديقه.

وسناء حبيبته.

ولكن لنفرض أن بينهما علاقة من هذا النوع، فماذا يستطيع أن يفعل .. لا شىء.. لا شىء، وإذا كان لا يستطيع أن يفعل شيئا،

فلماذا يهتم.. ولماذا يجعل من شيء لا يستطيعه مشكلة؟

وهز كتفيه كأنه لا يبالي.. ولكن صدره يضيق رغم إرادته.. وقلبه ينقبض.. وساقاه الطويلتان توسعان الخطى دون أن يتعمد.. كأنه يجرى، وشيء وراءه يدفعه إلى الجرى. يريد أن يصل إلى حلمى ليحتمى به من شيء لا يدريه.. وشيء لا يهمه.

وفتح له حلمى الباب وهو مرتد فوطة المطبخ فوق القميص والبنطلون، والسكين الكبير في يده، وقال له ضاحكا كأنه يتعمد أن يبدو أمامه طبيعيا :

– حصلنى على المطبخ.

وسار محمد وراء حلمى إلى المطبخ، ووقف مستندا على الباب.. وعاد حلمى يقشر حبات البطاطس، دون أن ينظر فى عينى محمد.

وطال بينهما الصمت.. ومحمد لا يزال يلهث من أثر المشوار الطويل الذى قطعه.. وينظر إلى حلمى نظرات لاهثة كأنه يبحث فى وجهه عن مكان يرتاح فيه من هذا اللهاث.. من هذه الحيرة.. من هذا الضباب الذى يزحف على حياته.

وأخيرا قال حلمى وهو لا يلتفت إليه :

– إزى سناء ؟

وقال محمد وعيناه معلقتان فى وجه حلمى :

– كويسه..

وعاد حلمى يقول :

– قالت لك إيه ؟

وقال محمد :

– مارضتش ترجع المطرية.

وقال حلمى :

– ليه ؟

وقال محمد فى بساطة :

– عايزة تطلق.

وقال حلمى وهو يتعمد أن ينشغل عن النظر إلى محمد بتقشير البطاطس :

– وقلت لها إيه ؟
قال محمد وهو يهز كتفيه :
– مش فاكر.. مش فاكر قلت لها إيه.. كنت زعلان.. سناء اتغيرت.. مابقتش زى زمان.
وسكت حلمى.. إنه يفهم صديقه.. يفهم أن هذه هى طبيعته.. ويعرف أنه فعلا لا يذكر ماذا قال لسناء؟
وطال سكوت حلمى، ثم قال :
– سناء ماقالتش لك عايشة ازاى.. بتصرف منين.. أنا حاولت أساعدها.. مارضيتش.. قالت لى إن فلوسى يدوبك على أدى.
وضحك حلمى كأنه أطلق نكتة.
وقال محمد بصوته الرفيع، ورموشه تهتز فوق عينيه، كأنه على وشك البكاء :
– صادق بيه بيديها عشرين جنيه كل شهر.
وبغتة ألقى حلمى السكين من يده فى عنف، والتفت إلى محمد وحاجباه الكثيفان معلقان فوق عينيه الواسعتين، وهم أن يتكلم.. ولكنه عاد وسكت.. وظل يبحلق فى وجه محمد، إلى أن لانت نظراته.. ثم ابتسم ابتسامة صغيرة، كأنه اكتشف أن محمد لا يمكن أن يحتمل ثورته.. وجذب صديقه من ذراعه فى رفق، وسار به خارج المطبخ، قائلا :
– تعال يا محمد.. عايز أكلمك.
وسار محمد وراءه مستسلما كأنه طفل صغير مستسلم لأبيه.. ثم جلسا فوق الأريكة العريضة، وقال حلمى كأنه يشرح درسا لطالب صغير :
– اسمع يا محمد.. إنت عارف سناء عايزة تطلق ليه ؟
وقال محمد فى بلاهة، ووجهه حزين :
– ليه؟
وقال محمد :
– عشان إنت مش راضى تحمل مسئوليتها.. مسئولية البيت.. مسئولية العيلة.. وسناء حاولت كتير إنها تغيرك.. حاولت إنها

تخليك تستقر وتبقى راجل حاسس إنك متجوز، وإن لك بيت.. إنما إنت مارضتش تتغير.. ماقدرتش تحمل مسئولياتها.

وقال محمد فى عصبية :

– يعنى إيه مسئولية.. إحنا كنا عايشين كويس.. كنا هايصين.. بنضحك.. ونلعب.. وناكل ونشرب.. يبقى لازمتها إيه المسئولية دى.. كل واحد فيكم يقول لى مسئولية.. مسئولية.. يعنى لازم أبقى زى جوز أختى علشان أبقى مسئول.

وقال حلمى وهو يربت عليه بابتسامته :

– لأ.. بس المسئولية معناها الاستقرار.. معناها إنك تحسب حساب كل حاجة.

وقال محمد مقاطعا :

– وإذا قدرنا نعيش من غير ما نحسب.. مش يبقى أحسن؟

وقال حلمى :

– سناء عاشت معاك من غير ما تحسب لغاية ما حبلت.. بعد كدة ابتدت زى كل أم، تفكر إزاى حاتربى ابنها.. ابتدت تفكر فى الاستقرار.. ومش ممكن تستقر إلا إذا كنت انت مستقر.

وقال محمد :

– يعنى أستقر إزاى ؟

قال حلمى :

– يعنى تروح لمدير الفرقة وتتفق معاه على مرتب ثابت، وتدى مرتبك كله لسناء فى أول كل شهر.. وتروح كل ليلة البيت.. وتحس إنك متجوز.

وقال محمد :

– إيه الفرق بين الإحساس بالجواز.. والإحساس بالحب.. سناء كانت بتحبنى وعشنا مع بعض كتير قبل ما نتجوز.

وقال حلمى :

– زى ما قلت لك قبل كدة.. الحب اتنين.. والجواز عيلة.. وإنت لغاية دلوقت مش حاسس بالعيلة.

وقال محمد :

– يعنى لو اتفقت مع مدير الفرقة على مرتب، واديته لسناء.. يبقى خلاص.. اتحلت المشكلة ؟

قال حلمى :

– تقريبا.

وقال محمد فى عصبية :

– يعنى المسألة مسألة فلوس.. فيه فلوس، فيه عيلة.. وفيه حب.. وفيه جواز.. مافيش فلوس، مافيش حاجة.

وقال حلمى :

– مافيش فلوس.. فيه صادق بيه.

قال محمد فى دهشة :

– قصدك إيه ؟

وقال حلمى فى عصبية وقد اختفت ابتسامته الصغيرة وتعقد حاجباه فوق عينيه :

– قصدى إنى مش مطمئن لصاحبك صادق بيه ده.. أنا واثق فى سناء.. إنما مين عارف.

وقال محمد :

– يعنى إيه؟

وقال حلمى فى حدة وقد ارتفع صوته :

– يعنى تضطر إنها تديله كل حاجة.. تضحى بشرفها وشرفك علشان تربى ابنها.. مش ممكن تكون مش فاهم كدة يا محمد.. مش ممكن تكون خيالى للدرجة دى.. ومش ممكن تطلب من سناء أكتر من اللى تقدر عليه.. وماحدش حاينقذ سناء إلا إنت.. إنت جوزها.. ولازم تغير عليها.. إنت حاتجننى.. ده أنا مش طايق نفسى يا أخى.. وكل ما أسمع اسم صادق بيه أتجنن.

ومحمد ينظر إليه ورموشه تهتز فوق عينيه، كأنها تمسح عنهما قطرات ليلة ممطرة.. ثم قام فجأة، واتجه نحو الباب فى خطوتين واسعتين.. وصرخ وراءه حلمى :

– رايح فين ؟

وقال محمد وهو يلتفت إليه :

- نازل.

وفتح البـاب، وقبل أن يخرج عاد والتـفت إلى حلمى وقال كطفل عنيد :

- إدينى فلوس.

ونظر إليـه حلمى صـامـتـا، ثم وضع يده فـى جيـب بنطلونه، وأخـرج جنيـها ناولـه لمحـمـد.. وأخـذ مـحـمـد الجنيـه وشـفتـاه ممطوطتان.. شفتا الطفل العنيد.. وخرج وأغلق الباب وراءه، دون أن يحيى حلمى.

ونزل السلم يجرى.

وسار إلى شارع محمد فريد بخطى واسعة.. وفى رأسه ضجيج لا يستطيع أن يتبين منه شـيئا.. وشفتاه جافتـان.. ولسانه متصلب كقطعة الخشب.. يريد أن يشرب.. يشرب كثيرا.

ودخل إلى بار الرجل اليـونانى، وخبط على رخـامة البنك بكـفه فى عصبية يحاول أن يخفيها وراء ابتسامة متعبة :

- كونياك.

وأتى له الرجل اليونانى بالكأس وهو يقول فى فرحة صادقة :

- أهلا مخمد بيه.. وخشتنا كتير.

وشـرب مـحـمـد الـكأس دفعـة واحدة، دون أن يـرد على تحيـة صاحب البار، ثم عاد يخبط على رخامة البنك بكفه، ويصيح :

- كونياك.. كونياك للصبح.

وأعطاه الرجل اليـونانى الكأس الـثانيـة، وهو ينظر فى وجـهـه بدهشة، كأنه اكتشف فجأة أن محمد قد تغير.

وشرب محمد الكأس دفعة واحدة.

وشرب الكأس الثالثة.

وبدأت الحيـاة تدب فى شفتيـه الجافتين.. ولسـانه الجاف يلين ويتحـرك.. والضـجـيج فى رأسه يخـفت، ويصبح شـيئـا أقرب إلى الطنين.. وبدأ يضـحك.. ضحكات جـوفاء لا مـعنى لها، لهـا صوت كـقطع من الحـجـارة تسـقط فـى بئـر.. ثم بدأ يحـاول أن يمـثل.. لم يستطع أن يمثل شـخصية معـينة يرسمها خياله، كـما تعود أن

يمثل.. ولكنه كان يمثل شخصـيات متعددة لا رابط بينها، ولا يحس هو بها.. إنما يتحرك.. ويشوح بيديه.. ويلقى كلمات بلا معنى.

وصاحب البار ينظر إلـيه ولا يضحك.. ولا يشاركه فى التـمثيل كما تعود.. ينظر إليه فى جزع كأنه ينظر إلى مجنون.

وشوح مـحمـد بذراعه يشيـر إلى الزبائن القليلين الواقـفين فى البار، وصاح وهو يترنح :

- كونياك للناس كلها.

ونظر إليه الرجل اليونانى كأنه يحاول أن يصدقه.. ثم بدأ يوزع على الواقفين كـئوس الكونياك وكل منهم يرفع كـأسه ويصيح فى صوت سكران :

- فى صحتك يا أستاذ محمد.

وشرب محمد كأسا أخـرى. ثم أخرج الجنيه من جيبه وألقى به أمام صاحب البار، واستدار ليخرج.

وصاح الرجل اليونانى وراءه :

- الحساب اتنين جنيه وعشرين قرش يا مخمد بيه.

ووقف مـحـمد دون أن يلـتفت إلى صـاحب البـار.. وتحـسس جيوبه.. وعندمـا تنبه إلى أنه لا يملك نقودا.. هز كتفيـه بلا مبالاه.. وخطا خارجا من البار.. والرجل اليونانى ينظر وراءه فى رثاء.

وسار محمد فى خطا مترنحة إلى مسرح فرقة النهضة.. يحاول أن يحتفظ بابتسامته.. ويحـاول أن يغنى.. ويحاول أن يتخيل قصة يمثلها.. ولكنه لا يستطيع.. والضجيج يزحف على رأسه من جديد.. وشفـتاه تـجفـان.. ولسانه يعـود ويتصلب.. ويحس بحـاجتـه لأن يشرب.. يشرب أيضا.. يشرب كثيرا.

واستقبله زمـلاؤه ممثلو وممثلات فرقة الـنهضة بالتهليل. كنت فين يا محمـد؟ الحمد لله على السلامة يا محـمد.. وحشتنا.. ونظرت إليه الممثلة فردوس وقالت وهى تخبط على صدرها :

- مالك اتغيرت كدة يا محمد؟

ونظر إليها ببلاهة، ثم قال بحدة :

- اتغيرت!! اتغيرت إزاى ؟

وقالت فردوس :
- فين شياكتك.. وفين ضحكتك.. إيه اللى حصل لك يا محمد؟
وقال محمد وهو يبتعد عنها :
- أصلى لسة جاى من السفر.. وشارب شوية.
ثم ضحك ضحكة مفتعلة، وسار بين كواليس المسرح، ودخل إلى حجرة مدير الفرقة.. وما كاد المدير يراه حتى قام إليه والمفاجأة فى عينيه، وقال وهو يحتضنه بين ذراعيه :
- محمد يا مجنون.. الحمد لله على السلامة.
وأسلم محمد نفسه لذراعى مدير الفرقة.. صامتا.. وعلى شفتيه ابتسامة بلهاء.
ثم ابتعد عنه مدير الفرقة، وقال وهو ينظر فى وجهه :
- كدة يا محمد تسافر، وتغيب المدة دى كلها، من غير ما تقول.. إنت مش عارف إن وراك شغل.. ده إنت عملت لى ميت اشكال.
وظل محمد ينظر إليه فى بلاهة دون أن يرد على كلامه.. انطلق يقول بصوته الرفيع :
- أنا عايز ماهية.
وفوجىء مدير الفرقة.. ثم ابتسم ابتسامة صغيرة، مالبثت أن انكمشت.. وعاد يجلس على مقعده خلف المكتب.. وقال فى هدوء :
- اشمعنى عايز ماهية دلوقتى يا محمد ؟
وقال محمد :
- كدة.. لازم يبقى لى ماهية.
وقال مدير الفرقة :
- طيب مش نتكلم الأول فى الشغل ؟
وقال محمد فى سذاجة :
- ما أنا باشتغل.
ونظر إليه مدير الفرقة فى إشفاق، وقال :
- لأ مابتشتغلش.. بقالك على الأقل شهرين ما اشتغلتش.. وأنا آسف يا محمد إنى أقول لك إن كل أدوارك اتوزعت على زملائك..

كان لازم أعمل كدة.. وأنا دلوقت ما أقـدرش أعتمد عليك.. أنا عارف إنك فنان.. فنان عظيم.. وعارف إن لك جمهور كبير.. إنما ما أقدرش أعتمـد عليك.. إنت سببت لى متـاعب أكبر ممـا تتصور.. وأنا آسف إنى أقـول لك الكلام ده.. إنما كـان لازم أقـول لك.. علشان تحـاول تتغير.

– يعنى مش حامثل.

وقال مـدير الفـرقة وهو ينظر فى أصـابع يديه حتى لا يـواجه عينى محمد :

–حاتمـثل طبعا.. بس مـا أقدرش أعتـمد عليك.. يعنى لمـا نعمل رواية جديدة، ممكن تاخد دور فيها.

وقال محمد :

– ومش حاخد ماهية ؟

وقال مدير الفرقة :

– إنت عمرك ما طلبت ماهية يا محمد.

وقال فى صوت حائر :

– أدينى باطلب.

وقال مدير الفرقة فى إشفاق أكبر :

– ما أقدرش يا محمد.. أنا مش عايز أضحك عليك.. إنما أى مبلغ إنت عايزه، أنا تحت أمرك.

ونظر محمد فى وجه مدير الفرقـة، كأنه لا يفهم شيئا.. لا يفهم لماذا لا يقرر له ماهية.. ولمـاذا لا يعود إلى تمثيل الأدوار التى كان يمثلها.. وما هى هذه المتاعب التى سببها؟

ولم يتكلم.

استدار، وعيناه زائغتان، وهم بالخروج.

وقال له المدير :

– رايح فين يا محمد ؟

والتفت إليه محمد وقال فى بلاهة :

– مش عارف.

ثم خـرج.. ولم يلتـفت إلـى زملائـه الذين مـر بهم.. خـرج إلى

الشارع.. والضجيج يشتد فى رأسه.. ويحس بأن شيئا ينسلت منه.. ربما كانت روحه.. ويحاول أن يسيطر على نفسه.. أن يفهم.. أن يحس.. أن يفرح.. أن يبكى.. ولكنه لا يستطيع.

ووقف عند تقاطع شارع ٢٦ يوليو وشارع محمد فريد.. وزحام الناس يحيط به.. والضجيج الذى فى رأسه أصبح ألما.. ألما حادا.. ويفكر أن يفعل شيئا.. أى شيء.. وفجأة ارتفعت أمام عينيه صورة صادق بيه.. وعلت شفتيه ابتسامة صغيرة باهتة.. كأنه اكتشف شيئا يستطيع أن يفعله، ويستغل فيه إرادته.

ودب نشاط غريب فى ساقيه.. وسار بخطا واسعة إلى فندق الكونتننتال ودخل إلى البهو الكبير، وتلفت حوله باحثا عن صادق بيه.. وعندما لمحه جالسا بين أصدقائه، اتجه إليه، ووقف قبالته، وقال وعلى شفتيه ابتسامة كبيرة :

– إزيك يا صادق بيه.

ورفع صادق بيه رأسه.. وفوجىء برؤية محمد أمامه.. واتسعت عيناه.. وارتعشت رموشه.. ثم قام واقفا وهو يبتسم ابتسامة يخفى وراءها حدة المفاجأة.. ثم احتضن محمد، قائلا :

– الحمد لله على السلامة.. إزيك يا محمد.. وحشتنى.. ولم يرد محمد.. ظل واقفا ينظر إلى صادق بيه وابتسامته الكبيرة بين شفتيه.. ثم جلس الاثنان، وصادق بيه يقول :

– تشرب إيه ؟

وقال محمد فى بساطة :

– كونياك.

وطلب صادق كأسا من الكونياك.. وبدأ يتكلم.. تكلم كثيرا.. ومحمد ساكت.. إلى أن شرب كأسه.. وشرب كأسا أخرى.. وصادق بيه لا يزال يتكلم.. ومحمد يسمع نصف كلامه، ولا يسمع النصف الآخر.. ولكن صادق بيه لا يتكلم عن سناء.. إنه لم يذكر اسمها.. لم يسمعه محمد يذكر اسمها.

وفجأة قاطع محمد صادق بيه، قائلا :

– إنت بتدى سناء عشرين جنيه فى الشهر ليه ؟

وفوجئ صادق بيه مرة ثانية.. وابتلع ريقه.. ثم ابتسم قائلا :

– ومالة يا محمد.. هو فيه فرق بينى وبينك.. أنا زى أخوك الكبير.. وسناء مرات أخويا.

وقال محمد فى إصرار طفل :

– بتديها فلوس ليه ؟

وقال صادق بيه وهو يحاول أن يبدو بسيطا

– لأنها محتاجة لفلوس.. كنت عايزنى أسيبها من غير فلوس ؟

ونظر إليه محمد فى حيرة.

وعاد صادق بيه يقول :

– إنت زعلان علشان باديها فلوس ؟

وظل محمد ينظر إليه فى حيرة.

هل هو زعلان ؟

ولكن لماذا يزعل؟ إن سناء فى حاجة إلى نقود. وصادق بيه أعطاها نقودا، فلماذا يزعل.. ولماذا غضب كل هذا الغضب عندما سمع أن صادق بيه يعطى سناء نقودا.. لماذا.. ماذا يُغْضِبْ فى كل هذا.. ولماذا تتعقد الحياة من حوله إلى هذا الحد؟

وطلب محمد كأسا أخرى من الكونياك.. وقال ولسانه يترنح بين شفتيه، وصوته باك :

– سناء عايزة تطلق.

وقال صادق بيه وقد اطمأن إلى محمد :

– عارف.. وحاولت أقنعها.. ماقدرتش.. يمكن إنت تقدر تقنعها.. أنا واثق إنك تقدر تقنعها.

ونظر إليه محمد فى تساؤل.. كأنه يسأله عن سر هذه الثقة التى يضعها فيه.. يسأله عن باب الخروج من حيرته.

ورفع كأسه، وأفرغها فى جوفه.. ثم قام واقفا، قائلا

– أنا ماشى باه.

وقال صادق بيه :

– على فين ؟

وقال محمد :

- ما أعرفش.

وخرج.. وصادق بيه ينظر خلفه وبين شفتيه ابتسامة كبيرة تشق وجهه الوقور اللامع.

وسار محمد إلى بيت حلمى.. لم يتعمد أن يتجه إلى هناك.. إنما سار تلقائيا.. بلا تعمد.. وهو يترنح فوق ساقيه الطويلتين، وكتفاه مرفوعان كأنه يزيح عنهما عبئا حمله طويلا.. وابتسامة حائرة تطوف فوق شفتيه.. وهو لا يصدق.. لا يصدق كل ما حدث له ولا يصدق كل ما سمعه، لا يصدق أن سناء تركته.. ولا يصدق أن بينها وبين صادق بيه شيئا يمكن أن يثور له.. ولا يصدق أن مدير الفرقة رفض أن يخصص له مرتبا.. ولا يصدق أنه يائس.. لا يصدق عذابه.. كل هذا ليس حقيقة.. إنها قصة سخيفة طرأت على خياله، ويقوم بتمثيلها، كما تعود.

ووصل إلى شقة حلمى.

متعبا.. مجهدا.. يكاد يسقط من التعب.

وضغط على جرس الباب طويلا وهو مستند بكل جسده على الحائط حتى لا يسقط.. وفتح له حلمى وهو مرتد البيجاما، وآثار نوم قلق تحت عينيه.. وتركه يدخل وراءه دون أن يحييه.. ثم فتح درج الدولاب الموضوع فى حجرة النوم، وأخرج بيجاما ألقاها على السرير، وهو يقول لمحمد :

- اقلع.

وبدأ محمد يخلع ثيابه وهو يترنح.

وجلس حلمى على حافة السرير ينظر إليه فى حنان، ثم قال وهو يبتسم له :

- رحت فين ؟

وقال محمد وهو يخلع البنطلون :

- رحت حتت كتير.

وقال حلمى :

- رحت الفرقة ؟

وهز محمد رأسه قائلا :

- رحت.

وقال حلمى فى لهفة :

- وشفت المدير.. قال لك إيه ؟

وقال محمد وهو يهز كتفيه :

- مارضيش يعمل لى ماهية.

وقال حلمى فى جزع :

- ليه ؟

وقال محمد :

- مارضيش، وخلاص.. حد شريكه ؟

وسكت حلمى مستسلما.

وارتدى محمد البيجاما.. واندس فى الفراش وقال كأنه يتثاءب :

- وقابلت صادق بيه.

والتفت إليه حلمى لفتة سريعة وقال فى حدة :

- قلت له إيه ؟

وقال محمد :

- ولا حاجة.. إنما هو قال لى إنه بيدى فلوس لسناء علشان يساعدها، فيها إيه دى ؟

وسكت حلمى، وحاجباه معقدان وأسنانه تضغط على شفتيه، ثم قال دون أن يلتفت إلى محمد :

- اسمع يا محمد.. أنا من رأيى إنك تطلق سناء.. مش علشان حاجة.. أنا متأكد إن سناء معملتش حاجة.. إنما علشان مصلحتها ومصلحتك.. هى لازم تدور على مستقبلها، وإنت لازم تتعود إنك ترجع تعيش من غيرها.

ولم يرد محمد.

والتفت إليه حلمى فوجده قد نام، ووجهه قد هدأ، وارتسمت عليه براءة الأطفال.

٢٠

في الساعة السابعة صباحا رن جرس الباب في شقة حلمي، رنينا متواصلا عنيفا.

وقام حلمي من نومه مذعورا، وفتح الباب وهو ينفض النوم من عينيه.. ورأى أمامه رجلا في ثياب مدنية، وخلفه رجل آخر.

ودخل الرجل إلى الشقة بمجرد أن فتح الباب، ودون استئذان، وهو يقول في لهجة مهذبة:

– المهندس حلمي؟

وقال حلمي في دهشة:

– أيوه.

وقال الرجل في أدب وهو يخرج بطاقة تحقيق الشخصية من جيبه:

– أنا ضابط مباحث .. تسمح تتفضل معايا؟

وقال حلمي:

– ليه ؟

وقال الضابط مبتسما:

– والله أنا شخصيا، ماعرفش..

ودارت عينا حلمي، ثم قال وهو يبلل شفتيه بلسانه:

– أقدر ألبس هدومي؟

وقال الضابط:

– على مهلك .. واسمح لي على بال ما تلبس، أفتش الشقة..

وقال حلمى:
ـ اتفضل ..
ودخل حلمى إلى حجرة النوم يرتدى ثيابه.. ووجهه مكفهر.. وعيناه زائغتان.. ودار الضابط فى أنحاء الشقة يلقى نظرات سريعة على ما حوله.. ويفتح الأدراج.. ويقلب الأوراق فى رفق مهذب.. وأخذ بعض الأوراق ووضعها فى جيبه.
وعاد حلمى مرتديا ثيابه.. وقال:
– أقدر أغسل وشى بسرعة؟
وقال الضابط:
– اتفضل .. على مهلك..
ودخل حلمى إلى الحمام وخبط وجهه بالماء، ومشط شعره.. ثم عاد إلى الضابط قائلا:
– أنا تحت أمرك.
ومحمد لا يزال نائما..
وقال الضابط:
– مين الأستاذ اللى نايم معاك ده؟
وقال حلمى:
– ده صديقى محمد وجدى..
وكتب الضابط اسم محمد فى ورقة معه، ثم ابتسم لحلمى، وقال فى رقة:
– اتفضل..
وخرجوا .. والضابط يسير بجانب حلمي، والرجل الآخر يسير خلفهما.
وركب حلمى فى سيارة البوليس وضابط المباحث يجلس على يمينه.. وهذا الرجل الآخر يجلس على يساره.. ومقعد السيارة ضيق، وحلمى محشور بين الرجلين، يحس كأن كلبشا من حديد يحيط بجسده كله ويضغط على ضلوعه وعلى أنفاسه.. بل يضغط على حواسه كلها.. إنه يحس بثقل فى أذنيه.. وألم فى عينيه..

ويحس ببرودة فى أطراف أصابعه تكاد تفقدها القدرة على اللمس.

وعقله زائغ.. يرتفع به وينخفض به كموج بحر هائج.. لا يستطيع أن يسبح فيه.. لا يستطيع أن يسبح فى أفكاره.. لا يستطيع أن يتصور ما يمكن أن يحدث له خلال الساعات القليلة القادمة.. ولا يستطيع أن يحكم ما ستكون عليه تصرفاته وأقواله.

لماذا يأخذونه؟

لأن مدير الشركة طلب منهم أن يأخذوه..

إن سلطات الحكم كلها تتعاون مع المديرين.. تضع نفسها فى خدمة المديرين.. والذين يحكمون البلد هم المديرون..

هل قامت الثورة من أجل المديرين؟

وشعر بإحساس ثقيل من اليأس والكمد يملأ صدره.. أحس بنفسه يستسلم فى ضعف.. ويستريح لهذا الضعف.. كأنه نزع ثورته عن كتفيه، ونام.. وتندعق الدنيا..

- ماذا سيفعلون به؟

سيعتقلونه؟

إذن، كل ماسمعه عن المعتقلات، والذين يعتقلون.. صحيح.. ليس مجرد إشاعات.. إنه يستطيع الآن أن يقسم بأن كل هذه الإشاعات صحيحة.. ليست إشاعات.. حقائق.. والذين يعتقلون ليسوا الرجعيين، وليسوا أعوان الاستعمار، وليسوا أعداء الثورة.. ولكن أعداء المديرين أيضا يعتقلون يكفى أن يقدم المدير مذكرة يتهم فيها أحد موظفيه بالشيوعية، حتى يعتقل.. وهو لا يخاف الاعتقال.. بالعكس.. إنه يرحب بالاعتقال.. إنه يستطيع هناك أن يستريح.. يستريح من ثورته.. يستريح من كل هذا الذى يحيط به.. راحة اليأس.. راحة الظلام.. اعتقلونى.. أريحونى.

هل يعذبونه فى المعتقل؟

لقد سمع أنهم يعذبون الناس داخل المعتقلات..

واتسعت عيناه فى ذعر.. وارتعش فى جلسته كأنه أحس بضربات سياط تسلخ ظهره.. وضم أصابعه فى قبضته كأنه يخاف أن ينزع أحد أظافره منها..

والتفت إلى الضابط الذى يجلس بجانبه.. وعرق بارد يتفصد من جبينه.. وفتح فمه كأنه يهم بالكلام.. ولكنه لم يجد كلاما يقوله.. وظل فمه مفتوحا.. والعرق يتفصد من جبينه.. ثم أمال رأسه إلى الوراء بغتة.. وجذب نفسا عميقا من صدره، كأنه وصل إلى النهاية.. نهاية اليأس.

ودخلت السيارة إلى فناء وزارة الداخلية، ووقفت بجانب السلم الرئيسي.. ونزل الضابط، ونزل وراءه حلمي، ووراءهما هذا الرجل الغريب.. وصعد الثلاثة إلى الدور العلوى.. ولم يضع الضابط يده فى ذراع حلمي.. لقد كان يسير بجانبه كأنهما صديقان التقيا صدفة.. وعينا حلمي تدوران حوله بسرعة.. لقد دخل هذا المبنى من قبل.. منذ أكثر من ثمان سنوات.. دخله مقبوضا عليه بتهمة الشيوعية.. وأفرج عنه يومها.. هل يفرج عنه هذه المرة أيضا؟ إن شيئا لم يتغير فى مبنى الوزارة.. سوى هذا الهدوء.. والطرابيش اختفت.. والوجوه أكثر شبابا.. وإحساسه.. لقد دخل هذه الوزارة منذ ثمان سنوات، وهو يحس بأنه يدخل معسكر أعدائه.. ولكنه اليوم يحس بأنه يدخل إلى أناس ليسوا أعداءه.. ولكنهم لا يفهمونه.. ولا يجد طريقا ليجعلهم يفهمونه.. لقد دخل الوزارة من قبل وصدره منتفخ بالتحدى.. التحدى للنظام كله.. ولكنه اليوم لا يشعر بالتحدى.. إنه يشعر بالاستسلام.. باليأس.

وقاده الضابط إلى إحدى الحجرات.. وقدم له مقعدا بجوار مكتب.. ثم جلس الضابط إلى المكتب وهو يقول مبتسما:

– أظن تشرب شاي. ولا تحب قهوة؟

ونظر إليه حلمي فى ارتياب.. ألا يمكن أن يعفوه من هذه المجاملات.. وهذه الابتسامة التى تلمع فوق شفاههم.. لقد رأى نفس الابتسامة على شفتى الضابط الذى قبض عليه قبل الثورة.. وهو لا يريد شايا ولا قهوة.. إنه يريد أن يعرف لماذا أتوا به إلى هنا؟

وضبط أعصابه وقال فى صوت مخنوق:

- متشكر..

وعاد الضابط يقول:

- شاى؟!

وكرر حلمى بصوته المخنوق:

- متشكر..

وضغط الضابط على جرس، ودخل أحد الجنود، فأمره بأن يحضر كوبين من الشاى.

وحلمى ينظر حوله.. ثم ينظر فى وجه الضابط.. وينقر على حافة المكتب بأصابعه فى ملل..

وفتح الضابط جريدة الصباح، وأخذ يقلب فيها.. ثم ألقاها ورفع سماعة التليفون، وبدأ يتكلم.. يبدو أنه يحادث زوجته.

وجاء الشاى.. ورشف حلمى رشفة.. ثم لم يعد يستطيع الصبر.. التفت إلى الضابط قائلا:

- مش ممكن تقول لى أنا جيت هنا ليه؟

وقال الضابط مبتسما كأنه يعرف ما يعانيه حلمى:

- صدقنى أنا ما اعرفش.. إنما ما أظنش أنها مسألة كبيرة..

وعاد يرشف من فنجال الشاى..

وسكت حلمى.. ورفع ساقا ووضعها على الأخرى، وبدأ يهز قدمه فى حركة عصبية عنيفة.. واستدار له الضابط وبدأ يحادثه.. حادثه فى مواضيع كثيرة.. حدثه عن الجو.. وعن آخر فيلم شاهده.. وعن أزمة التموين.. وآخر أغنية لأم كلثوم.. وحلمى يجيبه من تحت أسنانه إجابات مقتضبة.. وصدره يضيق.. وقدمه التى تهتز لا تهدأ كأنه يضرب بها الهواء.

ومرت ساعة.. وساعتان.. وثلاث.. ما هذا.. هل هو نوع جديد من التعذيب؟ هذا الانتظار الذى لا نهاية له يمزق أعصابه.. يفرى رئتيه.. إن كل ما يريد أن يعرفه، هو سبب القبض عليه. لماذا أتوا به إلى هنا؟

وبدأت أعصابه الثائرة تنفض عنه اليأس.. بدأ يستعيد ثورته..

ويستعيد ثقته بنفسه.. وبدأ يرتب فى ذهنه الطريقة التى سيواجه بها المحقق.. ولكن أين المحقق؟ والتفت إلى الضابط بغتة وقال فى حدة:

– أظن أن من حقى أن أعرف أنا مقبوض علىّ ليه؟

وأجابه الضابط مبتسما:

– إنت مش مقبوض عليك.. لغاية دلوقت..

وقال حلمى دهشا:

ـ امال إيه.. جبتنى هنا ليه؟

وقال الضابط:

– الأمر اللى عندى.. أمر إحضار.. يعنى المفروض إنت جاى علشان يسألوك سؤالين.

وقال حلمى:

– وبعدين؟

وقال الضابط:

– ما اعرفش..

وقال حلمى:

– وحايسألونى إمتى؟

وقال الضابط:

– اصبر .. الصبر طيب..

وسكت حلمى وهو يزفر أنفاسه.. إنه يستطيع أن يصبر .. ولكن لماذا يصبر.. ويصبر على ماذا؟ ما ذنبه فى كل هذا حتى يطالبوه بالصبر.. والغيظ والقلق يفتتان أعصابه.

ومرت الساعة الثانية عشرة ظهرا..

وبعدها بقليل دق جرس التليفون الموضوع على مكتب الضابط، وسمعه حلمى يقول فى لهجة مهذبة:

– حاضر يا أفندم..

ثم وضع الضابط سماعة التليفون والتفت إلى حلمى قائلا وعلى شفتيه ابتسامة كبيرة:

- اتفضل يا باشمهندس..

وخرج به من الغرفة.. وسار بجانبه فى ممرات الوزارة، دون أن يمسك به كأنهما صديقان التقيا صدفة.. ثم دخل به إلى حجرة أخرى.. حجرة واسعة يسودها هدوء طرى.. ومكتب كبير، تزدحم الدوسيهات فوقه..

ورأى حلمى خلف المكتب رجلا فى ثياب مدنية أنيقة.. يبدو صغير السن.. أصغر من هذه الحجرة الواسعة، وهذا المكتب الكبير.

وقام الرجل يستقبل حلمى فى بشاشة وترحاب..

- أهلا بالباشمهندس..

وصافحه حلمى فى برود، والريبة تملأ عينيه، ثم جلس على المقعد الذى أشار له عليه.. وانصرف الضابط بعد أن أدى التحية العسكرية.

وقال الرجل وهو يعود ليجلس وراء مكتبه:

- آسف اللى أخرتك ياباشمهندس.. على الله ماتكونش اتضايقت.

ونظر إليه حلمى فى حذر.. لماذا لا يختصر الرجل كل هذه المقدمات، ويدخل مباشرة فى الموضوع؟

وسكت حلمى.. لم يرد..

وقال الرجل كأنه عرف ما يدور فى عقل حلمى:

- ندخل فى الموضوع.. وأحب أقول لك إنى حاكلمك بصراحة.. لأن من حقك تعرف كل حاجة خاصة بنشاطك وتصرفاتك.

واستجمع حلمى كل عقله واعتدل فى جلسته.

واستطرد الرجل قائلا:

- إحنا جت لنا مذكرات كتير بخصوصك.. ومذكرات اتقدمت لجهات تانية واتحولت علينا.. وحققنا فى المذكرات دي.. إنما فيه شوية نقط أحب أسألك فيها إنت شخصيا.. وأرجوك إنك تعرف إنه ده مش تحقيق.. إنما مجرد استكمال معلومات.

وبلع حلمى ريقه وقال فى صوت محشرج:

- اتفضل اسأل..

وابتسم الرجل ابتسامة مطمئنة وقال:

- إنت كنت شيوعى لغاية سنة واحد وخمسين.. مش كدة؟

وقال حلمى وفى عينيه تحد:

- فعلا .. كنت شيوعى..

وابتسم الرجل وعاد يسأل:

- وبعدين؟

وقال حلمى:

- اختلفت مع الشيوعيين.. وسبتهم.. ومن يومها ما انضمتش لأى هيئة أو منظمة.

وقال الرجل فى هدوء:

- إحنا عارفين كدة.. إنما فيه ناس بيتهموك إنك بتحرض زملاءك المهندسين فى الشركة اللى كنت بتعمل فيها.. وإنك بتطلب منهم إنهم ما يشتغلوش إلا فى المشروعات اللى يوافقوا عليها.. ومعنى كدة إنك عايز تقلب نظام الشركة.. عايز تلغى اختصاصات مجلس الإدارة.. وتلغى حقوق صاحب الشركة والمساهمين معاه..

وقال حلمى فى قوة:

- مش صحيح.. أنا كل اللى طلبته من زملائى إنهم ما يشتركوش فى الغش اللى الشركة بتتعمده فى تنفيذ مشروع مصنع النسيج.

وقال الرجل الهادى:

- وسمعوا كلامك؟

وقال حلمى وهو يرخى عينيه:

- لأ.. لأنهم مضطرين يأكلوا عيش.. وراهم عائلات وأولاد.. وكانوا عارفين إنى حاترفد.. وماكانش فيهم واحد مستعد يترفد زيى.

وقال الرجل فى هدوء:

ـ إنما دى طريقة مش قانونيـة.. مش ممكن إنك تحل مشكلة، أو تمنع جريمة بالطريقة دى.

وارتفع صوت حلمى قائلا:

ـ إيه هى الطريقـة القـانونية؟ فـين الطريقـة دى؟ أنا عـملت كل حاجة.. رحت لرئيس مجلس الإدارة قبل ما أكلم الموظفين.. وقدمت مذكرة لرئيس مـجلس إدارة مؤسسة النسيج اللى المـصنع بيتبنى لحسابها.. ورحت الاتحاد القومى.. و..

وسكت حلمى برهة.. لقد كان على وشك أن يقـول إنه لجأ أيضا إلى المخابرات.. ولكنه عدل عـن أن يذكر اسم المخابرات.. لا يدرى لماذا؟

ثم استطرد قائلا، وقد خفت حدته:

– ماخلتش طريقة قانونية إلا ولجأت لها.. إنما مافيش فايدة.

وقال الرجل مبتسما:

– مش يجوز إنك غلطان.. ثم إن مش من حقك لوحدك إنك تحكم بأن الشركة بتغش..

وقال حلمى:

– ما هو ده اللى أنـا كنت عايز اعمله.. عـايز أى جهـة تحقق فى الكلام اللى باقوله..

وقال الرجل:

– فيه جـهات كتير مسـتعدة للتحقـيق.. ولما تغلب تقدر فى أى وقت تبعت مذكرة لرياسة الجمهورية.. للريس..

واتسـعت عـينا حلمى.. صـحـيح.. لمـاذا لم يرسـل مـذكـرة بالموضوع للرئيس؟ وقال..

– فعلا .. كان لازم أبعت مذكرة للرئيس..

وابتسم الرجل الجالس وراء المكتب العريض وقال:

– إنت عارف إن المصنع اتبنى خلاص؟

وقال حلمى فى صوت خافت:

– عارف.. إنما أنا متأكد إنه أتبنى على غش.. مش حايستحمل خمس سنين.. أنا متأكد..

ونظر إليه الرجل كأنه معجب بتصميمه، وقال:

– تأكد إن المسئول عن أى غلطة بياخد جزاءه.. وكل اللى أنا عايزه منك إنك تتبع فى التعبير عن آرائك الطرق القانونية.. ماتديش فرصة لحد إنه يتهمك بالتحريض..

ونظر إليه حلمى فى هدوء:

– تقدر تقول لى إزاى كان ممكن أمنع الغش اللى حصل.. الجريمة اللى وقعت؟

وقال الرجل:

– ما تنساش إن الشركة خاصة.. ومؤسسة النسيج هى اللى بتتعامل معاها.. ومادام المؤسسة ماإشتكتش يبقى ماحدش يقدر يعمل حاجة.. خصوصا إن الجزيمة اللى بتقول عليها ماوقعتش.. المصنع اتبنى وابتدوا يركبوا فيه الآلات.. وغير كدة كل اللى بتقول عليه جرائم عادية.. جرائم رشوة بتقع كل يوم..

وقال حلمى:

– أنا عمرى ما آمنت إن فيه ثورة بتعتمد على الوسائل القانونية.. كان لازم الثورة تتدخل كثورة.. تمنع الرشوة.. وتمنع الغش.. وتحمى المصنع اللى بيتبنى.. تحميه بقوة الثورة، مش بقوة القانون.

وقال الرجل مبتسما:

– مش إنت لوحدك اللى بتفكر فى كدة.. اطمئن.

ونظر إليه حلمى كأنه لا يفهم شيئا..

وقال الرجل:

– أنا سعيد اللى شفتك ياباشمهندس.. وآسف اللى أزعجناك.. وتقدر دلوقت ترجع البيت.

وقام حلمى من على مقعده بسرعة، كأنه يتعجل ساعة الخلاص، ومد يده يصافح الرجل مصافحة سريعة.

وقال له الرجل قبل أن ينصرف:

- إحنا تأكدنا من كل المعلومات اللى إنت قلتها.. وتأكدنا إن مالكش أى نشاط شيوعى؟

وهز حلمى رأسه صامتا..

ثم استدار وخرج من الغرفة فى خطا سريعة.. ولم يجد الضابط الذى أتى به، فى انتظاره على باب الغرفة، كما كان يتوقع.. فنزل سلم الوزارة بسرعة كأنه كان يخشى أن يتبعه أحد الجنود، ويقبض عليه مرة ثانية.

ولم يسترح قلبه إلا عندما خرج إلى الشارع.. ورفع أنفه فى الهواء وشد نفسا عميقا.. وأحس بأن للهواء رائحة جديدة لم يشمها من قبل.. رائحة الشيء الطازج.. وعلت شفتيه ابتسامة تنبض بالراحة.. لم يقبض عليه.. لم يأخذوه إلى المعتقل.. لا يكفى أن يطلب المدير اعتقاله حتى يعتقل.. لا يكفى أن يتهم بالشيوعية حتى تعامله الحكومة على أنه شيوعى.. إنهم لم يعتقلوه.. لم يعذبوه.. كل ما يقال مجرد إشاعات .. إشاعات.

وأحس بأنه قوى.. أقوى من مدير الشركة.. وأحس بكل حماسه يعود إليه فى لحظة.. أحس بأنه يستطيع أن يستمر فى معركته.. أن يحارب الشركة حتى بعد أن يتم بناء المصنع.. لقد بنى المصنع والغش راقد فى أعمدته.

كيف يبدأ المعركة من جديد؟

يرسل خطابا للرئيس؟

وبدأ يتخيل سطور الخطاب الذى سيكتبه للرئيس.. وهو يسير بخطى سريعة واسعة إلى بيته.. ولكن السطور بدأت تختلط فى خياله شيئا فشيئا.. وبدأت خطاه تتمهل.. كأنه تعب من فرحته. ومن حماسه.. وبدأ يسائل نفسه.. لماذا يكتب للرئيس عن مسألة تفصيلية مثل هذه ؟ إن الرئيس يحمل المسئوليات الكبيرة.. يحمل مسئولية المصير.. إنه يضع المبادىء.. ويضع النظم.. ويرسم الطريق الذى يحقق هذه المبادىء.. ويطبق هذه النظم.. ولا يمكن أن

يتولى الرئيس بنفسه بحث كل هذه التفصيلات الصغيرة.. لا يمكن أن نحمل شخصا واحدا كل هذا العبء، حتى لو كان الرئيس.. لا يمكن.. مستحيل.. إنه مهمة الجهاز الثورى.. جهاز تتوزع مسئولياته على أفراد كثيرين حتى يصل إلى الشركات ويتولى مسئولية ما يجرى فيها.. فأين هو هذا الجهاز الثورى؟.. أين؟.

واستبدت به الحيرة.. ووصل إلى بيته وقد بدأ صدره ينقبض من جديد.. واندفع إلى حجرة النوم باحثا عن محمد.. كان فى حاجة إلى محمد لينقذه من أفكاره.. ليجد عنده موضوعا آخر يخرجه من حيرته.. ولكن محمد ذهب.. خرج من البيت، وترك الفراش مهوشا وجاكتة البيجاما ملقاة فى ناحية والبنطلون ملقى فى ناحية أخرى.. وفوطة الوجه على الأرض، ولا تزال مبللة.

وخلع حلمى سترته، وبدأ يساوى السرير، ويرتب الغرفة.. وصدره منقبض.. وعقله حائر.. ولا يزال يبحث عن الطريق.

وفجأة ترك ترتيب الغرفة، وخرج إلي الصالة وجلس إلى مائدة الرسم، وأخرج ورقة وقلما.. وانحنى ليكتب.

سيكتب خطابا للرئيس..

ولكنه لم يكتب شيئا.. حبال غليظة تنطلق من نفسه وتشد يده عن الكتابة.. أحس كأنه خجل من أن يكتب للرئيس.. ماذا سيقول عنه الرئيس عندما يتسلم خطابه؟ سيقول: شاب آخر لا يستطيع أن يقوم بدوره فى الثورة، شاب عاجز عن أن يحل مشكلة تفصيلية كان يمكن أن يحلها لو كانت له القوة الثورية الكافية.. أحس كأنه يعترف للرئيس بفشله.. بعجزه.. أحس كأنه يتخلى عن الرئيس.. وهو مؤمن به، مؤمن بجمال.. ويريد أن يقوم بدوره بجانبه.. يريد أن يساعد جمال على تحقيق مبادىء الثورة.. يريد أن يساعد جمال على تطهير الشعب من أعداء الثورة.. يريد.. يريد.. يريد..

ولكنه لا يستطيع..

إنه ضعيف..

إنه فاشل..

لقد انتصر عليه أعداؤه وأعداء الثورة.. انتصر عليه المرتشون الانتهازيون.. وتم لهم بناء المصنع كما أرادوا أن يبنوه.. وأخفوا جريمتهم وراء الطلاء اللامع الذى دهنوا به الجدران.

واجتاحته موجة عارمة من اليأس..

وألقى القلم من يده.. وانتفض واقفا.. وأخذ يروح ويجيء فى الغرفة.. يريد أن يصرخ.. يريد أن يبكى!.. يصرخ طالبا النجدة من يأسه.. ويبكى على وهم كبير عاش فيه.. وهم صور له أنه إنسان قوى يستطيع أن يثور، وأن يكافح وأن يبنى وأن يهدم.. وهو لم يثر إلا على نفسه.. ولم يكافح إلا ضد نفسه.. ولم يبن إلا خيالا.. ولم يهدم إلا مستقبله.

لماذا لم يفر من كل هذا؟

لماذا لا يعيش كما يعيش بقية الناس؟ يشرب من متع الحياة.. ويهز كتفيه بلا مبالاه.. كتفان خفيفان لا يحملان عبئا ولا هما.

أين تحية؟

لماذا طردها؟ لقد كان مغفلا كبيرا يوم طردها.. لقد كانت متعة الحياة.. كانت الشيء الوحيد الذى يملكه بين يديه.. لم تكن وهما.. لم تكن وعدا.. كانت حقيقة لهاجسد.. جسد يحرك أعصابه.. ينسيه الدنيا.

إنه يريدها..

يريدها الآن..

وتجسمت أمامه صورة تحية.. عيناها الدافئتان.. وابتسامتها التى تكاد تقع منها.. وجسدها الملفوف كشجرة الموز.

وفتح الباب ، وجرى يهبط السلم.. ثم جرى فى الشارع إلى دكان السجائر.. ورفع سماعة التليفون.. وأدار رقم تليفون تحية.. إنه لم ينس أبدا هذا الرقم.

وسمع صوتا غريبا. ولم يسأل نفسه من يكون صاحب هذا الصوت.. هل هو صوت زوجها؟.. هل هو صوت السفرجى؟.. لا يهم.. لم يعد هناك شيء يهم.

وقال فى سماعة التليفون بسرعة:
– من فضلك الست موجودة؟
وسمع الصوت الغريب يقول فى تكاسل:
– تقول لها مين؟
وقال بصراحة.. بلا تفكير.. لم يعد يريد التفكير:
– قول لها حلمى..
وانتظر برهة ممسكا بسماعة التليفون ويده تنزف عرقا.. ثم سمع صوت تحية ملهوفا منزعجا قائلة:
– إنت مجنون يا حلمى.. تتكلم فى البيت.. وتقول اسمك كمان؟ افرض إن جوزى هو اللى رد عليك؟
ولم يرد حلمى على كلامها.. لا شىء يهم حتى لو كان زوجها هو الذى رد عليه.. وقال وأنفاسه تتلاحق:
– تحية.. أنا لازم أشوفك..
وقالت تحية وهى تحاول أن تبدو ساخرة:
– بعد اللى حصل؟
وقال حلمى فى إلحاح وتوسل:
– أرجوكى يا تحية.. أنا محتاج لك..
وقالت تحية كأنها تتلذذ بتعذيبه:
– إنت مش غيرت قفل الباب؟ حادخل إزاى؟
وقال حلمى وهو يكاد يصرخ:
– ماتعذبنيش يا تحية.. لازم أشوفك.. لازم أشوفك النهاردة.
وهدأ صوت تحية، وبدت أنها تشعر بحالته، وقالت:
– إيه اللى حصل يا حلمى؟
وقال حلمى وهو يلهث:
– ما أقدرش أقول لك دلوقت.. أنا باكلمك من الشارع.. قولى لى.. حاشوفك إمتي؟
وقالت تحية فى تردد:
– النهاردة الساعة ستة..

وقال وأنفاسه تتلاحق:

- ما تتأخريش..

ووضع سماعة التليفون..

وأخرج منديله ومسح به العرق المتفصد فوق جبينه.. ووقف أمام دكان بائع السجائر حائرا.. ثم نظر فى ساعته.. الثالثة.. وسار على قدميه.. بلا هدف.. وعقله زائغ.. يدور كأنه يلهث.. ولم يكن يفكر فى المصنع.. ولا فى تحية.. ولا فى الثورة.. كان يفكر فى نفسه.. يستعيد كل أيامه.. وينظر إليها بعين يائسة فيراها أياما تعيسة فارغة.. فشل وراء فشل.. عمر طويل من الفشل..

ووجد نفسه يدخل أحد مطاعم شارع سليمان باشا.. لا يدرى لماذا اختار هذا المطعم.. وأكل دون أن يدرى لماذا اختار هذا الطعام؟ ثم خرج من المطعم وعاد يسير على قدميه.. سار طويلا.. يدخل فى شارع ويخرج من شارع.. وينظر فى وجوه الناس دون أن يراهم.. ويسمع أصواتا صاخبة تملأ أذنيه، ولا يستطيع أن يميزها.

وعاد إلى بيته فى الساعة الخامسة..

وألقى نفسه على الفراش، وهو بملابسه كاملة.. وسرح.

وفجأة سمع جرس الباب يرن رنينا متواصلا.. ورفع رأسه من فوق الوسادة.. ونظر فى ساعته.. الخامسة والربع.. لا يمكن أن تكون تحية.

وقفز من فوق الفراش.. وفتح الباب فى لهفة..

ورأى أمامه زميله المهندس رحمى..

وصاح رحمى وهو يمد له يده وعلى شفتيه ابتسامة كبيرة:

- إنت فين يا راجل.. إحنا بندور عليك من الصبح.. خبر مدهش.

وقال حلمى وهو نصف مذهول:

- خير ؟

وقال رحمى كأنه يزغرد:

- المصنع وقع.

وتنبهت عينا حلمى، واتسعتا على آخرهما ، وقال كأنه صعق:
- بتقول إيه؟
وعاد رحمى يزغرد:
- باأقول لك المصنع وقع..
وقال حلمى والدهشة تصرخ بين شفتيه:
- وقع إزاى؟
وقال رحمى:
- يدوبك.. بيركبوا فيه المكن.. راح السقف واقع عليهم.. ما استحملش دقتين.. والحكومة كلها واقفة على رجل.. والشركة زايطة.. بيقولوا إن التحقيق ابتدا من دلوقت.
وأحس حلمى كأنه لم يعد يستطيع الوقوف.. وجلس على الأريكة كأنه سقط فوقها من السماء.. الآن.. لقد وقع المصنع.. تحقق كل ما توقعه.. ولكنه تحقق أسرع مما كان يتوقع.. كان ينتظر أن يبقى المصنع خمس سنوات قبل أن يقع.. ولكنه وقع من أول خبطة.. لم تحتمل بلاطة السقف وقد وضعت الشركة فيها ثلاثة أسياخ حديد فى المتر الطولى بدلا من ستة.
إنه يستطيع الآن أن يفرح.. يستطيع أن يؤمن بنفسه.. يستطيع أن يزهو بنفسه أمام كل المديرين.. وأمام سكرتير لجنة الاتحاد القومى.. وأمام الحكومة.
وارتسمت بين شفتيه ابتسامة كبيرة.
وارتاح قلبه..
ولكنه بسرعة، سحب ابتسامته.. لماذا يبتسم.. ولماذا يرتاح؟ لقد وقع المصنع.. وضاعت على البلد آلاف الجنيهات. .وضاعت شهور طويلة من عمر البلد.. ليس من حقه أن يفرح.. إن فرحه معناه الشماتة.. وهو لا يريد أن يشمت فى أحد.. لقد كان يتمنى أن يستطيع إنقاذ المصنع قبل أن يقع.
وصاح به المهندس رحمى:
- قوم معايا يا حلمى.. المهندسين كلهم مجتمعين ومستنيينك.

ورفع حلمي رأسه والبريق يضيء عينيه وقال:

- فين ؟

وقال رحمي:

- عندي في البيت..

وقال حلمي:

- ياللابينا..

وأخذ رحمي من ذراعه وخرج من الشقة، وأغلق الباب وراءه، وفجأة.. تذكر موعده مع تحية.

وتردد برهة..

ثم هز كتفيه بلا مبالاه.

لا يهم..

ونزل السلم، وابتسامة قوية تلمع فوق شفتيه.

٢١

ذهب حلمى إلى الاجتماع الذى عقده مهندسو الشركة فى بيت زميلهم رحمى بعد أن انتشر بينهم خبر وقوع المصنع وهو لا يدرى ماذا يمكن أن يحدث فى هذا الاجتماع.. ولا يدرى ماذا يمكن أن يقوله.. ولكنه يحس بأن شيئا كبيرا يجب أن يحدث.. يحس بأن وقوع المصنع معناه وقوع أحداث كبيرة.. إن المدير هو الذى وقع.. رئيس مجلس الإدارة هو الذى وقع.. الاتحاد القومى هو الذى وقع.. الذين ينصبون باسم المخابرات هم الذين وقعوا.. نظام شركات المقاولات كله، قد وقع.. كل هذا وقع.. وكان يجب أن يقع حتى تفيق الثورة إلى الثقوب التى يتسلل منها الفساد.. حتى تتحرك الثورة لتحمى نفسها.

وفى صدره أمل كبير.. أمل ينطلق مع كل إحساسه الثورى.. وينطلق مع إحساس عارم بالقوة.. إنه قوى.. قوى.. قوى بثورته.. قوى بمبادئه.. قوى بصلابته.. إنه لم ينتصر.. لم يستطع إنقاذ المصنع.. ولكنه قوى.. إن الضعفاء ينتصرون أحيانا على الأقوياء.. ولكن الأقوياء هم الذين يملون إرادتهم.. هم الذين يقودون القدر.

ورغم ذلك فهو لا يعرف ماذا يستطيع أن يفعل بهذه الشحنة الهائلة من الأمل والقوة التى تملأ صدره.. صور كثيرة لما يمكن أن يحدث، ولما يمكن أن يفعله تمر بخياله، دون أن يستطيع التوقف عند واحدة منها.

واستقبله زملاؤه المهندسون مهللين، وانطلق كل منهم يقبله،

ويشد على يده فى حرارة وحماس.. وصاح المهندس عبدالله:

– كل اللى قلته يا حلمى طلع مظبوط..

وقال حلمى وقلبه يخفق بفرحته بحماس زملائه:

– مش مهم اللى قلته.. المهم إن المصنع وقع..

وقال زميله فخرى:

– لو كنا سمعنا كلامك ما كانش وقع..

ورد حلمى وعلى شفتيه ابتسامة كبيرة:

– لو كنتم سمعتم كلامى كان زمانكم فى الشارع، زى حالاتى.

وقال المهندس رحمى فى صوت جاد:

– المهم إننا نتفق دلوقت على اللى حانقوله فى التحقيق.. النيابة بتحقق مع المدير من الصبح.. وأعتقد إنهم حايخدوا أقوالنا.

وقال حلمى وهو يجلس، وعيناه تبرقان بحماسه :

– لازم نقول كل حاجة.. بصراحة.. دى الفرصة الوحيدة اللى نقدر نطهر فيها الشركة.

وقال المهندس عبدالرحمن وهو لا ينظر إلى حلمى:

– ما تنساش يا حلمى إن موقفنا مختلف عن موقفك.. إنت سبت الشركة.. ومش ممكن تكون مسئول.. إنما إحنا.. مين عارف.. يمكن يعتبرونا مسئولين!

واندفع حلمى قائلا:

– مافيش حد فينا يمكن إنه يعتبر مسئول.. أو ممكن يوجه إليه أى اتهام.. إنتم كنتم بتنفذوا أوامر الشركة.. أوامر المدير ورئيس مجلس الإدارة.. واللى كان بيخالف أوامر المدير كان بيترفد، زى ما حصل معايا.

وقال المهندس عبد الله فى صوت خافت حزين:

– لو جيت للحق.. برضه إحنا مسئولين.

وقال حلمى فى حماس كأنه يدافع عن زملائه:

– إنت بتقول كدة علشان عندك ضمير.. ويمكن يكون علينا مسئولية أدبية.. إنما المسئولية الجنائية والمسئولية القانونية مش

علينا.. ويمكن مش بس المدير هو المسئول.. النظام كله هو المسئول.. النظام اللى يسيب مصنع يتبنى ويقع بعد شهرين.. دى مسئولية كبيرة.. أكبر مننا بكتير..

وقال المهندس شريف:

– أعتقد إنهم حيأمموا الشركة بتاعتنا..

وقال حلمى:

– التأميم مش كفاية.. والتأميم مش ممكن يكون عقاب.. التأميم نظام.. وزى ما فيه فساد وغش فى الشركات الخاصة، ممكن يكون فيه فساد وغش فى الشركات المؤممة. المهم إنه يتوضع نظام يمنع الفساد والغش.. نظام يدى الحق للناس كلها إنها تراقب كل اللى بيحصل فى البلد.. تراقب كل طوبة بتتبنى فوق طوبة. ويكون من حق الناس أنها تمنع الجريمة قبل ما تحصل.. تُحمى المصانع قبل ما تقع.. وأنا واثق إن الثورة مش حاتسكت.. جمال عبدالناصر مش حايسكت.. مش ممكن يسكت على مصنع يقع.. وأنا مؤمن بإن فيه حاجة كبيرة حاتحصل.. ما عرفش هى إيه.. إنما لازم حاتحصل..

ونظروا جميعا إلى حلمى وعيونهم تبرق.. ومرت بينهم فترة صمت طويلة كأنهم كانوا يسمعون كلام منجم يكشف لهم أستار السماء.

ثم قال المهندس رحمى وهو يتنهد:

– برضه لسة ما اتفقناش حانقول إيه فى التحقيق..

وقال حلمى بسرعة:

– كل حاجة..

وبدأ الزملاء يتناقشون فى تفاصيل الأقوال التى يدلون بها إذا استدعى واحد منهم للإدلاء بشهادته فى التحقيق.. واقتنعوا كلهم بأنهم يجب أن يقولوا كل شىء.. بصراحة.. وبالمستندات.

وطال الاجتماع.. وحلمى لا يتعب.. كل ذرة فى عقله متنبهة.. نشطة.. والأمل الكبير يملأ صدره.

وفى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، انتهى الاجتماع.. وترك

حلمى زملائه وسار إلى بيته.. سار كأنه إنسان جديد.. يسمع لخطواته صوتا لم يسمعه من قبل.. ويرى الشوارع كما لم يرها من قبل.. وطريق الأسفلت يمتد أمامه لامعا كأنه مغسول بالنور.. والعمارات الشاهقة تحيط به كأنها تبتسم له.. كل نافذة فيها طاقة من الأمل.. ويحس كأنه إنسان مسئول عن كل الذين يسكنون هذه العمارات.. عن كل الذين يمشون فى الشارع.. مسئول عن الحياة كلها.. وهو قادر على حمل هذه المسئولية.. إنه يحب أن يكون إنسانا مسئولا.

وصعد إلى شقته.. إحساسه بالقوة يكاد يرفعه عن الأرض.. ووضع المفتاح فى القفل، وفجأة تنبه إلى ورقة صغيرة معلقة فى حديد نافذة الباب.. التقطها بأصابعه، وفتحها.. وقرأ كلمتين مكتوبتين بقلم الحواجب:

إنت سافل..

وضحك حلمى، حتى سمع ضحكته.. ودخل الشقة وقد انطلقت فى خياله صورة تحية، وهى واقفة عند الباب تضغط على الجرس ولا أحد يفتح لها. وأحس بالإشفاق عليها.. وذابت ضحكته فى إحساسه بالشفقة.. عجيبة.. هذه هى المرة الأولى التى يحس فيها بالشفقة على تحية.. لقد كان يحقد عليها.. مرت به أيام كان يتمنى خلالها أن يخنقها بحقده.. أن يمزقها.. أن يقطع جسدها.. ربما لأنه كان أيامها أضعف منها.. أضعف من أنوثتها.. أضعف من جسدها. ولكنه الآن يشفق عليها.. يشفق عليها لأنه نسيها.. ونسى موعدها.. وتركها ملطوعة على الباب، ولا أحد يفتح لها.. وزوده إحساسه بالشفقة، بإحساس أكبر بالقوة.. إنه الآن أقوى من تحية.. أقوى منها إلى حد لم تعد تهمه.. لم تعد إلا شيئا يشفق عليه.. غريبة.. سنوات طويلة مرت وهو يحاول أن يكون أقوى من تحية.. ولكنه لم يستطع.. لا لأن تحية كانت أقوى منه إلى حد أنها أضعفته.. لا.. إن المرأة لا تصنع قوة الرجل ولا تصنع ضعفه.. إن حياة الرجل العامة هى التى تصنع قوته وضعفه.. الرجل الناجح فى حياته

العامة قوى فى حياته الخاصة.. قوى فى حبه.. أقوى من أى امرأة تعترض طريقه.. والرجل الفاشل فى حياته العامة، ضعيف فى حياته الخاصة.. ضعيف أمام أى امرأة.. إنه يندفع دون أن يدرى إلى تعويض فشله، بالتمسك بالمرأة التى تعيش فى خياله.. يصبح أكثر حاجة إليها منها إليه.. فيضعف أمامها.. ينهار.. يجرى وراءها.. يسفح شخصيته تحت قدميها.. وينحل.. والانحلال ليس إلا ظاهرة من ظواهر اليأس والفشل.. والفراغ.. وقد كان منحلا فى علاقته بتحية.. لأنه كان يحس بأنه إنسان فاشل.. فاشل فى ثورته. فاشل فى تحقيق مبادئه.. فاشل فى اختيار طريقه.. ولم يكن هناك من سبيل للتغلب على ضعفه أمام تحية، إلا بالتخلص من إحساسه بالفشل.. وقد تخلص اليوم من هذا الإحساس.. إنه اليوم يحس بقوته.. يحس بأنه إنسان ناجح.. ناجح بإيمانه.. بثورته.. بصلابته.

وعاد ينظر إلى الورقة الصغيرة، وقرأ الكلمات المكتوبة بقلم الحواجب:

إنت سافل..

وابتسم ابتسامة صغيرة، ثم طوى الورقة بين أصابعه وألقى بها فى درج الدولاب الصغير الموضوع بجانب سريره.. وبدأ يخلع ملابسه، وهو لا يزال يفكر فى تحية.. وهز رأسه كأنه لا يزال يتعجب من قصته معها.. لقد كان يحبها.. قطعا كان يحبها.. مرت أيام كثيرة وحبه لها حقيقة فى حياته.. فأين ذهب كل هذا الحب.. لماذا لا يشعر به الآن.. لماذا لا يتلهف على رؤيتها.. لماذا لا يخفق قلبه كما كان يخفق من قبل.. لعل الحب ككل شىء حى.. يمرض.. ويذبل.. ويموت.. وقد مات حبه.. متى مات؟ ربما منذ تزوجت تحية وأرادت أن تبقى على علاقتها معه فى الوقت نفسه.. لقد مات الحب يومها.. ولكنه ظل يحمل جثته فى صدره.. ودفعه إحساسه بفشله فى حياته العامة، إلى الاعتقاد بأن حبه لا يزال حيا.

وهز كتفيه..

لقد انتهت تحية من حياته.. انتهت إلى أين؟ لا يدرى.. الحياة

واسعة، وستجد تحية مكانا لها.. مكان لا يجلس فيه.
وأغمض عينيه وبين شفتيه ابتسامة هادئة.. وصورة تحية تتبخر من خياله كأنها روح تصعد إلى عالم آخر.. وبدأ يفكر من جديد فى حادثة المصنع.. وفى التحقيق الذى تجريه النيابة.. وفى زملائه الذين اجتمع بهم.. واستعرض وجوههم واحدا واحدا.. وكل منهم يعانى الحيرة والقلق.. هو وحده الذى لم يكن حائرا ولا قلقا.. كان يعرف مكانه.. كان يعرف طريقه..
ونام..
ونامت معه كل أعصابه..
وابتسامته الهادئة بين شفتيه..

●●●

واستيقظ فى الصباح نشطا كأنه استرد كل قواه التى ضاعت منه خلال سنوات عمره.. واغتسل وبدأ يعد إفطاره وهو يغنى.. وعقله سارح وراء حوادث الأمس.. يستعيدها.. ويستعيدها مرة ثانية.. ويحاول أن يحدد موقفه منها.
ودق جرس الباب.. وفتح وآثار الأغنية التى يغنيها لا تزال بين شفتيه.. ووجد أمامه جندى بوليس.. سلمه ورقة.. أطل فيها بعينين مبهورتين.. إنها طلب استدعاء أمام نيابة أمن الدولة لسماع أقواله.
لم يكن يدرى أنه سيطلب للشهادة بهذه السرعة.. ثم. من الذى دل النيابة عليه؟ كيف عرفت النيابة بموقفه من مشروع بناء المصنع.. لا يدرى.
وأغلق الباب.. واندفع يجمع كل الأوراق والمستندات التى سبق أن أعدها.. والمذكرات التى سبق أن كتبها.. ثم جلس إلى مائدة الرسم، وأخذ يكتب فى ورقة كل النقاط التى يمكن أن يثيرها أمام النيابة.. ولم يكن يفكر وهو يكتب فى مدير الشركة.. ولا فى رئيس مجلس الإدارة.. ولا فى رئيس لجنة الاتحاد القومى.. ولا فى أحد ممن أغلقوا أبوابهم فى وجهه، وشردوه فى الشارع.. لم يكن يحس بالحقد ولا بالشماتة.. كان مندفعا فى الكتابة وهو يشعر بأن عليه

مسئولية كبرى.. مسئوليته عن الثورة.. مسئوليته عن مستقبل البلد.. مسئوليته عن الحياة كلها.

وانتهى من إعداد النقاط التى ستقوم عليها شهادته.. ونظر فى ساعته.. لا تزال الحادية عشرة.. والموعد الذى حدده وكيل النيابة لسماع شهادته فى الخامسة مساء.

وقام وارتدى ملابسه.. ونزل وفى رأسه فكرة لا يستطيع أن يتخلص منها.. إنه يريد أن يرى المصنع بعد أن تهدم.. لا يدرى لماذا؟ ربما ليتأكد من أن ما سمعه قد حدث فعلا.. ربما ليرى أطلال عهد مضى.. ربما ليرى آخر صورة من صور فشله فى الحياة.. ربما.. لا يدرى.. ولكنه يريد أن يرى المصنع بعد أن تهدم..

وركب سيارة أجرة، وذهب إلى المصنع.. وقلبه مقبوض طول الطريق، كأنه ذاهب للتعزية فى صديق عزيز.. وكأنه على وشك أن يرى جثة صديقه، وقد انسحبت منها الحياة.. كومة باردة من اللحم والعظام.

ورأى المصنع من بعيد.. واشتدت خفقات قلبه.. وشىء يؤلمه فى صدره.. وأوقف السيارة ونزل منها.. وسار نحو المصنع فى خطوات بطيئة حزينة كأنه يسير وراء نعش.. ووقف جامدا.. عيناه زائغتان.. وفمه مفتوح.. والمنظر البشع يهز كيانه كله.. كتل الأسمنت المسلح واقعة بعضها فوق بعض.. وأسياخ الحديد تطل منها كأنها مصارين ثور مذبوح.. وسقف واقع.. ثقوب واسعة فيه، متجهة إلى السماء، كأنها شهقة الموت.. والأعمدة مائلة كأنها بقايا جثث مشنوقة.. وقد كان يتخيل أحيانا صورة مصنع مهدم، ولكن خياله لم يستطع أن يصل إلى هذه الصورة.. إلى كل هذه البشاعة.

وأحس بألم حاد فى عينيه، كأن تحت جفونه حبات من الرمل.. إنه يريد أن يبكى.. ولكن.. لماذا يبكى.. لماذا لا يفرح أليس هذا الهدم هو دليل انتصاره.. أليست كل هذه البشاعة دليلا على أنه كان على حق؟. دليلا على أن نظام الشركة كان فاسدا.. وعلى أن الإدارة كانت غشاشة؟ .. و..

ولكنه لا يستطيع أن يفرح.

لم يكن يريد أن يكون انتصاره على حساب كيان المصنع.. كان يتمنى لو أنه وجد طريقه لإنقاذ المصنع رغم كل هذا الفساد الذى يحيط به.. ومع ذلك.. عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم.. لعل هذا المصنع كان يجب أن يقع، حتى تتحرك الثورة لتنقذ بقية المصانع.. حتى تفيق الثورة إلى أعدائها الذين يلبسون ثوب الثوار.

واستدار ورأسه منكس وعيناه حزينتان.. وركب السيارة.. وأمر السائق بأن يتجه إلى مقر الشركة.

ودخل الشركة بخطا ثابتة كأنه عاد إلى مكانه.. إلى بيته.. واستقبله السعاة مهللين مرحبين.. وهمس صاخب يملأ الردهات.. همسات فى عيون الموظفين وفوق شفاههم.

واتجه إلى مكتب زميله رحمى، فاستقبله صارخا:

– سمعت آخر خبر؟

وقال حلمى فى هدوء:

– خير .

وقال رحمى وعلى شفتيه ابتسامة كبيرة:

– النيابة أصدرت أمراً بالقبض على المدير.. بات فى السجن امبارح.

ورفع حلمى عينيه إلى زميله فى دهشة.. ثم عاد وخفضهما، وظل صامتا.. وعقله يتخيل المدير وراء السجن.. ولم يتمالك نفسه من أن يبتسم.. ابتسامة فيها بعض الدهشة وقليل من الشماتة.. لقد كان المدير يسعى لإدخاله السجن بتهمة الشيوعية.. فدخل هو السجن بتهمة الإفساد.. بتهمة الغش.. بتهمة التفريط فى المصالح العامة.. إذن.. ليس الشيوعيون وحدهم هم الذين يدخلون السجن.. المديرون أيضا.. المفسدون.

وقال رحمى:

– ساكت ليه؟

وقال حلمى وابتسامته بين شفتيه:

- باستعجب..
وقال رحمى:
- النيابة بتحقق دلوقت مع رئيس مجلس الإدارة.. ويمكن يقبضوا عليه هو كمان.. تفتكر حايحصل إيه بعد كدة؟ قصدى حايعملوا إيه فى الشركة؟
وقال حلمى فى هدوء:
- مش مهم اللى حايتعمل فى الشركة.. المهم إيه اللى حايتعمل فى كل الشركات؟ المهم إن اللى حصل فى شركتنا مايتكررش تانى.
ورفع حلمى رأسه واستطرد قائلا:
- النيابة ماطلبتش حد من المهندسين؟
وقال رحمى:
- لأ . لسة..
وقال حلمى:
- طلبونى أنا..
وصاح رحمى فى دهشة:
- صحيح .. دول لازم عارفين كل حاجة.. وحاتقول إيه؟
وبدأ حلمى يروى لزميله ما أعده من أقوال وبيانات، ويستفسر منه عن بعض المعلومات التى تنقصه.. وبدأ باقى المهندسين يفدون إلى مكتب رحمى، ويشتركون فى المناقشة.. ويساهمون بمعلوماتهم.. والحماس فى عيونهم.. والرغبة فى الإصلاح تنبض بها ألسنتهم.. كلهم يبحثون عن عالم نظيف يعيشون فيه.
وظل حلمى معهم حتى موعده مع وكيل النيابة.. وذهب وهو يسير وعنقه متصلب كأنه يخشى أن يهتز رأسه فيقع منه ما فيه من أقوال.
وسكب كل ما فى رأسه أمام المحقق.
كان يتكلم كلاما هادئا مرتبا، وكل كلمة من كلماته مدعمة بالأرقام.. ولم يكن يتكلم عن المدير.. لم يكن يتهم أحدا.. ولكنه كان

يحكى قصة نظام من نظم العمل والإدارة.. نظام فاسد.

وقام وكيل النيابة واقفا يصافحه فى حرارة، قائلا:

- أنا متشكر جدا يا أستاذ حلمى.. المعلومات اللى قلتها وفرت على النيابة متاعب كبيرة.. تأكد إنك أديت للبلد خدمة كبيرة.

ونظر حلمى فى عينى وكيل النيابة، كأنه يسأله عما يمكن أن يحدث بعد هذا .. ثم تمتم:

- متشكر.. أنا عملت اللى علىّ..

وخرج..

خرج مرتاحا، كأنه أزاح عن صدره عبئا ثقيلا.

●●●

وذهب حلمى إلى مقهى عرابى، وجلس يشرب فنجان القهوة فى هدوء.. وكل شىء فيه هادىء.. أعصابه هادئة.. عقله هادىء.. قلبه هادىء.. عيناه هادئتان.

ووصل توفيق إلى المقهى يسير وهو يزاحم الناس بكتفيه، وجلس بجانب حلمى وهو مبهور الأنفاس كأنه كان يجرى، وقال قبل أن يحيى حلمى:

- إيه اللى حصل فى الشركة بتاعتكم ده؟

وقال حلمى مبتسما فى هدوء:

- سمعت إيه؟

قال توفيق بسرعة:

- سمعت إن مصنع النسيج وقع.. وأن النيابة بتحقق..

وقال حلمى دون أن يهتز:

- وقبضوا على المدير..

وفغر توفيق فمه، وقال بدهشة:

- قبضوا عليه إزاى.. دى أول مرة تحصل، إنهم يقبضوا على مدير.. أما راجل حظه وحش صحيح.

وقال حلمى وهو ينظر فى عينى توفيق:

- مش مسألة حظ.. ده راجل ارتكب جريمة..

وقال توفيق فى عصبية:

- جريمة إيه يا أخى.. ما الشركات كلها ماشية بالشكل ده.. وكل المبانى بتتبنى بالشكل ده.. لولا الراجل ده حظه وحش ما كانش المصنع وقع.. وانكشف.. ولو كان المصنع وقع بعد تلات سنين ولا خمسة.. ما كانش انكشف.. ولا كان حد قرب له.. دى مسألة حظ.

وقال حلمى:

- ما أظنش إن الشركات حاتفضل تشتغل كدة، بعد اللى حصل فى شركتنا.

وقال توفيق ساخرا:

- بكرة تشوف.. وحياتك ما فى حاجة حاتتغير..

وسكت حلمى..

واستطرد توفيق قائلا:

- المهم.. إنت عملت إيه؟

وقال حلمى:

- طلبونى فى النيابة.. وقلت كل حاجة..

وصاح توفيق فى دهشة:

- طلبوك فى النيابة؟!

وقال حلمى فى بساطة:

- أيوه..

وسكت توفيق برهة وهو ينظر إلى حلمى كأنه يراه من جديد، ثم قال:

- تعرف إنك ممكن تستفيد من الحكاية دى.. ممكن تبقى بطل.. إنت أول واحد اكتشفت تلاعب الشركة.. وأول واحد فضحها.. ووقفت فى وش المدير وفى وش مجلس الإدارة.. لغاية ما انطردت.. المهم تلاقى واحد من المسئولين يقدر موقفك ده وينطقك.

ونظر إليه حلمي في سخرية، وقال وسخريته تملأ ابتسامته:

- أنا مش عايز أتنطق.. كل اللى أنا عايزه إنى أرجع الشركة تاني.. زى ما كنت.. ومش حاتصل بحد من المسئولين.

وقال توفيق فى قرف:

- والنبى إنت عبيط.

وسكت حلمى إلى أن رشف من فنجان القهوة، ثم قال:

- وإنت عامل إيه فى الشركة بتاعتك؟

وقال توفيق كأنه يتباهى بذكائه:

- مطلع عين العضو المنتدب.. ده راجل حمار.. مؤكد حاينشال.

وقال حلمى ساخرا:

- علشان كدة مطلع عينه.. مش كدة؟

وقال توفيق وهو يفتعل الحدة:

- يعنى كنت عايزنى أسكت على البلاوى اللى عملها دى كلها؟ تصور إنه يعين موظف بالتجارة المتوسطة وكيل للحسابات.. طبعا الموظفين كلهم زعلوا.. جمعتهم.. وكتبنا مذكرة جماعية.. وطلعت بنفسى قدمتها له.. تعرف قال لى إيه؟ قال لى خليهم يروحوا للصاغ رفعت.. هو اللى معينه.. مارضيتش أزعله.. قلت له: حاضر يا أفندم.. الراجل أتجنن خلاص.. لسة مش قادر يصدق إن الصاغ رفعت طلع نصاب.. ده ضرورى حاينشال.. مؤكد حاينشال.

وقال حلمى:

- أنا خايف عليك لتنشال معاه..

وقال توفيق بحدة:

- فشر.. انشال ليه؟ لازم تعرف إن كل اللى بيشتغلوا فى الشركة بيأيدونى.. الموظفين، والعمال، والسعاة، والسواقين.. كلهم النهاردة واقفين معايا.. وأنا اللى باتكلم باسمهم.. وبنطالب بحركة إصلاح كبيرة.. وبنطالب بتغيير العضو المنتدب بعد ماثبت إن أى واحد نصاب ممكن يضحك عليه.. ماتتصورش قد إيه الموظفين واثقين فىّ، وبيحبونى.. ده اللى بيزعل مع مراته بييجى يشتكيلى..

اللى عايـز قرشين سلف أنا الـلى باسلفه.. ده أنا الأسـبوع ده بس، نص ماهيتى راحت فى السلف.

وقال حلمى:

- متهيألك إنك بالطريقة دى تقدر تنقذ نفسك.

وقال توفيق:

- أنا ما بانقذش نفسـى.. أنا بانقذ الشركة..

ونظر إليه حلمى نظرة فيها غيظ وتحد وقال فى حدة:

- تعـرف يا توفيق، الثـورة حاتحـقق كل أهدافهـا إمتى؟.. لـما مايبقاش فى البلد حد زيك.

وضـحك توفيق ضـحكة كبيرة جـوفاء، لها صـدى كصـدى الخبط على لوح من الصفيح، وقال متهكما:

- لما ما يبقاش فى البلد حد زيى، الثورة ماتقدرش تعمل حاجة.

وأدار حلمى ظهره له وسكت دون أن يرد.. وظل صـامتا إلى أن سمع توفيق يقول:

- محمد وصل..

ورفع حلمى عينيه، ورأى محمد مـقبلا.. يسير فى خطى ثقيلة.. مهموما.. عيناه مفتوحتان كأنه خائف.. وشفتاه جافتان.. وخصلات شعره مـهوشة فوق رأسـه.. وذقنه خضراء ووصل محـمد وجلس دون أن يقرئهما السلام.. اكتفى بابتسـامة باهتة متعبة ارتفعت فى مشقة إلى شفتيه.

وصفق حلمى يطلب له فنجانا من القهوة دون أن يسأله، ثم مال نحوه وقال فى حنان:

- أخبارك إيه يا محمد؟

وهز محمد كتفيه وقال بلا مبالاه:

- ولا حاجة .. طلقت سناء.

وقال حلمى كأنه ذعر:

- إمتى؟

وقال محمد:

- النهاردة الصبح..

وقال توفيق فى حدة:

- طلقتها إزاى؟

وقال محمد:

- ما أعرفش .. صادق بيه هو اللى عمل كل حاجة.. رحنا سوا لسناء.. وصممت على الطلاق.. ندهنا المأذون.. ومضيت ورقة الطلاق.

وابتسم محمد ابتسامته المتعبة الباهتة وقال فى سذاجة:

- تصور إن صادق بيه هو اللى جوزنا.. وهو اللى طلقنا..

وقال توفيق فى قسوته غير المتعمدة:

- ودفعت حاجة.. يعنى مؤخر، ولانفقة؟

وقال محمد من خلال ابتسامته:

- ما دفعتش حاجة.. هو كان لازم أدفع؟

وقال توفيق:

- افتكرت إنها ضحكت عليك ودفعتك حاجة..

وقال محمد فى سذاجة:

- تضحك علىّ ليه؟

وقال توفيق:

- افتكرت يعنى..

وحلمى صامت.. ينظر إلى محمد بعينين مشفقتين ملؤهما الحنان.. ثم قال فى صوت خافت:

- هى سناء حاتولد إمتى؟

وقال محمد:

- بتقول إنها حاتولد اليومين دول بكرة.. بعده..

وقال حلمى:

- طيب ماكنتم تأجلوا الطلاق لغاية ما تولد..

وقال محمد كأنه يردد صوت إنسان آخر:

- هى صممت..

وقال توفيق:

- بكرة تولد وتطالبك بنفقة .. و..

وقاطعه حلمى قائلا:

- بلاش الكلام ده يا توفيق..

ثم التفت إلى محمد واستطرد قائلا:

- اسمع يا محمد.. أنا شايف إن الطلاق ده من مصلحتك زى ماهو فى مصلحة سناء.. المهم إنك تبتدى تاخد بالك من نفسك.. وتعود نفسك تعيش من غيرها.. ترجع زى ماكنت.. تضحك.. وتمثل.. وتمثل كتير.. إنت فنان كبير يا محمد.. لازم تعرف كدة.

ورشف محمد رشفة واحدة من فنجان القهوة الذى أتى به الجرسون، ثم قام واقفا، وقال كأنه لم يسمع كلام حلمى:

- أنا ماشى بأه..

وقال توفيق وحلمى فى نفس واحد:

- على فين؟

وقال محمد من خلال ابتسامته المتعبة:

- رايح أشرب كاس..

وقبل أن يتكلم حلمى أو توفيق، نزل محمد من فوق رصيف المقهى واختفى فى زحام الشارع.

٢٢

كانت الساعة التاسعة صباحا، ومحمد لا يزال نائما فى الشقة المخصصة له ببيت العائلة فى العباسية.. وصوت طرقات على باب الشقة تملأ أذنيه، واعتقد بأنه يحلم، ولكن الطرقات توالت، وظلت تتوالى حتى فتح عينيه، وانتبهت اذناه إلى أن هناك طرقات على الباب فعلا.. فقام من سريره وعيناه نصف مغمضتين، وشفتاه جافتان كأن الخمر التى شربها قد حرقتهما وأحالتهما إلى قطعتين من الحطب.. وسار متعثرا.. رأسه مدلى على صدره، وفتح الباب، ورفع عينيه.. ورأى أمامه صادق بيه.

وقال وصوته مخنوق كأن فى زوره دخانا :

– أهلا صادق بيه.

وقال صادق بيه وابتسامته كبيرة تملأ وجهه البض :

– سناء ولدت يا محمد.

ونظر إليه محمد فى غباء كأنه لا يفهم ما دخله فى هذا الموضوع.. واستطرد صادق بيه قائلا :

– جابت ولد.. مبروك.

وابتسم محمد ابتسامة بلهاء وقال فى سذاجة :

– صحيح ؟

وقال صادق بيه وهو يدخل من الباب :

– صحيح يا محمد.. سناء ولدت النهاردة الساعة خمسة الصبح، فى مستشفى الدكتور شكرى.

وقال محمد وقد بدأ يفيق من ذهوله :

- وجابت ولد ؟

وقال صادق بيه :

- أيوه.. الولادة كانت متعسرة شوية.. إنما الحمد لله.

وقال محمد :

- يعنى أنا دلوقت بقيت أب ؟

وقال صادق بيه :

- أب جدا.. ودلوقت عايزك تلبس هدومك، وتيجى معايا المستشفى.. سناء عايزة تشوفك.. وعلشان كمان نعمل الاجراءات لاستخراج شهادة الميلاد.

وهز محمد رأسه، كأنه يتعجب.. ثم ترك صادق بيه يختار المكان الذى يجلس فيه.. وسار إلى المطبخ وأفرغ لنفسه كوبا من الماء شربه إلى آخره كأنه يطفىء نارا فى جوفه... ثم اتجه إلى الحمام وهو يتمتم بشفتيه كأنه يحادث نفسه، وخلع ثيابه، ووقف تحت الدش.. وقف طويلا.. والماء ينسكب عليه دون أن يشعر به.. عقله مشغول بأشياء كثيرة لا يفهمها، ولا يحاول أن يفسرها.. كأن هذا العقل المشغول ليس عقله.. وكأن هذا الجسد الواقف تحت الدش ليس جسده.

وظل واقفا تحت الدش حتى سمع صوت صادق بيه من خلال باب الحمام، يصيح :

- جرى إيه يا محمد؟.. إحنا اتأخرنا قوى.

ولم يرد عليه لأول وهلة.. ولكن صادق بدأ يطرق الباب.. فأدار محمد صنبور الدش، وقال فى هدوء :

- خلاص.. أنا خارج.

وبدأ يلبس ثيابه، وخرج من الحمام ووجد صادق بيه واقفا أمامه، ينظر إليه فى ضيق، وقال وهو يدقق فى وجهه :

- كل ده.. ماحلقتش دقنك ؟

ومر محمد بأصابعه على ذقنه، وقال فى صوت تائه :

- لازم يعنى ؟

وقال صادق بيه :

- لأ.. مش لازم.. بس البس قوام.
ولبس محمد ثيابه دون أن يلتفت إلى صادق بيه ودون أن يحاول محادثته، وصادق بيه ينظر إليه بين الحين والحين كأنه ينظر إلى مخلوق عجيب.
وركبا سويا سيارة صادق بيه.. وظلا صامتين إلى أن قال صادق بيه :
- تعرف إن الولد شبهك تمام يا محمد.. من أول يوم بان الشبه.
وابتسم محمد دون أن ينظر إلى صادق بيه.. عيناه سارحتان كأنه يرى بهما ابنه.
وعاد صادق بيه يقول :
- وحاتسميه إيه بأه ؟
والتفت إليه محمد، وقال :
- صحيح.. لازم نختار له اسم.. اسم حلو.. تفتكر نسميه إيه؟
وقال صادق بيه :
- أنا نفسى تسميه صادق.. على اسمى.. إيه رأيك ؟.
ونظر إليه محمد نظرة قوية لم تتعودها عيناه، وقال بسرعة :
- لأ.. اسم صادق، دمه تقيل.. مايلقش إلا عليك.
وقال صادق وهو يبتسم ابتسامة يوارى بها غيظه :
- بلاش يا سيدى.. ولو أن نفسى أن حد من أصحابى يسمى ابنه على اسمى.
وقال محمد فى صوت جاد لم يتعوده :
- نسأل سناء الأول.
وقال صادق بيه :
- سناء مستنية لما تسألك.
ونظر محمد إلى صادق بيه، وسكت.. كأنه قرر بينه وبين نفسه أن يحتفظ باسم ابنه سرا لا يطلع عليه صادق بيه.
ووصلا إلى المستشفى.
وصعد محمد السلم وقلبه يرتجف فى صدره. لا يدرى لماذا؟ ولكنه يحس بأن شيئا كبيرا قد حدث.. حدث له.. ويحس بهذا

الشيء الثقيل يزحف على صدره، ويضغط على أنفاسه.. ويحس بكتفيه ثقيلتين.. تؤلمانه.

وسار وراء صادق بيه فى ردهات المستشفى، ورائحة الهدوء تملأ أنفه، وتثير أعصابه.. ورموشه ترتعش فوق عينيه كأنه ينفض برموشه هذا الهدوء.. وشفتاه منفرجتان عن تعبير لا هو بالابتسام ولا هو بالغضب، ولا هو بشيء.

ودخل وراء صادق بيه فى حجرة من حجرات الدرجة الأولى.. ووقف عند الباب كأن قلبه وقف معه.. ومد عينيه إلى سناء وهى راقدة فوق السرير.. وجهها شاحب منهك.. وعيناها مغمضتان.

واقترب صادق بيه من الفراش وقال فى صوت حاول أن يكون رقيقا :

– أنا جبت محمد يا سناء.

وفتحت سناء عينيها.. ونظرت إلى صادق نظرة عابرة.. ثم أدارت رأسها فوق الوسادة في ضعف، والتفتت إلى محمد.. واستقرت عيناها فوق وجهه.. عيناها فيهما حب كبير.. وابتسمت ابتسامة واسعة هفتانة.. وهمست :

– محمد !

وظل محمد واقفا مكانه ينظر إليها فى ذهول كأنه يبحث فى وجهها عن ابنه.

ومدت له سناء يدها، وعادت تهمس :

– قرب منى يا محمد.

واقترب محمد فى خطوات زاحفة بطيئة كأنه يخشى أن يتكسر شيء تحت قدميه.. ولم يمد يده ليمسك بيد سناء.. خيل إليه أنه لا يستطيع أن يلمسها.. ظل ينظر إليها من فوق قامته الطويلة، وقلبه معلق فى حلقه.

والتفتت سناء إلى الجانب الآخر.. وأزاحت الغطاء عن المولود الراقد بجانبها فوق ذراعها وقالت في صوت ضعيف :

– ابنك يا محمد.

وارتجفت رموش محمد فوق عينيه.. ومد بصره نحو الشيء

الصغير الملفوف فى الملاءات البيضاء.. ولم ير شيئا.. فعاد ينظر إلى سناء كأنه يسألها أين هو ابنه؟ ثم لف حول الفراش ووقف عند الجانب الآخر من السرير، ولكنه لم ينظر إلى ابنه.. ظل ينظر إلى سناء، وفى عينيه دهشة، وحيرة وبهرة.. كأنه لا يستطيع أن يصدق.. لا يستطيع أن يصدق أن سناء الرقيقة، الجميلة، تستطيع أن تفعل كل ذلك.. تستطيع أن تلد.. أن تكون كبقية النساء.. كأمه.. وأخته.. وكنساء الجيران.. مستحيل.. إنه لم يكن يتصور هذا.. لم يخطر على باله يوما أن سناء كبقية النساء.. حتى فى الأيام التى كانت حاملا خلالها.. لم تكن الحقيقة واضحة أمام عينيه تماما.. كان يحس كأن كل شىء يحدث، هو مجرد تمثيل.. مجرد فصل من فصول الرواية الطويلة.

وهمست سناء فى صوتها الضعيف، وهى تقبل وليدها بعينيها، وتلفه بابتسامتها الهفتانة :

– بص يا محمد.. طابع الحسن أهه.. طابع الحسن بتاعك.

ولم ينظر محمد إلى ابنه.. التفت إلى صادق بيه كأنه يستغيث به.. ثم أدار رأسه فى بطء، وتردد أشبه بالخوف.. وقلبه يدق.. ورموشه ترتعش.. وخصلة شعره تهتز فوق جبينه.. وشفتاه جافتان، يحس بجفافهما كأنه يحمل فوق وجهه كمامة من الحديد.. ثم بدأ يسكب عينيه فوق وجه الطفل، كأنه سيواجه بهما شيئا كبيرا.. شيئا مخيفا.

ورأى قطعة الحياة ملفوفة فى اللفائف البيضاء، كأنها شق من نور يبدو فى السماء.. واشتدت الدهشة فى عينيه.

هل هذا ابنه ؟

هذا الشىء الصغير.. هو الذى جعل منه أبا ؟

ولكن لماذا.. ما ذنبه فى كل هذا .. ما ذنبه ليصبح أبا؟

وليكون له ابن.. إنه لم يرد يوما أن يكون أبا أو يكون له ابن.. كل ما أراده أن يكون مع سناء.. لماذا لم يتركه الله مع سناء.. وحدهما.. فى الحياة كلها.. لماذا يعقد الله الحياة من حوله.. ويفرض عليه مخلوقا غريبا.. ثم يقول له : هذا ابنك.. كأنه يعاقبه به.. يعاقبه

على لحظة سعادة.. إن الله لا يعاقب الناس على أخطائهم، ولكنه يعاقبهم على سعادتهم.

وظل ينظر فى وجه ابنه.. الوجه الصغير.. والرأس الأبيض وقد انتثرت فيه شعيرات فى لون البن الفاتح، كأنها عفار الحياة بدأت تحط على رأس الطفل.. وكف صغيرة.. صغيرة جداً.. كقطعة البسكويت.. وأصابع طرية كأوراق الورد، دقيقة كحبات الفستق.. تتحرك فى الهواء كأنها تبحث عن مفاتيح القدر.

عجيبة.. هكذا تبدو الحياة.

إنه لم ير الحياة تبدأ، إلا اليوم.

وحاول أن يبتسم فى وجه ابنه.. ولكنه لم يستطع.. إنه يشعر كأنه واقف أمام شخص كبير مهيب.. واقف أمام الحياة نفسها.. يشعر بأن ابنه أكبر منه.. وأقوى.. ويشعر بالخوف.. والارتباك.. والحياء.

ودخلت إحدى الممرضات تبتسم فى نشاط، قائلة :

- ازيك دلوقت يا سناء ؟

وابتسمت لها سناء، ثم قالت وهى تومىء بعينيها إلى محمد :

- ده أبوه يا نعيمة.

وزغردت ابتسامة كبيرة فوق شفتى نعيمة وقالت لمحمد :

- مبروك يا بيه.. ده إنت جبت أجمل مولود فى المستشفى كلها.. يمكن فى الدنيا كلها.. ده وزنه أربعة كيلو.. ما شاء الله.

ولم يرد عليها محمد.. إنه لا يستطيع أن يعى شيئاً.. وفمه مفتوح فى بلاهة.

وحملت الممرضة الطفل من جانب سناء ثم اتجهت به ناحية محمد.. واتسعت عينا محمد.. اشتد فيهما الخوف.. ومدت الممرضة ذراعيها بالطفل إليه.. وبحركة تلقائية، مد ذراعيه والتقط الطفل، كأنه خشى عليه أن يقع.. أن ينكسر.

وشعر بالطفل ثقيلا بين ذراعيه.

ثقيلا جداً.

إنه يشعر بثقله فى كيانه كله.. ثقل فى صدره.. وفى رأسه.. وفى عينيه.. وفى ساقيه.

وحاول مرة ثانية أن يركز عينيه في وجه الطفل.. وأن يبتسم.. وأن يقبله.. وأن يضمه إلى صدره.. ولكنه لم يستطع شيئا.. أخذ ينظر إلى سناء ثم إلى صادق بيه.. والطفل بين ذراعيه.. كأنه يستنجد بهما.. كأنه يشكو لهما.. كأنه يتوسل.

وابتسمت له سناء في حنان واشفاق كأنها تعلم كل ما يدور بخلده، وكل ما يحس به.. ثم قالت للممرضة في صوتها الهفتان :

– خديه منه يا نعيمة.

وحملت نعيمة الطفل، وأعادته إلى جانب أمه.. ومحمد يتتبعه بعينيه المذهولتين.. ثم فجأة سقط على المقعد المجاور للفراش.. وبكى.

بكى بصوت عال.

بكل أعصابه.

وكله يرتعش.

وصرخت سناء كأنها أفاقت من ضعفها.

– مالك يا محمد ؟

إنها أول مرة ترى فيها محمد يبكي.. أول مرة يراه فيها أحد يبكي.. أول مرة يبكي فيها.

وعادت سناء تصرخ، وهي تحاول أن تقاوم آلامها وتنزل من الفراش.

– محمد.. مالك.. حصل إيه.. إنت زعلان علشان خلفت.. مش ده ابنك اللي كنت مستنيه ؟

ومحمد يبكي.

وكله يرتعش.

واقترب منه صادق بيه، وأخذ يربت على كتفه قائلا :

– جرى إيه يا محمد.. ده كان لازم تكون بتضحك دلوقت.. إنت خلاص، بقيت أب.. حد طايل ابن حلو كدة.. ولا بتعيط من الفرحة ؟

ورفع محمد رأسه.. ووجهه يلمع كأن الدموع قد غسلت عنه كل همومه.. وأخذ يدير عينيه بين سناء وصادق ثم انتفض واقفا، قائلا في عزم، أقرب إلى عناد الأطفال :

– أنا حاأقول لأختى.. حاأروح أجيب أختى.
وانطلق خارجا من الغرفة.. وصرخت سناء وراءه :
– محمد.
ولم يقف لصرختها.
وجرى وراءه صادق بيه، قائلا :
– ماقلتليش.. حاتسميه إيه ؟
والتفت إليه، وقال وصوته الرفيع يحمل رنة جديدة.. رنة التحدى :
– حاسميه أحمد.. على اسم أبويا.
ثم فتح ساقيه على آخرهما، وسار خارجا من المستشفى كأنه يجرى.. ومد يده فى جيب بنطلونه ليخرج منديله يمسح به بقايا دموعه.. ولكنه لم يجد منديلا فى جيبه.. نسى أن يحمل منديلا قبل أن يخرج.. ومسح بقايا الدموع بأصابعه.. وسار وهو يحس بمجرى الدموع لا يزال جافا فوق وجهه.. وعيناه تلمعان.. فيهما شىء جديد.. ووجه الطفل يهتز أمامه.. كأنه يسبقه ويشده إليه.. وابتسم محمد.. ابتسم للوجه الصغير الذى يتراقص فى خياله.. وفى ابتسامته احساس جديد بالثقة.. كأنه يطمئن ابنه على حياته.. كأنه يعده بأن يحمل مسئوليته.
واندهش محمد عندما وجد نفسه يحس بالمسئولية.
وأحس بالثقل يزحف على صدره.. ولكنه لم يهز كتفيه كعادته لينفض عنهما إحساسه بالمسئولية.. لينفض عنهما هذا الثقل.. كتفاه ثابتتان.. وفى صدره نوازع من التحدى والتصميم.. ولم يكن يحس بأنه يتحدى أحدا.. لا سناء، ولا صادق بيه.. ولكنه أحس بأنه يتحدى نفسه.. يتحدى طبيعته.. يتحدى كل حياته.
ووجه الطفل يتراقص فى خياله.
وبدأ يرى نفسه، كما لم يرها من قبل.. إنه لم ير نفسه من قبل أبدا.. لم يكلف نفسه أن يراها.. ليعرفها.. ليسيطر عليها.. كانت نفسه هى التى تقوده.. ولكنه الآن يجب أن يقود نفسه.. أن يشدها بلجام قوى ويلوى عنقها.

وأحس بأنه مقدم على تضحية كبيرة.

تضحية بنفسه.

تضحية من أجل هذا الشيء الصغير الغريب، الذى التقى به هذا الصباح لأول مرة.

ولكن لماذا يضحى من أجله ؟

لماذا يلقى بنفسه فى أتون الهم، من أجله ؟

وحاول أن يتمرد. أن يتمرد على منطقه الجديد.. ولكن صورة الطفل عادت تتراقص فى خياله.. الوجه الصغير.. والرأس الأبيض وقد انتثرت فيه شعيرات بيضاء، كأن عفار الحياة قد حطت عليها.. والكف الصغير كقطعة البسكويت.. والأصابع الضعيفة التى تبحث عن مفاتيح القدر.. وخيل إليه أن الطفل يبتسم له.. إنه يضحك.. ويهز ذراعيه وساقيه فى الهواء.. كأنه يسبح فى سماء الحياة.

وابتسم محمد.

وقلبه يخفق.

وركب الأتوبيس، وظل ابتسامته لا يزال معلقا بين شفتيه.. ابتسامة وقورة جادة، تقطر حنانا، وحبا.. ابتسامة إنسان وهب نفسه لشىء كبير.. ويسير بخطى سريعة، نحو مذبح التضحية.. وهو لا يحاول أن يقيس مدى هذه التضحية.. ولكنه مستسلم لها.. كل ما يحس به أنه سعيد.. سعادته ليست على شفتيه.. ولكنها فى أعماقه.. إنه سعيد أكثر من سعادته بالقصص التى يمثلها.. أكثر من سعادته بخياله.. أكثر من سعادته بحبه لسناء.. أكثر من سعادته بالليالى التى قضاها سكران، وهو فى سعادته يعلم أنه يضحى.. إنه يذبح نفسه.. إنه مقدم على طريق الشوك.. ولكنه سعيد.. سعيد بهذا الشىء الصغير، الغريب الذى التقى به هذا الصباح.

ونزل من الأوتوبيس عند شارع محمد فريد.. وسار نحو مسرح فرقة النهضة، وقد قرر أن يقابل مدير الفرقة مرة ثانية.. ولكنه ما كاد يصل إلى باب المسرح حتى عدل عن مقابلة المدير.. ودخل المقهى المجاور وجلس إلى مائدة منعزلة، وطلب فنجانا من القهوة.. وبدأ يجرب أن يفكر فى هدوء.. لأول مرة.

ماذا حدث له ؟

لقد أصبح أبا.

ماذا يعنى هذا ؟

معناه أنه أصبح مسئولا عن شخص آخر.. كل الآباء مسئولون عن أشخاص آخرين.. وقد كان أبوه مسئولا عنه.. وظل مسئولا عنه حتى بعد مماته.

ماذا تعنى مسئولية الأب ؟

تعنى القدرة على توفير الحياة.

كيف يوفر الحياة لابنه ؟

بأن يمتلك وسائل توفير الحياة.. أن يضمن لنفسه دخلا ثابتا يستطيع أن يضمن به أيام ابنه.. كل يوم له ثمن يجب أن يدفعه.. والحياة كلها فلوس.. تماما كما كانت تقول سناء.. وكما قال له حلمى.. وصادق بيه ليس شيئا إلا فلوس.

كيف يضمن الفلوس.. كيف يضمن ثمن أيام ابنه ؟

بأن يعمل.

وما هو عمله ؟

ممثل.

وشعر بخوف مفاجىء عندما تذكر أنه ممثل.. إنه فعلا ممثل. ولكنه الآن يرى نفسه كما لم يرها من قبل.. يرى أنه يعيش للتمثيل لا به.. يرى أن التمثيل عنده ليس حياة ولكنه فن.. ليس احترافا، ولكنه اندفاع.. ليس واقعا ولكنه خيال.. وهو يريد أن يوفر لابنه الحياة لا الفن.. الواقع لا الخيال.. وهو لا يستطيع أن يضمن لنفسه دخلا ثابتا من التمثيل.. إنه يعرف نفسه.. سيعود كما كان إذا ظل ممثلا.

يجب أن يبحث لنفسه عن عمل آخر.

وانقبض قلبه كأن يدا قاسية عصرته.. وأحس بنوبة التمرد تعاوده.. لماذا يترك التمثيل.. لماذا يهجر حياته.. من أجل مخلوق غريب التقى به هذا الصباح.. لماذا لا يترك هذا المخلوق لأمه..

وينتهى.. إن أمه تحمل مسئوليته أكثر مما يحمّلها.. وهى قادرة على حملها أكثر منه.

وفجأة.. رأى وجه الطفل فى خياله.. يبتسم له.. ويده الضعيفة تهتز فى الهواء كأنها تبحث عن مفاتيح القدر.

وشعر بشىء يشكه فى صدره.. شىء حاد.. كاللوم.. كتأنيب الضمير.

لا.. إنه لا يستطيع أن يترك ابنه.

لا يستطيع أبدا.

أهون عليه أن يترك حياته.

وهز رأسه فى عجب، كأنه يستطيع أن يصدق نفسه.. لا يستطيع أن يصدق كل هذه الأحاسيس الجديدة التى تملأ صدره.

وقام فجأة من مقعده، وخرج من المقهى، وسار إلى شارع سليمان باشا.. وصعد إلى شقة حلمى.

وفتح له حلمى الباب، وهو بالقميص والبنطلون، قائلا :

– أهلا محمد.. خش واقعد ساكت.. أنا مشغول.. باكتب تقرير عن مشروع جديد لتنظيم شركات المقاولات.

ونظر إليه محمد مبتسما، كأنه لم يسمع ما قاله، وقال وهو يجلس على طرف الأريكة العريضة :

– أنا جبت ولد.

وصاح حلمى :

– صحيح ؟ مبروك..ألف مبروك.. وسناء إزيها ؟

وقال محمد :

– كويسة.

ونظر إليه حلمى، وقد اكتسى وجهه بعلامات الجد، وقال :

– وناوى تعمل إيه ؟

وهم محمد بأن يتكلم، ولكن حلمى لاحقه مستطردا :

– اسمع يا محمد.. لازم تفهم إن دى مسئولية كبيرة.. إنت اللى مسئول عن ابنك. مش سناء.. مش ممكن تسيب الولد لها، وتتخلى

عنها.. مش ممكن، ده ابنك وحايحمل اسمك.. و..

وقاطعه محمد قائلا :

- ما أنا جاى لك علشان كدة.

وقال حلمى :

- فكرت فى إيه ؟

قال محمد :

- فكرت أتوظف.

وبهت حلمى وقال كأنه لا يصدق :

- تتوظف فين ؟

وقال محمد فى بساطة :

- فى أى شركة.

وقال حلمى :

- ليه.. إنت ممثل.. وممثل كويس.. وتقدر تكسب كتير من التمثيل.

وقال محمد مبتسما :

- أنا ممثل صحيح.. إنما ما أقدرش أكسب من التمثيل.

وقال حلمى :

- ليه ؟

وقال محمد :

- أنا عارف نفسى كويس.. يمكن ما أقدرش أبطل تمثيل.. إنما مش ممكن أضمن لنفسى دخل ثابت منه.. علشان كدة فكرت أتوظف فى أى شركة.. أضمن ماهية.. وبرضه أبقى أمثل.. وحنى حلمى رأسه، وقال فى صوت خفيض :

- بس إنت ما كملتش يا محمد.. ماخدتش البكالوريوس بتاعك.. ولما حاتتوظف، حياخدوك على إنك بالتوجيهية.. يعنى ماهيتك مش حاتزيد على خمستاشر جنيه.

وقال محمد فى بساطة :

- كويسين.. أحطهم فوق الخمستاشر اللى بيطلعولى.. يبقوا تلاتين.

وسكت حلمى قليلا، ثم قال :

- وحاتاخد الولد ؟

وقال محمد كأنه صمم :

- يتربى مع أولاد أختى.. ومعايا.

وقال حلمى :

- وسناء حاترضى ؟

وقال محمد :

- مش عارف.. إنما لازم ترضى.

وقال حلمى وعلى شفتيه ابتسامة كبيرة :

- طيب ما ترجعوا لبعض.. ما دام حياتك حاتتغير بالشكل ده.

وقال محمد وحاجباه مقطبان كأنه ينظر بهما خلال ضباب :

- مش عارف.. ما اتكلمناش.

وقال حلمى :

- أنا حاروح معاك.. واقنعها.

وقال محمد :

- المهم دلوقت إنك تلاقى وظيفة.

وقال حلمى وهو ينظر إليه فى إشفاق :

- حاضر.

وقام محمد واقفا، وقال وهو يتجه إلى الباب :

- أنا ماشى.. وبالليل أشوفك على القهوة.

وقال حلمى :

- أنا مش نازل بالليل.. الريس حايخطب الليلة.. وحاقعد اسمعه هنا.. أنا متأكد إنها خطبة مهمة.. متهيألى حايقول حاجات كتير.. فوت علىّ نسمع الخطبة سوا.

ونظر إليه محمد فى عجب.. كأنه لا يفهم ما يعنيه.. لا يفهم لماذا يهتم الناس بسماع خطاب جمال عبدالناصر.. ما دخل جمال فى مشكلته.. ومشكلة ابنه ؟

٢٣

جلس حلمى بجانب الراديو لسماع خطاب جمال عبدالناصر.. مرتديا القميص والبنطلون.. وفي قدميه شبشب.. وفى صدره لهفة.. لهفة كبيرة.. لهفة أكبر من لهفته فى كل مرة تحدث فيها عبدالناصر.. إنه يحس بأن جمال عبدالناصر سيتحدث هذه المرة إليه شخصيا.. يحس كأنه على موعد معه لمناقشة كل مشاكله.

ودق جرس الباب.. وقام حلمى متأففا.. إنه لا يريد أحدا.. يريد أن يتفرغ بكل حواسه لسماع الخطاب.. وفتح الباب.. ودخل توفيق، قائلا وابتسامته الواسعة اللزجة ترفع شاربه وتلصقه بأنفه :

– محمد قال لى إنك حاتقعد فى البيت الليلة، تسمع خطبة الريس.. قلت آجى أسمعها معاك.

وقال حلمى بلا ترحيب :

– وفين محمد ؟

وقال توفيق وهو يلقى بنفسه على الأريكة العريضة :

– جاى دلوقت.. راح يزور سناء.

وقال حلمى :

– طيب اقعد ساكت.. ماتتكلمش ولا كلمة.. أنا عايز اسمع خطبة الريس على رواقة.

وظل توفيق وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة :

– مش تسمع أخبارى الأول ؟

وقال حلمى بتأفف وهو يجلس على المقعد بجانب الراديو :

– سمعنى أخبارك يا سيدى.

وقال توفيق وابتسامته تزداد اتساعا :

- العضو المنتدب بتاعنا انشال.. انطرد.. راح فى ستين داهية.. أنا كلمتى ماتنزلش الأرض.. قلت حاينشال.. انشال.

وقال حلمى بلا حماس :

- وإنت عملوا فيك إيه.. ماانشلتش إنت كمان ؟

وقال توفيق محتجا :

- فشر.. ده بالعكس.. العضو المنتدب الجديد، قعد معايا النهاردة بعد الضهر أربع ساعات.. إنما ده باين عليه راجل فاهم شغله كويس.. وحازم.

وقال حلمى ساخرا :

- يعنى نفس الحكاية بتتكرر.

وقال توفيق :

- حكاية إيه ؟

وقال حلمى :

- حكايتك.. كنت بتشتغل مع صاحب الشركة وطاير بيه السما.. وبعد ما اتأممت الشركة، لعنت أبو صاحبها.. وابتديت تطير مع العضو المنتدب.. وبعد ما انشال العضو المنتدب.. لعنت أبوه.. وطرد مع العضو المنتدب الجديد.

وضحك توفيق كأنه تلقى كلمة اطراء، وقال :

- المهم إنى أفضل طاير.

وقال حلمى فى مرارة :

- ما طار طير وارتفع، إلا كما طار وقع.. بكرة تقع يا شاطر.

وقال توفيق :

- ماتخافش.. و...

وقاطعه حلمى قائلا :

- والله خايف.. مش ممكن تفضل تنافق كدة على طول من غير ما تقع.

وقال توفيق وهو يفتعل لهجة الاحتجاج :

- يا حلمى يا أخويا خليك واقعى.. ده ما اسموش نفاق.. دى

اسمها شطارة.. الشاطر هو اللى يعرف يخدم فى كل الظروف.. يعنى النهاردة لما قعدت مع العضو المنتدب الجديد، كان حايشيلنى شيل.. قدمت له مشروع كامل بتنظيم الشركة.. ومشروع خطة لخمس سنوات يزيد فيها الانتاج الضعف.. حاجات مققت فيها عنيه، وسهرت عليها ليالى.. غير إنى عرضت عليه جميع مشاكل الموظفين اللى فوضونى إنى أعرضها.. يعنى أنا راجل باشتغل.. وكل رئيس عايز جنبه واحد يشتغل.. البلد كلها عايزة ناس بتشتغل.. وبعد كدة يتقال عليهم منافقين، ولا انتهازيين.. مش مهم.. ده كلام الناس اللى ما بتشتغلش.. كلام الناس الفاشلين.

وقال حلمى :

– مش كفاية إنك تشتغل.. لازم تكون مؤمن.. مخلص.. علشان شغلك يحقق الهدف.. اللى زيك زى ما هو يقدر يشتغل، يقدر يودى البلد فى داهية.. ولولا إن ما عندكش مبادىء ماكنتش تعاونت مع النصاب اللى عمل نفسه ضابط مخابرات، وكان حايودى البلد فى داهية..

وأدار حلمى مفتاح الراديو.. وارتفع صوت الناس المجتمعين فى ميدان الجمهورية لسماع خطبة الرئيس..

واستطرد حلمى قائلا :

– وحياة أبوك تسكت بأه.. الريس حايتكلم.

ودق جرس الباب.. وقام توفيق ليفتح.

ودخل محمد.. متعبا.. مهدما.. محنى الظهر.. كأن الجهد الذى بذله طوال يومه قد استنزف كل ما بقى فيه.. وجلس على الأريكة وهو يتنهد كأنه شيخ أنهكته السنين.. والتفت إليه حلمى، وقال وهو ينظر إليه نظرة اشفاق :

– إزى سناء ؟

وقال محمد وهو منكس الرأس، وتهليل الجماهير المنطلق من الراديو يملأ أذنيه :

– قلت لها على اقتراحك.. ومارضيتش.

وقال توفيق :

– اقتراح إيه ؟

وقال محمد فى يأس :

– إننا نرجع لبعض.. قلت لى إننا مابقناش ننفع لبعض.. وإنها ناوية تشتغل.. وتوهب كل حياتها لمستقبلها.

وصرخ توفيق :

– ترجع لها إزاى.. يا أخى ده إحنا ما صدقنا إنك خلصت منها.. ما تعقل بأه يا محمد.

وظل محمد ساكتا.

وقال حلمى والشفقة ملء عينيه :

– ما كانش حقك تقول لها دلوقت يا محمد.. كنت استنى لما تخرج من المستشفى.

وقال محمد وهو يتنهد :

– آدينى قلت لها وخلاص.

وقال حلمى :

– وكلمتها عن الولد ؟

قال دون أن يرفع رأسه :

– أيوه.. وقالت إنها حاتخليه معاها.. وإذا اشتغلت، ماعندهاش مانع تبعته لأختى.

ثم رفع رأسه ونظر إلى حلمى قائلا وفى عينيه تصميم :

– إنما إذا قعد معاها ولا معايا.. أنا لازم أشوف وظيفة.. أنا اللى حاصرف عليه.

وقال حلمى :

– حاضر.

وقال توفيق :

– وظيفة إيه يا محمد.. ده إنت تقدر تكسب من التمثيل دهب.

والتفت إليه محمد والتصميم لا يزال فى عينيه، وقال :

– أنا لازم أتوظف.. لازم أضمن دخل ثابت.. و..

وارتفع صوت المذيع يقدم الرئيس جمال عبدالناصر.. وقاطع حلمى صديقه قائلا :

- اسكت دلوقت يا محمد.. ماحدش يتكلم يا جماعة.

وبدأ الرئيس يتكلم.

ومد حلمي عنقه.. وعيناه تبحلقان في جهاز الراديو كأنهما تثقبانه لتصلا من خلاله إلى الرئيس.. وأحاسيسه كلها تجمعت في أذنيه.

ومحمد ينظر إلى حلمي بعينين دهشتين ثم يعود وينظر إلى جهاز الراديو.. وأذناه سارحتان يلتقط بهما بعض كلمات الرئيس، ويغفل البعض.. وضجيج الجماهير يملأ رأسه.. ويحس بنفسه بعيدا عن كل هذا.. بعيدا عن الرئيس.. بعيدا عن الجماهير.. إنه يقف متفرجا على موكب، ليس له مكان فيه.. وهو يحب الرئيس.. ولكنه رئيس.. رئيس الجمهورية.. زعيم.. شيء كبير.. كبير جدا.. ولا يستطيع أن يجد الصلة التي يمكن أن تربطه بهذا الشيء الكبير.. ولا يدرى ما هو السبب الذى يجمع كل هذه الجماهير حول الشيء الكبير.. إن الرئيس يتحدث عن موضوعات في اختصاصه.. سوريا.. الوحدة... الاشتراكية.. وكل هذا ليس في اختصاصه هو.. إن كل اختصاصه الآن هو أن يبحث عن وظيفة.. أن يتخلص من هذا العبء الكبير الذى يشعر به منذ أن رأى طفله.

وعاد محمد ينظر إلى حلمي في دهشة.. ماذا يجد في كلام جمال عبدالناصر حتى يهتم به كل هذا الاهتمام؟.. وهز كتفيه.. ونكس رأسه.. وجلس يستمع بأذنين سارحتين.. والكلمات تصل إليه مجرد ضجيج.

وتوفيق جالس مسترخيا فوق الأريكة العريضة.. وعلى شفتيه ابتسامة صغيرة يعكس فيها كل ذكائه.. كأنه يعرف مقدما ما سيقوله جمال عبدالناصر.. ويعرف أن ما يقوله جمال لن يغير شيئا من الحياة.. إن الحياة شيء، وخطب الزعماء شيء آخر.. ورفع عينيه إلى حلمي وهو جالس وعنقه ممدود إلى جهاز الراديو.. وهز رأسه في اشفاق.. هذا المغفل الكبير، إنه لا يعرف ما هى الحياة؟ إنه واحد من ملايين المخدوعين بالمبادىء والشعارات السياسية.

وارتفع صوت جمال عبدالناصر قائلا :

« لقد وقعنا فى خطأ كبير هو عدم كفاية التنظيم الشعبى.. لقد كانت وسيلتنا إلى التنظيم الشعبى هى تكوين الاتحاد القومى.. وكان خطؤنا إننا فتحنا طريق الاتحاد القومى أمام قوى الرجعية.. وكانت نتيجة هذا الخطأ أن الرجعية التى تسللت إلى الاتحاد القومى تمكنت من شل فاعليته الثورية وحولته إلى مجرد واجهة تنظيمية لا تحكمها قوى الجماهير.. ومن هنا فإن أهم ما يواجهنا هو إعادة التنظيم الشعبى ليكون الاتحاد القومى أداة ثورية للجماهير الوطنية وحدها.. لابد أن يكون الاتحاد القومى للعمال والفلاحين، وللمثقفين، ولأصحاب المهن والملاك الذين لا تقوم ملكيتهم على الاستغلال.. لأصحاب الثورة الحقيقية ولحماتها والمدافعين عنها.. للذين تحقق الاشتراكية آمالهم.. أصحاب الحق.. وأصحاب الأمل.. وأصحاب المستقبل ».

وخفق قلب حلمى بشدة.. أحس كأن الرئيس يتكلم بلسانه.. أحس كأنه هو الذى يتكلم.. هو الذى يخطب فى الجماهير.. أحس كأنه يعيش فى ثياب جمال عبدالناصر.. وانطلق صائحا :

– سامع يا توفيق ؟ نفس الكلام اللى كنا بنقوله.. الريس حاسس بكل حاجة.. وعارف كل حاجة.

وقال توفيق فى تكاسل وبين شفتيه ابتسامته الصغيرة :

– ولما هو عارف كل حاجة.. كان عمل الاتحاد القومى ليه ؟

وقال حلمى بحماس :

– كانت تجربة لازم نمر بيها.. والريس النهاردة بيعلن إن التجربة ما نجحتش.. إنتهى دورها.. أنا نفسى ماكنتش فاهم الاتحاد القومى.. إنما كنت مؤمن بيه.. كنت مؤمن بأن الطبقات كلها يمكن إنها تتعاون مع بعض.. إنما ثبت إنه مستحيل.. مستحيل أن التقدمية تتعاون مع الرجعية.. وما عرفتش كدة إلا لما رحت بنفسى الاتحاد القومى علشان أعرض موضوع مصنع النسيج.

وقال توفيق فى تأفف :

– وحياة أبوك ما تجبش سيرة الرجعية دى.. الأول قلتم إن الرجعية هى الباشوات.. شيلنا الباشوات.. وبعدين قلتم إن الرجعية

هى أصحاب الأرض.. وأخدتم الأرض.. ولسة بتقولوا الرجعية.. و..
وقاطعه حلمى قائلا :
- الرجعية يعنى حضرتك.. كل واحد يشتغل من غير إيمان بالثورة.. يبقى رجعى.. حتى ولو كان عبقرى.
وقال توفيق فى تحد :
- يا سلام يا سيدى.. شيلوا بأه كل اللى بيعرف يشتغل، وقولوا عليه رجعى.. يا حبيبى، مافيش حاجة اسمها مؤمن وغير مؤمن.. إنما فيه واحد بيعرف يشتغل وواحد ما يعرفش.
وقال حلمى :
- لأ.. مش كل اللى بيشتغلوا زيك كدة.
وقال توفيق :
- إذا كنت بتقصد نفسك.. فإنت نشاز.. وإنت خدت على دماغك واتشردت.. لأنك نشاز بين الناس.. راجل عايش فى أحلام.
وقال حلمى :
- طيب اسكت.. خلينا نسمع.
واستمر توفيق يناقش فى إصرار :
- ودلوقتى بتقولوا إن العمال والفلاحين هم اللى حايحموا الثورة.. ده أنا أشترى أى عامل أو فلاح بتلاتة تعريفة.. مش هم دول اللى انتخبوا فؤاد سراج الدين.. وعباس حليم.. مدى الحياة.
ونظر إليه حلمى بعينين غاضبتين، وقال :
- إذا كنت تقدر تشترى عامل أو فلاح.. ماتقدرش تشترى كل العمال أو الفلاحين.. وإذا كانت القيادات العمالية انحرفت فى الماضى، فلأن الظروف كانت بتضطرها للانحراف المؤقت.. إنما مين اللى قام بالحركة الوطنية كلها.. مين اللى جاهد وضحى علشان البلد.. الشارع.. والباشوات والبهوات واللى زى حضرتك ماكانوش بينزلوا الشارع.. الشارع هم العمال والفلاحين.. وإذا كان فيه ناس حايستفيدوا من الثورة دى فهم العمال والفلاحين.
وفتح توفيق فمه ليتكلم.. فصرخ فيه حلمى :
- اسكت.. عايز أسمع.

واستطرد جمال عبدالناصر فى خطابه :

«.. لقد استطاعت عوامل كثيرة فى مجتمعنا أن تفتح ثغرات للانتهازية.. وقد كان الثمن الذى دفعناه غاليا كبيرا، فإن بعض العناصر المؤمنة وجدت نفسها مرغمة على اتخاذ موقف سلبى من حركة النضال الشعبى، أو لم تجد الموقع الذى تستطيع أن تقف فيه، وتسهم بإخلاص فى توجيه نضال الشعب.. ولابد لنا الآن من عملية تقييم كاملة تعيد صياغة مثل المجتمع وأخلاقه على نحو أكثر اندفاعا وأشد عمقا.. إن النضال الشعبى فى حاجة إلى مزيد من القوى الشعبية، والثورة الشعبية فى حاجة إلى مزيد من الثورة الإشتراكية.. والحرية السياسية والاجتماعية لا يصونها ولا يدعمها غير مزيد من الحرية السياسية، والحرية الاجتماعية..»

وفتح حلمى فمه من الدهشة. كأنه لا يصدق أذنيه.

. إن الرئيس يتحدث عنه شخصيا.

إنه هو الذى اتخذ موقفا سلبيا من حركة النضال الشعبى.. هو الذى لم يستطع أن يجد الموقع الذى يستطيع أن يقف فيه ويسهم بإخلاص فى توجيه النضال الشعبى.. هو الذى عجز عن انقاذ مصنع النسيج قبل أن يقع وقد كان يعتقد أن كل هذا بسبب عجزه وحده.. بسبب ضعفه، بسبب حيرته.. ولكن الرئيس يقول له إن السبب هو الثغرات الاجتماعية التى تسلل منها الانتهازيون.. السبب هو أن المجتمع كله فى حاجة إلى تقييم جديد، أكثر اندفاعا، وأكثر عمقا.. فى حاجة إلى مزيد من القوى الشعبية، ومزيد من الثورة.. إنه ليس عاجزا.. وليس ضعيفا.. والرئيس يحس به.. يحس بمشكلته.. إنه يكاد يعرفه شخصيا.. ويعرف كل الثوار المؤمنين الذين اضطروا إلى أن يتخذوا موقفا سلبيا من معركة النضال الشعبى.. يعرفهم.. ويعذرهم.. ويحس بأزمتهم.. ويفكر لهم ومعهم، ليخلق من المجتمع، مجتمع ثوار.. ثوار مؤمنين.

وشعر حلمى بالقوة.. قوة عارمة تملأ صدره، وتسرى فى أعصابه، والتفت إلى توفيق قائلا :

- الريس بيتكلم عن الانتهازيين.. سامع ؟

وقال توفيق :

- يعنى إيه انتهازية؟ فاهمنى.. انتهازية يعنى إيه؟ يعنى الواحد لما يلاقى فرصة قدامه.. وينتهزها.. يبقى اسمه انتهازى.. وخائن.. ومنحرف؟ طيب لما يلاقى فرصة ولا يستغلهاش يبقى اسمه إيه ؟ مش يبقى اسمه مغفل.. وحمار ؟

وقال حلمى ساخرا :

- لأ يا توفيق.. ما حدش قال لك ما تستغلش الفرص اللى تلاقيها.. إنما يوم ما تستغلها على حساب مصلحة البلد، ولا على حساب زملاءك. يبقى اسمك انتهازى.. يعنى يوم ما تلاقى فرصة تدخل الاتحاد القومى، وإنت مش مؤمن بالثورة ولا بالاتحاد القومى يبقى اسمك انتهازى.. يوم ما تاخد ترقية لأنك نافقت رئيسك، يبقى اسمك انتهازى.

ومحمد ينظر إلى حلمى وتوفيق فى بلاهة صامتة، كأنه لا يفهم لماذا يضيعان وقتهما فى هذا الكلام.

وقال توفيق :

- أنا ما أفهمش الكلام ده.. أنا أفهم إن فيه واحد شاطر، وواحد خايب.. وبس.

وقال حلمى :

- المسألة مش مسألة واحد وواحد.. مش مسألة أفراد.. مسألة مجتمع.. الثورة مش بتقوم علشان الناس الشطار.. بتقوم علشان الناس كلهم.. والشاطر لازم يخدم بشطارته الناس كلهم.. ولما يخدم نفسه وبس يروح فى داهية.. وأحب أقول لك إن كل اللى بيفكروا زيك كدة، حايروحوا فى داهية.. أنا متأكد إن كل حاجة حاتتغير.

وقال توفيق وبين شفتيه ابتسامة مرة :

- ابقى قابلنى.

وقال حلمى :

- فعلا.. حاأقابلك.. ولغاية ما أقابلك، اسكت.. خلينا نسمع، وقال محمد وصوته الرفيع منهك :

- أنا مش فاهم إنتم تاعبين نفسكم ليه.. بتتخانقوا ليه.. ما كل حاجة ماشية كويس.

وقال حلمى :

- اسكت يا محمد.. عايز أسمع بقية الخطبة.

وألقى حلمى أذنيه إلى صوت جمال.. كأنه يشرب منه بأذنيه.. وكل كلمة يقولها جمال يحس بها فى داخل صدره.. كأن جمال يتحدث من داخله.. إن جمال يتحدث عن أخطاء الثورة.. الأخطاء التى يرددها كل الناس، وكان يعتقد أن لا الرئيس ولا أحد من رجال الحكومة يعرفها أو يهتم بها.. الأخطاء التى تمنى فى كل يوم من أيامه أن يعرفها جمال وأن يتغلب عليها.. إن جمال يعرفها.. يعرفها منذ وقعت، وربما قبل أن تقع.. يعرفها كما يعرفها كل ثورى.. إن جمال لم ينعزل أبدا عن الثوار.. عن الناس.. عن الشارع.. لم ينعزل عن الأخطاء الكثيرة التى تقع.

وهو اليوم يتحدث عنها بصراحة.. إنه لا يخفى شيئا.. إنه لا ينزه الثورة عن أخطائها، بل يعترف للثورة بأخطائها.

وفجأة.

سمع جمال يتحدث عن حادث المصنع.. المصنع الذى وقع.. إنه يروى القصة كلها للناس.. بصراحة.. بالتفصيل.. ويعلن أن مدير الشركة قد قبض عليه.. إنه يعتبر وقوع المصنع جريمة وطنية يعاقب عليها، كجريمة الخيانة.

وانطلقت الدماء تزغرد على وجه حلمى.

أحس بنفسه يرتعش من الزهبة.

إن جمال يعرف.

يعرف كل شىء.

والتفت إلى صديقيه وصاح :

- سامعين؟ الريس بيتكلم عن المصنع.. ده عارف كل حاجة.

ونظر إليه محمد وابتسم.. ابتسم لفرحة صديقه، لا لما يقوله الرئيس.

وضحك توفيق ضحكة متخاذلة، وقال :

- والله بقيت بطل يا عم.

ونظر إليه حلمى كأنه يلومه :

- أنا مش بطل.. أنا ما عملتش حاجة.. لو كنت عرفت أعمل حاجة، ما كانش المصنع وقع.. إنما من هنا ورايح حاعمل كتير.. اسكت دلوقت.

وعاد حلمى يمد عنقه نحو الراديو.. وحاجباه معقدان فوق عينيه، كأنه يشد بهما كل حواسه ليحصرها فى أذنيه.. إنه يرى الرئيس بأذنيه.. ويلمسه بأذنيه.. ويشمه بأذنيه.

وتوفيق مستلق على الأريكة العريضة فى استرخاء.. وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة.. وفى سخريته كثير من الغرور، وكثير من الاطمئنان.. إنه مغرور بذكائه.. مطمئن إلى طريقته فى الحياة.. مهما حدث.. ومهما تطورت الثورة.. ومهما قال جمال عبدالناصر.. فهو مطمئن.. وطريقته فى الحياة لا تخيب.

ومحمد جالس ورأسه المنهك ملقى على صدره.. ويرفع عينيه بين الحين والحين إلى حلمى كأنه يتشبث به.. كأنه يتطلع إلى عالم غريب عنه.. ويحاول أن يفهم لماذا يهتم كل هؤلاء الناس بخطاب جمال عبدالناصر.. وما حاجتهم للاهتمام؟ إن هناك أشياء كثيرة يحاول أن يفهمها.. أشياء تتكشف أمامه فى هذا العالم الغريب.. وضجيج الجماهير يملأ رأسه.. ويحس بالعجز، والخوف.. العجز أمام العالم الغريب.. والخوف من ألا يفهم.

وإنتهى خطاب الرئيس.

وانطلق التصفيق والهتاف من الراديو.

وقام محمد واقفا يصفق بيديه، ويردد من خلال ابتسامة كبيرة تملأ وجهه :

- برافو.. برافو.

ولم يكن يصفق لأنه فهم.. أنه يشعر بأنه لم يفهم.. ولكنه

يصفق لأنه يحب جمال.. ولأن الناس الذين يحبون جمال يصفقون.

وقام حلمى من جانب الراديو، قائلا :

- أنا حاسس إن فيه حاجات كتيرة حاتحصل.. الخطبة خطيرة.. ماكانش ممكن الريس يتكلم بالشكل ده إلا وهو ناوى يعمل حاجة.. متهيألى كل المجتمع حايتغير.. داخلين على دنيا جديدة.

وقال توفيق وهو يعتدل جالسا :

- طيب قبل ما نخش الدنيا الجديدة.. مش يصح نتعشى ؟

وابتسم حلمى، وقال فى مرح :

- مش كفاية نتعشى.. لازم نحتفل.

وقال توفيق :

- نحتفل فى مطعم الأنيون.. إيه رأيك ؟

وقال محمد :

- ونشرب ويسكى.

وقال توفيق :

- موافق.

ودخل حلمى إلى حجرة النوم ليلبس حذاءه.. وعقله لا يزال مشغولا بخطاب الرئيس.. إن الرئيس يعلم بقصة المصنع.. ولكن.. لماذا لم يعلم بها قبل أن يقع المصنع.. ربما كان يعلم بها.. ولكن المشكلة فى ذهنه لم تكن مجرد مشكلة شركة تغش.. ولكنها كانت مشكلة العوامل التى تدفع الشركات إلى الغش.. مشكلة الكيان الاجتماعى كله.. وكان الحل فى تفكيره هو تعديل هذا الكيان، بحيث يصبح المجتمع قادرا على منع الغش قبل وقوعه.. بحيث يجد الناس منافذ إلى أصحاب الضمائر الخربة ليقضوا عليها.

ربما.

ولبس حلمى حذاءه.

وخرج الأصدقاء الثلاثة إلى الشارع.

●●●

واستيقظ حلمى فى اليوم التالى على صوت رنين جرس الباب، يدق بشدة دقات متتالية.

وفتح.
وانطلق زميله في الشركة المهندس رحمي صائحا :
– إنت لسة نايم.. والشركة كلها مقلوبة عليك ؟
وقال حلمي وهو يهز رموشه لينفض النوم من عينيه :
– خير ؟ حصل إيه ؟
وصرخ رحمي :
– الشركة اتأممت.
وانفتحت عينا حلمي من الدهشة، وقال :
– صحيح ؟
وعاد رحمي يصرخ :
– صحيح ونص.. وتعرف إيه كمان.
وقال حلمي :
– إيه ؟
وهجم رحمي على حلمي يحتضنه بين ذراعيه وهو يصيح :
– حضرتك بقيت عضو مجلس إدارة الشركة.
وهمس حلمي في صوت مبحوح وهو مستسلم لذراع زميله :
– مش معقول !
وقال رحمي وهو يرفع عنه ذراعيه :
– ده معقول قوي.. اتعينت بقرار جمهوري.
وظل حلمي ساكتا.. عيناه سارحتان.. ووجهه صامت.
وقال رحمي كأنه يهزه من دهشته :
– يسمح حضرة عضـو مجلس الإدارة يلبس هدومه.. ويتفضل معايا.
وابتسم حلمي ابتسامة صغيرة.. وسار كالمبهوت إلى الحمام.



مـضـى شهـر توالت فيـه الأحـداث الكبيـرة التى أعقـبت خطاب جمال عـبدالناصر.. صـدرت القوانين الاشـتراكـيـة. أممت أغلبـيـة الشركـات، ومن بينهـا شـركـات المـقـاولات.. وتـقـرر اشـتـراك العـمـال والموظفين فى مجـالس الإدارة.. وتوزيع نسبة من الأرباح عليهم.. و..

وحلمى يحس بأن الثـورة تسـبـقه.. تسـبق تفكيـره.. وتسـبق قدرته.. فيحاول أن يجـرى بفكره وراء الثورة، ويحاول أن يبذل من قدرته حتى يلحق بها.. وكل قانون يصدر يفاجأ به.. يذهل.. وتوالى المفاجـآت أقنعه بأنه لم يعد هناك شىء مـستحيل.. لم تعـد الحياة أحلامـا.. الأحلام أصبحت حـقائق.. ولم تعد الأفكار الثورية مـجرد نظريات.. النظريات أصبحت قوانيـن.. والقوانين تصنع الحياة.. إنه الآن يسـتطيع أن يتـمادى فى أحـلامـه.. فى ثورته.. ويسـتطيع أن يصنع من هذه الأحلام ومن هذه الثـورة دنيا يعيش فيـها، ويعيش فيها زملاؤه.

ولا عذر له.

إنه لا يسـتطيع أن يحـتج بأخطاء الثـورة.. لا يسـتطيع أن يلوم القوانيـن.. ولا يستطيع أن يلوم الاتحـاد القومى.. ليس هناك مـبرر لأن يضعف من جديد.. ليـس هناك مبرر لأن يقف موقفـا سلبيا من الحياة.. يجب أن يعمل.. بكل قواه.. بكل إيمانه.

وقد عين فى الشركة مساعـدا للمدير العام، بجانب عضويته فى

مـجلس الإدارة.. وأصـبح له مكتب وحـده.. وتليـفـون له وحـده.. وابتسم وهو يجلس إلى مكتبه الجـديد لأول مرة.. تذكر توفيق.. إن توفيق يجلس هو الآخر فى مكتب وحـده.. وتليفون له وحده.. رغم التباعد الكبير بينه وبين توفـيق.. كل منهما سار فى طريق.. توفيق يسير فى طريق الانتهـازية.. وهو قد سار فى طريق الثورة.. طريق الإيمـان.. والنهايـة واحدة.. كل منهـمـا له مكتب خـاص وتليفـون خـاص.. هل الحيـاة للثـوار والانتـهازيين مـعـا.. لا.. لا يمكن.. إن الانتهازيين لا يأخذون إلا مظاهر الحياة.. مظاهر لا تبقى ولا تدوم.. والحياة لن تبقى ولن تدوم إلا للثوار.

وأصـبح حلمى يقضى عـمره كـله فى مكتبـه.. وأشـاع نشـاطه، نشاطا حارا فى الشركة كلها.. كل مهندس من زملائه، وكل موظف، يحاول أن يجـرى معه.. وكلهم يحبـونه.. كلهم تذوقوا طعمـا جديدا للعمل.. العمل ليس عبـثا.. العمل متعة.. العمل ضـحكات كبيرة.. من القلب.

ولم يكن حلمى يحرص على الانتاج وحده.. كان يحرص على أن يحمى الانتاج من الانحراف.. من الرشوة.. من الغش.. من التهاون.

من الذى يستطيع أن يحمى الانتاج.. ليس أعضـاء مجلس الإدارة وحـدهـم.. ولكنها القـاعدة التى تضـم المهندسـين والموظفـين.. لو أصـبحت هـذه القاعـدة صلبـة لاستـطاعت أن تحمى الـشركـة من انحراف أعضاء مجلس الإدارة.. واسـتطاعت أن تصد كل محاولات الغش والتزييف.. إن مجلس الإدارة، والمدير، لا يستطيعان شيئا إلا عن طريق القاعدة.. إن القاعـدة هى أداة التنفيذ.. هذه الأداة يجب أن تحمل المسئولية.. يجب أن تتطهر.. يجب أن تشترك فى الثورة.

واتخذ حلمى قرارا بأن يعرض كل أسرار الشركة على القاعدة.. على المـهندسين والـموظفـين والعمـال.. وأصـبح يجتـمع بهم كل أسـبوع مـرة.. فى اجتـمـاع عـام ويعرض عليـهم أسرار الانتـاج.. ويستمع إلى رأيهم.. ويحملهم المسئولية.

وكان يعـرف أن بين المهندسين والعـمال انتهازيين.. منافـقين

كصديقه توفيق، يستطيع كل منهم أن يعيش وراء ابتسامة زائفة، وأن يبدل ضميره كما يبدل جواربه.. واكتشف أن الانتهازية والنفاق كالهواء لا نستطيع أن نمسك به.. ولا نستطيع أن نحدده.. وليس هناك قانون يمكن أن يطبق على الانتهازيين والمنافقين.. ولكنه لم ييأس.. إن الانتهازية لا تتنفس إلا فى جو من ضعف الرؤساء.. فلو استطاع الرؤساء أن يتخلصوا من ضعفهم.. أن يتحصنوا من الذين يتملقون غرورهم.. لن تجد الانتهازية جوا تتنفس فيه.. ولن يستطيع الرؤساء أن يتحصنوا من ضعفهم إلا خلف قاعدة شعبية صلبة.. إلا خلف وعى المهندسين والموظفين والعمال.. وبعدها ستذبل الانتهازية.. ستموت.

ودق جرس التليفون الخاص فى مكتب حلمى.

ورفع السماعة.

وفوجىء بصوت تحية.. أحس فى لحظة واحدة بأنه عاد عشرات السنين إلى الوراء.. أحس كأنه تذكر فجأة أيام أن كان مريضا مرضا خطيرا.. شفى منه.. وقال وهو يتنهد كأنه يحمد الله على شفائه :

– أهلا.

وقالت تحية فى بساطة وانطلاق كأن الأيام لم تمر بينهما، كأن شيئا لم يتغير :

– مبروك يا حلمى.. أنا ماسمعتش إلا من يومين إنك بقيت عضو مجلس إدارة.

وقال حلمى فى وقار، وهو يخفى ابتسامته من لهجته:

– الله يبارك فيكى، متشكر..

واستطردت تحية قائلة :

– ونازك مرات رحمى.. قالت لى إنك بقيت حاجة كبيرة خالص.. وهى اللى ادتنى نمرة تليفونك.

وقال حلمى وهو متمسك بوقاره :

– وإنتى إزيك.

وقالت تحية :
- أنا فرحانة قوى يا حلمى.. على قد ما كنت زعلانة منك.
وقال حلمى وهو يغالى فى وقاره :
- أنا آسف إذا كنت زعلتك.
وقالت تحية فى انطلاق :
- لازم تكون آسف.. إنما أنا لسة مانستتش زعلى.
وقال حلمى :
- لازم تكونى نسيتى.
وقالت تحية فى دلال :
- أبدا وحياتك يا حلمى.. لسة مانستتش.. ومش ممكن أنسى.. وماكنتش حاكلمك لولا فرحتى بيك.
وقال حلمى وهو أشد وقارا :
- كل حاجة راحت دلوقت يا تحية.
وقالت تحية فى حدة :
- لأ.. مافيش حاجة راحت.. إذا كان من السهل عليك إنك تنسى.. أنا مش ممكن أنسى.. اللى كان بينا ماكانش شوية يا حلمى.
وسكت حلمى.
وعادت تحية بعد برهة :
- أنا مش فاضية دلوقت.. تحب أكلمك بعدين ؟
وقال حلمى كأنه يتحدى ضعفه الماضى :
- إنتى عارفة إن التليفون ده بتاع شغل.
وقالت تحية بصوت مبحوح :
- يعنى مش عايزنى أكلمك ؟
وسكت حلمى.. لم يرد.
وقالت تحية فى غيظ :
- طبعا.. حضرتك دلوقت عضو مجلس إدارة.. وشخص مهم.. وما يصحش أكلمك.. مش كدة؟ على كل حال أحب أقول لك إنك

حتى لو بقيت وزير، مش حاكلمك.. بس ماتنساش إنك كنت بتبوس إيدى علشان أتجوزك.. وأنا اللى مارضتش.

وقال حلمى فى هدوء :

– يا تحية هانم.. الكلام ده مالوش لزوم دلوقت.

وقالت تحية فى عصبية :

– باى.. باى.. أنا كنت غلطانة إنى كلمتك.

وقال حلمى :

– أنا.. و..

وقاطعته تحية فى حدة كأنها على وشك البكاء :

– باى.. باى.

وسمع صوت سماعة التليفون تلقى فى وجهه.

وابتسم حلمى.

أحس بأن ضعفه قد هرب منه.. أحس بأنه هزم ضعفه.. لا.. لم يهزمه، لأنه لم يعد موجودا.. لم يعد ضعيفا.

ووضع سماعة التليفون.

وانحنى على الأوراق التى أمامه، كأن شيئا لم يحدث.. كأن تحية لم تكن فى حياته.

●●●

ولم يهتز توفيق لصدور القوانين الاشتراكية.. لم يخف على نفسه، ولا على مستقبله.. ولم يفكر فى تغيير أسلوبه فى الحياة.. إنه مؤمن بهذا الأسلوب.. مؤمن بأنه الأسلوب الوحيد للحياة.. أسلوب يعتمد على البحث عن مركز القوة، ثم الاعتماد عليه.. وقد كان مركز القوة فى الشركة قبل التأميم، هو صاحبها.. فوصل إليه، وعرف كيف يرضيه ويتملقه، ويخدمه.. ثم أصبح مركز القوة بعد التأميم هو العضو المنتدب، فعرف كيف يصل إليه ويرضيه.. ثم خيل إليه أن مركز القوة هو النصاب الذى ادعى إنه ضابط المخابرات، فعرف أيضا كيف يصل إليه ويستفيد منه.

والآن.. بعد القوانين الاشتركية.. أين مركز القوة؟

إنهم الموظفون والعمال.

القاعدة التى يستطيع أن يقف عليها ويضغط بها على مدير الشركة، وعلى مجلس الإدارة.

وبدأ توفيق يخصص ثلاثة أرباع وقته وجهده لخدمة موظفى الشركة وعمالها.. وكانت الخدمات فى نظره لا يمكن أن تكون إلا خدمات شخصية.. إن الخدمات العامة قد تصلح للكلام.. لإلقاء خطاب فى جمع انتخابى.. إنك تستطيع أن تعد الناس بتعديل قانون الإدخار مثلا.. فيصفقون لك، ولكنهم لا يجرون وراءك، ولا يتعلقون بك.. ولكنك إذا وعدتهم واحدا واحدا بعلاوة أو بترقية، أو بإضافة مدة خدمة.. أصبحوا ملكك.. أصبحوا أنصارك.. أصبحوا شلتك.

وبدأ توفيق يبحث حالة مهندسى وعمال الشركة واحدا واحدا.. ويذهب لكل واحد منهم ويثير مشكلته أمامه، ويعاهده على أن يحلها له.. والذى ليس له مشكلة، يخلق له مشكلة ويقنعه بحلها.. أصبح كل همه هو إثارة الأطماع الشخصية فى نفوس زملائه.. ثم مطالبة المدير بتحقيق هذه الأطماع.. ولم يكن يطالب بها تحديا للمدير، ولم يكن يقف موقف العداء أمام مجلس الإدارة.. بالعكس.. إنه أذكى من ذلك بكثير.. إن كل ما يريده هو أن يقنع المدير بأنه رجل قوى فى الشركة.. ويستمد قوته من ثقة العمال والموظفين.. ولا يريد أكثر من ذلك.. لا يريد أن يتحدى المدير، بل يريد أن يتعاون مع المدير.

ووضع توفيق أكثر اعتماده فى خطته الجديدة، على شلة الساخطين فى الشركة.. فى كل شركة شلة من الساخطين، وهم عادة الفاشلون.. وكان توفيق يعلم أنهم فاشلون، ويعلم أنهم ملوثون.. ضمائرهم ملوثة، وأيديهم ملوثة.. ولكن هؤلاء الساخطين هم دائما وقود الإثارة داخل الشركة.. وهم دائما أنشط الناس فى توجيه المطالب الجماعية.. إنهم يجيدون الكذب.. ويجيدون التهويش.. ويجيدون صناعة الكلمات الضخمة.. فلماذا لا يعتمد عليهم؟ إنه يحتقرهم فى قرارة نفسه، ولكنه يستطيع أن يستفيد منهم.

وفتح توفيق مكتبه للساخطين.
واستدعاه المدير إليه وقال له وهو ينظر إليه فى حيرة:
– الحقيقة ياباشمهندس أنا سمعت عنك كتير.. واللى سمعته مش فى صالحك.. إنما بعد ما قريت مشروع تنظيم الشركة اللى قدمته، ابتديت أغير رأيى.. أنا اقتنعت فعلا بالمشروع ده.
وقال توفيق وابتسامته ترفع شاربه وتلصقه بأنفه :
– يا افندم ده اقتراح مش مشروع.. اللى يضع المشروع سيادتك.
وقال المدير :
– على كل حال أنا حاشيل منه حاجات وأزود حاجات، قبل ما أعرضه على مجلس الإدارة.
وابتسم توفيق بينه وبين نفسه.. إن كل من عمل معهم. قالوا هذا الكلام.. أخذوا أفكاره ونسبوها لأنفسهم.. وقال فى أدب مفتعل:
– طبعا يا أفندم.. طبعا.
وعاد المدير يقول وهو ينظر إلى توفيق بعينين ثاقبتين :
– بس أنا شايف إن مطالب زملاءك اللى إنت مقدمها، كتير قوى.. دى حاتكلف الشركة أكتر من عشرة آلاف جنيه فى السنة.
وقال توفيق :
– يا أفندم أنا باشوف إننا نبدأ العهد الجديد، بتصفية المشاكل دى مرة واحدة، ثم إن بعد القوانين الاشتراكية أصبح خمسة وعشرين فى المائة من الربح من نصيب الموظفين، يعنى أى مصاريف حاتزيد حايتخصم ربعها من أرباحهم آخر السنة.
وقال المدير وقد لمعت عيناه فى إصرار :
– بس إحنا مسئولين عن زيادة أرباح السنة دى عن السنة اللى فاتت.. ولازم تزيد.
وقال توفيق :
– ما هو لما نحل المشاكل دى.. الناس حاتشتغل كويس، وتزيد الأرباح.. ثم إن الجرايد حاتكتب عن العلاوات اللى تمنحها الشركة..

ونبقى أول شركة قدرت تفيد العمال بعد القوانين الاشتراكية.

وقال المدير بعد تفكير :

- لك حق.. أنا حاعرض الموضوع ده على مجلس الإدارة.

وقال توفيق فرحا :

- متشكر يا افندم.. أنا حابلغهم دلوقت إن سيادتك وافقت على جميع مطالبهم.

وقام ليخرج.. عاجله المدير قائلا :

- وعلى فكرة.. أنا باشوف إنك تنقل مكتبك فى الأودة اللى جنبى.. أنا حاحتاج لك كتير.

وقال توفيق والفرحة تزغرد فوق وجنتيه :

- ده شرف كبير يا افندم.

وخرج وذكاؤه يضحك فى رأسه.

لقد كسب الموظفين والعمال.

وكسب المدير.

●●●

واستطاع حلمى أن يعين محمد فى وظيفة صغيرة بالشركة.. مساعد رسام.. بمرتب خمسة عشر جنيها فى الشهر.

وأقبل محمد على الوظيفة فى خوف.. خائف من الدنيا الغريبة التى يدخلها لأول مرة.. وخوفه يجعله يغالى فى التمسك بالنظام الموضوع للموظفين.. تقمص بسرعة شخصية الموظف القديم الرعديد.. يذهب إلى الشركة وهو مرتد حلته كاملة.. ويحرص على أن يكون فى مكتبه فى الساعة الثامنة بالضبط، ويخرج فى الساعة الثامنة بالضبط.. وينحنى أمام رؤسائه كأنهم أسياده.. وأصبح يعامل صديقه حلمى - أثناء العمل - كرئيس لا كصديق.. ولم يجرؤ يوما أن يذهب إليه فى مكتبه. ولم يجرؤ على أن يتحدث عنه أمام زملائه.. إن حلمى أصبح فى نظره إنسانا كبيرا خطيرا.. أكبر من الصداقة.. وأكبر من أن يقف بجانبه ورأسه بجانب رأسه.. ورغم ذلك فقد كان محمد يستطيع أن يتحرر من شخصية الموظف القديم

الرعديد عندما يذهب كل مساء ويلتقى بصديقيه حلمى وتوفيق فى مقهى عرابى.. كان يعود إليه إحساسه بأنه واحد من ثلاثة.. صديق.. ولكنه كان دائما إحساسا مقيدا.. ليس إحساسه القديم.. ليس محمد المنطلق الضاحك اللامبالى.. حتى إذا عاد إلى الشركة فى اليوم التالى، عادت إليه شخصية الموظف القديم الرعديد، وعاد حلمى فى نظره شيئا خطيرا، لا يجرؤ أن يقف بجانبه على قدم المساواة.

وذهب إليه حلمى فى الحجرة التى يجلس فيها بين عدد كبير من زملائه.. صغار موظفى الشركة.. وانتفض جميع الزملاء وقوفا عندما دخل حلمى.. وانتفض معهم محمد.. وقف وهو يضم أطراف سترته، ويبتلع ريقه، ووجهه مزدرد، وصافح حلمى الزملاء واحدا واحدا، وجلسوا بعد مصافحته، وظل محمد واقفا.. ووضع حلمى يده على كتفه، وقال وهو يبتسم له ابتسامة كبيرة :

– اقعد يا محمد.

وقال محمد فى لهجة الموظف الرعديد :

– العفو يا أفندم.

وقال حلمى وهو ينظر إليه فى دهشة :

– أقعد يا أخى.. إنت ناسى إنك صاحبى.

وقال محمد ووجهه لا يزال مزدردا :

– العفو يا أفندم.

واشتدت الدهشة فى عينى حلمى.. وقال بسرعة، ودهشته تتحول إلى إشفاق :

– استنانى على باب الشركة بعد الشغل، علشان نروح لسناء سوا.

وقال محمد دون أن يغير من لهجة الموظف الرعديد :

– حاضر.

وتركه حلمى بسرعة كأنه يهرب من موقف حرج، وعاد محمد يجلس على مقعده وهو يتنهد كأنه اجتاز موقفا خطيرا.

وانتظر حلمى على باب الشركة.. وذهبا سويا إلى سناء.. وقد تخفف محمد بعض الشيء من شخصية الموظف الرعديد بعد خروجه من الشركة، ولكنه لا يزال مقيدا، كأن حول صدره سلاسل من الحديد تمنعه من الانطلاق.. انطلاق روحه.. وانطلاق ابتسامته.. وانطلاق شخصيته..

وكانت سناء قد عادت إلى البنسيون وحملت معها طفلها.. واستقبلت حلمى ومحمد فرحة.. ابتسامة مرحة على شفتيها.. ولمعة قوية فى عينيها.. كأنها برئت من كل مشاكلها.. وبرئت من الحب.. واطمأنت إلى مستقبل ابنها.. ومستقبلها.

وقال حلمى وهو يجلس على حافة الفراش فى غرفتها، ويتعمد أن يكون مرحا هو الآخر :

- أنا خلاص.. اتخذت قرار خطير.. لازم ترجعى لمحمد.

ونظرت سناء بسرعة إلى محمد، وهو جالس على المقعد محنى الرأس، مهدما، وخصلة شعره مدلاة فوق جبينه كمنديل أسود يجفف به دموعه.. ثم قالت :

- مافيش لازمة للموضوع ده دلوقت يا حلمى.. أنا خلاص.. قررت إنى أبدأ مستقبلى من جديد.. قررت إنى أتولد من جديد.

وقال حلمى فى حماس :

- بس محمد اتغير.. بأه إنسان مسئول.. واتوظف.

وقالت سناء :

- عارفة.. وإدانى خمستاشر جنيه علشان الولد.. بس هو ما اتغيرش.. والدليل على كدة إنه ساب التمثيل واتوظف.

وقال حلمى :

- بس يا سناء ماتنسيش إن...

وقاطعته سناء فى لهجة حازمة :

- بلاش الموضوع ده يا حلمى.. أى كلام فيه حايجرحنى، ويجرح محمد.

وسكت حلمى برهة.. وتنهد فى يأس.. ثم قال :

- والولد ؟

وأحنت سناء رأسها وقالت فى استسلام :

- أنا موافقة إنه يتربى عند عمته.. أنا حاشتغل وحافضل طول النهار والليل مشغولة فى المسرح.. مش حاقدر آخد بالى منه.

واندفعت وفى عينيها غشاء من الدموع وحملت طفلها واحتضنته بين ذراعيها، وجلست بجانب حلمى على حافة السرير وهى تضمه إلى صدرها.

ثم رفعت رأسها وقالت فى إصرار :

- بس على شرط.. أشوفه زى ما أنا عايزة.

ورفع محمد رأسه وقال بعد أن سكت طوال هذه الفترة :

- أختى موافقة إنها تربى أحمد مع ولادها.. بس مش موافقة إنك تيجى تشوفيه فى البيت.

وقال حلمى :

- مش مهم.. لما تحبى تشوفيه، قولى لمحمد وهو يجيبه لك.

وسكتت سناء.. وانحنت وطبعت قبلة صامتة على جبين طفلها.. وفى عينيها طبقة من الدموع.

وقام حلمى لينصرف.. وقام معه محمد..

وانحنى حلمى يقبل الطفل، ثم صافح سناء.

ونظر محمد فى وجه ابنه، وبين شفتيه ابتسامة حزينة.. ثم استدار ليخرج.. وصاحت وراءه سناء :

- محمد.

والتفت إليه بعينين متسائلتين.. وقال فى صوت متخاذل مبحوح:

- نعم.

وقالت سناء دون أن تبتسم :

- بوسنى.

والتفت محمد إلى حلمى.. ثم خطا نحو سناء خطوة مهزوزة.. وانحنى يقبلها قبلة سريعة فوق خدها.

وتعلقت سناء بعنقه، ووضعت خدها فوق خده، كأنها تريد أن تنام عليه.. ثم ابتعدت عنه بسرعة.. وقالت وهى تنظر إليه كأن حبها لا يزال فى عينيها :

– خد بالك من نفسك يا محمد.. وابقى خد بالك من ابننا.

واحنى محمد رأسه.

وخرج وهو منحنى الظهر، كأن ظهره يكاد يقع من فوق قامته الطويلة.

وعاد إلى حياته الجامدة.. كل شىء فيه تجمد.. وشخصية الموظف القديم الرعديد، تطغى عليه، وتدفن تحتها كل مواهبه.. تجمدت مواهبه أيضا.. لم يعد يحس بالاندفاع للتمثيل لم يعد يتردد على المسرح.. بل أصبح يتعمد ألا يمر فى الشارع الذى يقع فيه المسرح.. وشئ يؤلمه دائما.. لا يدرى ما هو؟ ولكنه دائما يحمل ألما فى صدره وهو مستسلم لهذا الألم كأنه قطعة منه.. لا يحاول أن يداويه.. ولا يحاول أن يبحث أسبابه.. كل ما يفعله أن يذهب كل مساء ويسكر فى إحدى الحانات الرخيصة.

وهو يعود من الشركة وينظر فى وجه ابنه كأنه يحاول أن يعرفه.. أن يعرف سر هذا المخلوق العجيب الذى دخل حياته فجأة.. ثم يتركه لأخته.. دون أن يسألها شيئا.. إنه لا يدرى شيئا.. لا يدرى ما يحتاجه الأطفال.. ولا يدرى كيف يعد الأطفال لمستقبلهم.. كل شىء تركه لأخته، وترك لها أيضا ايراده الخاص لتنفق منه على ابنه.. وفى كل يوم خميس يحمل ابنه ويذهب به إلى سناء، ويتركه لها، ثم ينزل وينتظر فى مقهى قريب، إلى أن تمر عليه سناء، وهى فى طريقها إلى المسرح، وتعيد إليه الطفل.. ليعود به إلى أخته.

وكل شئ فيه متجمد.

الحياة كلها متجمدة من حوله.

●●●

واجتمع الأصدقاء الثلاثة فى مقهى عرابى.

وقال توفيق وفرحته تنطلق فوق ابتسامته اللزجة، وهو ينظر إلى حلمى كأنه يشمت فيه :

– تعرف النهاردة حصل إيه؟ المدير نقل مكتبى جنب مكتبه.

وقال حلمى ساخرا :

– لازم علشان يراقبك.

وقال توفيق شامتا :

– لأ.. علشان محتاج لى.. وتأكد إنه محتاج لى بصحيح.. وكلها يومين وآخد ترقية جديدة.

وقال حلمى فى هدوء :

– مش ممكن.

وقال توفيق فى تحد :

– مش ممكن ليه ؟

وقال حلمى :

– لأن الدنيا اتغيرت.. الدنيا بقت اشتراكية.. وإنت مش اشتراكى.. ولا مؤمن بالاشتراكية.

وقال توفيق :

– أنا اشتراكى أكتر منك.. أنا اشتراكى عملى.. ولو عرفت الحاجات اللى عملتها للموظفين فى الشركة، تعرف إنى اشتراكى ونص.

وقال حلمى :

– مش مهم الحاجات اللى تعملها للموظفين.. المهم إنك إنسان خطر.. مستعد تكون اشتراكى.. ومستعد تبقى شيوعى.. وتبقى رأسمالى.. وتبقى صهيونى.. مستعد تبقى أى حاجة.. ومستعد تدبح الموظفين اللى خدمتهم، يوم ما تشوف من مصلحتك إنك تدبحهم.

وقال توفيق وقد اشتد فى تحديه :

– يا أخويا بلاش خطابة وكلام فاضى.. وإذا كنت فاكر إن من حقك تقول الكلام ده لأنك بقيت عضو مجلس إدارة، أحب أقول لك

إنى أنا كمان حابقى عضو فى مجلس الإدارة.
ونظر إليه حلمى فى جزع كأنه يخشى منه على الثورة، وقال :
– إزاى ؟
وقال توفيق :
– حارشح نفسى فى انتخابات مجلس الإدارة عن الموظفين.
وقال حلمى وهو يخبط على المائدة بقبضته :
– حاتسقط.. الموظفين عارفينك كويس.. الموظفين عينهم فتحت وعرفوا كل واحد على حقيقته.
وقال توفيق فى تحد :
– حانجح.. تراهن؟
وقال حلمى والثورة فى عينيه :
– أراهن.
وقال توفيق وهو يمد عنقه وينظر فى عينى حلمى متحديا :
– وتراهن إنى حانجح كمان فى انتخابات الاتحاد الاشتراكى ؟
وقال حلمى فى سخط :
– أراهن.
وظل ينظر إلى توفيق.. وفى عينيه تحد.. تحد للذين يحاولون السطو على كل خطوة تخطوها الثورة.. وفى عينيه جزع.. جزع على الثورة.. وفى عينيه تصميم.. تصميم على أن يستمر فى الطريق.. وقد عرفت أن الطريق طويل.. والمعركة لم تنته.
وارتفع صوت محمد رفيعا متخاذلا.. وقال :
– ماتزعلش نفسك يا حلمى.. ولا يهمك.

رقم الإيداع ٩٨/٥٩٠٣
الترقيم الدولى
I. S. B. N.
977 - 08 - 0745 - 1



طبع بمطابع أخبار اليوم